سماحة المرجع الديني آية الله العظمى
السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء الثالث عشر

سورة الفاتحة - سورة البقرة - سورة آل عمران

دار القارئ

بسم الله الرحمن الرحیم

من هدى القرآن

كاتب:

آیت الله سید محمد تقی مدرسی

نشرت فی الطباعة:

دار محبی الحسین (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

من هدی القرآن المجلد ۱۳

اشاره

سرشناسه:مدرسی، محمدتقی، - ۱۹۴۵

عنوان و نام پدیدآور:من هدی القرآن/ محمدتقی المدرسی

مشخصات نشر:تهران: دار محبی الحسین، ۱۳۷۷.

مشخصات ظاهری:ج ۱۸

شابک:ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸--۱۸
۱۸-۱۱۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-
۹۱۰-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷--۱۸ ؛ ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳

وضعیت فهرست نویسی:فهرستنویسی قبلی

یادداشت:عربی

یادداشت:کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر شده است

یادداشت:کتابنامه

موضوع:تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره:BP۹۸/م ۴م ۸ ۱۳۷۷

رده بندی دیویی:۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی:م ۷۷-۱۲۵۶۱

ص :۱

اشاره

سوره الدّخان

اشاره

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره

قال الامام أبو جعفر الباقر علیه السلام : «من أدمن قراءه سوره الدخان فی فرائضه و نوافله بعثه اللّه عز و جل من الآمنین یوم القیامه،و ظلله تحت عرشه،و حاسبه حسابا یسیرا،و أعطاه کتابه بیمینه».

تفسیر نور الثقلین/ج /۴ص ۶۱۹

الإطار العام

عبر(۵۹)آیه قصیره نسبیا تطالعنا سوره الدخان الکریمه بثلاث موضوعات أساسیه:لیله القدر،و الفتن الکبری،و صور عن الجزاء الأوفی فی الآخره.

ما هی العلاقه بین هذه الموضوعات؟

کل شیء فی الخلیقه مقدّر سلفا،و لکل جزئیه منها غایه محدّده سلفا،أو یمکن لهذا الإنسان الأکمل خلقا بینها أن یترک سدی..کلا..الذره المتناهیه فی الصغر -حسب علمنا-مخلوق مقدر بعلم،و مسیر لهدف،و کذلک المجره المتناهیه فی السعه-حسب علمنا-مخلوق مقدّر بعلم،و مسیر لهدف..أ فلا یکون لهذا الإنسان تقدیر و هدف؟ لعل عقلانیه الخلیقه هی محور السوره.تعالوا إذا نوصل فروع بصائر السوره بهذا المحور.

ص:۷

أولا:القرآن أنزل فى ليله القدر-المباركه-لأنه ينذر باسم مقدّر هذا الخلق، و ألاّ يزيغوا عن ذلك التقدير الحكيم الذى قضى فى ليله القدر،حيث يفرق فيها كلّ أمر حكيم.امرا من عند اللّه،الذى أرسل الأنبياء ينذروا الناس به.

و كانت تلك رحمه من اللّه ان ينذر الناس ألاّ يتجاوزا تلك السنن و الأقدار، فيتعرضوا للخطر.

و بعد أن يذكرنا بعظمه الخالق يقول: «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (و هو سبب كفرهم بهذه الرساله و سيبقى ضلالهم حتى يأتيهم العذاب) فَارْتَقِبْ (يوم العذاب) يَوْمَ تَأْتِي السَّمٰاءُ بِدُخٰانٍ مُبِينٍ* يَغْشَى النّٰاسَ (حيث يتساءلون ما هذا) هٰذٰا عَذٰابٌ أَلِيمٌ (فينادون) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذٰابَ إِنّٰا مُؤْمِنُونَ (و هيهات) أَنّٰى لَهُمُ الذِّكْرىٰ وَ قَدْ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ (بعد أن انذرهم بما فيه الكافيه) وَ قٰالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (و يأتيهم الخطاب) إِنّٰا كٰاشِفُوا الْعَذٰابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عٰائِدُونَ (و لعل هذا العذاب هو العذاب الأدنى،الذي يأخذهم ليكون نذيرا للعذاب الأكبر، و هذا بدوره من شواهد القيامه) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرىٰ (فيومئذ لا ينفع الاستغفار) إِنّٰا مُنْتَقِمُونَ ».

و يسوق القرآن قصه فرعون لتكون شاهده على مجمل هذه البصائر التى سبقت.

تقدير اللّه الحكيم-إنذار الرسل،نزول العذاب،و الجزاء الحسن الذى أتاه بنى إسرائيل-.

و تلك هى فتنه كبرى تعرّض لها قوم فرعون فلم يفلحوا حيث جاءهم موسى بالبلاغ المبين،فلما رجموه بالتهم دعا عليهم فجاءه النصر،حيث أغرق اللّه فرعون و قومه ليتركوا وراءهم ثرواتهم دون أن تذرف السماء عليهم دمعه.أو ليسوا كانوا خاطئين،حيث زاغوا عن القدر الحكيم،و الصراط المستقيم.تلك هى سنه الجزاء،

و دلیل علی ان اللّه خلق کلّ شیء بالحق؟! و کذلک فقد نجّی اللّه بنی إسرائیل من العذاب المهین،و اختارهم علی علم (و استحقاق لدیهم)علی العالمین.

کیف یترک الإنسان سدی،و بلا محاسبه،و کیف تکون حیاته الدنیا خاتمه المطاف،و لقد أهلک اللّه قوم تبّع،حیث کانوا مجرمین-و فی هذا دلیل علی حکومه اللّه العادله علی مجریات التاریخ-کما انه یکشف عن جانب من عقلانیه الخلیفه،و أن اللّه لم یخلق السماوات و الأرض و ما بینهما إلاّ بالحق،و لکنّ أکثر الناس لا یعلمون،و عدم علمهم دلیل جهلهم لا عدم صحه هذه الحقیقه.

و یفصل الذکر الحکیم جانبا من جزاء اللّه فی یوم القیامه،و یقول: «إِنَّ یَوْمَ الْفَصْلِ مِیقٰاتُهُمْ أَجْمَعِینَ »فی ذلک الیوم لا ینفع الأنداد الذین یشرکون بهم «یَوْمَ لاٰ یُغْنِی مَوْلًی عَنْ مَوْلًی شَیْئاً »و حتی لو انهم نصروهم فإنهم لا ینصرون.

و بعد بیان طعام شجره الزقوم،و کیف یقید المجرم إلی عذاب النار،یعرض الرب لنا جانبا من نعیم اللّه للمتقین،و یختم القرآن السوره بأن تیسیر الکتاب کان بهدف تذکیرهم فمنهم من یتذکر وَ مِنْهُمْ مَنْ یَنْتَظِرُ فارتقب انهم مرتقبون.

و هکذا ینذر القرآن عباده بالجزاء الأوفی الذی هو رمز حقّانیه الخلیقه،و عداله اللّه و تقدیره الحکیم.

ص:۹

[سوره الدخان (۴۴): الآیات ۱ الی ۱۲]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِ . حم (۱) وَ اَلْکِتابِ اَلْمُبِینِ (۲) إِنّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَهٍ مُبارَکَهٍ إِنّا کُنّا مُنْذِرِینَ (۳) فِیها یُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِیمٍ (۴) أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنّا کُنّا مُرْسِلِینَ (۵) رَحْمَهً مِنْ رَبِّکَ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۶) رَبِّ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما إِنْ کُنْتُمْ مُوقِنِینَ (۷) لا إِلهَ إِلاّ هُوَ یُحْیِی وَ یُمِیتُ رَبُّکُمْ وَ رَبُّ آبائِکُمُ اَلْأَوَّلِینَ (۸) بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ یَلْعَبُونَ (۹) فَارْتَقِبْ یَوْمَ تَأْتِی اَلسَّماءُ بِدُخانٍ مُبِینٍ (۱۰) یَغْشَی اَلنّاسَ هذا عَذابٌ أَلِیمٌ (۱۱) رَبَّنَا اِکْشِفْ عَنَّا اَلْعَذابَ إِنّا مُؤْمِنُونَ (۱۲)

اللغه

(۴) یُفْرَقُ :یبیّن و یمیّز و یفصّل.

(۱۰) فَارْتَقِبْ :انتظر.

ص:۱۱

يَوْمَ تَأْتِي السَّمٰاءُ بِدُخٰانٍ مُبِينٍ

هدى من الآيات:

إنّ الصيغه التى ورد فيها الحديث عن ليله القدر لا يختص بها وحدها،و إنّما ينصرف إلى حقيقه هامه أيضا،و هى أنّ الإنسان محاط بتدبير اللّه قضاء و قدرا، و هاتان الكلمتان تردان فى كثير من النصوص الشرعيه كتابا و سنه و على ألسن المؤمنين،فما ذا تعنيان؟ القدر هو السنن الإلهيه التى تحكم الكون،فالنار تحرق،و الماء يطفئ النار، و..و..و أمّا القضاء فهو الحكم الإلهى القاطع بإجراء هذه السنن أو تعطيلها،ففى هذه السنن يظل فراغ لا-قانون فيه،و هو ما نسمّيه اليوم بالصدفه،ذلك انّ اراده اللّه فوق القانون،و قد أثبت العلم بعد التجارب المتكرره على مختلف القوانين هذه الحقيقه.

فمن واقع الإنسان اكتشف العلماء دواء لعلاج فيروس الانفلونزه،و اعتقدوا

أنّهم بواسطته يستطيعون السيطره عليه سيطره تامه،و لكنّهم وجدوا أنّ عشرات الألوف من الشعب الأمريكى يموتون بسببه بالرغم من تعاطيهم ذلك الدواء، و السبب أنّ أجسامهم لا تستجيب لمفعوله..فالدواء إذن ينفع و لكن ليس إلى الأبد إنّما فى حدود معيّنه.

و مثل آخر من واقع الطبيعه أنّ الخبراء بعد التفكير و التجريب و التخطيط أطلقوا (أبولو ۱۳)الى الفضاء،و بعد أن وصل إلى المكان المعيّن تعطل عن العمل، و عسكريّا حاولوا غزو إيران،مع الأخذ بعين الإعتبار كل الاحتمالات و الاستعداد لمواجهتها،و لكنّهم عند التنفيذ فشلوا،و تهاوت طائراتهم كأوراق الخريف فى صحراء طبس...ممّا يدل على وجود هامش لا قدره للإنسان فى السيطره عليه،بل قد يبدأ الهامش من الإنسان نفسه فإذا به يفقد السيطره على ذاته فضلا عن عمله، فربما يختل توازنه الذهنى،و ربما يتعطّل شىء فى جسده.

و من المعايشات اليوميه قد يدفع الإنسان صدقه أو يعمل خيرا فى أوّل يومه، فيعرض له حادث مميت ينجو منه،بينما يموت فى يوم آخر بسبب تافه.أ ليس كذلك؟إذن فهناك قوه غيبيه تدبّر شؤوننا،و لا يوجد شىء فى الحياه يسمّى بالصدفه،إنّما هى تدابير إلهيه فوق الإرادات و السنن.

و

روى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام عدل من حائط مائل إلى مكان آخر،فقيل له:

يا أمير المؤمنين تفرّ من قضاء اللّه؟فقال عليه السلام :«أفرّ من قضاء اللّه إلى قدره» (۱)، فقدر اللّه أنه الجدار المائل يسقط،و الذى يجلس عنده يتضرّر،و قد وهب اللّه للإنسان العقل الذى يتعرّف به على هذه الحقيقه،أمّا قضاؤه فإنّه تعالى يبعث فى

۱- ۱) بح/ج(۵)ص(۹۷).

عقل الإنسان كشبه الهزّه الكهربائيه تثيره و تذكّره،و ابتعاد الإمام عليه السلام عن الجدار كان بقضاء اللّه عزّ و جل.

و نقل لی أحد الأشخاص قائلا:كنت واقفا فی الشارع أبحث عن سياره توصلنی إلى نقطه معينه فی إحدى العواصم،و فی الأثناء توقفت إلى جانبی سياره أجره،و لكنّ السائق رفض جلوسی فی المقعد الأمامی إلى جانبه،الأمر الذی منعنی عن الركوب فی هذه السياره،فاستقلّيت سياره أخرى،و بينما كنّا نسير رأينا جمعا من الناس و كأنّ حادثا ما وقع فی الشارع،و حيث نزلت لمعرفه الخبر وجدتها سياره الأجره التی رفض صاحبها ركوبی فی المقعد الأمامی،و قد تحطّمت و مات السائق و الراكب الذی الى جانبه..فالقدر الطبيعی لهذا الشخص أنّه يموت،و لكنّ القضاء يتدخّل ليبدّل الأمر،و ينقذ هذا الإنسان.

و أمثال هذه القصص و الحوادث تتكرّر بكثره فی حياتنا اليوميه،و نحن نعايشها أو نسمع عنها،و لكنّنا لا نبصر و لا نعتبر.و فی هذه السوره تركيز على هذا الوعی (أنّ فی الكون يدا غيبيه تدبّر شؤونه)،و ذلك لا يعنی أنّها وحدها تفعل كل شیء مباشره،و أنّه لا نظام فی الحياه،كلاّ..إنّما النظام موجود،و لكن هناك أيضا من يجريه و يهيمن عليه فيجريه أو يعطّله متى شاء،و هو اللّه عزّ و جل،فإذا بالنار التی تحرق يتعطّل قانونها فی قصه إبراهيم عليه السلام ،و إذا بالعصا تصير حيه كأنّها جان، و هكذا الكثير من الشواهد الأخرى.

بينات من الآيات:

[۱][حم] بالإضافه إلى كون الكلمات المقطعه رموزا و إشارات تهدينا إلى القرآن ذاته،أو أنّها رموز بين اللّه و أوليائه(و هو أفضل ما قيل فيها)،فإنّها تنسجم بتناغمها

و أجراسها اللفظيه مع طبيعه السوره ذاتها نفسيّا و أدبيّا.

[۳-۲]و فی هذه السوره یقسم ربنا بعد تلک الحروف بالقرآن نفسه،و الذی یتألّف منها و من أشباهها،للدلاله علی مدی عظمته و جلاله قدره.

وَ الْکِتٰابِ الْمُبِینِ* إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهٍ مُبٰارَکَهٍ هی لیله القدر فی شهر رمضان،التی عدلت بخیرها و برکتها ألفا من الشهور..

و إنّما أنزل اللّه الکتاب لهدایه الناس إلی الحق بترغیبهم فیه و تحذیرهم من عواقب الضلال و الباطل.

و قد تساءل المفسرون:کیف نزل القرآن فی لیله القدر و قد تنزلت آیاته علی امتداد ثلاث و عشرین عاما،و قد بیّن ربنا حکمه تنجیم القرآن بقوله: «وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَیْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَهً وٰاحِدَهً کَذٰلِکَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَکَ وَ رَتَّلْنٰاهُ تَرْتِیلاً ». (۱)

قالوا-حسب النصوص-:إنّه أنزل جمله واحده إلی مقام سام فی السماء الرابعه جعله اللّه مسجدا لملائکته حیث یدخله کل یوم سبعون ألف ملک ثم لا یعودون إلیه أبدا،یسمّی بالبیت المعمور،و قد جعل اللّه الکعبه بإزائه. (۲)

و قالوا:إنّ الرسول کان علی علم بما فی الملأ الأعلی،و لذلک أمره اللّه بألاّ یعجل فی بیان القرآن: «لاٰ تُحَرِّکْ بِهِ لِسٰانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ ». (۳)

إِنّٰا کُنّٰا مُنْذِرِینَ

۱- ۱) الإسراء(۳۲).

۲- ۲) راجع موسوعه بحار الأنوار/ج(۹)ص(۱۶۳)و ما بعد.

۳- ۳) القیامه/(۱۶).

و الإنـذار هو هدف القرآن و سائر الرسالات الإلهيه،ذلك أنّ الأمم تبدأ بالانحراف عن هدى اللّه حتى تقف على شـفا حفره من النار و العذاب،فيبعث اللّه لها بمنذر و كتاب لإنقاذها.

[۵-۴]و قد شرّف اللّه ليله القدر بأمرين:

أوّلا:حيث أنزل فيها كتابه الكريم الذى بعث به الإنسانيه مقاما محمودا أهّلهم به لجناته و رضوانه و الزلفى من مقامه الأعلى.

و إنّمـا شـرف الزمـان بمـا يقع فيه من حوادث عظيمه،و هـل هنالـك حـادثه أعظم من وحى ربّ العزّه؟!أو سـمعت كيف كادت السـموات يتفطّرن من فوقهن لمّـا مرّ بهن وحى اللّه العظيم؟!أو مـا قرأت أنّ القرآن لو انزل على الجبال لتصـدّعت؟! حقّا إنّها ليله مباركه عظمت و شرّفت فى السموات و الأرض،و يحق لنا أن نكرمها بالعباده.

ثانيا:لقد جعل اللّه ليله القدر ليله الوحى فى كلّ عام حيث ينزل فيها ملائكته كل عام و الروح من كل أمر،و حيث يستقبل الأنبياء و من بعدهم الأوصياء وصيّا بعد وصى رسل اللّه الذين يفصلون لهم ما قدّره اللّه لعباده جميعا.

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ شؤون العباد ليست تماما بأيديهم،بل لعلّ أغلبها بيد القدر..و التفريق -حسبما قال البعض-هو تفصيل ما أجمله اللّه فى غيب علمه من حكم الخلق و أهدافه.

أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنّا كُنّا مُرْسِلِينَ

ص:١٧

فالأمر إذن يرسل من عند اللّه كما القرآن،أى أنّ القرآن منهاج عملنا فى عالم التشريع،بينما قدر اللّه و قضاؤه يرسمان خريطه حياتنا فى عالم التكوين،فكما يقدّر اللّه فى ليله القدر ما يتصل بحياتنا جزء جزء كذلك يرسل الأنبياء ليفصّلوا منهاج حياتنا كلمه كلمه.

[۶]و هذا التدبير الإلهى رحمه بالغه.

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إنّ اليد الإلهيه التى تسيّر شؤون الكون يد رحيمه و كريمه،و من هنا كانت البصيره القرآنيه إلى الحياه توحى بالاطمئنان و الثقه،فالمسلم الصادق يسلم للّه، و تطمئن نفسه لقدره و قضائه «أَلا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ »فهو لا يخشى من الطبيعه و الناس من حوله و لا من المشاكل،لذلك فهو ينفق فى سبيل اللّه ما استطاع دون الخوف من الفقر،و يرجو من الإنفاق زياده الرزق،و يقدم على الأمور،و لا يخشى العقبات و المشاكل،بل و يرجو من ذلك تسخير الطبيعه فى صالحه،و لذلك فهو قليل الفشل،لأنّ الفشل أكثر ما يأتى من خشيته.

ثم إنّ رحمه اللّه لا تنتهى عند حدّ معيّن،إنّما تتسع أيضا لحاجات الإنسان المتجدّده التى تعكسها دعواته.

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الذى يسمع دعاء عباده.

اَلْعَلِيمُ بنو إياهم،ثم يستجيب لهم،أو لا يستجيب لحكمه يعلمها.

ص:۱۸

[٨-٧]و ربنا هو رب الكون بأسره،و لكنّ بعض الناس يشرك به،و يقسم الخليقه على آلهه شتى،و هذه النظره الضاله للحياه ليس سببها عدم ظهور آيات الربوبيه فى الكون من حولهم،و إنّما لأنّهم لم يرتفعوا إلى مستوى المعرفه العميقه و اليقين.

رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ بلى.إنّ الموقنين هم الذين ينظرون للحياه نظره توحيديه خالصه من الشرك، فلا يؤمنون بإله إلاّ اللّه عزّ و جل.

لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ فهو المتصرّف فى مصائر الخلق،و من هذه صفته هو الإله،و الأولى بالعباده من كلّ أحد سواه،و ما دام ربنا هو الذى يملك الموت و الحياه فلما ذا نخشى غيره و نخضع له؟!لما ذا نتبع الطاغوت؟!و لماذا نقلّد آباءنا؟! إنّهم ليسوا بآلهه حتى نعبدهم،إنّما هم عباد مثلنا خلقهم اللّه.

رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبٰائِكُمُ الْأَوَّلِينَ سواء عبده الآباء أم أشركوا به،و نحن يجب أن نتخذ هذه الحقيقه مقياسا لتقييم الأجيال و ليس العكس،و ذلك لكى لا يؤثّر علينا انحراف الآخرين تأثيرا سلبيّا.

[٩]و السؤال الذى يطرح نفسه هنا:لماذا يضلّ البشر عن هذه الحقائق، و يشركون باللّه؟ و الإجابه:لأنّهم يظنّون أنّ الحياه الدنيا هى نهايه المطاف،فهى الهدف فى

اعتقادهم،و هذا يقودهم إلى الشک فی المستقبل حیث الدار الآخره،و من فرّغ حیاته من الآخره فقد أفقدها،هدفها،و جعلها مجرّد لعب.

بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ یَلْعَبُونَ إنّ المؤمن لا یتخذ الدنیا دار لعب و لهو،لأنّه یعتقد بالمسؤولیه و الحساب عن کل قول و فعل یصدر منه،بل عن کل حدیث له مع نفسه،بینما الذین یشکّون فی الآخره یقودهم شکّهم إلی النظره الساذجه و الهازله إلی الحیاه الدنیا.

[۱۰]و القرآن یحذّر هؤلاء من العاقبه التی سوف یلاقونها نتیجه هذه النظره للحیاه،فالشک فی الآخره لن یلغی المسؤولیه فیها.

فَارْتَقِبْ یَوْمَ تَأْتِی السَّمٰاءُ بِدُخٰانٍ مُبِینٍ فکأنّها تشتعل نارا و لکن من دون ضیاء،و ذلک أنّ النار فی یوم القیامه لا نور فیها و بالذات فی جهنم،إنّما هی ظلمات فوق ظلمات،و

فی المجمع: إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله دعا علی قومه لمّا کذّبوه فقال:اللهم سنینا کسنی یوسف، فأجذبت الأرض،فأصابت قریشا المجاعه،و کأنّ الرجل لما به من الجوع یری بینه و بین السماء کالدخان،و أکلوا المیته و العظام (۱).و قد وعد اللّه رسوله بانزال العذاب علی المرتابین و المشکّکین فی الجزاء.

[۱۱]و حین ینزل هذا العذاب فإنّه یغمر الناس من کلّ ناحیه.

یَغْشَی النّٰاسَ هٰذٰا عَذٰابٌ أَلِیمٌ جزاء لما قدّمتموه فی الدنیا من الأعمال و الإعتقادات المنحرفه،فإذا بهم

۱- ۱) مجمع البیان/ج(۹)ص(۶۲).

يستغيثون اللّه و يتضرّعون إليه طمعا فى النجاه،و لكن دون جدوى.

[١٢] رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذٰابَ إِنّٰا مُؤْمِنُونَ و هذه من طبيعه البشر.إنّه لا ينتبه حتى يرى العذاب مباشره،بينما زوّد بالعقل الاستشفاف المستقبل،و تجنّب الخطر قبل فوات الأوان.

و سواء أريد بهذه الكلمه المنذره العذاب الذى يغشى المجرمين فى الدنيا أو عذاب الآخره فإنّ موقف الشاك فى الآخره منها واحد، إذ أنّه لا يتذكّر إلاّ و العذاب يغشاه فلا تنفعه الذكرى،على أنّ عذاب الدنيا لحظه بل لسعه بل ظلال من عذاب اللّه فى الآخره،نعوذ باللّه منهما.

و فى بعض التفاسير:إنّ الدخان هذا من أشراط الساعه،حيث

ذكر فى الحديث المأثور عن أمير المؤمنين عليه السّلام:

«عشر قبل الساعه لا بدّ منها:السفيانى،و الدجّال،و الدخان،و الدابّه، و خروج القائم،و طلوع الشمس من مغربها،و نزول عيسى،و خسف بالمشرق، و خسف بجزيره العرب،و نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر» (١)

١- ١) عن بحار الأنوار/ج(٥٢)ص(٢٠٩).

[سوره الدخان (۴۴): الآيات ۱۳ الى ۲۹]

اشاره

أَنّٰى لَهُمُ اَلذِّكْرىٰ وَ قَدْ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (۱۳) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قٰالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (۱۴) إِنّٰا كٰاشِفُوا اَلْعَذٰابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عٰائِدُونَ (۱۵) يَوْمَ نَبْطِشُ اَلْبَطْشَةَ اَلْكُبْرىٰ إِنّٰا مُنْتَقِمُونَ (۱۶) وَ لَقَدْ فَتَنّٰا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (۱۷) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبٰادَ اَللّٰهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۸) وَ أَنْ لاٰ تَعْلُوا عَلَى اَللّٰهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ (۱۹) وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (۲۰) وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (۲۱) فَدَعٰا رَبَّهُ أَنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (۲۲) فَأَسْرِ بِعِبٰادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (۲۳) وَ اُتْرُكِ اَلْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (۲۴) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ (۲۵) وَ زُرُوعٍ وَ مَقٰامٍ كَرِيمٍ (۲۶) وَ نَعْمَةٍ كٰانُوا فِيهٰا فٰاكِهِينَ (۲۷) كَذٰلِكَ وَ أَوْرَثْنٰاهٰا قَوْماً آخَرِينَ (۲۸) فَمٰا بَكَتْ عَلَيْهِمُ اَلسَّمٰاءُ وَ اَلْأَرْضُ وَ مٰا كٰانُوا مُنْظَرِينَ (۲۹)

اللغه

(۱۶) اَلْبَطْشَةَ الْكُبْرىٰ :الأخذ الشديد فى يوم القيامه.

(۱۸)[أدّوا]:أى أعطوا من الأداء كما يقال «أدّ الأمانه».

ص:۲۲

(۲۴)[رهوا]:أی ساکنا علی حاله بعـد ان خرجتم منه، بان یبقی علی حاله ذی طرق و سـبل حتی یطمح فرعون فی عبوره فیغرق،و ذلک لانّ ضربه بالعصی بقصد ارجاعه إلی ما کان، کان بید موسی.

و ألاّ تعلوا على اللّه

هدی من الآیات:

یتعرّض البشر إلی نوعین من الفتن فی حیاته:

الأوّل:الفتن الیومیه،و هی تشبه سائر متغیرات حیاه الفرد التی تتکرّر علیه، فهو کما یجوع فیشبع،و یظمأ فیرتوی،و یضحی فیسکن إلی مأوی،فإنّه یصطدم بهذا النوع من الفتن،و من طبیعه الحیاه انّها تحد من جانب و استجابه للتحدی من جانب آخر،و هنا یکمن الابتلاء،و إنّما یکتسب الإنسان الخبره و الإراده و القوه، کما ینمو و تنمو معه المواهب من خلال تحدی المشاکل و العقبات.

الثانی:الفتن الکبری التی یتعرّض لها الفرد أو المجتمع،و هی تتجدّد فی کلّ عصر،بید أنّ قرار الإنسان فیها یکون مصیریّا،فالفرد الذی ینتمی إلی حرکه إصلاحیه،و یتدرّج فی مراحل التوعیه و التنظیم و العمل،حتی یبلغ مکانا حسّاسا فیها.إنّ کل لحظه تمر علیه من عمره الحرکی تعتبر لحظه خطیره تحمل الفتنه

و الابتلاء،و لكنّه لا ـ يتعرّض للفتنه الكبرى إلاّ ـ حينما يقع فى قبضه السلطات الإرهابيه،فيتعرّض لألوان التعذيب الوحشى أو الانحراف الخادع،فإن صمد و لم يكشف لهم عن أسراره كتب خلوده و مجده بألمه،و ربما بدمه.

و صور اجتماعيه لهذا النوع من الفتن نجدها فى حياه الأمم،و لكن ليس عند الفتن التى نسمّيها بالتحديات و التحديات المضاده التى تتعرّض لها فى اقتصادها و فى سياستها و تركيبتها،و إنّما عند المواجهه الحاسمه،حين تقف هذه الأمه أمام عدوّ أقوى منها سلاحا،و أرقى تقدّما،و أكثر عددا،فإن صمدت فإنّها تكتب مجدها،و إن انهزمت فإنّها تقرّر مصيرها.

و كشاهد على هذا اللون من الفتن فى التاريخ الفتنه التى تعرّض لها موسى و قومه من جهه و فرعون و ملأه و جنده من جهه أخرى،و التى انتهت بفشل هؤلاء الذين لم يرتفعوا الى مستوى تحدى الكبرياء الكاذبه فى أنفسهم،فانحرفوا و انتهت حضارتهم للأبد.

إذن فالفتن الكبرى مصيريه و حاسمه،و السؤال هنا :كيف يصمد الإنسان أو المجتمع أمامها؟إنّه يحتاج إلى إراده قويه،و هى لا توجد عند الإنسان فى لحظه واحده،و إنّما بالتدريج و التربيه،فكما أنّ البحر الطمطام الذى يمتد طولا ـ و عرضا يتكون من القطرات الصغيره،و هكذا الصحراء المتراميه الأطراف تتكون من ذرّات الرمل،فكذلك إراده الإنسان تصنع من مجموع إرادات صغيره،هو يتمكّن من اتخاذ الموقف الصعب إذا مارس المواقف الأقل منه فى الحياه.

و كمثال على موقف الإنسان من الفتنه الكبرى و اتصال ذلك بمواقفه السابقه دعنا نستعرض قصه رجلين:أحدهما سقط فى الفتنه،بينما انتصر الثانى،فهذا هو عمرو بن العاص حسبما يقول عنه ابن قتيبه الدينورى فى كتابه الإمامه و السياسه:

لما انتهی الیه کتاب معاویه و هو بفلسطین،استشار ابنیه عبد اللّه و محمدا،و قال:

یا ابنی،إنّه قد کان منی فی أمر عثمان فلتات لم استقبلها بعد،و قد کان من هروبی بنفسی حین ظننت أنّه مقتول ما قد احتمله معاویه عنی،و قد قدم علی معاویه جریر ببیعه علی،و قد کتب إلیّ معاویه بالقدوم علیه،فما تریان؟فقال عبداللّه و هو الأکبر:أری و اللّه أنّ نبیّ اللّه قبض و هو عنک راض،و الخلیفتان من بعده کذلک،و قتل عثمان و أنت غائب،فأقم فی منزلک،فلست مجعولا خلیفه،و لا تزید علی أن تکون حاشیه لمعاویه علی دنیا قلیله،أوشکتما أن تهلکا فتستویا فیها جمیعا،و قال محمد:أری أنّک شیخ قریش،و صاحب أمرها،فإن ینصرم هذا الأمر و أنت فیه غافل،یصغر أمرک فالحق بجماعه أهل الشام،و اطلب بدم عثمان،فإنّک به تستمیل الی بنی أمیّه،فقال عمرو:أمّا أنت یا عبداللّه فأمرتنی بما هو خیر لی فی دینی،و أمّا أنت یا محمد فقد أمرتنی بما هو خیر لی فی دنیای،ثم دعا غلاما له یقال له وردان،و کان داهیا،فقال له عمرو:یا وردان احطط،یا وردان ارحل، یا وردان احطط،یا وردان ارحل،فقال وردان:أما إنّک إن شئت نبّأتک بما فی نفسک،فقال عمرو:هات یا وردان،فقال:اعترکت الدنیا و الآخره علی قلبک، فقلت مع علیّ الآخره بلا دنیا،و مع معاویه الدنیا بغیر آخره،فأنت واقف بینهما، فقال عمرو:ما أخطأت ما فی نفسی،فما تری یا وردان؟فقال:أری أن تقیم فی منزلک،فإن ظهر أهل الدین عشت فی عفو دینهم،و إن ظهر أهل الدنیا لم یستغنوا عنک،فقال عمرو:الآن حین شهرتنی العرب بمسیری إلی معاویه؟! (1)و ذهب عمرو إلی معسکر معاویه تارکا آخرته لدنیاه،ثم لمّا دنت منه الوفاه و کان فی فلسطین قال لمن حوله:احملوا جسدی إلی صحن الدار،فلمّا حمل و طرح علی الأرض نظر إلی السماء فقال:لست بذی عذر فاعتذر،و لا بذی قوه فانتصر،

۱- ۱) الامامه و السیاسه/ج ۱ ص ۹۶

فافعل بی ما تشاء،و مات.

و نجد فی مقابل هذه الهزیمه صوره للصمود أمام فتنه الحیاه،عند عمّار بن یاسر (رضی اللّه عنه)الذی وقف مع الحق فی حرب صفین و هو یناهز التسعین من العمر، و لمّا رأی الإمام علی علیه السلام شیخوخته أمره أن یشدّ ظهره،و حواجب عینیه حتی لا یبدو للناس ضعیفا،فبرز(رضی اللّه عنه)للقتال،و قال مخاطبا عمرو بن العاص:

یا عمرو بعت دینک بمصر فتبّا لک،فطال ما بغیت الإسلام عوجا،ثم قال:اللّهمّ إنّک تعلم أنّی لو أعلم أنّ رضاک فی أن أقذف بنفسی هذا البحر لفعلت،اللّهمّ إنّک تعلم أنّی لو أعلم أنّ رضاک فی أن أضع ظبّه سیفی فی بطنی ثم انحنی علیه حتی یخرج من ظهری لفعلت،اللّهمّ إنّی أعلم ممّا علّمتنی أنّی لا أعلم عملا هذا الیوم هو أرضی لک من جهاد هؤلاء القاسطین،و لو أعلم الیوم عملاـ هو أرضی لک منه لفعلته.و حارب حتی استشهد مع الحق.و لکن لما ذا اختار عمّار(رضی اللّه عنه) هذا المواقف،بینما اختار ابن العاص الهزیمه أمام الفتنه و الجواب:لأنّ عمّار کان دائما مع الحق،و حتی فی دقائق حیاته،و منذ إیمانه بالرسول صلی الله علیه و آله ،حتی

قال فیه الإمام الصادق علیه السلام : «ما خیّر عمّار بین أمرین(کلاهما فی اللّه)إلاّ اختار أشدّهما. » و ربما

عناه الإمام علی علیه السلام بقوله: «کان لی فیما مضی أخ فی اللّه،و کان یعظمه فی عینی صغر الدنیا فی عینه...و کان إذا بدهه أمران ینظر أیّهما أقرب إلی الهوی فیخالفه» (۱)فلا عجب إذن أن تنتهی حیاه هذا العظیم بالشهاده،بینما یموت ابن العاص علی فراش الذنب و الرذیله،لأنّ ابن العاص کان یخشی من شهره العرب-حسب قول ابن قتیبه-أکثر من خوفه من اللّه،و کان یبحث عن الرئاسه قبل سعیه لرضا ربّه،إنّ تلک الصفات الرذیله التی تکرّست فی نفسه عبر عشرات

۱- ۱) نهج البلاغه/ص ۵۲۶ حکمه ۲۸۹

من المواقف الانهزاميه أمام ضغوط الدنيا و إغراءاتها كوّنت أرضيه هزيمته المصيريه باختيار الدنيا على الدّين.

و من هنا نعى أهميه المواقف اليوميه و مدى تأثيرها على مستقبل الإنسان، فلا ريب أنّ الاختيارات اليوميه للأصعب فى اللّه،هى التى صنعت إراده عمّار حيث التزم بالخيار الصعب فى نهايه الخط،بينما صنعت الإختيارات البسيطه للخطأ الهزيمه الحاسمه أمام الفتنه الكبرى فى حياه الآخر.

و فرعون مع ملئه و جنده-الذين تحدّثت عنهم آيات هذا الدرس-إنّما فشلوا فى الفتنه الكبرى لأنّهم كانوا ينهزمون أمام الفتن الصغيره،و هذه من أهمّ العبر التى نستفيدها من سوره الدخان.

بينات من الآيات:

[۱۴-۱۳]اختتم الدرس السابق بتصوير الكافرين يدعون ربّهم لكشف العذاب عنهم زاعمين أنّهم مؤمنون،و هنا يؤكد ربّنا انهم كاذبون،أ و لم يكفروا بالنذير؟بلى.إنّهم يعيشون اللحظه،فاذا رأوا العذاب جأروا إلى ربّهم،و إذا استجاب لهم تراهم ينكثون.إنّهم أبناء الظرف الحاضر،و ليسوا ممّن يملك بصيره المستقبل أو تجربه الماضى.

أَنّٰى لَهُمُ الذِّكْرىٰ أى بعدت و استحالت بالنسبه لهم،لأنّهم حين رفضوا الايمان قبل العذاب لم يكن رفضهم منطقيّا إذ لم يقصّر الرسول فى بيان الحق و الدعوه إلى اللّه،حتى عذرهم بأنّ الأمر كان غامضا.

وَ قَدْ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ

و لكنّهم عصوه.

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ إذ صاروا يختارون ما توحى به شهواتهم و مصالحهم و قيادتهم الباطله على أمره، و أكثر من ذلك اتهموه.

وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ فهو ينتمى إلى الآخرين فى نظرهم،و هـذه تهمه يوجّهها الطغاه إلى كلّ ثائر و مجاهد،حيث يسمّونه عميلا،و يـدّعون عليه الارتباط بجهات خارجيه،و من جهه أخرى اتهموه بـالجنون لما يقـدم عليه من أعمال جريئه.حقّا إنّهم اعترفوا بأنّه عـالم و شجاع،و لكن منعهم غرورهم من الاعتراف بعظمته ففسّروا حكمته بالتعلّم، و بطولاته بالجنون،و إذا عرفنا أنّ رسالته لم تكن ناشئه من الثقافه المنتشره فى مجتمعه فانّ اعترافهم ماض فى أنّه رسول،و حين عرفنا أنّ شجاعته كانت محسوبه فانّ كلامهم اعتراف بأنّه توكل على اللّه فأيّده ربّه.

[۱۵]و لكن مع ذلك قـد يرفع اللّه العذاب عن عباده رحمه بهم،ذلك أن من أهداف إنزاله على الناس إعادتهم للحق،و تصحيح مسيرتهم الخاطئه،عبر بعثهم نحو نقـد الـذات،كما يقول تعالى: فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (۱)فاذا ما تضرّعوا رفعه اللّه عنهم لاقامه الحجه التامه عليهم،و بيان زيف ادعائهم بأنّهم تائبون حقّا.

إِنّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ

ص:۲۹

۱- ۱) الأنعام۴۲/

و ربّنا يعلم بحقيقتهم و لكنّه يرفعه عنهم بلطفه،فاذا بهم يعودون لما نهوا عنه، ممّا يجعلهم يستحقون أشدّ العذاب.

[۱۶]و ربّنا يؤكد بأنّ العوده إلى المعصيه و الانحراف تستلزم إرجاع العذاب و لكن بصوره أشدّ و أقسى،و ليس بهدف هدايتهم،بل انتقاما منهم هذه المره.

يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرىٰ إِنّٰا مُنْتَقِمُونَ إنّ العذاب الذى يراه الظلمه فى الدنيا ليس سوى نفحه من العذاب الذى ينتظرهم بعد الموت.

[۱۷]و وقوع هؤلاء طعمه للبطشه الكبرى نتيجه طبيعيه لفشلهم أمام أعظم فتنه يتعرّض لها البشر،و هى فتنه التسليم للقياده،حيث تولّوا عن الرسول و خالفوا أمره، فلن يكون مصيرهم و لا مصير أمثالهم بأفضل من أسلافهم الذين تحدّوا قياده الرسل.

وَ لَقَدْ فَتَنّٰا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ و انبعاث القياده الرساليه المتمثّله آنذاك فى موسى عليه السلام وضع المجتمع كلّه أمام فتنه كبرى،فهو إمّا يختار الانحطاط و الدمار باتباع الباطل بقيمه و رموزه،و إمّا يتبع الحق برسالته و قياداته.

[۱۸]و قد بيّن موسى عليه السلام الهدف الأوّل من رسالته و هو تحرير الإنسان من العبوديه للطاغوت،و قد أشارت آيات عديده إلى أنّ صبغه رساله اللّه إلى موسى كانت تحرير بنى إسرائيل من طغيان آل فرعون،إذ كانت هذه أعقد مشكله حضاريه فى ذلك العصر،و قد تحدّت رسالات اللّه جميعا بؤر الانحراف و عقد المشاكل،فاذا كانت عقده الحضاره العلو فى الأرض،كما نجده فى مجتمع عاد، فانّ أخاهم هودا نهاهم عن أن يبغوا الفساد فى الأرض،و أن يبطشوا بطش

الجبّارين،أمّا إذا كانت العقده الفساد الخلقى كما عند قوم لوط نهاهم رسولهم من ذلك،و قال:« أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسٰاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ »، و هكذا.

و هكذا جاء موسى محرّرا لبنى إسرائيل من طغيان فرعون،و قال: «قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ » (١)و قال: «إِنّٰا رَسُولُ رَبِّ الْعٰالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ » (٢).

و هنا يقول ربّنا:

أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبٰادَ اللّٰهِ يعنى المستضعفين الذين استعبدتهم الفراعنه.

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فلست أريد من تحرير المستضعفين شيئا لنفسى،و إنّما أنا أؤدى أمانه الرساله، و ألتزم بها كما يريد اللّه عزّ و جل.

[١٩]أمّا الهدف الآخر لموسى عليه السلام فهو القضاء على الاستكبار بكلّ أبعاده و صوره،و إعاده الإنسان إلى واقعه الحقيقى،و هو واقع العبوديه لربّه تعالى،و تكبر فرعون و قومه على موسى لم يكن تكبرا عليه و حسب،و إنّما كان تكبّرا على القيم الحقّه،و بالتالى طلبا للتعالى حتى على اللّه،و موسى عليه السلام أكّد على هذه الفكره فى دعوته لهم.

ص:٣١

١- ١) الأعراف/١٠٥

٢- ٢) الشعراء/١٧

وَ أَنْ لاٰ تَعْلُوا عَلَى اللّٰهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ و إذا كـان فرعون قـد نصب نفسه إلهـا أعلى للنـاس «فَقٰالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ » (١)،فانّ دعواه هذه باطله يدحضها موسى بالحجج و البراهين الواضحه.

[٢٠]و حيث يتوقع موسى عليه السلام موقف الرفض و الظلم ضد الدعوه الصادقه من قبل فرعون و قومه أكّد بأنه لن يخشى أحدا،لأنّه يستعيذ باللّه منهم.

وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ و تكشف هذه الآيه الكريمه عن سياسه الطغاه في مواجهه الرساله،و عموم الأفكار المخالفه لهم،و هي سياسه القمع،ذلك لأنّهم لا يملكون قوه المنطق حتى يواجهونها،فيواجهونها بمنطق القوه.

و لعلّ في الآيه تحذير مبطّن من قبل موسى،حيث أنذرهم بأنّه سوف يستعين باللّه في مواجهتهم،و هل تصل أيديهم له لو نصره اللّه؟بالطبع كلاّ..

و الرجم حسبما يظهر لي يستبطن معنى اغتيال شخصيه الرسول بالاشاعات الباطله،ثم اغتيال شخصه بطريقه يساهم كل الناس في قتله فيضيع دمه بينهم حتى لا يترك مجالا لوليّه بالثأر.

و هكذا تجمع بين معنين أشار إليهما المفسّرون لكلمه الرجم:الرجم بالحجاره، و الرجم بالشتم،و الواقع أنّ الرجم الأول هو نتيجه الرجم الثاني.

[٢١]ثم إنّه عليه السّلام بيّن لهم خطأ منطق القوه في مواجهه المنطق الحق، و أنّ المنطق الموضوعي هو قبول الرساله و الايمان بها،أو اعتزال صاحبها و تركه

ص:٣٢

١- ١) النازعات/٢۴

و الناس حتى يحكم الزمن بصدقه أو كذبه.

وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ [۲۲]و لكنهم رفضوا إلاّ منطق الجريمه.

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ فالذنب بالنسبه إليهم ليس عرضا يقعون فيه بسبب الغفله أو النسيان،و إنّما هو أساس تقوم عليه حياتهم،فهم مرتكزون فى الجريمه.

و هذه الآيات و كثير من الآيات القرآنيه التى تحدّثنا عن معاناه الأنبياء مع أقوامهم،تؤكّد ثلاث مراحل تمرّ كلّ رساله بها،المرحله الأولى هى بعث النبى و اختلاطه بالناس و سعيه لهدايتهم،و المرحله الثانيه هى تكذيبهم له و اعتزاله عنهم، أمّا المرحله الثالثه فهى حلول العذاب عليهم من قبل اللّه مباشره،أو على أيدى المؤمنين بقياده الرسول أو من يمثّله فى المجتمع،و إنّما ينبغى اعتزال المجتمع الكافر لكى لا يشمل العذاب المؤمنين،أو للاعداد للصراع ضد الكافرين.

[۲۳]و قد أمر ربّنا موسى عليه السلام و الذين آمنوا معه بالانفصال عن فرعون و قومه تمهيدا لحلول العذاب عليهم،و أكّد ربّنا على أن يكون الاعتزال فى ظروف سريه حتى تتم العمليه بنجاح،فكان الليل أكثر مناسبه للحركه.

فَأَسْرِ بِعِبٰادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ من قبل فرعون و جنده،ذلك أنّهم يرفضون أى حركه تحرريه فى المجتمع.

و لعل الحكمه من إضافه كلمه«ليلا»لجمله«أسر»التى هى تكفى دلاله على الحركه بالليل،لتوضيح أنّ كلّ السفر ينبغى أن يكون بالليل.

[۲۴]و حیث انفلق البحر لموسی و بنی إسرائیل،و عبروا من خلاله للطرف الآخر من الیابسه،أمره اللّه أن یترکه علی حاله منشطرا،لکی یتبعهم الظلمه من خلاله فاذا توسّطوا البحر جمیعهم أغرقهم.

وَ اتْرُکِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ و قد ذکروا لکلمه الرهو معنیین:الواسع و الساکن(الخافض و الوادع)و معنی ذلک أن یترک الطریق کما هو واسعا وادعا لیغری فرعون بالسیر فیه تمهیدا لهلاکه و قومه.

[۲۵-۲۷]و استجاب موسی لأمر اللّه فجمع بنی إسرائیل و أخبرهم بالأمر، فتحرّکوا لیلا،و عند ما و صلوا الماء ضربه موسی علیه السلام بعصاه «فَانْفَلَقَ فَکانَ کُلُّ فِرْقٍ کَالطَّوْدِ الْعَظِیمِ »و سار بنوا إسرائیل بأسباطهم الاثنی عشر علی الفروق،و قد تبعهم فرعون و جنده،فلمّا توسّطوا البحر التقی الماء بأمر اللّه فأغرقوا بأجمعهم، و خلّفوا وراءهم کلّ ما جمعوه من حطام الدنیا الزائله،فخسروا بفشلهم أمام الفتنه الکبری نعیم الدارین و هکذا ذهب آل فرعون و خلّفوا وراءهم حضارتهم المادیه التی أطغتهم عن القیم الالهیه.لقد اجتهدوا لاستصلاح الأراضی و إنشاء بساتین علی جانبی النیل،تجری فیها عیون الماء(من قنوات متصله بالنیل)و وراء جنات الأشجار کانت الأراضی الخصبه التی تزرع فیها أنواع الحبوب،و قد أعطتهم هذه الثروه الزراعیه أموالا طائله بنوا بها بیوتهم المرفهه المأثثه بکل وسائل الراحه فی ذلک الیوم،و قد طار صیتهم فی الآفاق،و نالوا مقاما کریما.

و قد بلغت حضارتهم مستوی تجاوزت مرحله الصعوبات،و بلغت مرحله التفکّه و التلذّذ فنقلوا جمیعا إلی النیل کعبه آمالهم،و معبد غرورهم و کبریائهم،و أهلکوا ثمه دون أن یمسّ حضارتهم سوء.

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقٰامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كٰانُوا فِيهٰا فٰاكِهِينَ فأصبحوا عبره لغيرهم عبر الأجيال،بينما ينبغى للإنسان أن يعتبر بغيره لا أن يكون نفسه عبره للآخرين.

[۲۸-۲۹]ثم يقول ربّنا:

كَذٰلِكَ أى أنّ هذه سنه تجرى فى الحياه على كلّ من يترك القيم، و يرفض هدى اللّه، و ما هذه النهايه المريعه التى صار إليها فرعون و جنده و ملؤه إلاّ صوره لعاقبه كلّ أمه ترفض قياده الحق،و تسلم زمامها لقياده الطغاه.

وَ أَوْرَثْنٰاهٰا قَوْماً آخَرِينَ و هؤلاء بدورهم ممتحنون بهذه الأشياء فلا بد أن يتجاوزوا الفتنه بنجاح،و إلاّ فلن يكون مصيرهم أحسن من سابقيهم،الذين دمّرهم اللّه.و لعل الآيه تشير إلى وراثه بنى إسرائيل لأرض مصر بعد هلاك آل فرعون،و تدل على ذلك آيات أخرى.

فَمٰا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمٰاءُ وَ الْأَرْضُ قد يصل الأمر بالإنسان-و بالذات الحاكم-أن يعتقد بأنّ الحياه متوقفه عليه،و أنّه مركز الكون،و لكنّ الحقيقه ليست كذلك،فهو لو تغيّر من موقعه أو انتهى أجله لا يطرأ أى تغيّر على الطبيعه سوى ذهابه،الذى لا يغير شيئا من سننها أو واقعها.

إنّ الكثير من الناس يريدون الطبيعه بقوانينها و سننها تتبع أهواءهم،و تتكيّف

مع مصالحهم و طريقه تفكيرهم،بينما العكس هو الصحيح،لأنّها تتحرّك باتجاه الحق.

بلى.إنّ الحياه قد تتأثّر لموت المؤمن الوليّ للّه،كما بكت على يحيى بن زكريا و الحسين بن على(عليهما السلام)،

عن الامام الصادق عليه السلام قال: «بكت السماء على يحيى بن زكريا و على الحسين بن على عليهما السلام أربعين صباحا،قلت:فما بكاؤها؟قال: كانت تطلع حمراء و تغيب حمراء» (۱).و قال عليه السّلام:«بكت السماء على الحسين عليه السلام أربعين يوما دما» ۲.

أما الطغاه فانّهم لا يتأثّر المجتمع بذهابهم حزنا و لا بكاء،بل بالعكس يفرح الناس بموتهم لأنّهم مصدر بليتهم و تخلّفهم،كما تبتهج الطبيعه،لأنّها لا تنسجم مع من يخالف الحق..ثم إنّهم عند ما يحلّ بهم العذاب لا يعطون فرصه أخرى أبدا.

وَ مٰا كٰانُوا مُنْظَرِينَ .

۱- ۱،۲) نور الثقلين ج ۴ ص ۶۲۸

[سوره الدخان (۴۴): الآیات ۳۰ الی ۵۹]

اشاره

وَ لَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ اَلْعَذابِ اَلْمُهِينِ (۳۰) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ اَلْمُسْرِفِينَ (۳۱) وَ لَقَدِ اِخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى اَلْعالَمِينَ (۳۲) وَ آتَيْناهُمْ مِنَ اَلْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ (۳۳) إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (۳۴) إِنْ هِيَ إِلاّ مَوْتَتُنَا اَلْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (۳۵) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۶) أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (۳۷) وَ ما خَلَقْنَا اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (۳۸) ما خَلَقْناهُما إِلاّ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۳۹) إِنَّ يَوْمَ اَلْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (۴۰) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۱) إِلاّ مَنْ رَحِمَ اَللّهُ إِنَّهُ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (۴۲) إِنَّ شَجَرَةَ اَلزَّقُّومِ (۴۳) طَعامُ اَلْأَثِيمِ (۴۴) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي اَلْبُطُونِ (۴۵) كَغَلْيِ اَلْحَمِيمِ (۴۶) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ اَلْجَحِيمِ (۴۷) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ اَلْحَمِيمِ (۴۸) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ اَلْعَزِيزُ اَلْكَرِيمُ (۴۹) إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (۵۰) إِنَّ اَلْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (۵۱) فِي جَنّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵۲) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (۵۳) كَذلِكَ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (۵۴) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (۵۵) لا يَذُوقُونَ فِيهَا اَلْمَوْتَ إِلاَّ اَلْمَوْتَةَ اَلْأُولى وَ وَقاهُمْ عَذابَ اَلْجَحِيمِ (۵۶) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (۵۷) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۵۸) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (۵۹)

اللغه

(۳۵) بِمُنْشَرِينَ :بمبعوثين.

(۳۷) قَوْمُ تُبَّعٍ :كان تبع ملكا مؤمنا و قومه كافرين، و كانوا كثيرى الأموال و القوى.

ص:۳۷

(۴۳) شَجَرَهَ الزَّقُّومِ :هی شجره تعطی ثمارا بشعه مرّه.

(۴۵) كَالْمُهْلِ :النحاس المذاب أو ما أشبهه.

(۴۷) فَاعْتِلُوهُ :عتله إذا دفعه بشده و عنف،أی فادفعوه من أطراف النّار.

(۵۳) سُندُسٍ :هو الحریر الرقیق.

إِسْتَبْرَقٍ :هو الحریر الخشن،و لكل فضل،فالأوّل ألین مساو الثانی أكثر جمالا فی العین.

ص:۳۸

فَإِنَّمٰا یَسَّرْنٰاهُ بِلِسٰانِکَ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ

هدی من الآیات:

ینظر المؤمن إلی الحیاه نظره عقلانیه تنعکس علی سلوکه الشخصی الاجتماعی و علی تعامله مع الطبیعه،فهو یؤمن بالعداله الالهیه التی تحکم الخلق جمیعا،و یری أنّ لکلّ شیء هدفا خلق من أجله،فللسماء هدف،و للأرض هدف،و لکلّ مخلوق هدف.

و انّ سنه الجزاء التی تتجلی فی جمیع أبعاد حیاه البشر مظهر لتلک الهدفیّه،التی یشیر إلیها ربّنا الکریم،و لکن فی الجانب الاجتماعی منه،مما یثیر السؤال:لما ذا لا یترکّز الحدیث عن الفرد؟و الجواب:لأنّ تفاعل الأفراد مع بعضهم،و بالتالی انصهارهم فی بوتقه المجتمع،لا یدع المفسّر أو الموجّه یتحرّک عن الفرد الواحد،فی تحلیله أو توجیهاته،فالمجرم لا یکون وحده مجرما،إنّما یمارس الجریمه ضمن مجموع متجانس و بنیه اجتماعیه معینه،و لو حدث أن اقترف الجرم شخص واحد فانّک تجد آثار المساهمه الاجتماعیه واضحه فیه، بالسکوت و التشجیع تاره،و بالتعاون تاره

أخری،و لذلک فانّ الذی یتحمّل الجزاء لیس الفرد فی غالب الأحیان و إنّما المجتمع بأکمله.

و عنـد مـا یـبیّن القرآن حکمه الجزاء یضـرب لنـا مثلاـ من واقع المجتمعـات الغـابره التی جزیت بأفعالهـا علی الرغم من قوتهـا و کیدها،و هذا الجانب من التاریخ البشری یعکس هدفیه الحیاه و عقلانیتها.

إنّ الـذی یعمـل شـیئا لاـ یسـتطیع الهروب من الجزاء،فهو إن لم یلحقه عاجلا فسوف یلقاه آجلا،و فی دعاء کمیل نقرأ تعبیرا عن هذه الحقیقه عند

قول الامام علی علیه السلام : «و لا یمکن الفرار من حکومتک» (۱).

و من فکره الجزاء نهتـدی إلی أنّ الـدنیا دار ابتلاء،و أنّه لا بـد من دار أخری للجزاء،ذلک أنّنا نجد البعض یموتون دون أن یلقوا جزاءهم فی هـذه الحیاه،أو یلقونه بأقلّ ممّا یستحقّون..فهل کان جزاء هتلر الذی جرّ العالم إلی الحرب التی أدّت إلی مقتل أکثر من(۶۰)ملیون إنسان أن یموت انتحارا؟و هل جزاء شمر الذی أدخل الحزن علی قلوب الملایین عبر التاریخ بقتل سیّد شباب أهل الجنه أن یقتل قصاصا و حسب؟!کلا..إنّ لهم جزاء أکبر من ذلک فی دار أخری یلقی فیها الجمیع جزاءهم الواقعی.

إنّ منهـج طرح القرآن للموضوعـات المختلفه منهـج حکیم للغـایه،فهو من جهه یحـدّثنا عن جزاء المجتمعات السابقه،و من جهه یحـدّثنا عن هـدفیه الخلق،ثم یـذکّرنا بیوم القیامه،و هـذه الموضوعات الثلاثه حینما تتفاعل عبر النظره الواحده للحیاه تنسـجم مع بعضـها،و تصیر صوره واحـده متکامله،فربّنا عاقب الأمم الغابره مّما یهـدینا إلی أنّه خلق الخلق لغایه لو زاغوا عنها عوقبوا بشدّه،و یهدینا بالتالی إلی

۱- ۱) مفاتیح الجنان/دعاء کمیل

أنّه سوف يجازى الأفراد فى الآخره الجزاء الأوفى.

و لكن لماذا لا يضرب لنا القرآن أمثالا من حياه الأفراد،كفرعون الذى أغرق فى النهر،أو قارون الذى خسف به و بداره الأرض،أو إذا تكلّم عنهم بمفردهم كان الحديث إشاره و حسب؟ و الجواب:إنّ النظر إلى جزاء أمّه سيكون أجدى من النظر إلى جزاء فرد واحد، لأن جزاء الأفراد قد يفسر بالصدفه،و لكن جزاء الأمم و بتلك الصور المتميّزه دليل على حكمه البارى،و أنّه المدبّر للخليقه.

بينات من الآيات:

[۳۰-۳۱]بنو إسرائيل مثل حى لجزاء الأمم على أفعالهم خيرا أو شرا،و القرآن ذكر هذا المثل لأنّ حياه بنى إسرائيل تشبه إلى حد بعيد مسيره الأمه الاسلاميه من حيث أنّهم كانوا أمه مؤمنه بنو حضاره رساليه ثم انحرفوا كما هو حال المسلمين، و إذا فضّلهم اللّه على علم على العالمين فانّ هذه النعمه ليست من قبيل الرزق الذى يهبه اللّه بلا سعى،و إنّما هى من قبيل الكسب،و بنو إسرائيل بلغوا هذه الدرجه الساميه بعملهم لا بعنصرهم،و هذا بدوره يؤكّد عقلانيه العالم،و الحكمه الالهيه التى يقوم عليها،و بالتالى يؤكد وجود الجزاء فى الآخره.

وَ لَقَدْ نَجَّيْنٰا بَنِى إِسْرٰائِيلَ مِنَ الْعَذٰابِ الْمُهِينِ* مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كٰانَ عٰالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ و أى اهانه أعظم من أن يسلب الإنسان حريته،و يصير عبدا للطغاه،يسحقونه لتعلو مكانتهم،و يسلبونه لكى يبذّروا و يسرفوا؟! إنّ فرعون هو الآخر لقى جزاءه العادل فى الدنيا لضلاله و انحرافه،فهو من جهه

كانت علاقته مع الناس العلوّ و الاستكبار،و كانت علاقته مع الطبيعه علاقه التبذير و الإسراف.

و كلمه«عاليـا»لاـ تـدل هنا على العلو فى الإسـراف،و إنّما العلو على الناس، و ربّنا عزّ و جلّ يبيّن ذلك فى آيه أخرى حين يقول: «تِلْكَ الدّارُ الْآخِرَهُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً » (١).

أى الذين لا تكون علاقتهم مع الآخرين الاستكبار و التعالى،و لا مع الطبيعه الفساد،و هكذا يفسّر القرآن بعضه بعضا.

[٣٢]أمّا النعم الالـهيه الأخرى على بنى إسرائيل بعـد النجاه من حكم الطاغوت،فهى تفضيلهم على سائر الأمم،و اختيار اللّه لهم حمله لرسالته،لا لشيء فيهم سوى أنّهم تجاوزوا الفتنه الكبرى فى الحياه،و أثبتوا جدارتهم-بالسعى-لهذه المنزله.

وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ بجدارتهم،و تميّزهم بايمانهم و صالح أعمالهم.

عَلَى الْعالَمِينَ إذن فعلينا و على الأمم التى تنشـد التقـدم أن لا تسـعى للاسـتعلاء فى الـدنيا، فلكى نحقّق هـذه الغايه علينا أن نوفّر عوامـل الحضـاره فى أنفسـنا،كـالتزكيه، و التعـاون،و التعوّد على الخشونه،و المثـابره فى العمـل،و الصبر،و الاسـتقامه على الحق،و عندها سوف يوفّقنا اللّه،و يفضّلنا على غيرنا،و سنتقدم،و معنى العالمين

١- ١) القصص/٨٣

-حسب المفسرين-الناس المعاصرين لهم،إذ أنّ اللّه فضّل المسلمين على غيرهم حين امتثلوا أحكام اللّه فقال: «كُنْتُمْ خَيْرَ أَمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ » (1)[33]و تفضيل اللّه لأمه من الناس على غيرهم لا يعنى أنّهم يبقون الأفضل للأبد،أو أنّهم يبعدون عن دائره الامتحان و الابتلاء،كلاّ..فربّنا أعطى بنى إسرائيل آيات القدره و العلم و الفضيله،و رزقهم النصر على عدوّهم،و واتر عليهم أنبياءه و رسله،و لكن هذه النعمه كانت تحمل فى طيّاتها ألوانا من الامتحان.

وَ آتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ الابتلاء سنّه ثابته فى الحياه لا يغيّرها شىء،بلى.قد ينتقل الإنسان الفرد أو المجتمع من حال العسر إلى حال اليسر،و لكنّه يبقى معرّضا للامتحان فى الحالين سواء،فاذا كان القهر و العذاب الذى حلّ ببنى إسرائيل بلاء بالسيئه،فانّ الاغراءات التى تنطوى عليها سائر النعم التى أعطيت لهم بعد النصر كانت بلاء بالحسنه،و قد قال ربّنا سبحانه: «وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » (2).

و هذا النوع من الابتلاء قد يكون أعظم خطوره على الإنسان من الأوّل،و قد رأينا فى تاريخ البشريه كيف أنّ الكثير من الناس يصمدون أمام الإرهاب و التعذيب،و يتحدّون الطاغوت بصلابه و استقامه،و لكنّهم ينهارون أمام الإغراء، و لذلك يجب على الإنسان أن يحذر النعم كحذره من النقم و أشدّ من ذلك،و لن يفلح فى حياته إلاّ إذا جعل حقيقه البلاء أمامه فى كلّ حال،و

قد قال أمير المؤمنين

ص:44

1- 1) آل عمران/110

2- 2) الأعراف/168

علیه السّلام: «اتقوا سکرات النعمه،و احذروا بوائق النقمه» (۱)،و قال:«أیّها الناس لیرکم اللّه من النعمه و جلین،کما یراکم من النقمه فرقین» (۲).

[۳۴-۳۵]و بعد هذه الأفکار التمهیدیه ینتهی السیاق إلی البصیره الأم فی الدرس لیؤکد العداله و الجزاء،و یستنکر مزاعم لکفّار و المشرکین بأنّ الدنیا هی آخر المطاف.

إِنَّ هٰؤُلاٰءِ لَیَقُولُونَ* إِنْ هِیَ إِلاّٰ مَوْتَتُنَا الْأُولیٰ وَ مٰا نَحْنُ بِمُنْشَرِینَ لأنهم لا یدرسون التاریخ،و لا ینظرون إلی الحیاه نظره موضوعیه،و إلاّ لاهتدوا الی حکمتها،و أنّها قائمه علی أساس العدل،مّما یؤکّد وجود الدار الآخره،و الموته الأولی هی الوفاه التی زعموا أنّها النهایه فلا نشأه بعدها و لا حیاه،کما قالوا: «إِنْ هِیَ إِلاّٰ حَیٰاتُنَا الدُّنْیٰا وَ مٰا نَحْنُ بِمَبْعُوثِینَ » (۳).

[۳۶]و إذ أنکروا البعث و النشور حاولوا تبریر هذا الاعتقاد بطلب،قالوا:

فَأْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ و لو أنّ اللّه یحیی آباءهم ما کان ذلک یجعلهم یؤمنون،لأنّهم یتشبّثون بهذه الفکره تبریرا لکفرهم،و لو بطلت نظریّا أو عملیّا لبحثوا لهم عن تبریر آخر للإصرار علی الضلاله.

[۳۷]لذلک فانّ القرآن لا یجازیهم،و هل یغیّر ربّنا سنّته فی الکون للاجابه علی

۱- ۱) نهج البلاغه/خطبه ۱۵۱

۲- ۲) نهج البلاغه/حکمه ۳۵۸

۳- ۳) الأنعام/۲۹

تساؤل تافه للمشركين؟كلّا..و إنّما يوجّه أنظارهم إلى الآيات الكفيله بهدايه من يريد إلى الايمان بالبعث،و ذلك باثارتهم نحو التفكير فى سنّه الجزاء الحاكمه فى الكون من خلال دراسه شواهدها فى التاريخ،فهؤلاء قوم تبّع و من يسبقهم من الأقوام لقوا جزاءهم حينما اختاروا سبيل الضلال و الجريمه.

أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنٰاهُمْ إِنَّهُمْ كٰانُوا مُجْرِمِينَ و تبّع أحد ملوك اليمن الصالحين،اقتفى آثار أحد الأولياء،و تبعه فى مسيرته، و فى الأخبار نهى عن لعنه،

فعن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لا تسبّوا تبّعا فانّه كان قد أسلم» (1)و إنّما الذين أجرموا قومه فأخذهم اللّه بالعذاب،و حيث يندرج هذا الجزاء فى سنّه الهيّه كونيّه فانّ العذاب قد ينال كلّ بشر إذا انتحل الاجرام.

[۳۸-۳۹]و سنّه الجزاء ليست أمرا شاذّا عن طبيعه الحياه،إنّما هى نابعه من صميم الخلق،ذلك أنّ اللّه خلق السموات و الأرض لغايه ساميه،الأمر الذى يقتضى الجزاء و يحتمه.

وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ إنّما خلق اللّه كلّ شىء لهدف محدد،مهما كان ذلك الشيء صغيرا و تافها فى نظر الإنسان،و قد تقرّر فى علم الفسيولوجيا(وظائف الأعضاء)أنّ كلّ شىء فى الإنسان يؤدّى دورا معيّنا،و لا يكون الإنسان كاملا إلاّ به،حتى الشعره الواحده، بل حتى جزء الخليه المتناهيه فى الصغر،فهل يعقل إذن أن يكون ربّنا قد خلق الإنسان بأكمله عبثا؟!كلاّ..إنّ له هدفا فى الحياه،و هو مسئول عن كلّ شىء

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۴ ص ۶۲۹

أمام ربّه،و لكن هذه الحقيقه الواضحه تبقى غامضه لدى الجاهلين و الضالين.

مٰا خَلَقْنٰاهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وسيله و غايه.

وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ و عدم علمهم ليس لأنهم لا يرون الآيات الهاديه إلى هذه الحقيقه،و إنّما لأنّ هذه الآيات لا تتحول فى ضمائرهم و أذهانهم إلى بصيره،ذلك أنّ نظرتهم إلى الحياه نظره قشريه مجرّده،و إنّما الذين ينظرون إليها ببصيره الايمان يهتدون إلى لبابها الحق.

[۴۰-۴۲]و حيث ميّز اللّه الإنسان عن سائر خلقه بالعقل،و كرّمه بالحرّيه،فهو مسئول أمامه عن العمل وفق الغايه التى خلق من أجلها،فان تحمّل مسئوليته نعمه فى الجنه،و إن نكص عنها عذّبه فى النار.

و مع أنّه تعالى جعل سنّه الجزاء جاريه فى الحياه الدنيا،إلاّ أنّها أكثر تجلّيا فى الآخره،حيث تنصب الموازين،و يفصل بين الصالحين و الأشرار.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقٰاتُهُمْ أَجْمَعِينَ و هذا اليوم ضروره حتميه تقتضيها عداله اللّه،و إذ يسمّيه ربنا«يوم الفصل» فلأنّه اليوم الذى يحكم فيه الحق بعيدا عن التبريرات أو التأجيل،فهو يوم حاسم فى حياه كلّ إنسان،و يعتبر فيصلا يتقرّر فيه مصيره الأبدى.

و إذا أعطى ربّنا الحريه الكامله للإنسان فى اختيار الحق دون أن تستطيع أيّه

قدره سواه تعالى إكراه باتجاه معاكس لما يريد،كان من أبرز معانى الفصل أن يتحمّل المسؤوليه شخصيا حتى يكون يومئذ مفصولا عن سائر الناس.

يَوْمَ لاٰ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ بلى.قد يضغط من حول الإنسان عليه باتجاه معيّن،و لكنّ الموقف الحاسم يبقى رهن إرادته وحده،و لكى يتجنّب التأثر بالضغوط السلبيه صوب الباطل يجب عليه أن يلقى نظره إلى الآخره،حيث يخذله الجميع و ينفصلون عن نصرته،بل لا يجدون الى ذلك سبيلا،و يقف هو وحده بعمله.

ثم إنّ السياق القرآنى ينعطف بعد هذا التخويف ليثير فينا الأمل و الرجاء، حينما يذكّرنا برحمه اللّه إلى جانب عزّته،فبعزّته جعل سنه الجزاء،و برحمته جعل الشفاعه و المغفره لهذا الإنسان الضعيف،فقد استثنى من بين سائر الناس الذين تتقطّع بهم الوشائج،و يرتهنون بأعمالهم السيئه،و أولئك الذين تشملهم رحمته عزّ و جل فقال:

إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ اللّٰهُ فهداه إلى الايمان،و وفّقه للعمل الصالح فى الدنيا،و غفر له ذنوبه،و شفّع فيه أولياءه فى الآخره،فانّه تغنى عنه شفاعه الصالحين،و ينصره اللّه على العقبات.

إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

قال الشحّام:قال لى أبو عبد اللّه عليه السلام و نحن فى الطريق فى ليله الجمعه:اقرأ فانّها ليله الجمعه قرآنا،فقرأت:« إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ (الى قوله) إِلاّ مَنْ رَحِمَ اللّٰهُ » فقال أبو عبد اللّه عليه السلام :«نحن و اللّه الذين استثنى اللّه فكنّا نغنى عنهم» (1).

ص:48

1- 1) نور الثقلين/ج 4 ص 629

[۴۳-۴۶]و كنتيجه لحكم اللّه فى يوم الفصل يحدّثنا القرآن عن صورتين متناقضتين،و هما صوره أصحاب النار الذين يعانون ألوان العذاب،و صوره أهل الجنه الذين يتقلّبون فى نعيمها.

أمّا عن النار فانّ من أشدّ أنواع العذاب فيها شجره تنبت فى أصلها،و يمتدّ منها غصن لكلّ شخص فيها،اسمها الزقوم،و هى تجسيد لذنوب أهلها و آثامهم. (۱)

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ* طَعٰامُ الْأَثِيمِ و حيث يشعر أهل الجحيم بشده الجوع يبحثون عن الأكل،فيجدونه فى هذه الشجره،و لا يجدون بدّا من التقامه،و بمجرّد أن يصل إلى جوفهم يصير كالرصاص و الصفر المذاب تنشوى منه وجوههم حتى تسقط أشفار عيونهم،و تتقطّع منه مصرانهم حتى يتقيّحون دما،و ربّنا يشبّه لنا الزقّوم بالمهل لتقريب المعنى إلى أذهاننا المحدوده،و إلاّ فهى أشدّ و أعظم من ذلك.

كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ* كَغَلْيِ الْحَمِيمِ و الحميم هو الماء الحار جدّا،و حيث يصل المعدن كالرصاص أو النحاس إلى حد من الغليان يصير فيه كالماء فانّ حرارته لا تطاق.

[۴۷]و لون آخر من العذاب يتجرّعه المجرمون حينما يأمر اللّه زبانيه النار بسحبهم إلى وسطها و إهانتهم.

خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلىٰ سَوٰاءِ الْجَحِيمِ و الاعتال هو السحب بغلظه و إيذاء،و إن كان المعنى من ظاهر الآيه أبو جهل إذ

ص:۴۹

۱- ۱) راجع تفسيرنا للآيه(۶۵)الصافات

جاءت الصیغه بالمفرد،إلاّ أنّها تشمل کلّ مجرم،و صیغه المفرد بیان للخذلان الذی یلقاه أهل النار من أقرانهم و سادتهم فی الدنیا حیث لا ناصر و لا معین لهم فیها.

[۴۸-۴۹]و بعد سحب کلّ واحد منهم إلی سواء الجحیم،یأمر اللّه ملائکه العذاب باهانته مادیّا،بصبّ العذاب علی رأسه،و هو أکرم موضع لدی الإنسان، و معنویّا بالکلمات الجارحه،و هذا جزاء الاستکبار فی الدنیا علی الحقّ و المؤمنین.

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذٰابِ الْحَمِیمِ و حیث الدلاله فی«من»تنصرف للتبعیض،تدلّ الآیه علی أنّ العذاب لا یصبّ مره واحده،و إنّما مرات و مرات بلا انقطاع،مبالغه فی الإیذاء،و هل ینتهی الأمر إلی هذا الحد و حسب؟کلاّ..إنّما یهان بالکلام أیضا فیقال له:

ذُقْ إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْکَرِیمُ و روی فی جوامع الجامع أنّ أبا جهل قال لرسول اللّه صلی الله علیه و آله :ما بین جبلیها أعزّ و لا أکرم منّی. (۱)

و فی تفسیر علی بن إبراهیم قال:أنّ ذلک ردّ علی أبی جهل،و ذلک أنّ أبا جهل کان یقول:أنا العزیز الکریم و فیعیر بذلک فی النار. ۲

و قال بعض المفسرین:إن ذلک إهانه و استهزاء إلی جانب العذاب المادی،و هو نظیر لاکرام اللّه المؤمنین فی الجنه بالسلام علیهم إضافه لنعیمها،و استدلوا علی ذلک بقوله تعالی: «وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهٰا خٰالِدِینَ » (۲)،و هذا تفسیر صائب،و لکن یبدو لی تفسیر آخر للآیه و هو أن اللّه لم یخلق الإنسان لیلاقی

۱- ۱،۲) نور الثقلین/ج ۴ ص ۶۳۰

۲- ۳) الزمر/۷۳

هـذا المصـير السيء،و إنمـا خلقه ليرحمه فيعيش كريمـا معززا،و لكنه اختـار هـذا المصـير، و اشـتراه بعمله السـيء،إذ لم يسـتطع الاستقامه على الفطره و الصبر على الحق،و الآيه جاءت تذكيرا لهذه الحقيقه.

[۵۰]أمّا عن السبب الذى يوصل الإنسان إلى الذلّ بعد العزه،و إلى الهوان بعد الكرامه،فهو شكّه فى الجزاء،لأنّ الشك فيه يجعله يعيش بعيدا عن المسؤوليه و الرقابه تجاه سلوكه و أعماله.

إِنَّ هٰذٰا مٰا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ أى تشكون و الشك أعدى أعداء الايمان،لأنّه ينتهى إلى الكفر و الجحود، و يعطّل طاقات الإنسان و قدراته أن يوجّها فى صـناعه المستقبل الأبدى،فهو إنّما يلتزم بالحق،و يضحّى من أجله بكلّ شىء،عند إيمانه بأنّ هذه التضحيات سوف ترد عليه فى الآخره فى صوره الثواب،فكيف يضحّى إذا شك فى الجزاء؟ و

قـد حـذّر الامـام على عليه السـلام من خطر الشك فقال: «لا تجعلوا علمكم جهلا، و يقينكم شـكّا،إذا علمتم فاعملوا،و إذا أيقنتم فأقدموا» (۱)،و مشـكله أكـثر النـاس أنّهم يعلمـون الحـق و يؤمنون به،و لكنّه لاـ يتحوّل فى حيـاتهم إلى منهـاج عمـل، لجبنهم و فرارهم من تحمّل المسؤوليه،فاذا بهم يشكّكون أنفسهم.

إنّ على الإنسان أن لا يشك بأنّ هواجس الشـيطان تحيط به من كلّ جانب،بل و يسـتعد لمواجهتها،بخوف العاقبه السوء،و عزيمه الايمان.

[۵۱-۵۳]و فى مقابـل هـذه الصوره يـبيّن لنـا القرآن الحكيم نعيم المتقين و كرامتهم عنـد اللّه،و تختلف نعم الآـخره عن الأـخرى الدنيويه.إنّها خاصه بالمتقين،و هم

۱- ۱) نهج البلاغه/حكمه ۲۷۴

الـذين يحفظون أنفسـهم عن المحرّمـات،و يؤلمون أنفسـهم بترک الهوی،و بالصبر علی المصائب و ألوان الأذی فی اللّه،و أخيرا بالاستقامه علی الحق حتی الموت،ذلک أنّ طريق الجنه محفوف بالصعاب و المکاره،

يقول الامام علی عليه السلام و هو يوبّخ الذين يريدون الجنه بلا ثمن:«أ فبهذا تريدون أن تجاوروا اللّه فی دار قدمه،و تکونوا أعزّ أوليائه عنده؟هيهات!لا يخدع اللّه عن جنته،و لا تنال مرضاته إلاّ بطاعته» (۱).

نعم.إنّ الإنسـان لاـ يستطيع بلوغ طموحـاته اليوميه،بالتمنيـات و الأحلاـم، فکيف يبلغ بهـا الجنه و هی اسـمی الطموحات،و أعلی الأهـداف؟!ثم إنّ الإنسـان يحقّق طموحـاته فی الـدنيا بالسـعی، بينما لا يکفی السـعی وحـده لـدخول الجنه،إنّما لا بـد من العمل الصالح الذی يخلص صاحبه فيه نيته،إذ لا يتقبّل اللّه إلاّ من المتقين،و الکثير من الناس يصلّون و يصومون و يحجّون و ينفقون و لکن عبثا،و لا يبلغون بذلک جنات الخلد،لأنّها ليست خالصه للّه،و کيف ترفع الصـلاه المحاطه بالشرک و السهو؟!و کيف يتقبّل الصـيام رياء و سـمعه؟!و کيف يکون سـعی الحاج مشـکورا و حجّه مبرورا و هو يخضع للطاغوت؟! «إِنَّمٰا يَتَقَبَّلُ اللّٰهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » (۲)و فی الأخبار أنّ العباده أو الشعيره التی يمارسها صاحبها لغير وجه اللّه تصير يوم القيامه حجرا تصک بها جبهته.

و نتساءل:من هو المتقی إذن؟ إنّ المتقی هو الذی يتحوّل فعل الخير فی حياته إلی سـلوک مسـتمر،أمّا الذی يفعل الخير إذا حقّق مصالحه و أهواءه،و أمّا إذا محّص بالبلاء ترکه،فانّه ليس بمتقی..

و ربّنا وعد المتقين وحدهم بالمقام الأمين عند ما قال:

ص:۵۲

۱- ۱) المصدر/خطبه ۱۲۹

۲- ۲) المائده/۲۷

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِی مَقٰامٍ أَمِينٍ و الأـمن و السـلام من أهمّ الحاجـات النفسـيه للبشـر،و لاـ يبلغ غـايه الاطمئنـان فی الـدنيا و الآـخره إلاّ المتقون،ذلک انه لاً يحصل إلاّ بـذكر اللّه عزّ و جل،و باتباع منهاجه فی الحياه،فقـد أسّـس اللّه الكون على الحق و العـداله،و من يتبع المنهج الربّانی وحده يستطيع العيش مطمئنا و فی مقام أمين من المكاره.

فِی جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ* يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقٰابِلِينَ تلک الأجسام النضـره الناعمه تميس فی الجنان الخضـره بين العيون الرقراقه، و عليها ثياب الزينه من سـندس(حرير ناعم لطيف)و من إسـتبرق(حرير ضخم يتلألأ)و تراهم يتقابلون فی مجالس الأنس لا يشوب صـفاء قلوبهم حقد أو حسد أو غل أو كبر،فهم إخوان متحابّون كما كانوا فی الدنيا ترفرف على رؤوسـهم رحمات اللّه و بركاته،و نعم أجر العاملين.

[۵۴]و يستمر القرآن فی بيان جزاء المتقين فيقول:

كَذٰلِكَ وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ و كـذلک تكتمـل نعم الجنه بـالزواج من نسـاء جميلاـت يتجلّى جمـالهن فی العيـون الواسـعه الحـوراء،و لعـل صـيغه الماضـی فی الزواج تـدلّ على أنّ اللّه زوّج الحـور العيـن لأوليـائه بعلمـه فی الـدنيا،بمـا قـاموا بـه من عمل،بلى.لكلّ زواج مهر،و مهرزيجات الجنه الأعمال الصالحه فی الحياه الدنيا.

[۵۵]و من نعيم الجنه أن يجد أهلها ما يطلبون دون أدنى تعب.

يَدْعُونَ فِيهٰا بِكُلِّ فٰاكِهَةٍ آمِنِينَ

بعکس الدنیا تماما حیث لا بد للإنسان فیها من السعی لکی یصل إلی رغباته، و التنازل عن شیء للظفر بشیء آخر،و

صدق أمیر المؤمنین علیه السلام حیث قال: «أیها الناس!إنّما أنتم فی هذه الدنیا غرض تنتضل فیه المنایا،مع کل جرعه شرق، و فی کلّ أکله غصص!لا تنالوا منها نعمه إلاّ بفراق أخری،و لا یعمّر معمّر منکم یوما إلاّ بهدم آخر من أجله،و لا تجدّد له زیاده فی أکله إلاّ بنفاد ما قبلها من رزقه، و لا یحیا له أثر إلاّ مات له أثر،و لا یتجدّد له جدید إلاّ بعد أن یخلق له جدید،و لا تقوم له نابته إلاّ و تسقط منه محصوده» (۱). أمّا فی الجنه فالمتقون آمنون من کلّ هذه العیوب و النواقص.

[۵۶] لاٰ یَذُوقُونَ فِیهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولیٰ التی ذاقوها فی الدنیا،و هذه الآیه اشاره لنعمه الخلود،و هی من أعظم النعم و الغایات التی یتمنّاها البشر.

و إلی جانب هذه المنّه یذکّرنا ربنا بنعمه عظیمه أخری،و هی الوقایه من النار، و التی یعدّها القرآن فی موضع آخر فوزا عظیما،حیث یقول عزّ و جل: «فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّٰارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فٰازَ » (۲).

وَ وَقٰاهُمْ عَذٰابَ الْجَحِیمِ تلتقی کلمه«المتقین»مع تعبیر«وقاهم»فی نقطه هامه،و هی أنّ التقوی التی کانت تحجز هؤلاء عن ارتکاب المعصیه فی الحیاه الدنیا،هی التی تکون واقیه لهم من العذاب فی الآخره.

۱- ۱) نهج البلاغه/خ ۱۴۵

۲- ۲) آل عمران/۱۸۵

[۵۷]و مع ذلک یؤکّد ربنا بأن هذا الجزاء لیس نتیجه التزام الإنسان برساله اللّه و تعالیمه،لأنّ ذلک واجب طبیعی علیه فطره و عقلا،فهو خالقه و رازقه و مالکه الذی یهب له الحیاه لحظه بلحظه،و یأتی هذا التأکید و التذکیر لیعین المتقین علی مواجهه الغرور و العجب.

فَضْلاً مِنْ رَبِّکَ ذٰلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ و بدون هذا الفضل الإلهی لا یفوز بشر أبدا،و لا ینجو من العذاب،و

فی الحدیث القدسی قال عزّ من قائل: «فلا یتّکل العاملون علی أعمالهم التی یعملونها،فانّهم لو اجتهدوا و أتعبوا أنفسهم و أعمارهم فی عبادتی کانوا مقصّرین غیر بالغین ما یطلبون من کرامتی،و النعیم فی جناتی،و رفیع درجاتی فی جواری، و لکن رحمتی فلیبغوا،و الفضل منّی فلیرجوا،و إلی حسن الظنّ بی فلیطمئنّوا،فانّ رحمتی عند ذلک تدرکهم،و هی تبلّغهم رضوانی و مغفرتی،و ألبسهم عفوی ما زکی منکم من أحد أبدا و لکن اللّه یزکی من یشاء و اللّه سمیع علیم» (۱)، و حتی الأنبیاء و الأولیاء إنّما یدخلون الجنه بفضل اللّه،و حتّی أعمالهم الصالحه،إنّما هی فضل من اللّه علیهم.أو لم یقل ربّنا مخاطبا سید البشر محمد بن عبداللّه صلی الله علیه و آله :

«إِنَّ فَضْلَهُ کٰانَ عَلَیْکَ کَبِیراً » (۲).

[۵۸]و قبل أن یختم ربنا سوره الدخان یصف کتابه الکریم،و هو المنهاج الذی یبلغ بالإنسان درجه التقوی ثم الجنه،و بالتالی هو فضل اللّه الذی ینجی به من النار إذا ما استذکر به و اتبع آیاته المیسّره.

فَإِنَّمٰا یَسَّرْنٰاهُ بِلِسٰانِکَ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ

۱- ۱) بح/ج ۷۲-ص ۳۲۲

۲- ۲) الإسراء/۸۷

هكـذا يلخّص ربنـا هـدف كتـابه فی التـذكره،لأنّه بمـا فيه من مواعظ و معارف إنّما جاء ليـذّكر الإنسان بعهـده مع ربّه.أ و ليس أعـدى أعداء البشـر فی الحياه الغفله؟بلی.و ما وظيفه الأنبياء و الرسل-عليهم السـلام-سوی تبليغ هذه التذكره و بيانها للناس..و لو لا أنّ اللّه سبحانه قـد يسّـر القرآن لم يكن البشـر يعقلون حرفا منه،كيف و هو يـذكّرنا بالغيب المحجوب علمه عنّا،بتلك السـنن الثابته لحقائق الخلق،بصفات الرب،بأشراط الساعه،بما فی الحياه الآخره التی قد تبعد عنّا ملايين السنين،و

فی الحديث المأثور عن الامام الصادق(عليه السـلام): «لولا تيسيره لما قدر أحد من خلقه أن يتلفّظ بحرف من القرآن،و أنّی لهم ذلك و هو كلام من لم يزل و لا يزال» (۱).

و قد نستوحی من هذه الآيه بصيرتين:

۱-إنّ اللّه جعـل القرآن عربيّـا بلغه الرسول و قومه تيسـيرا لفهمه،و بالتالی التـذكّر به.أو رأيت لو كان القرآن بلغه أخری هل كان يفهمه العرب بيسـر و سهوله؟ثم هل كانوا يتعظون به؟كلاّ..و من هنا فانّ المنهاج الأفضل لتيسير فهم القرآن للمسلمين غير العرب ليس ترجمته،و إنّما تعليمهم لغه القرآن نفسه.

۲-إنّ للرسول دورا هامّا فی بيان القرآن،و تقريب الأذهان الی معانيه التی لا تتيسّـر إلاّ بكلامه صـلی الله عليه و آله ،و من هنا فانّ أی منهج يبتعد عن السـنه(أحاديث الرسول و أئمه الهدی)فی فهمه و تدبّره لمعانی الوحی سوف ينتهی الی تفسـيرات و تأويلات خاطئه أو قاصره.أو لم يضلّ الكثير ممّن حاولوا فهم القرآن من خلال الفلسفات البشريه فی متاهات خطيره.

[۵۹]و كالكثير من السور يختتم الباری عزّ و جل هذه السوره،بإنذار مبطّن

۱- ۱) تفسير نمونه/ج ۲۱ ص ۲۱۹ نقلا عن تفسير روح البيان/ج ۸ ص ۴۳۳

لأولئك الـذين لا يسـتجيبون لـدعوته،و لا يتذكّرون بآياته،بأنّ تأخير الجزاء ينسـجم و طبيعه الحياه الدنيا حيث إنّها دار امتحان و بلاء،فهو لا يعنى بأنّ اللّه يهملهم، بل العذاب آت و لا بدّ من ارتقابه.

فَارْتَقِبْ إِنَّهُـمْ مُرْتَقِبُـونَ ارتقب نصـر اللّـه،و ليرتقبـوا خـذلانه،ارتقـب بعملـك الصالـح جزاء اللّه الحسـن، و ليرتقبـوا بسـيئاتهم الانتقام،بلى.إنّ الزمن فى مصلحه الحق و أهله،و لا يمرّ ردح منه إلاّ و يقرّب أهل الباطل من العذاب.

ص:۵۷

سوره الجاثيه

اشاره

ص:۵۹

بسم الله الرحمن الرحیم

فضل السوره

عن أبی عبداللّه الصادق علیه السلام قال: «من قرأ سوره الجاثیه کان ثوابها أن لا یری النار أبدا،و لا یسمع زفیر جهنّم و لا شهیقها،و هو مع محمّد-صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-» موسوعه بحار الأنوار/ج ۹۲/ص ۳۰۱

ص:۶۱

الإطار العام

طف بفكرك آفاق السماوات،و أقطار الأرض.ماذا ترى؟ألا ترى آيات اللّه تتجلى فى كل شىء؟إذا لماذا يكفر هؤلاء الناس؟!تجيب سوره الجاثيه التى نستلهم من إطارها أنها تعالج حاله الإفک عند البشر-تجيب عن ذلک ببساطه-:

إن الآيات ليست لكلّ الناس،انما هى للمؤمنين،و لقوم يوقنون،و لقوم يعقلون (۵).

و إذا كفروا بهذه الآيات فبماذا عساهم يؤمنون؟!انهم لا يؤمنون بشىء فويل لهم،و لكل أفاك أثيم،يسمع آيات اللّه تتلى عليه،ثم يصرّ مستكبرا(۸).

و قد تنفذ آيه فى أفئدتهم و لكنهم لا يسعهم الاستكبار دونها،هناک يتخذونها هزوا إيغالا فى الجحود.

كيف نعالج هؤلاء؟لا بشىء يمكن شفاؤهم،بل بشّرهم بعذاب أليم و مهين(۹)فى جهنم التى تأتيهم من ورائهم،فلا يستطيعون لها ردّا(۱۰).

ثم یذکرنا السیاق بتلک الآیات التی تهمنا مباشره:فهذا البحر کیف سخّره اللّه مطیه للسفن،و مخزنا للطعام و الزینه،و آیه تبعث نحو شکره..کما سخر لنا ما فی السماوات و الأرض،کلّ ذلک نعمه و فضل منه علینا،لعلنا نبلغ هدفا سامیا هو التفکر.

و لکن کیف نفکّر تفکیرا سلیما؟ الجواب:لا بد أن نتجنب التأثر بالبیئه الضاله،و لا نأبه بهؤلاء الذین یکفرون،لأنهم لا یرجون أیام اللّه،فلهم أعمالهم التی سیجزون بها،و لن تصلکم سیئاتهم،کما لن تصلهم صالحاتکم.

و البعض ینتظر شیئا مجهولا حتی یهتدی و لکن عبثا.إذا لم تکن أنت الذی تبتغی الهدی فلن تنتفع بکل وسائل الهدایه.و إلیک مثلا من بنی إسرائیل:لقد آتی ربنا بنی إسرائیل الکتاب،و الحکم،و النبوه-من وسائل الهدایه-و رزقهم من الطیبات-من النعم المادیه-و فضلهم علی العالمین، و لکنهم-إذ اتبعوا شهواتهم-غرقوا فی الخلافات،و ضلوا عن الطریق بغیا بینهم.

و هذا الکتاب الکریم من عند اللّه،الذی انزل ذلک الکتاب،فلا فرق بینهما،و الذی لا یؤمن بعد نزول هذا الکتاب،و ینتظر مثل التوراه لن یبلغ الفلاح أبدا.

و فی هذا الکتاب بصائر و هدی و رحمه،و لکن هل ینتفع به کل الناس؟!لا بل الذین یریدون ذلک.(أی لقوم یوقنون).

و من التمنیات الباطله:الوهم الذی یعیشه الکثیر من الناس،حیث یزعمون أنهم و المؤمنون سواء.کلا.لیس الذین اجترحوا السیئات،و الذین آمنوا و عملوا

الصالحات سواء.لا ـ فى الـدنيا و لا ـ فى الآخره،أو لا تعلمون ان اللّه خلق السـماوات و الأرض بالحق،فكيف يجعلهما سواء.أ ليس ذلك باطلا؟!انه يجزى كل نفس بما كسبت و هم لا يظلمون.

و يبقى سؤال:لمـاذا ينتهى البعض إلى هـذا المصـير الأ ـسوأ؟لأ ـنهم يتخـذون آلهتهم أهواءهم،فتراهم لا ـ يتبعون الهوى فقط بل و يطيعونها إلى حد التقديس.

و حين يضل اللّه الذين يؤلهون أهواءهم يسلبهم مصادر العلم من العقل و الاحاسيس،و آنئذ لا أحد قادر على هدايتهم.

و يتخبطون فى ظنونهم خبط عشواء،فاذا بهم يقولون: «مٰا هِيَ إِلاّٰ حَيٰاتُنَا الدُّنْيٰا نَمُوتُ وَ نَحْيٰا وَ مٰا يُهْلِكُنٰا إِلاَّ الدَّهْرُ »و يتحدون النذر إذا قالوا لهم:احذروا الآخره،و يحتجون-إذا تليت عليهم آيات اللّه- «فَأْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ »و هكذا يحجبون أنفسـهم عن الحقيقه ببعض الشـروط التعجيزيه،و سواء آمنوا أم لم يؤمنوا فان الجزاء واقع.اللّه يحييهم ثم يميتهم ثم يجمعهم إلى يوم القيامه لا ريب فيه.

و هل يضرون ربهم لو كفروا و للّه ملك السماوات و الأرض،و المبطلون يخسرون يوم تقوم الساعه.

هنالـك يتزيل الكفار عن المؤمنين،بل يتميز الكفار فيما بينهم-كما المؤمنون-،إذ «تَرىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جٰاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُـدْعىٰ إِلىٰ كِتٰابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ».

هنالـك يتجلى الفرق بين النـاس حسب أعمـالهم: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ،بينمـا يحاكم الكفار،و يسألون:لما ذا استكبرتم عن

ص:۶۵

التسـليم لآيـات اللّه،و كنتم قومـا مجرمين،و زعمتم انكم لسـتم على يقين من الساعه -بينما الساعه لا تحتمل الريب انها حق-؟فى ذلـك اليوم تبـدو سـيئات أعمـالهم، كمـا ان الحقـائق التى اسـتهزءوا بها تحيق بهم،اما نسـيانهم للحقائق-و هو واحـد من الأفعال القلبيه-فانه يقابل بنسيان مثله،و يقال لهم: «الْيَوْمَ نَنْسٰاكُمْ كَمٰا نَسِيتُمْ لِقٰاءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا ».

و فى خـاتمه السوره يعود السـياق و يبين:ان جزاء اتخـاذ آيـات اللّه هزوا النار، و سـببه الاغترار بالحياه الـدنيا،و للّه الحمـد(أولا و أخيرا على رحمته و عدله) وَ لَهُ الْكِبْرِيٰاءُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ،وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

ص:۶۶

[سوره الجاثيه (۴۵): الآيات ۱ الی ۱۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . حم (۱) تَنْزِيلُ اَلْكِتٰابِ مِنَ اَللّٰهِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَكِيمِ (۲) إِنَّ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ لَآيٰاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (۳) وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ مٰا يَبُثُّ مِنْ دٰابَّةٍ آيٰاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۴) وَ اِخْتِلاٰفِ اَللَّيْلِ وَ اَلنَّهٰارِ وَ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيٰا بِهِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا وَ تَصْرِيفِ اَلرِّيٰاحِ آيٰاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۵) تِلْكَ آيٰاتُ اَللّٰهِ نَتْلُوهٰا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اَللّٰهِ وَ آيٰاتِهِ يُؤْمِنُونَ (۶) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّٰاكٍ أَثِيمٍ (۷) يَسْمَعُ آيٰاتِ اَللّٰهِ تُتْلىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهٰا فَبَشِّرْهُ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ (۸) وَ إِذٰا عَلِمَ مِنْ آيٰاتِنٰا شَيْئاً اِتَّخَذَهٰا هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ (۹) مِنْ وَرٰائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لاٰ يُغْنِي عَنْهُمْ مٰا كَسَبُوا شَيْئاً وَ لاٰ مَا اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ أَوْلِيٰاءَ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۱۰) هٰذٰا هُدىً وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (۱۱) اَللّٰهُ اَلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ اَلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ اَلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۲) وَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۱۳) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ أَيّٰامَ اَللّٰهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (۱۴) مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَيْهٰا ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (۱۵)

اللغه

(۴) يَبُثُّ :ينشر.

(۵) تَصْرِيفِ الرِّيٰاحِ :صرفها هنا و هناك،شمالا و جنوبا،شرقا و غربا.

(۷) أَفّٰاكٍ :صيغه مبالغه بمعنى كثير الإفك،أى الكذب.

ص:۶۷

(١١) رِجْزٍ :الرجز هو أشدّ العذاب.

ص:٦٨

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ

هدى من الآيات

نقرأ فی بـدایه سوره الجـاثیه أنّ هناک آیات فی الکون لقوم یؤمنون،و من ثّمّ یوقنون بها،و أخیرا بها یعقلون،و هـذا التـدرّج فی هذه الآیات یزیدنا معرفه بمنهج التکامل، ففی البدایه یجب أن یؤمن الإنسان بالآیات و یسلّم لها،و من ثمّ یتحوّل إلی حاله الیقین بعـد أن یری آیـاته سبحانه فی الکون،و یری الانسجام التـام بین رسـاله اللّه فی الأـرض و آیاته فی السـماء و الأرض،و من بعد الیقین یتحوّل إلی مرحله العقل.

و مـن معـاجز القرآن الکریـم تشـابه الآیـات،و هــذا یعنی أنّ کـلّ الآیـات تســیر فی خطـوط متقـاربه،تنتهی بالتـالی إلی هــدف واحـد،فالتالی لآی الـذکر الحکیم یتراءی له أنّ کلّ الآیات ذات بعـد واحـد،إذ أنّ الکلمات هی الکلمات،و الأهـداف هی ذاتها الاهـداف،و حتی ترکیب الکلمات و الموضوعات العامه التی توحی إلیها العبارات و تشـیر إلیها واحده،و لکن عند التدبّر العمیق یتبیّن لنا أنّ وراء هذه

الوحده و هذا التشابه حقائق متنوعه،و ليس معنى ذلك تناقضها،أو أنّها ليست من سنن اللّه التى تنبع من قاعده واحده و تنتهى إلى هدف هو التوحيد.

و سمّيت هذه السوره بهذا الاسم لايه فيها تصوّر لنا منظر الأمم فى يوم القيامه و هم يجثون على ركبهم خشّعا خضّعا للّه،كلّ أمّه تدعى إلى كتابها،و آيات هذا الدرس و ما بعدها تعمّق فينا الايمان باللّه سبحانه و تعالى و الايمان بالبعث،و بالرغم من أنّ هذه الحقيقه واحده فى مختلف السور إلاّ أنّ كلّ آيه من آيات القرآن الكريم فى هذا الموضوع تثير فى البشر إحساسا خاصّا،و تضرب على أوتار معيّنه فى قلبه، و بالتالى تعالج أمراضا محدّده،و لذا يجب قراءه القرآن كلّه،و بالرغم من أنّ قراءه سوره واحده أو مجموعه آيات تفيد الإنسان و تنفعه إلاّ أنّ قراءه كلّ القرآن ضرورى، لأنّ نواقص البشر كثيره و متنوّعه و لا علاج لها إلاّ فى القرآن.

بينات من الآيات:

[۱] حم سبق و أن قلنا أنّ الحروف المقطّعه ربما تكون إشاره للقرآن ذاته أو أسرارا بين اللّه و أحبّائه،و قال البعض:انّ«حم»اسم للسوره،و إشاره إليها.

[۲] تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ العزيز الذى لا يغالب و لا يقهر،و الحكيم الذى لا يخطأ.

و بما أنّ الكتاب تنزيل من اللّه فلتخشع له الأفئده،و لتطأطأ أمامه الأفكار.

أو ليس ربّنا عزيزا فكتابه تجلّ لتلك العزّه؟و هل ينبغى للعاقل أن يغالب كتاب ربّه،و لا يخشى غضبته التى لا تحتملها السماوات و الأرض؟!

و ربّنا حكيم،و كتابه آيه حكمته،أ فلا ينبغى أن نستوحى الحكمه منه؟ [۳] إِنَّ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ لَآیٰاتٍ لِلْمُؤْمِنِینَ إنّ الآيات الكثيره المبثوثه فى الكون تجعل الايمان عميقا فى نفس البشر،و المهم أن تزيدنا الآيات إيمانا به سبحانه،إذ أنّ اللّه ضمّن كلّ شىء حقيقه العبوديه، فإذا ما نظرنا فيه و وصلنا إلى تلك الحقيقه،فنؤمن باللّه،و تخشع له قلوبنا.

و لكن يختصّ بمعرفه هذه الحقيقه المؤمنون الذين لا تمنع حجب الكبر و العناد قلوبهم عن معرفه ما تهدى إليه الكائنات من حقائق.

[۴] وَ فِی خَلْقِكُمْ ألا ترى كيف يذرأ اللّه الخلق من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمّهات، و كيف يطوّره خلقا من بعد خلق،نطفه فعلقه ثم مضغه ثمّ عظاما فكسى العظام لحما ثمّ أنشأه خلقا آخر؟ألا ترى كيف يخلقنا العليم القدير فى بطون أمّهاتنا خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث،و أجرى علينا الغذاء،و بعد أن ولدنا حنّن علينا قلوب الآباء و الأمّهات؟ألا ترى كيف خلقنا تامّين الخلقه،فى أحسن تقويم؟ و ليس خلقنا كذلك بل كلّ الأحياء،إذ أنّ اللّه كما البشر خلقهم عبر الانسلال كذلك الشجر،فالبذره تنبت الشجره،و هذه الشجره تحمل بذرا،لو زرعت هذه البذره لأنبتت شجرا..و هكذا.

و حين خلق اللّه الإنسان زوّده بمختلف الحاجات،و أودعه العقل ليسخر به الحياه،و يتغلّب على بعض قوانينها.

وَ مٰا یَبُثُّ مِنْ دٰابَّهٍ آیٰاتٌ لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ

فتجد فى الأرض أحياء حسب طبيعه الأرض و حاجات تكامل الأحياء فيها.

إنّ طريقه بثّ اللّه للدواب و انتشارها و تكاثرها،كلّ ذلک آيات لقوم يوقنون، و اليقين درجه أعلى من الايمان،و يبدو من الآيه السابقه أنّها تدعو إلى النظر فى عموم الآيات و ذلک يؤدّى إلى الإيمان،بينما الآيه هذه التى تدعو إلى اليقين تثير فينا التطلّع إلى تفصيلات الحياه.

[۵] وَ اخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ كذلک فى اختلاف الليل و النهار آيات لمن يتبصّر عبر الأحداث و الظواهر، و يعقل ما وراء هذا التدبير الحكيم لتتابع الليل و النهار،و كيف سخّر اللّه الشمس و أقمارها لتخدم حياه البشر فوق هذا الكوكب،دون أن يستطيع أىّ واحد منها تغيير مساره قدر بوصه أو يتقدم ساعه عن مواقيته أو يتأخّر ساعه.

وَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمٰاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا تفيض أشعه الشمس بما تحمل من بواعث الحياه على الأرض الهامده،و ينهمر الغيث حاملا مواد أساسيه من الفضاء المحيط،و يرسل الربّ الرياح لواقح،فيرزق عباده بكلّ ذلک بقدر مّا يشاء.

وَ تَصْرِيفِ الرِّيٰاحِ إنّ اللّه يصرّف الرياح حيثما يريد،بعضها مبشّرات بالرحمه،و بعضها بالعذاب،و ينشر اللقاح أو يسقط الورق،أو يحمل الغيث أو البرد...و هكذا الرياح كما الغيث مسخّرات بإذن اللّه،تجرى بأمره حيث أصاب، كلّ ذلک:

آيٰاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

فالذين يستوعبون دروس الخليقه،و يحفظون المعلومات ليضيفوها إلى بعضها، و يتفكّرون فيها جميعا ليعرفوا السنن التى تجريها و الأنظمه التى تسيّرها،هم أولئك الذين يصلون عبر الآيات الالهيه إلى الحقائق الكبرى.

و لعلّ هذا التدرّج من الايمان إلى اليقين إلى العقل يوحى بأنّ الايمان هو تسليم النفس البشريه للحق،و اليقين درء للشكوك و الظنون،و ترسيخ للسكينه فى النفس،أمّا العقل فهو لوعى تفاصيل الحقيقه للمحافظه على اليقين و الزياده فيه.

و بتعبير آخر:يكون الإنسان ضالا،فإذا أطاع القلب الشيطان يصبح كافرا، و إذا خرج الملك حتى أتمّ الشيطان هيمنته على القلب فقد أمسى صاحبه جاحدا مطبوعا على قلبه بالكفر،أمّا إذا هزم القلب شيطانه،و أسلم لربّه،فقد آمن،و إذا ازدادت هيمنه الملك على القلب حتى ثبّته اللّه على الايمان،و ألزمه كلمه التقوى، و طرد الشيطان بما له من وساوس و شكوك،فقد أصبح موقنا،و اليقين درجات فكلّما ازداد المؤمن عقلا عن ربّه و علما بآياته سبحانه يزداد يقينا.

[۶] تِلْكَ آيٰاتُ اللّٰهِ نَتْلُوهٰا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ الكون يدور كلّه حول الحق،و القرآن يؤكّد هذه الحقيقه فكلّ آيات اللّه فى الطبيعه تقودنا إليه و لكن إذا لم يؤمن الناس بالحق..

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللّٰهِ وَ آيٰاتِهِ يُؤْمِنُونَ إنكار اللّه بعد عرض هذه الآيات ليس إنكارا للّه فقط،بل هو أيضا إنكار للآيات نفسها،و هل فى الكائنات شىء أشدّ ظهورا من تلك الحقيقه التى تشترك فى الشهاده عليها و الدلاله إليها كلّ الكائنات؟!و إذا أنكرناها فقد أنكرنا كلّ شىء.

أو ليس فى كلّ شىء آيه للّه؟

هکذا جاء

فی دعاء الامام الحسین علیه السّلام: «عمیت عین لا تراک علیها رقیبا» (۱) [۷]و فی الآیه التالیه ینذر اللّه من لا یتبع هداه بالویل:

وَیْلٌ لِکُلِّ أَفّاکٍ أَثِیمٍ و یطرح السؤال التالی:ما هی علاقه هذه الآیه بما تلیها؟یبدو أنّ هنالک علاقه واقعیه و نفسیه:

ألف:فالعلاقه الواقعیه أنّ الـذین لا یؤمنون باللّه و لا یغمر قلوبهم نور المعرفه الالهیه سیأفکون عن الحق،و یقولون الکذب،بل إنّ کلّ عمل یعملونه و کلّ خطوه یخطونها و کل هاجس من هواجسهم یحملهم إلی الافک و الإثم،و مثلهم مثل الآله الحاسبه التی ترکّب علی أساس خاطئ فإنّ کلّ عملیّاتها خطأ،و کذا الآله الطابعه التی ترکّب الحروف فیها علی أساس خاطئ فکلّ کلمه تکتبها تخرج خاطئه،ذلک أنّ الایمان باللّه لا غیره هو الـذی یحلّ طلاسم الحیاه و أسرارها،کیف وجد هذا الکون الهائل،و إلی أین یصل،و إلی أین ینتهی،و ما حکمه خلقه،و ما هی غایه وجودنا فیه؟ بلی.إنّ الإنسان الـذی یسلب منه الایمان لا یستطیع أن یعرف طبیعه الحیاه، و لا یصمد أمام مشاکلها،و یمضی حیاته فی الکدح العابث.

باء:العلاقه النفسیه فهی أنّ قلب الإنسان و عقله و فطرته قد خلق کلّ ذلک علی أساس معرفه اللّه فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَیْها (۲)،و لکن بسبب العمل

ص:۷۴

۱- ۱) دعاء عرفه/الامام الحسین علیه السلام /مفاتیح الجنان

۲- ۲) الروم۳۰/

الفاسد الذی یرین علی القلب ینتکس الإنسان،و تتراکم علیه حجب الضلاله و العصبیات و العقد فلا یری الحقائق.

و لذلک

جاء فی الدعاء المأثور عن أمیر المؤمنین-علیه السّلام-:

[إلهی قلبی محجوب،و نفسی معیوب،و عقلی مغلوب،و هوائی غالب، و طاعتی قلیل،و معصیتی کثیر،و لسانی مقرّ بالذنوب،فکیف حیلتی یا علاّم الغیوب،و یا ستّار العیوب،و یا کاشف الکروب،اغفر ذنوبی کلّها بحرمه محمّد و آل محمّد،یا غفّار یا غفّار یا غفّار (۱)فقلب الإنسان یحجب بالغفله،و سبب کلّ ذلک تراکم الذنوب،لهذا یجأر المؤمن منها،و یدعو اللّه بغفران ذنوبه،متوسّلا بحرمه محمّد و آله،حتی یعود القلب إلی فطرته النقیّه.و یزیل اللّه سبحانه الحجب عن القلب بطرق شتی،منها إثاره حبّ الذات عبر التخویف و الترهیب،و بیان انّ الابتعاد عن الحق لا ینفع الإنسان شیئا،بل هو الویل و عذاب الخزی لکلّ أفّاک أثیم،و الویل هو الهلاک، و هو واد فی جهنّم،ممتلئ قیحا،و الویل فی الآخره تجسید للویل فی الدنیا،و قد أعدّه اللّه المنتقم الجبّار لکلّ أولئک الذین یأفکون الکذب باستمرار علی اللّه عزّ و جل،و یجترحون السیئات.

[۸] یَسْمَعُ آیٰاتِ اللّٰهِ تُتْلیٰ عَلَیْهِ ثُمَّ یُصِرُّ مُسْتَکْبِراً یصرّ علی کفره استکبارا علی الحق الذی یسمعه.إنّه یسمع آیات الحق و لکنّه یمرّ..

کَأَنْ لَمْ یَسْمَعْهٰا

ص:۷۵

۱- ۱) دعاء الصباح/مفاتیح الجنان

و نستلهم من قوله سبحانه: «ثُمَّ يُصِرُّ »أنّ شده وضوح آيات اللّه هى إلى درجه تكاد تكره الإنسان على الايمان،و لكنّ المستكبر الذى عقد عزمات قلبه على الافك العقيدى و الإثم العملى يستعمل شتى السبل ليستكبر على الحق،و ليقاوم آثار الهدايه،كالذى يحجب عن نفسه عبق الأزهار فى فصل الربيع،أو أشعّه الشمس فى ظهيره يوم قائض إنّه بحاجه الى مزيد من الجهد حتى يمكنه البقاء بعيدا عن تأثير أشعّه الهدى فى قلبه.

فَبَشِّرْهُ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ يتناسب و الإصرار على الكفر و اجتراح الإثم.

[۹]و بالرغم من أنّ الكافر يحجب نفسه عن آثار الهدى تدخل حريم قلبه، الذى يغلفه بسور من استكباره و إفكه و إثمه،فإنّ موجات من الهدى تخترق الحجب،و تستقرّ فى فؤاده،و لكنّه سرعان ما يتخذ منها موقف الاستهزاء و السخريه النابعه من احتقار الحقّ و أهله..هنالك تتمّ حجه اللّه عليه إذ أنّه استصغر الحق بعد علمه به.

وَ إِذٰا عَلِمَ مِنْ آيٰاتِنٰا شَيْئاً اتَّخَذَهٰا هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ و هذا الجزاء ينسجم و الاستكبار أو الاستهزاء.

[۱۰] مِنْ وَرٰائِهِمْ جَهَنَّمُ أى أنّ جهنّم تنتظرهم،و إذا زعموا أنّ بمقدورهم النجاه من جهنّم بأموالهم أو أولادهم فقد زعموا باطلا.

وَ لاٰ يُغْنِي عَنْهُمْ مٰا كَسَبُوا شَيْئاً

و لن تغنی عنهم آلهتهم شیئا.

وَ لاٰ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَوْلِيٰاءَ فلیس فی یوم القیامه لهذه الأصنام الحجریه أو البشریه قیمه حتی ینقذونکم من النار.

وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ و العذاب العظیم یتناسب و ما عبدوا من دون اللّه،إذ أنّهم اقترفوا جریمه عظیمه بالشرک فعاقبهم ربّهم بعذاب عظیم.

[۱۱] هٰذٰا هُدىً الهدی هو الطریق المستقیم الذی ینجیک من عذاب جهنّم.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ لماذا یکرّر ربّنا عزّ و جل موضوع العذاب خمس مرّات: «وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّٰاكٍ أَثِيمٍ »، «فَبَشِّرْهُ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ »، «أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ »، «مِنْ وَرٰائِهِمْ جَهَنَّمُ... وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ »، «لَهُمْ عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ »؟لعلّ السبب هو تراکم العقد النفسیه علی القلب،التی یعتبر کلّ واحده منها حجابا سمیکا دون نفاذ نور الهدی،و لا بد من خرقها جمیعا بالإنذار الشدید بألوان العذاب و مراحله.

[۱۲]و بعد أن یمطر اللّه الذین یکذّبون بآیاته بالإنذار تلو الإنذار،لعلّ قلوبهم تخشع للحق،یذکّرهم بآیاته فی الآفاق،و بنعمه التی أسبغها علیهم،و انّ التفکّر فی ذلک یهدینا إلی حسن التدبیر،و بدیع الصنع،و بالتالی:إلی أنّ خالق هذا الخلق و منظّم أمره علیم حکیم،و أنّه لم یبدأه عبثا،و لا یترکه سدی،و هنالک نبلغ

حقیقه الجزاء التی تحاول النفس البشریه الهرب منها خشیه منها،و إشفاقا من ثقلها.

و هکذا ینتقل المؤمنون من التفکّر فی خلق اللّه إلی خشیه عقابه،کما قال ربّنا سبحانه و تعالی فی سوره آل عمران:

إِنَّ فِی خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلاٰفِ اللَّیْلِ وَ النَّهٰارِ لَآیٰاتٍ لِأُولِی الْأَلْبٰابِ* الَّذِینَ یَذْکُرُونَ اللّٰهَ قِیٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلیٰ جُنُوبِهِمْ وَ یَتَفَکَّرُونَ فِی خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلاً سُبْحٰانَکَ فَقِنٰا عَذٰابَ النّٰارِ* رَبَّنٰا إِنَّکَ مَنْ تُدْخِلِ النّٰارَ فَقَدْ أَخْزَیْتَهُ وَ مٰا لِلظّٰالِمِینَ مِنْ أَنْصٰارٍ » (۱)هکذا نری کیف أنّ التفکّر فی الخلق أوصلهم إلی خشیه النار، و هنا بعد أن ینذر اللّه الکفّار المستکبرین بالنار یعرج بنا إلی آیاته فیقول:

اَللّٰهُ الَّذِی سَخَّرَ لَکُمُ الْبَحْرَ البحر علی عظمته مسخّر للإنسان،أ فلا یدلّنا علی النظم و التدبیر؟ و لقد ذکّرنا السیاق بفوائد ثلاث لتسخیر البحر:

أوّلا:الملاحه التی تنقل الناس و البضائع إلی الآفاق.

لِتَجْرِیَ الْفُلْکُ فِیهِ بِأَمْرِهِ ثانیا:صید الأسماک و استخراج الثروات الأخری.

وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ

۱- ۱) آل عمران ۱۹۰/۱۹۲/

ثالثا:الاهتداء من واقع تسخير البحر إلى رحمه اللّه بالإنسان و كرامته له فينبعث لربّه شكرا و خضوعا.

وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ فالهدف من النعم تكامل روح الإنسان،و تسامى نفسه.

[۱۳]ثم انظر إلى ما فى السموات من آيات القدره،و معالم الحكمه،و كيف أنّ قانون الجاذبيه و نظام الأفلاك و مجارى الشمس و أقمارها و النجوم و ما حولنا يخدم حياه الإنسان فوق الأرض.أ فلا يهدينا ذلك إلى أنّ لوجود البشر هدفا لا بد أن نتعرّف عليه ثم نسعى لتحقيقه؟ وَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ و كذلك ما فى الأرض من أو كسجين الهواء،إلى أملاح الأرض،ذلك ما فيها من معادن مختلفه تنفع الناس،و إلى ما فيها من أحياء،كلّها تخدم حياه الإنسان و سعادته.من الذى سخّر كلّ ذلك للبشر ،أو ليس اللّه؟أ فلا نعبده؟! إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ و التفكّر هو إثاره العقل،لكى يربط المعلومات ببعضها،و يرتقى من خلالها إلى الحقائق الكبرى،و بالرغم من أنّ ما فى الحياه كلّها آيات تشير إلى تلك الحقائق إلاّ أنّ من لا يستثير عقله لا يستفيد منها شيئا.

[۱۴] قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ أَيّٰامَ اللّٰهِ لِيَجْزِىَ قَوْماً بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ

على المؤمن أن يعتبر نفسه أعلى من الذين لا يؤمنون،لأنّهم كالأعمى و الأصم، فإذا قاموا بعمل سيء فعليه أن يغفر لهم،و من المعلوم أنّ ذلك لا يعنى ترك المسؤوليه تجاههم،بل ينبغى ألّا يسارعوا فى محاربتهم،بل يدعوا ذلك الامام لكى يرى الظرف المناسب للمواجهه،و يومئذ يجزى اللّه الذين كفروا بما كانوا يكسبون،و ما دام المجرم لا يفوت ربّه فلما ذا البدار إلى أخذه،إذ قد تكون المبادره سببا لفشل خطط كثيره.

و هذا التفسير يتناسب و ما ذكره المفسرون من سبب نزول الآيه،من محاوله البعض من أصحاب الرسول أخذ المخالفين بالشده،ممّا كان يسبّب حرجا للرسول،و على ذلك يمكن تفسير قوله سبحانه «أَيّٰامَ اللّٰهِ »بأنّها أيّام نصره للمؤمنين، حسبما احتمله البعض.

[۱۵] مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ يجده فى الجنه.

وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَيْهٰا مغرما عليه يوم القيامه.

ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ففريق فى الجنه،و فريق فى السعير.

و هذه الآيه تبيّن لنا أهميه المسؤوليه،و أنّ كلّا مسئول عن عمله،فلا ينبغى البدار إلى العقاب،و لا انتظار الثواب العاجل،بل لا بد أن يتمتع المؤمن برؤيه مستقبليه تضفى عليه الطمأنينه و السكينه و الحكمه فى التحرّك.

[سوره الجاثيه (۴۵): الآيات ۱۶ الى ۲۲]

اشاره

وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ اَلْكِتابَ وَ اَلْحُكْمَ وَ اَلنُّبُوَّهَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ اَلطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى اَلْعالَمِينَ (۱۶) وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ اَلْأَمْرِ فَمَا اِخْتَلَفُوا إِلاّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ اَلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيامَهِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۷) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَهٍ مِنَ اَلْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ اَلَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۱۸) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اَللّهِ شَيْئاً وَ إِنَّ اَلظّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ اَللّهُ وَلِيُّ اَلْمُتَّقِينَ (۱۹) هذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَهٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۲۰) أَمْ حَسِبَ اَلَّذِينَ اِجْتَرَحُوا اَلسَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۲۱) وَ خَلَقَ اَللّهُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۲۲)

اللغه

(۲۱) اِجْتَرَحُوا :أي اقترفوا و ارتكبوا،و الاجتراح:

الاكتساب.

ص:۸۱

ثُمَّ جَعَلْنٰاکَ عَلىٰ شَرِیعَهٍ مِنَ الْأَمْرِ

هدی من الآیات:

تشترک الأمّه الاسلامیه و بنوا إسرائیل فی عهدهم الرسالی فی القضایا الجوهریه، بالرغم من بعض الفوارق،فلقد فضّل اللّه الأمه الاسلامیه علی سائر الأمم بالرساله الخاتمه،کما فضّل اللّه بنی إسرائیل علی من عاصرهم برسالته التی أنزلها علی موسی بن عمران(علیه السلام)،کما فضّلهما علی الناس ببیّنات من الأمر،تبصّرهم سبیلهم المستقیم،و توفّر لهم فرصه الوحده،و لکن لم تکن الرساله لتعصم الناس عن أن یختلفوا لو لم یرد الناس أنفسهم ذلک،و من هنا فقد اختلف الناس من بعد موسی کما اختلفوا بعد نبیّنا محمّد(صلّی اللّه علیه و آله)بغیا بینهم،و لیس لنقص فی عوامل الوحده المتوافره لدیهم من عند اللّه سبحانه.

و لعلّ سبب المقارنه بین بنی إسرائیل و الأمه الاسلامیه یوجز فی أمرین:

الأول:ما سبق من حدیث الرسول الدال علی أنّ الأمه الاسلامیه ستحذو حذو

بنی إسرائیل حذو القذّه بالقذّه،و النعل بالنعل،حتی لو دخلوا جحر ضبّ لدخلوه.

الثانی:للدلاله علی أنّ ما جری عند بنی إسرائیل یشبه القانون الاجتماعی أو السنّه الحیاتیه التی تتکرّر عاده بین الأمم إلاّ من عصم اللّه.

و نستوحی من هذه الآیات بصیرتین:

الأولی:لقد وفّر اللّه لبنی إسرائیل کلّ أسباب السعاده،فأعطاهم الکتاب و الحکم و النبوه،و فضّلهم علی العالمین،و آتاهم بیّنات من الأمر،و أعطاهم العلم و الوعی،و لکنّهم اختلفوا من بعد ذلک بغیا،و جرّوا علی أنفسهم الویلات،ممّا یدلّ علی أنّ البغی لیس ذا طابع فردی،لأنّ من یظلم یشجّع الآخرین علی الظلم، و تنتشر عاده البغی حتی یظنّ کلّ واحد أنّ من(لا یظلم الناس یظلم)أو(إذا لم تکن ذئبا أکلتک الذئاب).

ثم إنّ الظالم لا یلبث أن یبحث عن فلسفه لظلمه،و محور یجتمع الظالمون حوله، و ینظّمون و یسنّون شرائع له،و ینصبون له أعلاما یدعون الناس إلی الرضوخ له، و هکذا یبدو الظلم عملا فردیّا یرعاه الحرص و التعالی،و سرعان ما یتحول إلی تیّار اجتماعیّ منظّم،له مؤسساته و قوانینه و دعائمه و قیاداته و..و..،حتی یصبح الناس فریقین:طبقه ظالمه مستکبره متسلطه،و طبقه مظلومه مستضعفه مقهوره، و تلک الطبقه قد تختلف صورها،و لکنّ جوهرها واحد،کأن تتسمّی باللّوبی،أو الاقطاعیّین،أو اتحاد الشرکات،أو الحکومه،أو..أو..

الثانیه:و حینما ینحرف الناس،و تتسلّط علیهم طبقه مستکبره مستضعفه، تظلّل الناس بسحابه سوداء من الإرهاب و الاعلام المضلّل،لا بد أن یقف الصالحون(أنبیاء کانوا أم تابعین لهم)متسلحین بالشجاعه و الاستقامه،و یرفعوا أصابعهم إلی السماء مشیرین إلی اللّه الواحد الأحد،فإذا رأی اللّه منهم الصبر علی

البلاء نصرهم بعزّته.

بينات من الآيات:

[۱۶] وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِى إِسْرائِيلَ أوّلا:

اَلْكِتابَ التوراه،و الإنجيل،و الزبور،التى أثارت عقولهم،و برمجت حياتهم.

ثانيا:

وَ الْحُكْمَ فلقد جعل اللّه فى بنى إسرائيل ملوكا حاكمين و لقد فسّرنا ذلك فى آيه(۹۸)من سوره الأنعام.

ثالثا:

وَ النُّبُوَّةَ فقد جعل اللّه فى بنى إسرائيل أنبياء كثير منذ يعقوب عليه السلام حتى عيسى عليه السلام ، و هذا العدد من الأنبياء نعمه كبيره لبنى إسرائيل و فخر عظيم،لأنّ عظمه الأمه تقاس بعدد و نوعيه النخبه الطيبه فيها،و عالمنا اليوم يقيس تقدّم الأمم بنسبه الكفاءات فيها،و هكذا أضحت بنو إسرائيل أمّه متقدّمه بالنسبه إلى سائر الأمم فى عصرهم،ثمّ إنّ اللّه يحفظ الناس و يمنع عنهم العذاب بأنبيائهم و صالحيهم،قال تعالى: «وَ ما كانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ ». (۱)

۱- ۱) الأنفال/(۳۳).

و بالنسبه لنا كمؤمنين يجب أن نعرف أنّه كلّما كثر فينا الصالحون و العلماء الربّانيون و الرساليّون المخلصون كلّما أمسينا أقرب إلى الانتصار بإذن اللّه.

رابعا:

وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فقد رزق اللّه بنى إسرائيل رزقا حسنا بعد أن أمرهم بدخول باب حطّه إلى القريه المقدّسه التى بارك فيها.

خامسا:

وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ فى الحضاره عن غيرهم من سائر الأمم من قبلهم و من كانوا فى زمانهم، و لعلّ فى الآيه إشاره إلى أنّ هذا التفضيل كان بسبب تلك النعمه الآنفه،فلمّا زالت زال فضلهم.

سادسا:

[١٧] وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ يبدو انّ الأمر فى لغه القرآن يعنى المسأله العامه،قال تعالى: «وَ إِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ » (١)فقد أعطى اللّه بنى إسرائيل بصيره الأمر و بيّناته(أى تفصيلاته)فعرّفهم كيف يصرّفون حياتهم،و كيف يتعاملون مع غيرهم،و كيف يرتّبون اجتماعهم.

فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ

١- ١) النساء/(٨٣).

اختلفوا و لم يكن اختلافهم لنقص فى رسالتهم أو شحّه طعامهم،إنّما كان ببغيهم بالرغم من وجود العلم الذى كان جديرا بفضّ خلافاتهم لو تجنّبوا البغى، و لقد كان العلم عند وصى موسى يوشع بن نون،و كان الناس يعلمون ذلك،إلاّ أن حبّ الرئاسه و هوى السلطه لعب دورا خبيثا فى إزاله الحقّ عن مرساه،و الولايه عن مستقرّها،فاختلفوا أشدّ اختلاف.

و يضرب القرآن صفحا عن ذكر ويلات الاختلاف،من حروب داخليه تؤدّى الى زعزعه أساس المدنيّه،و غلبه الأعداء الخارجيين.

و لا ريب أنّ العلم هنا هو علم الدّين الذى يقضى على الاختلاف بين أصحاب الرساله،و لا يعنى أىّ معلومات كانت، لأنّ سلاطين الجور يحاولون أبدا الاستغناء عن علماء الدّين بمن يسمّى عالما من أصحابهم،و يغرونهم ليصنعوا لهم فلسفه و مذهبا.

إِنَّ رَبَّکَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَهِ فِيمَا کَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إنّ اللّه سيقضى بينهم بالحق،فلا تذهب نفسك عليهم حسرات،و لا تعجل عليهم،و اطمأن إلى أنّ الحق باق برغم التشويش عليه.

[١٨] ثُمَّ جَعَلْنَاکَ عَلَى شَرِيعَهٍ مِنَ الْأَمْرِ الشريعه:الطريقه الواضحه،فقد جعل اللّه الرسول صلى الله عليه و آله على الطريق الحق، و الدين الواضح.

فَاتَّبِعْهَا وَ لاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ و من لا يتبع شريعه اللّه فإنّه يتبع«أهواء»قوم لا يؤمنون باللّه،و هذه مشكله

ص:٨٧

العلماء الذين باعوا دينهم(شريعه اللّه)بالدنيا فاتبعوا أهواء الطغاه،و من هنا فإنّ مسئوليه العلماء الاستقامه على هدى اللّه،بالرغم من كلّ الضغوط التى يمارسها أصحاب القوه و الثروه.

و إذا بقى العلماء صامدين أمام أهواء الجاهلين فإنّهم يكونون مقياسا للحق، و محورا لأهله،و قياده موثوقه للثائرين من أجله.

أمّا إذا اتبعوا أهواء أولى القوه و المال فسوف يضيع الحق، و يختلف الناس من بعد ما جاءتهم شريعه اللّه بغيا بينهم،كما فعلت بنوا إسرائيل من بعد نبيّهم،و دالت دولتهم،و زالت الفضائل التى فضّلهم اللّه بها.

و نستفيد من الآيه أنّ أهمّ بنود الشريعه هى التى تمنع الاختلاف،و تحقّق العداله،و تقاوم البغى،و لا ريب أنّ كلّ ذلك موجود فى نظام الحكم عند الدين.

[۱۹]ثم يهدّد ربّنا هؤلاء العلماء الغاوين الذين يتبعون أهواء الظالمين:

إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً يوم القيامه،فلا يدفعون عنك العذاب،إذا أطعتهم و صاروا يستغلّونك من أجل تضليل الناس،بل دخولهم النار.

وَ إِنَّ الظّٰالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ فالأفحش ظلما يتولّى جمعهم،و يذيقهم من ويلات ظلمه ما يشاء،ثم يتسلسل الظلم نازلا حتى يصبح كلّ واحد منهم ظالما لمن دونه،و مظلوما ممّن فوقه، لا يذوقون برد العداله و الأمن أبدا.

و من أيّدهم دخل فی حزبهم،و احتمل وزر أعمالهم الذی یتجسّد فی الآخره عذابا شدیدا،أمّا فی الدنیا فیشمله ظلمهم الناشئ فی مجتمعهم.

و قد دلّت آیه کریمه علی أنّ اللّه یولّی الظالمین بعضهم(قد یکون أشدّهم ظلما)، حیث یقول ربّنا:« وَ کَذٰلِکَ نُوَلِّی بَعْضَ الظّٰالِمِینَ بَعْضاً » (۱)،

و فی الحدیث المعروف: «کما تکونون یولّی علیکم».

أمّا العلماء الذین یواجهون الظلم فإنّهم ینجون من آثاره فی الدنیا و فی الآخره.

وَ اللّٰهُ وَلِیُّ الْمُتَّقِینَ فهو سبحانه یؤیّد المتقین بنصره فی مقاومه الطغاه.

[۲۰] هٰذٰا بَصٰائِرُ لِلنّٰاسِ واضحه تهدی القلوب و العقول،و طریقه للرؤیه الصائبه،و منهج للتفکیر السلیم.

وَ هُدیً فالقرآن لا یکتفی ببیان البصائر،بل و یقرّبنا حتی نلامسها،و نتفاعل معها، و نشهدها عن کثب،و هذا هو الهدی.

وَ رَحْمَهٌ لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ إذ أنقذهم من الغوایه و الاختلاف،و هداهم إلی شریعته الواضحه السمحاء.

أمّا الذین لا یوقنون،و بالتالی لا ینفّذون أوامره فی الأوقات الحرجه،و بالذات عند اختلافهم،فإنّ القرآن لا یغنی عنهم شیئا،و لعلّ الآیه هذه تشیر إلی ما تدلّ

۱- ۱) نهج البلاغه/ج(۲۱۱)/ص(۵۰۶).

علیه الآیه الکریمه: «فَلاٰ وَ رَبِّکَ لاٰ یُؤْمِنُونَ حَتّٰی یُحَکِّمُوکَ فِیمٰا شَجَرَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ لاٰ یَجِدُوا فِی أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَیْتَ وَ یُسَلِّمُوا تَسْلِیماً » (۱).

[۲۱]لان الدنیا دار ابتلاء فهی دار غرور یخیّل للإنسان ان المجرم و المحسن فیها سواء،و ما هی إلاّ فتنه قصیره الأمد،و بعده یتمیز المحسن بالثواب،و المجرم بعقاب شدید.

و یوغل البعض فی التمنی و الغرور حین یزعم أن الآخره کما لبعض الحالات فی الدنیا یتساوی بها المحسن و المسیء،و هکذا تسوّل له نفسه الاسترسال فی السیئات دون رادع،کلا.إن ذلک حکم جائر بعید عن سنن اللّه فی الخلیقه.

أَمْ حَسِبَ الَّذِینَ اجْتَرَحُوا السَّیِّئٰاتِ و الاجتراح:الاکتساب،و نستوحی من الایه ان اجتراحهم للسیئات هو الذی جعلهم یظنون هذا الظن السیء،ذلک لأن الشیطان یزیّن للإنسان عمله.

أَنْ نَجْعَلَهُمْ کَالَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ سَوٰاءً مَحْیٰاهُمْ وَ مَمٰاتُهُمْ کلا فحیاه المؤمن زاخره بالاطمئنان،و الفلاح،و الأمل، بینما یجعل اللّه صدر الکافر حرجا ضیّقا،و یمنع عنه الالتذاذ الکافی بنعیم الدنیا،و یجعله یأکل کما تأکل الانعام،و یجعله عرضه للعذاب.

أما بعد الموت فان الملائکه یستقبلون المؤمنین بالترحاب،بینما یغلظون علی المجرمین،ثم یتمیزون الی الأبد عن بعضهم،فهؤلاء فی الجنه منعمون،و أولئک فی العذاب الألیم.

۱- ۱) الأنعام/(۱۲۹).

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ و عند هذه الآيه تتلاشى الامانى التى يعيشها بعض المسلمين،و يبررون بها اجتراحهم للسيئات،فبعض يقول:سيغفر لنا،و بعض يزعم انه يتوب قبيل وفاته، و بعض يتشبث ببعض الطقوس و يزعم انها تغنيه عن الالتزام بالواجبات.

كلا..ان ربنا عدل لا يجوز،و لا يمكن أن يتساوى عنده المحسن و المسىء.

[۲۲]حين نتفكر فى خلق اللّه فى السماء التى تظلّنا،فى الأرض التى تقلّنا، فى الظواهر الطبيعيه،فى الدورات النباتيه،فى التفاعلات الحياتيه،فى كل شىء، فان حقيقه واحده تتجلى بوضوح و هى:أنّ كل شىء حقّ،و يدبر بحق.أ رأيت الذى يزرع الشعير هل يحصد حنطه.كلا..و لما ذا لا نتمنى للخامل ان يحصل على علم وافر،و ثروه طائله؟و كيف لا يحلم أحد ان تلد البقره حصانا،أو ان يطير الفيل فى الجو كالغراب؟ لماذا العلم يتوغل فى عمق الأشياء لمعرفه الأسباب و النتائج،أو خصائص المعادن و النبات،أو ليس لأن كل شىء خلق بحق، و يجرى ضمن سنه عادله؟! فكيف نتمنى إذا ان نجترح السيئات و يكدح ذلك المؤمن فى إقامه الصلاه، و إيتاء الزكاه،و الجهاد،ثم نجنى نحن و هو ثمرات متشابهه.هل رأيت مثالا واحدا فى عالم الخليقه حتى تقيس نفسك به مثلا؟ وَ خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ و يتجلى هذا الحق فى حياه الإنسان عبر سنه الجزاء.

وَ لِتُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ

بلی.قد یتأخر الجزاء أو تخفی علاقته بالعمل،قد یشرب المرء ماء ملوثا ثم یصاب بمرض خطیر بعد مده،و لا یصدق أن شر به ذلک الماء کان سبب اصابته بالمرض.قد یعیش مجتمع التخلف و لا یعترف ان خموله،و تمزقه،و جهله سبب ویلاته،و لکن سنه الجزاء جاریه.علمنا بها أم لا،و صدقنا بها أم لا.

ص:۹۲

[سوره الجاثيه (۴۵): الآيات ۲۳ الى ۲۹]

اشاره

أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اِتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اَللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اَللّٰهِ أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ (۲۳) وَ قٰالُوا مٰا هِيَ إِلاّٰ حَيٰاتُنَا اَلدُّنْيٰا نَمُوتُ وَ نَحْيٰا وَ مٰا يُهْلِكُنٰا إِلاَّ اَلدَّهْرُ وَ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَظُنُّونَ (۲۴) وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ مٰا كٰانَ حُجَّتَهُمْ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا اِئْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۲۵) قُلِ اَللّٰهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلىٰ يَوْمِ اَلْقِيٰامَةِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (۲۶) وَ لِلّٰهِ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ اَلسّٰاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ اَلْمُبْطِلُونَ (۲۷) وَ تَرىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جٰاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعىٰ إِلىٰ كِتٰابِهَا اَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) هٰذٰا كِتٰابُنٰا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنّٰا كُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۹)

اللغه

(۲۳) غِشٰاوَةً :غطاء.

ص:۹۳

(۲۸) جَ◌ِاثِيَةً :الجثو هو التهيؤ للقيـام،و ذلـك لأنّ الإنسـان الخـائف لاـ يجلس جلسه الاطمئنان بل يرفع أليبه من الأرض حتى إذا نودى أو جاء الفزع قام فورا بلا استبطاء، و الجثو يكون على الركب.

(۲۹) نَسْتَنْسِخُ :أى نأمر الكتبه بنسح أعمالكم، و الاستنساخ هو الأمر بالنسخ.

ص:۹۴

أ رایت من اتخذ إلهه هواه

هدی من الآیات:

یستعرض السیاق فی هذا الدرس و بعده صفات الکفّار، کیف أنّهم اتخذوا أهواءهم آلهه عبدوها من دون اللّه لمّا أطاعوها،و کیف ختم اللّه علی سمعهم و قلوبهم،و جعل علی أبصارهم غشاوه،فمن یهدیهم من دون اللّه؟!و أنّهم کفروا بما وراء الحیاه حتی یحیی اللّه أمواتهم فیرونهم عیانا،و لکن إذا قامت القیامه و جثوا علی رکبهم ذلا و خشوعا فهل من محیص؟!

بینات من الآیات:

[۲۳]هناک علاقه وثیقه بین العقل و الایمان،فالعقل ینبعث من ذات المشکاه التی ینبعث منها الایمان،فمن اتبع عقله هدی إلی الایمان،و من آمن أنقذ عقله، أمّا من اتبع هواه فقد عطّل عقله،و لن یهتدی إلی الایمان،و یکون کمن أوصد منافذ قلبه حتی لا یصل إلی الحقیقه،و لن یصل إلیها،و حین یتبع الإنسان هواه تکثر

ص:۹۵

أنانيته و شهواته،حتى لا يرى إلاّ نفسه و ما يخدمها مباشره،و يبلغ به حبّ الذات حدّ العباده،إذ يجعل ما تشتهيه نفسه شرعا يلتزم به،و حينئذ يسجن فى زنزانه نفسه،و لا يؤمن بغيرها،و لا يقدر أن يسمو بها إلى حاله الايمان بربّ العالمين.

أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ لماذا يقول ربّنا: «أَ فَرَأَيْتَ »و لا يخاطب من اتبع هواه مباشره؟ و الجواب:

أوّلا:لأنّ مثل هذا الإنسان ليس من السهوله أن يميّز خطأه، بل هو كالميّت لا يستحقّ خطابا.

ثانيا:لكى يتخذ المخاطب حذره،فلا يقع فيما وقع فيه عابد هواه،و يتعلّم عباده ربّه من عابد هواه،كما قيل لذلك الحكيم:من أين تعلّمت الأدب؟قال:

ممّن لا-أدب له،عمل ما ساءنى فلم أعمل مثله؟كذلك يكفينا عبره النظر إلى عاقبه من يعبد هواه،فلا ندع شهواتنا الطاغيه تستدرجنا إلى هذا المصير،بل نعتبر الهوى أشدّ أعدائنا،و نعتبر الوقوف أمامه شجاعه بالغه..على أنّ أكثر الناس يطيعون أهواءهم بقدر معيّن،إلاّ أنّ من يتخذ هواه إلهه عبره لهم،ليعرفوا عاقبه الاسترسال مع الهوى.

وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ إنّه ما أضلّهم إلاّ من بعد أن أعطاهم العلم،فاختلفوا بغيا بينهم،و قيل على علم من اللّه أنّه يستحق الإضلال بسبب جحوده بعد اليقين،و كفرانه بنعمه الهدى، و يكون كلا التفسيران إلى معنى واحد.

ص:٩۶

وَ خَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ فلا يسمعون و لا يعون الحقائق،لأنّ اللّه أبعدها عنهم،و هل يعطى ربّنا دينه من يعرف أنّه يكفر به سلفا؟! وَ جَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً فعند ما يبصر الآيات لا يرى ما وراءها من العبر،و ما قيمه ظواهر الآيات إذا لم يهتد الإنسان إلى معانيها،أو تنتفع من سماع لغه لا تعرفها،أو ينتفع الأمّى إذا نظر فى كتاب،و هل يهتدى غير الطبيب إلى حقيقه المرض من رؤيه أعراضه؟ كذلك نظرات الذين يعبدون أهواءهم تذهب عبثا،لأنّ تركيزهم إنّما هو على ظواهر الأمور،و لا يريدون بلوغ الحقائق فهم محجوبون عنها.

جاء فى الحديث عن أمير المؤمنين-عليه السّلام-فى صفه هؤلاء:

«أقبلوا على جيفه(الدنيا)قد افتضحوا بأكلها،و اصطلحوا على حبّها،و من عشق شيئا أعشى بصره،و أمرض قلبه،فهو ينظر بعين غير صحيحه،و يسمع بأذن غير سميعه،قد خرقت الشهوات عقله،و أماتت الدنيا قلبه،و ولهت عليها نفسه، فهو عبد لها و لمن فى يديه شىء منها،حيثما زالت زال إليها،و حيثما أقبلت أقبل إليها» (۱) فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللّٰهِ لقد أنعم اللّه على الإنسان بالعقل،و آتاه البينات،فإن اهتدى فلنفسه،و إن أساء،و اتبع هواه،و انحرف عن هدى عقله،و كذّب بالبيّنات،سوف يضلّه اللّه.

ص:۹۷

۱- ۱) نهج البلاغه/ج(۱۰۹)/ص(۱۵۹).

أ رأیت من یعطیه العقل من بعد اللّه،و من یمنّ علیه بهدی البیّنات؟ و الآیه تحذّرنا من مغبّه الاسترسال مع الذنوب إلی أن تسدّ علینا منافذ الهدی کلیّا فلا مناص من النار،و قد قال ربّنا: «ثُمَّ کانَ عاقِبَهَ الَّذِینَ أَسٰاؤُا السُّوایٰ أَنْ کَذَّبُوا بِآیٰاتِ اللّٰهِ وَ کٰانُوا بِهٰا یَسْتَهْزِؤُنَ » (۱).

و

جاء فی الحدیث عن الامام الباقر-علیه السّلام-: «ما من شیء أفسد للقلب من الخطیئه!إنّ القلب لیواقع الخطیئه فما تزال به حتی تغلب علیه، فیصیر أسفله أعلاه،و أعلاه أسفله» (۲).

قال رسول اللّه-صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-: إنّ المؤمن إذا أذنب کانت نکته سوداء فی قلبه،فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه منه،و إن زاد زادت، فذلک الرین الذی ذکره اللّه تعالی فی کتابه:« کَلاّٰ بَلْ رٰانَ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ مٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ » (۳).

و

جاء فی روایه أخری عن الامام الصادق-علیه السّلام-: «إنّ اللّه إذا أراد بعبد خیرا نکت فی قلبه نکته بیضاء،و فتح مسامع قلبه،و وکل به ملکا یسدّده، و إذا أراد بعبد سوءا نکت فی قلبه نکته سوداء،و شدّ علیه مسامع قلبه،و وکل به شیطانا یضلّه» (۴).

أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ بهؤلاء و تعتبرون بهم.

ص:۹۸

۱- ۱) الروم/(۱۰).

۲- ۲) روضه الواعظین/ص(۴۱۴).

۳- ۳) المصدر.

۴- ۴) بحار الأنوار/ج(۷۰)ص(۵۷).

[۲۴]و يبرّر هؤلاء عبادتهم لأهوائهم بقولهم:

وَ قٰالُوا مٰا هِيَ إِلاّٰ حَيٰاتُنَا الدُّنْيٰا نَمُوتُ وَ نَحْيٰا وَ مٰا يُهْلِكُنٰا إِلاَّ الدَّهْرُ لا شىء وراء ظاهره الحياه و الموت،و لا حتى اللّه الذى قدّر هما،و ما الدهر سوى الطبيعه،و هل للطبيعه إراده و حكمه؟!أ فلا ينظرون إلى السموات و الأرض و ما فيهما من عظمه التدبير و دقّه التقدير ؟!أ فلا يهديهم العقل إلى أنّ لكلّ تدبير مدبّر، و لكل تقدير مقدّر؟! و يبدو أنّ مرادهم من الموت فناء جيل،و الحياه نشأه جيل من بعدهم،فالزمان فى زعمهم يميت الأوّلين،و يحيى من بعدهم الآخرين،و هكذا فى دوره متتابعه لا يعرف مبتداها و لا منتهاها،و تبقى الأسئله حائره:من أين جئت،إلى أين أسير؟و ينادى ليس ادرى! و يبدو أنّ هذه النظريه يفرزها القلب المختوم عليه بسبب عباده الهوى،و هى تحلّل الإنسان من كلّ قيد،و تطلق عنانه فى اتباع الشهوات حتى النفس الأخير، و هى نظريه قائمه على أساس الفراغ العقيدى.

وَ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَظُنُّونَ أى يتخيّلون أن لا بعث و لا حساب،أ فينبغى أن نرسى بنيان أفكارنا و أساس مجمل ثقافتنا على قاعده الظن بعيدا عن العلم؟!و لكن ماذا يملك من عبد هواه، و أضله اللّه،سوى الظنون؟!إنّ العلم أعظم نعمه،و هو من عند اللّه،فلو سلبه من أحد،أ ترى يعرف شيئا؟هل يقدر الحائط-مثلا-أن يعى ما فى الحقل،أم المكيال ما فى البيدر؟!و لماذا؟مستحيل أن يعرفا.أو ليس لأنّ اللّه لم يرزقهما العلم؟كذلك محال أن يعرف من عبد هواه بدايه الخلق و نهايته،لأنّه قد سلب منه

هذا العلم،و قد تمّ إضلاله على علم.

الذى يرى الرياض الجميله تتوق نفسه إليها،و لكنّ الأعمى يظل يتخيّل، و يقول ليس ثمّه شىء أبدا.دعه فى ضلاله أبدا.

[٢٥] وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ حتى تكاد تلزمهم بالحقيقه تهرّبوا منها دون أن يملكوا حجه،بل:

مٰا كٰانَ حُجَّتَهُمْ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا ائْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ و هل إذا أحياهم يؤمنون؟ كلاّ.إنّهم يبرّرون بذلك تهرّ بهم من مسئولياتهم.

[٢٦] قُلِ اللّٰهُ يُحْيِيكُمْ من بعد العدم،بالقدره التى خلق بها السموات و الأرض من العدم.

ثُمَّ يُمِيتُكُمْ و ليس الدهر كما زعموا أنّه يهلكهم.

و يبدو أنّ هناك فرقا بين الموت و الهلاك:فالموت هو انفصال الروح عن الجسد، أمّا الهلاك فهو اندثار الشىء،و هو يتناسب مع الزوال بعذاب و مع الظروف التى تمحى آثار الميّت و كأنّه قد تلاشى،كما استخدم الهلاك فى قوله سبحانه: «وَ لَقَدْ جٰاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِمّٰا جٰاءَكُمْ بِهِ حَتّٰى إِذٰا هَلَكَ

قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً » (۱)،و قوله تعالى: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاٰلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ » (۲)،و قوله: «كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ » (۳)، فهلاك يوسف اندثار رسالته،و عدم التقيّد بها،و هلاك المرء انتهاء دوره حتى أنّ الكلاله يتقاسمون إرثه،و كذا فى الآيه الثالثه حيث يتمّ تلاشى كلّ شىء إلا وجه اللّه،كما قال ربّنا سبحانه: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ ».

و اللّه القادر على الأحياء و الاماته هو القادر على البعث و النشور.

ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ إذا كان يوم القيامه لا ريب فيه،فلما ذا نرى أكثرهم لا يعلمون بها؟ بلى.يوم القيامه لا ريب فيه واقعا،أى لا محاله واقع،و ليس فى ذلك تردّد، و لكنّ أكثر الناس لا يعلمون بهذا الواقع،و لا يغيّر جهل البشر من الواقع شيئا، فنحن نجهل-مثلا-وجود منظومه شمسيه فى آخر آماد هذا الفضاء،فهل يجعل جهلنا بها وجودنا عدما؟كلاّ..و لعلّ هذه الآيات فى القرآن تعالج حاله نفسيه عند البشر أنّه يزعم أنّ مجرد شكّه فى شىء يجعله فى حلّ من الالتزامات المرتّبه على وجوده،و بالتالى يتجاهل أشياء واضحه بزعم أنّه يدرأ عن نفسه أخطارها، كالنعامه التى تخفى رأسها زاعمه أنّها إذا لم تر الصيّاد فإنّه لا يراها!كلا..الواقع واقع،سواء آمنت به أو لم تؤمن،فإذا كان ذلك الواقع كيوم القيامه الرهيب فإنّ تجاهله مأساه حقيقيه للإنسان.

[۲۷] وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ

۱- ۱) غافر(المؤمن)/(۳۴).

۲- ۲) النساء/(۱۷۶).

۳- ۳) القصص/(۸۸).

أولئك الجاهلون يزعمون أنّ تكذيبهم بالساعه و استهزاءهم بها يكفيهم،كلاّ..

يقول ربّنـا:إنّ ملـك السـموات و الأـرض للّه،و اللّه لاـ يعطى شـيئا منها لأحـد باطلا، و إنّما رزقهم منها ما يمتحنهم به،فإذا عملوا باطلا فإنّهم يخسـرون يوم القيامه.أو ليست الـدنيا مزرعه الآخره؟أو ليس ما بأيدينا من قوه و مال و بنين هو رأسـمالنا الوحيد،فإذا لم نصلح أمره بل جعلناه فى يـد اللهو و الباطل فإنّ ذلك الخسـران؟ [٢٨]و يقصّ علينـا حـاله الأمم التى قالت و عملت باطلا فى ذلك اليوم الرهيب،و يقول:

وَ تَرىٰ كُلَّ أُمَّهٍ جٰاثِيَهً الجثو:هو الجلوس على الركب بخشوع و ذل.

كُلُّ أُمَّهٍ تُدْعىٰ إِلىٰ كِتٰابِهَا إنّ الكتاب هو كتاب أعمال الأمم.

و هناك سؤال:لماذا يقول ربّنا: «كُلُّ أُمَّهٍ تُدْعىٰ إِلىٰ كِتٰابِهَا »،و لم يقل:

(كـلّ فرد يـدعى..)؟ و لعـلّ الجـواب أنّ القرآن الحكيم يشـير إلى حسّ التوافق مع المجتمع فى الإنسـان، الـتى تجعـل المجموع مسئولا عن كـلّ فرد،كمـا أنّ الفرد له مسئوليه تجـاه المجموع، ذلـك لأـنّ كثيرا من أعمـال الفرد و عـاداته إنّمـا المسؤول عنها المجموع،و نستطيع أن نشبّه التجمّع بقافله ركّاب، فلو سقطت فى الوادى لهلك أهلها جميعا.

و القرآن يسفّه حاله الانسياق وراء المجتمع،قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله :«لا يكن

أحدكم إمّعه،يقول:إن أحسن الناس أحسنت،و إن أساؤوا أسأت،و لكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا،و إن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم».

و نستفيد من الحديث أنّه لا يوجد فى الإسلام حتميّات اجتماعيّه،و من الممكن تغيير الثوابت و الحتميّات الاجتماعيه بإصرار أبناء المجتمع،و لكن من عاده الناس اتباع الحاله الاجتماعيه،إلاّ من عصمه اللّه،و لذلك فهم مشتركون فى الجزاء.

اَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لو قال ربّنا: «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ »لاحتمل أن يكون الجزاء من غير جنس العمل،و لكن حذف الباء يؤكّد أنّ الجزاء هو ذات العمل الذى اجترحه الإنسان.

[۲۹] هٰذٰا كِتٰابُنٰا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ نطق الكتب قد يكون بسبب وضوح الأعمال،و قد يكون النطق بالمعنى الظاهر للكلمه،أى أنّ الكتاب يفرز الصوت،و قد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذا المعنى فى قوله: «حَتّٰى إِذٰا مٰا جٰاؤُهٰا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصٰارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ* وَ قٰالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنٰا قٰالُوا أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ... » (۱) ففى يوم القيامه تجسيد حى لعمل الإنسان،فربما عرض عليه الصوت و الصوره لعمله،و الفرق بين كتابه العمل فى الدنيا عنه فى الآخره أنّه فى الدنيا تكتب ظاهر الأعمال،بينما فى الآخره تثبت بخلفيّاتها،و بكلّ مقاديرها و نسبها،إذ تكتب صلاه الاثنين،و لكنّ لكلّ صلاه خصوصيّاتها،فصلاه هذا أكثر إخلاصا و خشوعا و تأنّ من الآخر،و كذا فى سائر الأعمال.

۱- ۱) فصّلت/(۲۰-۲۱).

إِنّٰا كُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و الاستنساخ هو إعاده كتابه الأصل،فالأصل عند الإنسان،و الكتبه من الملائكه يكتبون ما يعمل،و يدلّ على ذلك قوله: «اقْرَأْ كِتٰابَكَ كَفىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » (1).

و هذا يقودنا إلى أنّ الأعمال تنعكس على ظاهر الإنسان فى القيامه،فقد جاء فى القرآن عند بيان حاله المنافقين: «وَ لَوْ نَشٰاءُ لَأَرَيْنٰاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمٰاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » (2)و يحفظ اللّه الأعمال أيضا على قلب الإنسان على شكل نكت سود لا نراها،و لكنّ اللّه يعلمها،و قد ينطقها يوم القيامه،كما ينطق اللّه أعضاء الإنسان،و لعلّ هذا أحد مصاديق الاستنساخ،و العلم الحديث بدأ بمعرفه الحقائق عبر أعضاء الإنسان،عبر بصماته،و عبر ضغط الدم فى جهاز كشف الكذب،و عبر تقاسيم الوجه،و متى ما علم الإنسان أنّ أعماله تصوّر له فى الآخره و تجسّد فإنّه قد يئوب إلى اللّه إذا كان غافلا،لأنّ الكثير إنّما يعملون السيئات و هم فى غفله عن الآخره.

ص:104

1- 1) الإسراء/(14).

2- 2) محمّد/(30).

[سوره الجاثیه (۴۵): الآیات ۳۰ الی ۳۷]

اشاره

فَأَمَّا اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ فَیُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِی رَحْمَتِهِ ذٰلِکَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْمُبِینُ (۳۰) وَ أَمَّا اَلَّذِینَ کَفَرُوا أَ فَلَمْ تَکُنْ آیاتِی تُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فَاسْتَکْبَرْتُمْ وَ کُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِینَ (۳۱) وَ إِذٰا قِیلَ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ وَ اَلسّٰاعَهُ لاٰ رَیْبَ فِیهٰا قُلْتُمْ مٰا نَدْرِی مَا اَلسّٰاعَهُ إِنْ نَظُنُّ إِلاّٰ ظَنًّا وَ مٰا نَحْنُ بِمُسْتَیْقِنِینَ (۳۲) وَ بَدٰا لَهُمْ سَیِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۳۳) وَ قِیلَ اَلْیَوْمَ نَنْسٰاکُمْ کَمٰا نَسِیتُمْ لِقٰاءَ یَوْمِکُمْ هٰذٰا وَ مَأْوٰاکُمُ اَلنّٰارُ وَ مٰا لَکُمْ مِنْ نٰاصِرِینَ (۳۴) ذٰلِکُمْ بِأَنَّکُمُ اِتَّخَذْتُمْ آیٰاتِ اَللّٰهِ هُزُواً وَ غَرَّتْکُمُ اَلْحَیٰاهُ اَلدُّنْیٰا فَالْیَوْمَ لاٰ یُخْرَجُونَ مِنْهٰا وَ لاٰ هُمْ یُسْتَعْتَبُونَ (۳۵) فَلِلّٰهِ اَلْحَمْدُ رَبِّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ رَبِّ اَلْأَرْضِ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۳۶) وَ لَهُ اَلْکِبْرِیٰاءُ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۳۷)

ص:۱۰۵

فللّه الحمد و له الكبرياء

هدى من الآيات:

كان الحـديث فی الدرس السابق عن جثو الأمم خضوعا و ذلّه يوم القيامه، منتظره كتابها،و يتصل الحديث هنا بذلك الدرس عبر بيان انقسام الأمم يومئـذ فريقين:مؤمنين و كافرين،و نتساءل:لماذا يؤكّـد اللّه سـبحانه على تمايز البشـر عند الحساب؟لبيان أنّ كلّ إنسـان يصـنّف حسب عمله و سـلوكه،لاـ حسب صـفاته أو لونه أو انتمائه أو حسب وحـدته الجغرافيه أو حالته التاريخيه أو حتى انتمـائه الـدينى، و لاـ بـد أن نعكس التمـايز فی الآـخره فی الـدنيا،بـأن نصـنّف الأمم و المجتمعات و الأفراد على أساس أعمالهم فقط(مؤمن و كافر).

و تسـتعرض الآيات الأخيره صـفات الكفّار،كيف اسـتكبروا عن آيات اللّه و كانوا مجرمين،و كـذّبوا بالساعه،و اتخذوا آيات اللّه هزوا،و غرّتهم الحياه الدنيا، و بالتالى استحقّوا عذاب الآخره.

ص:۱۰۶

بينات من الآيات:

[۳۰]يميّز اللّه الناس يوم القيامه فريقين:

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ الرحمه فى الدنيا بالنسبه للمؤمنين تختلف عنها فى الآخره،ففى الدنيا قد يشوبها البلاء و الامتحان،و فى الآخره تأتيهم صافيه من كلّ كدر،و لعلّ هذا هو إيحاء كلمه «فِي رَحْمَتِهِ »حيث تحيط بهم رحمه اللّه من كلّ صوب،كما أنّ فى قوله «رَبُّهُمْ »لمسه حنان و عطف،و إشاره إلى رحمات اللّه فى الدنيا.

ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ الذى لا فوز فوقه،فقد نجّوا من عذاب شديد،و ضمّهم الربّ فى ضيافته، و أدخلهم فى بحار رحمته.أ فيتصوّر القلب فوزا أعظم منه؟تعالوا نسموا إلى حاله التطلّع إلى هذا الفوز العظيم،لعلّنا ندركه بتوفيق اللّه.

[۳۱] وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فإنّهم يدخلون النار،و يطالبون بالاعتراف بجرمهم المتمثّل فى استكبارهم ذلك الذى أرداهم فى جهنّم.

أَ فَلَمْ تَكُنْ آيٰاتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ فى هذه الآيه مصطلحات ثلاثه:الكفر و الاستكبار و الاجرام،أمّا الاستكبار فهو منطلق الكفر،بينما الجريمه عاقبته،ذلك لأنّ الإنسان إذا استقبل آيات اللّه من دون حجب،و من دون مفاهيم و عقائد مسبقه،فإنّ فطرته و عقله يقودانه إلى تقبّلها، و لكن إذا ما استقبل الإنسان آيات ربه عبر نظّاره الاستكبار السوداء، و رأى نفسه

ص:۱۰۷

أكبر من الحق،أو أنّ ذاته هی المحور و لیس الحق،فإنّه لن یتقبّلها،و متی ما جعل الإنسان نفسه فوق الحق أو اعتبرها هی الحق،فإنّه سوف یتجاوز الآخرین و یظلمهم و یجرم بحقّهم،و نقرأ فی الروایات ما یهدینا إلی ذلک:

۱-

عن أبی عبداللّه صلی الله علیه و آله قال: «الکبر أن تغمص الناس،و تسفّه الحق» (۱).

۲-و

عنه علیه السلام :«قال رسول اللّه-صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إنّ أعظم الکبر غمص الخلق،و سفّه الحق»،قال(الراوی):قلت:و ما غمص الخلق،و سفه الحق؟قال:«یجهل الحق،و یطعن علی أهله،فمن فعل ذلک فقد نازع اللّه رداءه» (۲).

[۳۲]و لکی نتخلّص من الکفر و الاستکبار و الاجرام یجب أن نجعل الحقّ هو المحور،و أن نتذکّر بالآخره،و نخشی الجزاء فیها.

وَ إِذٰا قِیلَ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ السّٰاعَةُ لاٰ رَیْبَ فِیهٰا لم ینکرون الآخره علی شدّه وضوحها،فالإنسان یری بفطرته أنّ الجزاء واقع، کما یری تحقیق ذلک فی الدنیا،فمن یظلم یبتلیه اللّه،بینما یحصل المحسن علی جزاء حسن،و لکنّه یری أنّ سنّه الجزاء لیست دائمه فی الدنیا و لا وافیه ممّا یهدیه إلی یوم الجزاء الأوفی.

و حین یراجع قلبه یراه مقتنعا به،إلاّ أنّه یجحد به لاستکباره عنادا و عتوّا، و یتساءل:ما الساعه؟أیّان مرساها،و ما أشراطها،و کیف یبعث اللّه الرمیم، و کیف تتمثّل الأعمال فیها تمثّلا؟

۱- ۱) بحار الأنوار/ج(۷۳)/ص(۲۱۷).

۲- ۲) المصدر/ص(۲۱۸).

قُلْتُمْ مٰا نَدْرِی مَا السّٰاعَهُ کذلک یجعلون جهلهم بالساعه(کیف و متی...)عذرا لانکارها،بینما العقل یدعوهم إلی الإیمان بالحقیقه إذا توافرت لدیهم الشواهد،ثم السعی لمعرفه المزید من تفاصیلها.أ رأیت لو تکاملت الحجه علی وجود مدینه فی أقصی الشرق،و لکن لا تعرف عنها شیئا کثیرا،فهل تنکر وجودها رأسا أم تعترف بها ثم تبحث عن التفاصیل؟ و الواقع:إنّ کثیرا من الناس ینکرون حقائق الرساله لأنّهم لا یعرفون التفاصیل عنها،بل تراهم یعادونها بمجرّد جهلهم بأبعادها،و

قد قال أمیر المؤمنین -علیه السلام-: «الناس أعداء ما جهلوا. » إِنْ نَظُنُّ إِلاّٰ ظَنًّا وَ مٰا نَحْنُ بِمُسْتَیْقِنِینَ هکذا شکّکوا أنفسهم حتی زعموا أنّهم لا یملکون إلاّ الظنّ دون الیقین،و لکن هب أنّهم یظنّون أ فلا تدعوهم عقولهم إلی أخذ الحیطه و الحذر؟!فالظن لیس مبرّرا للجحود بالساعه.أو لیس مجرّد الظن بوجود أسد فی الغابه کاف لأخذ الحیطه؟ و کذا الظن بالساعه یجب أن یدفعنا إلی تجنّب خطرها.

[۳۳] وَ بَدٰا لَهُمْ سَیِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا و نتساءل:لماذا قال ربّنا: «وَ بَدٰا لَهُمْ سَیِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا »،و لم یقل:

وَ بَدٰا لَهُمْ سَیِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا ؟ ربما لأنّهم فی الآخره لا تبدو لهم الأعمال السیئه،و لکن نتیجه عمل السیئات، کالحیّات و العقارب و الحمیم و العذاب.

«وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ » ففى الآخره تنزل بهم نتيجه الاستهزاء،و تحيط بهم إحاطه السوار بالمعصم،و قد قال البعض أنّ كلمه «حاقَ »مشتقّه من ماده الحق،و يكون معناها آنئذ أنّ ذلك الذى سخروا منه-زعما بأنّ باستطاعتهم التهرّب منه-قد نزل بهم،و أصبح حقّا واقعا لا مناص من الاعتراف به.

[۳۴] وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا لقد تغافلوا عن الآخره و نعيمها حتى كأنّهم نسوها،و هناك يغفل عنهم حتى لكأنّهم منسيّون،فلا يقدّر لهم خير،و لا يدفع عنهم ضرّ،جزاء وفاقا لتناسيهم الحق،و إمعانا فى إذلالهم عقابا على استكبارهم.

و بالطبع لا يعنى نسيان اللّه جهله بهم،كما لا يدل نسيانهم جهلهم بالآخره،

قد ذكر فى الروايه أنّه جاء بعض الزنادقه إلى أمير المؤمنين-عليه السّلام-و قال:

لولا ما فى القرآن من الاختلاف و التناقض لدخلت فى دينكم،فقال له على -عليه السّلام-:و ما هو؟قال:قوله: «نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ » و قوله: «فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا »و قوله: «وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا »...إلخ.

قال أمير المؤمنين-عليه السّلام-:فأمّا قوله تعالى: «نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ » يعنى إنّما نسوا اللّه فى دار الدنيا،لم يعملوا بطاعته،فنسيهم فى الآخره،أى لم يجعل لهم من ثوابه شيئا،فصاروا منسيّين من الخير،و كذلك تفسير قوله عزّ و جلّ:

«فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا »يعنى بالنسيان أنّه لم يثبهم كما يثيب أولياءه،الذين كانوا فى دار الدنيا مطيعين ذاكرين،حين آمنوا به و برسوله،و خافوه بالغيب.

و أمّا قوله: «وَ مٰا كٰانَ رَبُّكَ نَسِيًّا »فإنّ ربّنا تبارك و تعالى علوّا كبيرا ليس بالذى ينسى و لا يغفل،بل هو الحفيظ العليم،و قد يقول العرب:قد نسينا فلان فلا يذكرنا،أى أنّه لا يأمر لهم بخير و لا يذكرهم به (۱).

وَ مَأْوٰاكُمُ النّٰارُ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ و كثيرا ما يؤكّد اللّه عدم النصره فى الآخره،لأنّه لا ينجى من عذاب اللّه ناصر -إن وجد فعلا-فلا الطواغيت و الأخلاّء و لا الثقافه الفاسده و الأهواء تنصرنا من اللّه،و تنجينا من عذابه،و هذا غايه الضعف و المسكنه فى الآخره،فالإنسان يقف فريدا،و أمامه النار،و لا يجد من يذبّ عنه،فتراه مستسلما.

[۳۵]لماذا يحيق بهم العذاب،و ينساهم اللّه،و لا يجدون لهم نصيرا؟ أوّلا:

ذٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيٰاتِ اللّٰهِ هُزُواً ثانيا:

وَ غَرَّتْكُمُ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا و تصوّرتم أنّكم فيها ماكثون،و كفرتم بآخرتكم.

فَالْيَوْمَ لاٰ يُخْرَجُونَ مِنْهٰا وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ إنّهم لا يخرجون من النار لأنّها حاقت بهم،و صارت مأواهم،و لا يعاتبهم اللّه لأنّه لا داعى للعتاب،ما دام قد أدخلهم النار،و العتاب نوع من الإكرام و هم

۱- ۱) بحار الأنوار/ج(۹۳)/ص(۹۸-۹۹).

لا يستحقّونه ما داموا قد استهزءوا بالحق.

[۳۶] فَلِلّٰهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ ربما لأنّ اللّه أراد أن ينهى سوره الجاثيه التى كانت شديده الوقع على النفوس بما فيها من آيات الإنذار و العذاب بإعطاء الأمل،فللّه الحمد لأنّه تعالى يفعل ما يستحقّ الحمد،و له الحمد لأنّه ربّ السموات و الأرض،إذ بثّ فيهما آياته، و جعلها هدى للمؤمنين،و لأنّه يمسك السموات و الأرض أن تزولا،و له الحمد ربّ العالمين لأنّه خلقهم و رزقهم،و فطرهم على الايمان،و هو بهم رحيم.

(۳۷)و كما أنّ له الحمد فى السموات و الأرض فله السلطان و الملك.

وَ لَهُ الْكِبْرِيٰاءُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ فلما ذا تتكبّرون عن آياته،ما دام هو واسع الكبرياء،و إنّ آيات كبريائه سبحانه تتجلّى فى كلّ شىء فى السموات و الأرض.

وَ هُوَ الْعَزِيزُ فهو المقتدر القاهر على عباده،يجرى فيهم سننه،و يمضى فيهم قدره،شاؤوا أم أبوا،و لكنّه لا يفعل إلاّ ما تقتضيه حكمته البالغه.

اَلْحَكِيمُ فلا يظلم و لا يجور،و يعطى كلّ ذى حقّ حقّه،سبحانه.

ص:۱۱۲

سوره الأحقاف

اشاره

ص:۱۱۳

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

قال الامام ابو عبداللّه الصادق علیه السلام : «من قرأ کل لیله أو کل جمعه سوره الأحقاف لم یصبه اللّه عز و جل بروعه فی الحیاه الدنیا،و آمنه من فزع یوم القیامه إن شاء اللّه».

تفسیر نور الثقلین ج ۵ ص ۷

الإطار العام

لکی نبصر حقیقه الأشیاء لا بد أن نعرف الحقائق الکبری التی هی غیب کلّ حقیقه و هی:

أوّلا:حقیقه الخلق،و أنّ کلّ شیء قد أنشأ و قدّر و دبّر أمره من لدن عزیز حکیم.

ثانیا:حقیقه الواقعیه،و أنّ الأشیاء حق لا وهم و لا خیال.

ثالثا:حقیقه الزمن و أنّ لکلّ شیء أجلا.

و لکن لماذا لا یفقه أکثر الناس هذه الحقائق الواضحه،و حتی حین ینذرهم اللّه عبر الرسل تراهم یعرضون عنها؟ لعلّ أهم قضیه تعالج فی القرآن هی هذه القضیه،لأنّه من دون معالجتها لا یبلغ الإنسان علما و لا حکمه.

و السؤال:ما هی الحجب التی تغشی أبصار الخلق عن رؤیه هذه الحقائق؟

ص:۱۱۷

إنّها عديده،و لعلّ السياق فى سوره الأحقاف يعالجها مع التركيز على بعضها، شأنها شأن سائر السور.

أوّلا:الشرك بدعوه غير اللّه،و يتساءل السياق:ترى هل خلقوا ما يدعونهم شيئا من الأرض أم لهم مساهمه فى إداره السموات؟ كلا..ثمّ أنهم لا يستجيبون لهم بشىء إلى يوم القيامه،و يعادونهم يوم الحشر.

ثانيا:كيل التهم(و الأحكام المسبقه و الباطله)على الرساله و الرسل،ممّا يحجبهم عن معرفه حقيقتهما،فقالوا أنّها سحر و أنّه مفتر.

و كيف يكون مفتر و اللّه يحيط قدره بمن يفترى،و يحيط بكلّ شىء علما،و هو شهيد على صدق الرساله؟!و هذا الرسول ليس بدعا فلقد بعث اللّه أنبياء سابقين.

ثم أنّ الرسول متمحّض فى رسالته فما عليه إلاّ البلاغ،ثمّ أنّ بعض علماء بنى إسرائيل قد شهد بصدقه،بينما استكبر الجاهلون.

و قد يكون الحسد و الضغينه و العصبيه تجاه صاحب الدعوه سببا للكفر بها، و لكن لما ذا يحرم الإنسان نفسه من الحق لموقفه الشخصى ممّن يدعوه إليه؟و أساسا:

لماذا هذا الموقف الظالم الذى يصدّ الإنسان عن الهدى،ذلك أنّ اللّه لا يهدى القوم الظالمين؟ و كتاب موسى(الذى يتعصّب البعض له،و يصدّون عن النسخه الأكمل منه)ما نزل لتأييد الظلم،بل رحمه،و هكذا القرآن،فهو نذير للظالمين،و بشرى للمحسنين.

و أصحاب الرساله بحاجه إلى الاستقامه لمواجهه تلك العقبات،و آنئذ لا خوف

عليهم و لا هم يحزنون.

و الموقف السليم من الجيل الماضى يساهم فى توفير فرض الإيمان،و يبيّن السياق وصيه ربّنا بالوالدين،كما يبيّن التطلّع المشروع عند الإنسان فى إنشاء ذرّيّه صالحه.

و يعد التائبين فى سنّ الأربعين المسلّمين لربهم غفران الذنوب،و دخول الجنّات.

أمّا المتمرّد على والديه و هما يدعوانه للايمان،لأنّ وعد اللّه حق،فيقول ما هذا إلاّ أساطير الأوّلين فانّه مثل لمن أعاقته نزوه الشباب عن اتباع الحق الذى يدعوا إليه آباؤه(و هو بالتالى مثل للظالم الذى منعه تمرّده على أبيه عن اتباع الحق لمجرّد أنّه دعوه أبيه).

و بعد أن يبيّن القرآن أنّ درجات الناس على قدر أعمالهم،يعرض لنا صوره أهل النار تستقبلهم جهنّم بلظاها،و هم يحاكمون هنالك لأنّهم أذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا،(و يبدو أنّ الإسراف فى اللذات عقبه أخرى فى طريق الإيمان)، و لعلّ الإسراف فى الاستمتاع بالطيبات سببه الاستكبار فى الأرض،و عاقبته الفسق عن حدود الشريعه.

و أيّه عقبه كأداء كالاسترسال مع العادات الباليه و التقاليد الباطله،كما فعلت عاد حيث أعرضوا عن أخيهم هود و هو ينذرهم بالأحقاف و يستعجلونه العذاب،و لكن حين استقبلهم عارض فى الأفق زعموا من فرط غفلتهم أنّه عارض ممطرهم،بينما كان ريحا تدمّر كلّ شىء بأمر ربّها.

لما ذا كفرت عاد،هل لفقر و حاجه،أم لنقص فى وسائل المعرفه من السمع

ص:١١٩

و الأبصار؟كلّا..إنّما لجحود آيات اللّه و الاستهزاء بها،فكانت عاقبتهم الدمار.

أ فلا نعتبر بمصيرهم قبل أن نصبح عبره لمن يتعظ من بعدنا؟أ فلا نزور الأطلال التى بقيت من القرى الهالكه،و ننتفع بالآيات التى صرّفها اللّه لإيقاظنا من الغفله؟ إنّ هذه الآيه التى يعتمد عليها الإنسان فى كفره بربّه،و يزعم أنّها مانعته من عذاب اللّه،هلاّ منعت عن تلك القرى العذاب.

و ترى بعضهم يستعيذون بالجن،و يزعمون أنّهم يكفونهم العذاب،بينما الجن كما الانس أنذروا بالرساله،و لقد صرف اللّه نفرا منهم فاستمعوا للقرآن فأصبحوا منذرين،و دعوا قومهم للاستجابه للرساله،و بيّنوا لهم أنّ من لا يجب داعى اللّه فليس بمعجز فى الأرض.

و تبيّن الآيات الأخيره من السوره قدره اللّه على إحياء الموتى،و أنّ الكفّار يؤمنون بذلك حين يرون العذاب،و أنّ على الرسول الصبر فى دعوته دون أن يستعجل لهم، لأنّه مهما طال بهم العمر فانّ مكثهم فى الدنيا يشبه ساعه إذا قيس بالخلود فى النار.

ص:١٢٠

[سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۱ الى ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . حم (١) تَنْزِيلُ اَلْكِتٰابِ مِنَ اَللّٰهِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَكِيمِ (٢) مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا عَمّٰا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ أَرُونِي مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ اَلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ اِئْتُونِي بِكِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا أَوْ أَثٰارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۴) وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مَنْ لاٰ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلىٰ يَوْمِ اَلْقِيٰامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعٰائِهِمْ غٰافِلُونَ (۵) وَ إِذٰا حُشِرَ اَلنّٰاسُ كٰانُوا لَهُمْ أَعْدٰاءً وَ كٰانُوا بِعِبٰادَتِهِمْ كٰافِرِينَ (۶) وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ اِفْتَرٰاهُ قُلْ إِنِ اِفْتَرَيْتُهُ فَلاٰ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اَللّٰهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِيمُ (٨)

اللغه

(۴) أَثٰارَةٍ :بقيه.

(۸) تُفِيضُونَ فِيهِ :أی ما تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن و القول فيه أنه سحر.

ص:۱۲۲

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمّٰا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ

بينات من الآيات:

[۱]تبدأ هذه السوره المباركه بكلمه قصيره،مقطّعه تشبه سائر المقطّعات القرآنيه التى مررنا بها فى السور المتقدمه،و سبق الحديث عن تفسيرها،و هى:

حم [۲] تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ سمّى الكتاب كتابا لأنّه مكتوب مثبّت،و كذلك القرآن،فهو مكتوب و دائم و ثابت،و لهذا سمّى باسم«الكتاب»،و ثبات القرآن يختلف كثيرا عن سائر الكتب لأنّه كما

قال الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله : «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل اللّه على خلقه» (۱).

و السؤال:لماذا لا يقاس القرآن بالكتب البشريه؟لماذا بينهما مسافه لا تحد؟

ص:۱۲۳

۱- ۱) بحار الأنوار/ج /۹۵ص ۱۹

و الجواب:لأنّه نزل من اللّه،و اللّه هو العزيز الحكيم،فبعزّته يفرض الكتاب على الإنسان و الطبيعه فرضا،و بحكمته يجعله كتاب هدايه و بصيره،و مصدر توجيه للإنسان إلى الحق و إلى ما فيه صلاحه.

[٣]و فيما يلى من الآيات يحدّثنا القرآن الحكيم عن تجلّيات اسمى العزّه و الحكمه فى الكون،و عن الظواهر ذات الدلاله الواضحه على عزّه الربّ و حكمته، و نحن لا بد أن نفقه تلكم التجلّيات و هذه الظواهر،لأنّ فهمنا للخليفه من حولنا لا يكون فهما عميقا إلّا إذا كان فهما مترابطا متفاعلا،فلا بد أن نربط-مثلا-بين ارتفاع القمر و نزوله و بين المدّ و الجزر فى البحر،كما نربط بين طلوع الشمس و بين التفاعلات الكيماويه التى تحدثها فى أوراق الأشجار،فالكائنات حقائق مترابطه يتصل أدنى شىء منها بأقصاها،و الكبير و الصغير و القريب و البعيد فى ذلك سواء، كلّهم متفاعلون مع بعضهم يجرى ربّنا عليهم حكما واحدا و نظاما مطّردا،و لا نستطيع أن نفهم القوانين الثابته التى تجرى فى الخلق إلّا بفهم ذلك التفاعل، فالقانون الذى تتحرّك على أساسه أكبر مجرّات الفضاء هو نفس القانون الذى تتحرّك وفقه الكريات المتناهيه فى الصغر داخل الدرّه المتواضعه،ثم إنّ كلّ ذلك التواصل و التفاعل و الخضوع للسنن الواحده يهدينا إلى الحقيقه العظمى الا و هى التوحيد:ان ربّنا العزيز الحكيم هو الخالق لها جميعا،و هو المدبر لها.

و يبدو انّ منهج القرآن لانماء هذا الوعى الشمولى للكائنات الذى يشكل مستوى رفيعا من تكامل عقل الإنسان يتمثل فى انّ القرآن يذكّرنا باسم من أسماء اللّه الحسنى،تم يتدرّج نازلا من ذلك الاسم إلى مختلف الظواهر التى يتجلّى فيها ذلك الاسم الكريم،فى عالم الطبيعه(الآفاق)و عالم الإنسان(الأنفس)،فى حاضر الإنسان أو ماضيه أو مستقبله،لكى تتماوج بنور اللّه اشعه فكره صاعده من بعض ظواهر الخلق إلى أسماء الخالق،و نازله من أسماء الربّ إلى سائر الظواهر،

و من ماضـى البشـريه إلى حاضـرها و إلى مسـتقبلها،فتتسع آفاق معرفته،و تغور فى أعماق الغيب بصائر وعيه،و يسمو فى درجات اليقين عقله،و تزكو بنور الايمان نفسه،و يهـديه اللّه الى نوره الأبهى،قويا عزيزا كما أنّ ربّه قوى عزيز،و يصـبح حكيما خبيرا كما أنّ ربّه حكيم خبير،كلّ ذلک بمعرفه أسماء اللّه الحسنى.

و ربمـا تـدرّج المنهـج القرآنى بصوره عكسـيه،فيبين ظاهره فى آفاق العالم أو أغوار النفس أو أبعاد التاريـخ،ثم يـذكر اسـما من أسمائه الحسنى،و نهايات الآيات القرآنيه مثل: وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَ اللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ...

مفيـده جـدا لو تـدبّرنا فيهـا،لأنّ الرب يـذكّرنا بظاهره ثم يربط بينها و بين اسم من أسـمائه الحسـنى،فاذا و عيناه حقّ الوعى عرفنا تجلّياته فى سائر الظواهر أيضا.

و حيث ذكّر السـياق فى الآيه الثانيه أنّ هـذا الكتاب منزل من اللّه،و اللّه هو العزيز الحكيم بيّن فى الآيه الثالثه بعض تجليات العزّه و الحكمه،فقال:

مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى لقـد خلقها على عظمتها الهائله فهو إذا قوى عزيز،و لانّ بناءها كان قائما على أساس الحق فهو إذا حكيم.

و نسـتوحى من هـذه الآيه أنّ حكمه اللّه اقتضت محدوديه الخليقه،فلكلّ شـىء يه أجل معدود،و حد محدود،هكذا يكون الزمان جزء من حقيقه الخليقه،و ربمـا انفتحت أمامنـا آفـاق واسعه لـو تـدبّرنا أكـثر فـأكثر فى حرف البـاء الـذى يسـتخدم للاسـتعانه،و تساءلنـا:لمـاذا ذكره السـياق فيمـا يتصل بالأجل كما ذكره عنـد الحـديث عن الحق،فهل يمكن أن نسـتنتج أنّ الحق و الأجل هما ركيزتا الخلق،على أن يكون الحق هو المعبّر عن النظام الحق الذى يسيّر الخليقه،و الأجل هو الجانب

المادی للخلیقه،ثمّ هل نستطیع أن نقول أنّ الحق تجلّ لاسم الحکمه،و الأجل لاسم العزّه؟أنّی کان فانّ اللّه یشیر فی مواقع عدیده من القرآن إلی مثل ذلک،فیقول -مثلا-فی سوره الأعراف(آیه ۵۴): إِنَّ رَبَّکُمُ اللّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّهِ أَیّامٍ ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ یُغْشِی اللَّیْلَ النَّهارَ یَطْلُبُهُ حَثِیثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ ،و یقول فی سوره فصّلت(آیه ۹-۱۰): قُلْ أَ إِنَّکُمْ لَتَکْفُرُونَ بِالَّذِی خَلَقَ الْأَرْضَ فِی یَوْمَیْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِکَ رَبُّ الْعالَمِینَ* وَ جَعَلَ فِیها رَواسِیَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَکَ فِیها وَ قَدَّرَ فِیها أَقْواتَها فِی أَرْبَعَهِ أَیّامٍ سَواءً لِلسّائِلِینَ .

و لا بد أن نعیش هذه الحقیقه فیما یتصل بموقفنا من الوقت الذی هو جزء من حقیقتنا،و انّ وعی الزمن رکیزه أساسیه فی حکمه البشر،و سلامه عقله،و تنامی حضارته.

لا بدّ أن نعرف أنّنا-نحن البشر-کسائر الأشیاء الأخری،یحدونا اللیل و النهار،و یتعقّبنا الموت،و إذا ینبغی علینا أن نخاف و نخشی،لیس لأنّ حیاتنا الدنیا ستنتهی و یقفل الموت أبوابها،بل لأنّ النهایه ستلقی بنا و إلی الأبد فی واحده من اثنتین إما روضات النعیم و إمّا حفر الجحیم.

و لأهمیه العلم بهذه الحقیقه کان الامام علی-علیه السّلام-یذکّر بها أبناءه و أنصاره فی مواعظه البلیغه،فتری یذکّر بها-مثلا-

فی وصیته لابنه الحسن -علیه السّلام-حیث یقول فی أوّلها:

«من الوالد الفان،المقر للزمان،المدبر العمر،المستسلم للدنیا،الساکن مساکن الموتی،و الظاعن عنها غدا،إلی المولود المؤمّل ما لا یدرک،السالک سبیل من قد هلک،غرض الأسقام،و أسیر الموت،و حلیف الهموم،و قرین الأحزان،

و نصب الآفـات،و صـريع الشـهوات،و خليفه الأـموات».ثم يشـرع فيهـا عليه السـلام و كـان ممّا قاله خلالها:«و ذلّله-قلبك-بـذكر الموت،و قرّره بالفنـاء،...،و حـذّره صوله الـدهر،و فحش تقلّب الليـالى و الأيـام»،«و اعلم أنّ مالك الموت هو مالك الحياه،و أنّ الخـالق هو المميت،و أنّ المفنى هو المعيـد»،«و اعلم انّ أمامك عقبه كؤودا،المخفّ فيها أحسن حالا من المثقل،و المبطئ عليها أقبـح حالاـ من المسـرع،و أنّ مهبطـك بهـا لاـ محـاله امّـا على جنه أو على نـار،فارتـد لنفسـك قبـل نزولك،و وطّئ المنزل قبل حلولك،فليس بعد الموت مسـتعتب،و لا إلى الدنيا منصرف»،«و اعلم يا بنىّ أنّك انّما خلقت للآخره لا للدنيا،و للفناء لا للبقاء، و للموت لا للحياه،و أنّك فى قلعه،و دار بلغه،و طريق إلى الآخره،و أنّك طريـد الموت،الـذى لا ينجو منه هاربه،و لا يفوته طالبه،و لا بـدّ أنّه مـدركه،فكن منه على حـذر أن يدرككَ و أنت على حال سيئه، قد كنت تحدّث نفسك منها بالتوبه، فيحول بينك و بين ذلك،فاذا أنت قد أهلكت نفسك»،«يا بنىّ أكثر من ذكر الموت،و ذكر ما تهجم عليه،و تقضـى بعد الموت إليه،حتى يأتيك و قد أخذت منه حذرك،و شددت له أزرك،و لا يأتيك بغته فيبهرك»،«رويدا يسـفر الظلام، كأن قد وردت الأضـغان،يوشـك من أسـرع أن يلحق!و اعلم يـا بنىّ أنّ من كـانت مطيّته الليل و النهار،فانّه يسار به و إن كان واقفا،و يقطع المسافه و إن كان مقيما وادعـا»،«و اعلم يقينـا أنّك لن تبلغ أملك،و لن تعـدو أجلك» (۱)هكذا أشـبع عليه السـلام وصـيته بتلك الحقيقه،و لو نظرنا فى خطبه و رسائله و حكمه فى نهج البلاغه لرأينا أنّ أغلبها يركّز على تلك الحقيقه و تحوم حولها.

و هكـذا القرآن الحكيم يـذّكر البشـر بالموت و النشور و الحساب و الجزاء،و أنّ الإنسان محـدود،و أنّه إذا جاءه أجله لا يسـتأخر ساعه و لا يستقدم،و لكنّ أكثر

۱- ۱) نهج البلاغه/رساله ۳۱

الناس لا يعقلون هذه الحقيقه،سادرين فى الغفله حتى ينتهى أجلهم،و يفاجئهم الموت.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمّٰا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ و العلاقه متينه بين خاتمه الآيه و فاتحتها،حيث أنّ الذين كفروا يعلمون أنّ اللّه لم يخلق السماوات و الأرض و ما بينهما إلاّ بالحق و أجل مسمّى،ثم تترى عليهم نذر ربّهم فيعرضون عنها.

[۴]و قد يتهرّب الإنسان من هذه الحقيقه بالشرك الذى هو حجاب بين الإنسان و بين فهم الحقائق،فيزعم بأنّ شيئا ما يستطيع إنقاذه من قبضه الموت أو الحساب من بعده.

قال الامام على عليه السلام : «ما رأيت إيمانا مع يقين أشبه منه بشك على هذا الإنسان،إنّه كلّ يوم يودّع إلى القبور و يشيّع،و إلى غرور الدنيا يرجع،و عن الشهوه و الذنوب لا يقلع» (۱).

و

قال الامام الصادق عليه السلام : «لم يخلق اللّه عزّ و جلّ يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت» (۲).

إنّ الناس كلّهم يموتون،و هذه حقيقه لا شك فيها،و لكنّ أغلبهم يتصوّرون فى خبيئه أنفسهم أنّهم يبقون و يخلدون فى الدنيا،و لعلّ سبب ذلك هو فظاعه تصوّر الموت و ما وراءه من حساب دقيق و جزاء أوفى،و لذلك تراهم يتشبّثون بأىّ تبرير ليقنعوا أنفسهم بأنّهم لا يموتون أو لا يحاسبون،و هنا تنعقد نطفه الشرك و التوسّل بغير

۱- ۱) بحار الأنوار/ج /۶ص ۱۳۷

۲- ۲) المصدر/ص ۱۲۷

اللّه ابتغاء إنقاذهم من مصيرهم المحتوم،فقد يتصوّرون المال منقذا لهم من الموت، فتراهم يجمعون البلايين من الدولارات،و يحرصون فى الحصول على الأكثر،بالرغم من أنّ تلك الأموال الهائله تكفيهم و تكفى ذريّاتهم إلى عشرات الأجيال،و لكنّهم لا يريدون المال للعيش به،و إنّما لسد النقص الذى يشعرون به فى أنفسهم،إنّهم فعلاـ يفتّشون عن الخلود،و يخافون العاقبه المرّه،يقول تعالى موضحا هذه الحقيقه:

اَلَّذِی جَمَعَ مٰالاً وَ عَدَّدَهُ* یَحْسَبُ أَنَّ مٰالَهُ أَخْلَدَهُ (١)، «وَ تَتَّخِذُونَ مَصٰانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » (٢)،و قد يتصوّرون السلطه سببا للفرار من الموت،و وسيله للهروب من الفناء،قال تعالى عن فرعون: وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَیْنٰا لاٰ یُرْجَعُونَ (٣)،و قد يتصوّرون أنّ القوه المحدوده التى يملكونها تحجز عنهم أمر اللّه فيهم بالموت أو الحساب أو العذاب،قال تعالى: وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مٰانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللّٰهِ » (۴).

و لكن كلّ تلك التصوّرات زائفه،و لهذا يقول الرب: أَیْنَمٰا تَكُونُوا یُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِی بُرُوجٍ مُشَیَّدَهٍ (۵)،و يقول عزّ و جل: وَ جٰاءَتْ سَكْرَهُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مٰا كُنْتَ مِنْهُ تَحِیدُ (۶)،فأنت كنت تخاف من سكره الموت،و حتى تخلّص نفسك منها و لو عبر عمليه الخداع الذاتى أشركت باللّه ما ليس لك به علم، و الآن هل يمكن أن يغنى عنك ذلك الشريك شيئا؟كلّا..فهى قد جاءتك، و ستذوق مراره الموت،و تتحسس عنفه و فظاعه نزعاته.

ص:١٢٩

١- ١) الهمزه٢/-٣

٢- ٢) الشعراء١٢٩/

٣- ٣) القصص٣٩/

۴- ۴) الحشر٢/

۵- ۵) النساء٧٨/

۶- ۶) ق١٩/

و فی الحقیقه:لو یتفکّر الإنسان و یتعمق فی واقع أمر الشرکاء یعلم بفطرته أنّهم لا یغنون عنه شیئا،و لکنّه یشبه ذلک الغریق الذی یتشبث بکلّ حشیش، مع علمه بعدم جدوائیتها،و إنّما یرید أن یقنع نفسه بأنّه یعمل علی إنقاذها.

کلاّ..إنّ فطره الإنسان تهدیه إلی أنّ الشریک الذی یتخذه من أجل إنقاذ نفسه لا بد أن یکون ذا قوه کافیه،لا بد أن یخلق شیئا فی الأرض(حتی یتساوی مع خالق الکائنات و لو بقدر محدود)أو یمتلک سلطه ما فی إداره السماوات.

قُلْ أَ رَأَیْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَرُونِی مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِی السَّمٰاوٰاتِ و هم یعرفون-حقا-أنّ شرکاءهم لیسوا کذلک،و لا لهم علاقه باللّه یوظّفونها لمصلحه المشرکین إذا فأین حجتهم فی ذلک؟ اِئْتُونِی بِکِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا فأی کتاب من الکتب السماویه دلّ علی أنّ للّه شریکا؟ أَوْ أَثٰارَهٍ مِنْ عِلْمٍ و أی بقیّه من بقایا العلم،دلّت علی أنّ له شریکا؟ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ إذا کان بامکانکم أن تأتوا ببرهان فأتوا به،من کتاب یتلی أو حدیث یروی؟ و لکن من لا برهان له یتشبّث بأفکار باطله،مع علمه بکذبها،و إنّما لکی یخلّص نفسه من مواجهه الحقیقه المرّه،و هذه ضلاله خطیره،فهو کمن یفقد عزیزا

و يصعب عليه امتصاص صدمه فقده فيبادر قائلا:كلّا..إن غير ميت.

[۵] وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ مَنْ لاٰ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعٰائِهِمْ غٰافِلُونَ هكذا هم الشركاء.إنّهم لو دعاهم الإنسان إلى يوم القيامه لما استجابوا له،بل هم غافلون عن دعائه يشغلهم شأنهم الخاص عن شؤون الداعين،و سواء كان الشركاء الحجريه،أو الأموات ممن يزعم الشركاء المشركون انهم شفعائهم يوم القيامه،أو الأصنام البشريه التى تعبد من دون اللّه،فان لكلّ واحد منهم سببا لغفلته عمّن يدعونهم،أمّا الأحجار فانّها لا تعى شيئا،و أمّا الأموات فهم عند ربّهم مجزيّون بأعمالهم،و أمّا سلاطين الجور و المترفون و أشياعهم فهم لا هون بمصالحهم عن مصالح من يشرك بهم.

[۶] وَ إِذٰا حُشِرَ النّٰاسُ كٰانُوا لَهُمْ أَعْدٰاءً وَ كٰانُوا بِعِبٰادَتِهِمْ كٰافِرِينَ و يوم القيامه يكفر المشركون بشركائهم و يعادونهم،و يقولون لهم:أنتم الذين ضيّعتمونا،و أدخلتمونا النار،و قد قال ربّنا سبحانه فى آيه كريمه يصوّر لنا العلاقه بين الطرفين يوم القيامه: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذٰابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبٰابُ* وَ قٰالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنٰا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمٰا تَبَرَّؤُا مِنّٰا (1).

[۷]و أمّا الرساله،فكيف كانوا يتعاملون معها؟

۱- ۱) البقره۱۶۶/-۱۶۷

و الجواب:إنّهم من أجل رفض الأفكار القرآنيه السليمه كانوا يلفّقون تهما و يلصقونها بها.

وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ إنّها واضحه بيّنه،حتى لتكاد تكرههم بقبولها،و لكنّهم يصدّون عنها بقوّه، و يمنعون عن أنفسهم نورها بإصرار،كالذى يهرب من الغيث أن يصيبه رذاذه أو الشمس أن تحوطه أشعّته.

قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ حينما يأتيهم الحق يقولون بكلّ وقاحه:إنّه سحر مبين.لما ذا؟لأنّه يهيمن عليهم،و لا يدعهم يواجهونه بدليل و برهان.

إنّهم يقولون:هو سحر،فيقال لهم:ما هو دليلكم على بطلانه؟فيقولون:ليس عندنا دليل،و لكنّه سحر! هكذا يعادى الإنسان الحق،حتى أنّه يتهم نفسه بفقدان الاراده و الوعى و يقول:أنا أصبحت مسحورا،كلّ ذلك ليخلّص نفسه من مسئوليه الايمان بالرساله.

[۸]و البعض الآخر يقول:إنّه افتراء على اللّه،و إذا كان قولهم أنّه سحر دلّ بوضوح على مدى تأثير الرساله عليهم و أخذها بمجامع قلوبهم،و سدّ الطريق أمام تخرّصاتهم،حتى أنّهم اعترفوا بقدرتها و بعجزهم عن مقاومتها،فانّ كلمتهم التى زعموا بها أنّ الرساله افتراء دلّت على أنّ الرسول لم يكن يدعو الناس إلى نفسه بل إلى ربّه،ممّا دعاهم إلى اتهامه بأنّه مفتر.

ص:۱۳۲

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ و لكن الرسول صلى الله عليه و آله هو أوّل من كان يعلم بوخامه الافتراء،و أنّه لو افترى حديثا على اللّه فسوف يعذّبه عذابا شديدا،و كان يعترف بذلك عبر ذكر آيات القرآن..فكيف يدين نفسه بنفسه؟!كيف يفترى على اللّه الكذب،ثم يقول:إنّ جزاء الذين يفترون على اللّه الكذب أنّهم لا يفلحون،و لهم عذاب شديد؟! قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاٰ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً فالرسول صلى الله عليه و آله يعلم يقينا بأنّ اللّه محيط به علما،و إنّما يفترى على اللّه الكذب من لا يؤمن به،و من لا يعلم بأنّه يحيط به علما،و يعلم ما يدور بينه و بين الآخرين من حديث،علنا أو سرّا.

هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا تُفِيضُونَ فِيهِ من تخرّصات أو تهم حول الرساله،و هو يحاسبكم عليها جميعا.

كَفىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ و يبدو أنّ هاتين البصيرتين(علم اللّه بما يسترسلون فيه من كلام،و شهادته عليه)هما العلاج النفسى و الحجه البالغه عليهم.أو ليس كلّ واحد منهم يؤمن فى قراره نفسه بكذبه،و لكنّه غافل عن أبعاد جريمه نكرانه للحق،فيذكّرهم القرآن باللّه الذى يحيط علما بما يقولون،و يشهد عليهم شهاده تتمثّل بنصره للحق و خذلانه للباطل و أهله.

وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ما هى العلاقه بين المقطعين: كَفىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ و وَ هُوَ الْغَفُورُ

ص:۱۳۳

الرَّحِيمُ ؟ ربما العلاقه هى أنّ اللّه شـهيد على الإنسان،يعلم انحرافه و ضـلاله،و لا يرضى عنه و يبغضه،و لكنّ لانّه غفور رحيم فهو يمهله لفتره معيّنه إذا لا تقل أيّها الإنسان:أنا سأكفر باللّه و ليأخـذنى إن كان يحب رسالته،لأنّه غفور رحيم،يتركك تعصـى لمدّه معينه رحمه بك،و إذا لم ترعو و لم تراجع نفسك و لم تعد إلى الحقيقه فانّه يأخذك أخذ عزيز مقتدر.

[سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۹ الى ۱۴]

اشاره

قُلْ مٰا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ اَلرُّسُلِ وَ مٰا أَدْرِي مٰا يُفْعَلُ بِي وَ لاٰ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ وَ مٰا أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرٰائِيلَ عَلىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اِسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِينَ (۱۰) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كٰانَ خَيْراً مٰا سَبَقُونٰا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذٰا إِفْكٌ قَدِيمٌ (۱۱) وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَةً وَ هٰذٰا كِتٰابٌ مُصَدِّقٌ لِسٰاناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (۱۲) إِنَّ اَلَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اَللّٰهُ ثُمَّ اِسْتَقٰامُوا فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ (۱۳) أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّةِ خٰالِدِينَ فِيهٰا جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴)

اللغه

(۹) بِدْعاً :جديدا بديعا.

قُلْ مٰا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ

هدى من الآيات:

الحقّ هـدفنا،و الحق القـديم الـذى يصـدّقه الرسول الجديـد يتّبع،بينمـا الباطـل المبتـدع لاـ بـد من نبـذه،حتى و لو احتفـظ بطراوه الحداثه.

يبدو أنّ هذه الحقيه هى محور الدرس الذى يفتتح بأنّ نبيّنا الأكرم جاء خاتما لسلسله الأنبياء الكرام فهو ليس بدعا،و هو لا يدّعى الاـلوهيه إنّمـا إبلاـغ رسالاـت ربّه،و يصـدّقه شاهـد من بنى إسـرائيل (فكتـابه امتـداد لتلك الرساله التى أوحيت الى موسـى عليه السلام)،و إنّما استكبر عنه البعض لظلمهم و اللّه لا يهدى القوم الظالمين.

و حين يبـادر الصـالحون للإسـلام يرفضه المسـتكبرون،و يقولـون: لَوْ كٰانَ خَيْراً مٰا سَبَقُونٰا إِلَيْهِ !ثمّ يتهمون الرسـاله بأنّهـا إفك قديم،لأنّهم لم يهتدوا بها.

و فعلا الرساله ذات امتداد فى عمق التاريخ لأنّها تصدّق ما نزل على موسى إماما

ص:١٣۶

و رحمه.

ثمّ يأمر القرآن بالاستقامه على التوحيد(و مواجهه البدع)و هى ثمن الجنه.

بينات من الآيات:

[۹]للناس فى الرسالات و الرسل مذاهب ثلاث:

الأوّل:النفى المطلق،و إذ لم يعرف هؤلاء كيف يبعث اللّه الرسل اتبعوا جهلهم و أهواءهم و أنكروا الرساله رأسا.

الثانى:إنّ صله الرسل بربهم صله تكوينيه،بمعنى أنّ الرسل-عليهم السلام- هم قطعه منفصله عن الإله و نازله الى الدنيا.

و بهـذا يزعمون أنّهم يحلّون المشكله و يعرفون كيف يتم الاتصال بين الخالق و المخلوق،إذ أنّ هـذه الصـله كانت قديمه،و هى أساسا صـله تكوينيه،فكيف يكون واحد منهم يأكل الطعام،و يمشـى فى الأسواق،و يشبههم فى كلّ شىء من حياته، كيف يكون أعلى و أفضـل منهم؟!الاـ بـد أن يكون جنسه مختلفـا عن جنسـهم،و ذاته غير ذواتهم،و لاـ بـد أن يكون من أنصـاف الآلهه و من طبيعتها.

الثالث:انّ الأنبياء و الرسل هم مثل سائر البشر،و لكنّ اللّه تعالى ميّزهم بالرساله،حيث جعلها فيهم جعلا،و لو شاء لسلبها منهم،فهى تشبه المصابيح فى الغرفه فإن لم يكن وهّاجا لن يحوّل الغرفه إلى واقع نورانى،إنّما سينعكس النور عليها ما دام الضوء متّقدا.

هكذا الرساله،فما دام روح القدس مؤيّدا للنبى فهو نبى،فاذا افترضنا -جدلا-أنّ ربّنا أراد-بمشيئته المطلقه-أن يسلب روح القدس منهم فانّهم يصبحون

كسائر الناس.

و علم الرسل هكذا،ليس علما ذاتيا،و إنّما هو مضاف إليهم من عند اللّه الذى يهب لهم موجات من المعرفه تلو موجات من العلم بقدر ما شاء،و إذا أراد أن يسلبها منهم فانّه على ذلك قدير..و لهذا ينبغى أن لا نذهب بعيدا فيما يتصل بالأنبياء عليهم السلام،بل نعرف أنّهم يعلمون ما يشاء اللّه و يجهلون ما سوى ذلك، فكيف لم يكن يعقوب عليه السلام و هو من أنبياء اللّه العظام يعلم بمكان يوسف عليه السلام ؟! و كيف لم يكن إبراهيم عليه السلام يعلم بأن السكّين الذى وضعه على أوداج إسماعيل لا يفريها؟!الجواب ببساطه:لان الأنبياء بشر،و اللّه يغيّب عنهم ما يشاء من العلم.

و هذا يفسّر قوله تعالى: «عٰالِمُ الْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ » (١) فغيب اللّه له و ليس لأحد،و هو علّام الغيوب،و عنده مفاتح الغيب،و لا يعلم الغيب إلاّ هو،و لكنّه يعطى قدرا منه لأنبيائه لحكم معينه.

و هكذا تحلّ عقده الغرابه من ابتعاث الرسل،و تعالج المعضله التى يتشبّث بها الكافرون،و التى كانوا يعودون إليها كلّما بعث إليهم نبى جديد مع أنّه سبقه إخوانه فى الرساله.

قُلْ مٰا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ إنّ بعض الظواهر الكونيه تتكرّر كلّ يوم،و بعضها كلّ أسبوع،و بعضها تتكرّر كلّ سنه،و بعضها كلّ قرّن،و من الظواهر التى تتكرّر بين فتره و أخرى الحروب، فهى إحدى الظواهر الاجتماعيه التى تقع عاده بين الحين و الآخر،و نحن نعترف بوجودها بالرغم من غرابتها الشديده،لأنّها واقعه و تقع فى المستقبل

١- ١) الجن ٢٦/-٢٧

و هكذا بالنسبه للرسل،فهم حتما و جزما يرسلون من قبل الرب،ما دامت العوامل المؤيده لإرسالهم متوفّره.

و هنا يأمر اللّه عزّ و جلّ رسوله الأكرم صلى الله عليه و آله بأن يوضّح للناس هذه الحقيقه، فكونه رسولا مبعوثا من قبل اللّه ظاهره متكرره و سنّه جاريه،و لا داعى للغرابه.

و لكن-من جهه أخرى-ليس علم الرسول من ذاته.

وَ مٰا أَدْرِي مٰا يُفْعَلُ بِي وَ لاٰ بِكُمْ فهو لا يعلم ما يفعل به و لا بهم إلاّ بقدر ما يشاء اللّه،بمعنى أنّه لا يدرى كلّ ما يفعل به و بهم إلاّ فى حدود رسالته،لأنّ الرسول صلى الله عليه و آله بشر كسائر الناس لا يعلم ماذا سيحدث مستقبلا بذاته بلى.إنّ الرسول-مثلا-يعلم أنّ الناس جميعا سيموتون و نحن كذلك نعلم ذلك،أمّا معرفه التفاصيل و الاطلاع على دقائق الأمور فانّ اللّه سبحانه يزيده منها بقدر مشيئته الحكيمه.

و الرسول-كما يبدو من هذا المقطع من الآيه-لا يعلم كلّ التفاصيل المستقبليه،و إنّما عليه أن يتبع الوحى الذى ينزل عليه حسب الحكمه الالهيه.

إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ و قد ذهب المفسرون مذاهب شتى فى تفسير هذه الآيه،و يبدو لى أنّها ظاهره بل صريحه فيما قلناه آنفا،فانّ عدم معرفه الرسول بما يفعل به أو بهم لا يشمل ما يوحى إليه،و لا ريب أنّه سبحانه أوحى إليه أنّ له عند ربّه مقاما محمودا،و أنّ المجرمين من أعدائه فى سقر.

وَ مٰا أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ

ص:۱۳۹

فأنا لست كفيلكم،و لا وكيلا عنكم.

و هـذه الفكره تتكرّر كثيرا فى القرآن الحكيم،و ذلك لما لها من أهميه فى دفع الإنسان للايمان بالرساله و تحمّل المسؤوليه،لأنّ الإنسان الذى تدعوه إلى اللّه لو علم بحقيقه أنّك لست مسـئولا عنه،و أنّه هو المسؤول عن نفسه،فانّه ربما يكون ذلك مشجّعا له على التحرّك الذاتى،و بالتالى يهتدى إلى الحق.

[۱۰]عند ما يكون الخطر كبيرا يكفينا أذنى احتمال فى وقوعه لكى نتخذ التدابير اللاّزمه لدرئه.أ رأيت لو خشيت من انفجار يقع فى بيتـك أ فلا تتركه فورا،حتى و لو كان افتراض وقوعه بنسـبه ۵٪فقـط؟ إنّ أكثر إجراءات السـلامه فى أوقات الحرب بل حتى ايّام السلم تهدف درء احتمالات ضئيله،إلاّ أنّ أهميتها تنبع فى أنّ الأخطار التى تهدف درءها عظيمه.

إنّنا لا نتخذ إجراءات وقائيه كبيره إذا خشـينا الاصابه بنزله برد طارئه،حتى و لو كان الخوف بنسبه ۵۰٪،و لكنّنا نتقى خطر الموت حتى و لو كان بنسبه ۱۰٪أو حتى ۱٪.أليس كذلك؟ و كما فى الجانب السلبى كذلك فى الجانب الايجابى،فلا ريب أنّنا لا نعير اهتماما لاحتمال حصولنا على ربح ضـئيل،و إن كانت إمكانيه ذلك كبيره مثلا بنسـبه ۹۰٪،و لكن كلّما ازداد الربـح فانّ اهتمامنا باحتمالاـته يزداد حـتى يصـل إلى الاهتمـام بـه إذا كـان بنسـبه ۰،۰۱٪الاـ ترى كـم هى نسـبه حصولـك على الجـائزه فى عمليه اليانصـيب،لاـ ريب أنهـا أقـل من واحـد بالأـلف،و لكن لمـا ذا تهتم بها؟ أ ليس لان الجائزه كبيره يسـيل لها اللعاب؟ و الآن دعنا نتساءل:اولا تستحق الحياه الأخرى،بما تحمل من إنذار بعذاب

شدید خالد،و من بشاره بنعیم عظیم دائم،الاهتمام بها و بامکانیه وقوعها حتی و لو کان بنسبه ضئیله جدا؟!کیف و أن نسبه احتمالها مرتفعه حتی عند الجاحدین بها لتواتر الأدله علیها؟! قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ فکم تکون خساره البشر عظیمه عند ما یکفر برساله ربّه، و یتحدّی خالقه و رازقه و من إلیه مصیره؟! إنّ هذا التساؤل یهزّنا من الأعماق،و یجعلنا نبدأ مسیره الشک المنهجی فیما نسترسل فیه من الأفکار و القناعات.

و حتی بالنسبه إلی المؤمنین برسالات اللّه ینبغی أن یکسروا حاله الجمود الفکری،و یتساءلوا فی أنفسهم:کم هی عظیمه رسالات ربّهم،و کم حظهم عاثر لو استخفّوا بها أو لم ینفّذوا کلّ تعالیمها؟حقّا:إنّه یسقط عنا-نحن المؤمنین- حجاب العاده التی تمنع إیماننا من التسامی،کما یسقط عن الآخرین حجاب الاستکبار الذی یمنعهم عن رؤیه شواهد صدق الرساله،فتراهم-مثلا-یغفلون عن شهاده العلماء بصدق الرساله،و لا یسألون أنفسهم:کیف أسلم علماء بنی إسرائیل للرساله الجدیده،کأمثال عبد اللّه بن سلام الذی کان معروفا عندهم بالصدق و النزاهه.

وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِی إِسْرائِيلَ عَلىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ بالرغم من مخالفه الایمان ظاهرا لمصلحته.أ لیس یفقد مکانته عند قومه کقائد، و یصبح جندیّا فی جیش الإسلام؟

وَ اسْتَكْبَرْتُمْ عن الحق،فلم تؤمنوا به بالرغم من البينات التى تواترت على صدقه.

بلى إنّ الحجاب الكبير الذى يحجز نور الايمان عن قلوبهم هو استكبارهم فى الأرض،و ظلمهم للناس.أو ليس الظلم ظلاما دامسا؟ إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ [١١]ما الذى يمنع الظالمين من الايمان بالرساله؟إنّه استكبارهم على الناس، و اعتقادهم بتميّزهم عنهم،حتى لو سبق طائفه منهم إلى الايمان بالرساله كفروا بها ترفّعا عن التساوى معهم،و قالوا:كيف نسمح لأنفسنا أن نكون عند الناس من اللاحقين،بينما يسبقنا إلى الرساله من هم أدنى منّا؟إذا دعنا نكفر بها خشيه العار! وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ لقد كانت القبائل العربيه فى الجاهليه شديده الخلاف بينها،تتعالى على بعضها،و لا ترضى أن تعترف بأيّه فضيله لبعضها،فاذا آمنت قبيله كفرت المنافسه لها حتى لا تسجّل لخصمها نقطه عليها.

مثلا كانت قبيله غفار البدويه تستصغر من قبل قريش،و تسمّيها الحلفاء استهانه بها،فلمّا أسلم أبو ذر الغفارى و أسلمت معه قبيلته قالت قريش:غفار الحلفاء!!لو كان هذا خيرا ما سبقونا إليه. (١)

١- ١) قال ابن المتوكل أنّ الآيه نزلت فيهم(تفسير القرطبى ج ١۶ ص ١٨٩).

و هكذا كفرت بنو عامر و غطفان و تميم و أسد و حنظله و أشجع،و قالوا لمن أسلم من غفار و جهينه و مزينه و خزاعه:لو كان ما جاء به محمّد خيرا ما سبقنا إليه رعاه البقر البهم إذ نحن أعز منهم. (۱)

كما أنّ اليهود الدين استوطنوا الجزيره العربيه بزعم انتظارهم للنبى الموعود فيها كفروا بالنبى بعد إيمان العرب به،و قالوا: لَوْ كٰانَ خَيْراً مٰا سَبَقُونٰا إِلَيْهِ .

كما أنّ قريشا كفرت بالرساله حين رأت مبادره الموالى من أمثال بلال و صهيب و عمّار إليها.إنهم كانوا يبحثون عن دين يقوّى نفوذهم فى الطبقات الدنيا لا أن يساويهم بها.

و هكذا اليوم نجد الدعوات الصلاحيه التى يستجيب لها المحرومون و المستضعفون تلقى الصدّ من قبل المترفين و المستكبرين،بدعوى أنّنا أعرف منهم و أعلى مقاما فلا يجوز أن نعترف بحقوقهم أو بميزتهم علينا فى السبق إليها.أو ليس السابقون هم المقرّبون؟! كما أنّ بعض السفهاء يخالفون الحق و يمنعون عن أنفسهم خيراته لمجرّد أن منافسيهم سبقوهم إلى الايمان به.إنّ ذلك من بقايا العصبيات الجاهليه التى تمنع نور الهدى.

وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ بسبب عصبياتهم و ظلمهم و استكبارهم فانّهم يبحثون عن تبرير لجحودهم يقنعون به الضعفاء منهم،بل و يريحون نفوسهم التى تلومهم أبدا على ترك الحق، فتراهم يتهمون الرساله بالإفك.

ص:۱۴۳

۱- ۱) قال الكلبى و الزّجاج و حكى عن ابن عباس ان الآيه نزلت فيهم(المصدر ص ۱۹۰).

فَسَيَقُولُونَ هٰذٰا إِفْكٌ قَدِيمٌ و هكذا يتسافل الجاهل فى دركات الكفر ابتداء من ظلمه للناس و استكباره عليهم،و مرورا بالتشبّث بدليل ضعيف أنّه لو كان خيرا ما سبقونا إليه،و انتهاء بوضع نظريه معاديه و اتهام الرساله بأنّها إفك قديم،كما قالوا بأنّها أساطير الأوّلين.

[۱۲]كلّا..إنّها رساله اللّه الواحده التى تشهد حقائق التاريخ بصدقها، و أعظم ما يصدّقها أنّ بعضها مصدّق البعض.

وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَةً فهو برنامج للاقتداء،و رحمه لمن اقتدى به.

وَ هٰذٰا كِتٰابٌ مُصَدِّقٌ لِسٰاناً عَرَبِيًّا فهو ليس إفكا قديما كما زعموا،بل صدق شهدت أحداث التاريخ على نفعه العام للانسانيه.أ فلا ترون كيف كان كتاب اللّه النازل على موسى لبنى إسرائيل، أنقذهم من الضلاله و الاستضعاف و الحرمان حين طبّقوه؟ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا فالطغاه و المستكبرون و المترفون الذين ظلموا الناس لا يمكنهم اتخاذ القرآن وسيله لاستثمار الآخرين كما تهواه أنفسهم،بل جاء الكتاب لانذراهم و لانقاذ المحرومين من ظلمهم.

وَ بُشْرىٰ لِلْمُحْسِنِينَ

ص:۱۴۴

من أيّه طبقه كانت،فاذا آب أولئك إلى رشدهم و تابوا و أحسنوا فان لهم البشرى كما للمحرومين.

[۱۳]التوحيد هو عباده اللّه أبدا،و عدم التسليم للآلهه المزعومه التى تعبد من دون اللّه باسم السلطه السياسيه أو النظام الاقتصادى أو الضغوط الاجتماعيه،و إنّما يتبين توحيد الإنسان عند ما يتعرّض لإرهاب السلطه و ترغيب الثروه و مقاطعه المجتمع إذا استقام على الدين،و الكتاب بشرى للمحسنين الذين يتحدّون كلّ تلك الصعاب.

و لعلّ سياق الآيه يدلّ على ضروره الاستقامه أمام البدع الجديده التى تخلقها القوى المتسلطه،و تتهم الرساله بأنّها إفك قديم سعيا وراء تغيير بعض بنودها الذى يخالف مصالحها،كلاّ..لا بد من الاستقامه على أحكام الدين بلا تحريف أو تأويل أو نقص أو زياده.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ [۱۴]بالرغم من إرهاب الطغاه فانّه لا خوف عليهم،لأنّ العاقبه لهم،و غدا حين ينتصر الحق لا يحزنون على ما فاتهم من الخيرات.

أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّهِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ و حين يدخلون الجنه يعلمون أنّ الثمن الذى قدّموه لها كان زهيدا نسبه بما حصلوا عليه من ثواب اللّه العظيم.

و نستوحى من كلمه«جزاء»هنا أنّ الجنّه لا تعطى بالتمنّيات،إنّما هى ثمن الاستقامه و الصبر و التحدّى.

ص:۱۴۵

[سوره الأحقاف (۴۶): الآیات ۱۵ الی ۲۵]

اشاره

وَ وَصَّیْنَا اَلْإِنْسانَ بِوالِدَیْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ کُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ کُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتّی إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِینَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ اَلَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلی والِدَیَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَصْلِحْ لِی فِی ذُرِّیَّتِی إِنِّی تُبْتُ إِلَیْکَ وَ إِنِّی مِنَ اَلْمُسْلِمِینَ (۱۵) أُولئِکَ اَلَّذِینَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَیِّئاتِهِمْ فِی أَصْحابِ اَلْجَنَّةِ وَعْدَ اَلصِّدْقِ اَلَّذِی کانُوا یُوعَدُونَ (۱۶) وَ اَلَّذِی قالَ لِوالِدَیْهِ أُفٍّ لَکُما أَ تَعِدانِنِی أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ اَلْقُرُونُ مِنْ قَبْلِی وَ هُما یَسْتَغِیثانِ اَللّهَ وَیْلَکَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اَللّهِ حَقٌّ فَیَقُولُ ما هذا إِلاّ أَساطِیرُ اَلْأَوَّلِینَ (۱۷) أُولئِکَ اَلَّذِینَ حَقَّ عَلَیْهِمُ اَلْقَوْلُ فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ إِنَّهُمْ کانُوا خاسِرِینَ (۱۸) وَ لِکُلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَ لِیُوَفِّیَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (۱۹) وَ یَوْمَ یُعْرَضُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی اَلنّارِ أَذْهَبْتُمْ طَیِّباتِکُمْ فِی حَیاتِکُمُ اَلدُّنْیا وَ اِسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ اَلْهُونِ بِما کُنْتُمْ تَسْتَکْبِرُونَ فِی اَلْأَرْضِ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ وَ بِما کُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (۲۰) وَ اُذْکُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ اَلنُّذُرُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اَللّهَ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ عَذابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۲۱) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِکَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ کُنْتَ مِنَ اَلصّادِقِینَ (۲۲) قالَ إِنَّمَا اَلْعِلْمُ عِنْدَ اَللّهِ وَ أُبَلِّغُکُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لکِنِّی أَراکُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۳) فَلَمّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِیَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِیحٌ فِیها عَذابٌ أَلِیمٌ (۲۴) تُدَمِّرُ کُلَّ شَیْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا یُری إِلاّ مَساکِنُهُمْ کَذلِکَ نَجْزِی اَلْقَوْمَ اَلْمُجْرِمِینَ (۲۵)

ص:۱۴۶

اللغه

(۲۴) عَارِضٌ مُمْطِرُنَا :أی شیئا کالسحاب ذی المطر عرض فی أفق السماء.

ص:۱۴۷

و وصينا الإنسان بوالديه إحسانا

هدى من الآيات:

لكى ينظّم الإنسان علاقه سليمه مع و الديه و الجيل السابق لا بدّ أن يختار الرشد الذى يدعونه إليه، و يترك الغى،امّا التمرّد الذى يحدو إليه النزق،و الذى يدفع بعض الأبناء إلى اتّهام آبائهم بالرجعيه،و الافتراء على الدين الذى يدعون اليه بأنّه من أساطير الأوّلين،فانّه سفه و طيش لا يقل سوء عن تقديس الآباء و تقليد عاداتهم،و ردّ الدعاه الى الإصلاح.

فى هذا الدرس يوصينا الرب بالإحسان إلى الوالدين الذى هو عنوان العلاقه السلميه،حيث أنّه الطريق القويم بين التقليد الأعمى و التمرّد الطائش.

كما يذكّرنا بأنّ عاقبه الطيش و التمرّد النزق على الآباء هى الخسران.

بينما نقرأ فى الدرس التالى قصه الذين اتبعوا آباءهم الضّالين،و لم يستجيبوا لداعى اللّه هود الذى أمرهم بالإصلاح،فكانت عاقبتهم الدمار.

ص:۱۴۸

و تعتبر العلاقه السليمه مع الآباء سمه إيمانيه،كما أنّ العلاقه الشاذّه عقبه كأداء فی طریق الایمان.

بينات من الآيات:

[۱۵]بما تتميّز الوصيّه عن الحكم؟و لماذا نجد فی القرآن التعبير بالوصيّه حينا و بالحكم حينا؟لعلّ الوصيه تتصل بالقيم التی هی محتوی الأحكام،بينما يعبّر عن النظام،و الذی هو منهج تطبيق القيم،فاذا كان التعبير بالحكم فلا بد من الالتزام بحدوده و حروفه و تفاصيله بدقّه و صرامه،بينما إذا جاء التعبير بالوصيه فلا بد من الالتزام بالقيم بأيّه طريقه ممكنه،و بالمنهج الذی يراه العرف مناسبا.

و حين يأمر ربّنا بالعدل فانّ التعبير يأتی بصيغه الأمر: «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ »،ذلك لأنّ العداله قيمه تتحقق بالأحكام المفصّله،و النظام الشامل،أمّا إذا كان الحديث عن الإحسان فانّه يأتی بصيغه الوصيه،لأنّ الإحسان يتحدّد بالعرف و حسب ظروف كلّ شخص و منهجه.

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَيْهِ إِحْسٰاناً لا بدّ أن يهتم الإنسان-أیّ إنسان-بوالديه أنّی كانا اهتماما يبلغ درجه الإحسان،و هی فوق أداء حقوقهم القانونيه.

و يختلف الأمر بالإحسان عن الأمر بالطاعه اختلافا كبيرا،ذلك أنّ الإحسان ينبعث من اليد العليا،بدافع الاحساس بالاستقلال و القدره،و صاحبه يقدّر متی و كيف و بأیّ قدر يمارسه،بينما الطاعه حاله التسليم و الخضوع و فقدان الاستقلال و حسب الأمر الموجّه إليه دون أن يكون لصاحبه الحق فی تقدير أیّ أمر منه.

و لم يأمر الإسلام بطاعه الوالدين بل بالإحسان إليهما،لأنّ الطاعه للّه و للرسول

و لأولى الأمر،و لا يستطيع الوالدان أن يحرّما حلالا أو يحلّلا حراما،بل أمر بالإحسان إليهما،و قد يتجلّى الإحسان فى قبول أمر هما فيما لا يخالف الشرع و العقل،و يكون فيه فائده عائده إليهما.

و الدليل الذى يبيّنه السياق للوصيه بالإحسان إلى الوالدين يعمّ المؤمنين و الكافرين،البرّين و الفاجرين،حيث يعزى السياق ذلك إلى الجهود الكبيره التى بذلاها فى سبيل تنشئه الولد.

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً فمنذ الساعات الاولى من الحمل يمتص الجنين طاقات الأم ممّا يعرّضها للارهاق و الأخطار،و كلّما تقدّم بها الحمل كلّما زادت الصعوبات الجسديه،كما تزيد عندها المخاوف و الهموم.

وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً و قد تكون الولاده عسره ممّا تجعل الأم تقول:يا ليتنى متّ قبل هذا اليوم و كنت نسيا منسيّا.

ثم أنّ ذلك لا يتمّ عبر فتره بسيطه،بل يمتدّ أشهرا عديده،ممّا يجعل دين الأم عظيما فى ذمّه الولد.

وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً فخلال تسعمائه يوم تقريبا تنشغل الأمّ بوليدها.أ فلا ينبغى للولد بعد أن يشتد عوده و تخور طاقات أمّه أن يحسن إليها؟ بلى.و هذا من ديدن الرجل الصالح الذى قد تستمرّ رعايه الوالدين إليه حتى

يبلغ أشدّه،بل و يبلغ أربعين سنه و تكتمل رجولته.

حَتّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ و متى يبلغ الإنسان أشدّه،هل عند ما يصل إلى سنّ البلوغ الشرعى الذى هو عند الفتى كمال سن الخمسه عشر أو الاحتلام،و عند الفتاه كمال التاسعه من عمرها، أم عند ما يبلغ سنّ الرشد الذى قيل أنّه بلوغ الثامنه عشر؟ قال البعض:إنّ الإنسان لا يبلغ أشدّه إلاّ عند سنّ الأربعين،بيد أنّ الأقرب الى ظاهر الآيه هو بيان نوعين من البلوغ:الأوّل:البلوغ الأوّلى الذى يجعل الفرد مستعدّا لدخول الحياه،الثانى:البلوغ الأتمّ الذى يحدث عند سنّ الأربعين حيث يكتمل نموّ خلايا المخ،و تتراكم تجارب الحياه،و يكون الإنسان فى قمّه عمره حيث ينحدر من بعدها شيئا فشيئا إلى نهايته،و من هنا جاء فى الحديث أنّ الشيطان يمسح يده على وجه من زاد على الأربعين و لم يتب،و يقول:بأبى وجه لا يفلح.

و يؤيد ذلك أنّ الإنسان يمثّل فى العقد الأربعين من عمره دور الولد الذى أكمل الوالدان دورهما فى نموّه و تطوّره،كما يمثّل الوالد الذى ذاق-بدوره-الصعوبات التى تحمّلها والداه فى أمره فعرف قدرهما،و وعى قدر النعم التى أسبغها اللّه عليه.فطفق يشكر اللّه شكرا جزيلا،و لكنّه كلّما ازداد وعيا بالحياه و مشاكلها كلّما عرف عجزه عن أداء شكر اللّه فأخذ يدعو اللّه أن يوفّقه لشكر هما بفضله،لأنّ منبعث الشكر الرؤيه الايجابيه إلى الحياه،و هى تطلق قدرات الإنسان من عقال اليأس و التشاؤم و السلبيه،و تزرع فى قلبه حبّ السعى،و روح النشاط،و همّه التقدّم،و التطلّع إلى الأهداف الساميه.

وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ و نستوحى من الآيه مقياسين لصلاح العمل:المقياس الذاتى الذى يتمثّل فى فائده العمل و صحته بحكم العقل و العرف،و المقياس الشرعى الذى يتمثّل فى مرضاه اللّه التى نعرفها بالقيم الدينيه..و المؤمن يتطّلع لتحقيق العمل الصالح فى ذاته الذى يقرّ به شرعا إلى اللّه،و هو بالطبع ليس كلّ عمل صالح،بل الذى يقع ضمن استراتيجيه الرساله،فمثلا:تعبيد الطرق عمل صالح،إلاّ أنّه قد لا يكون مرضيّا عند اللّه،كما لو ابتغى الفرد منه علوّا فى الأرض أو فسادا،كذلك حين يكون هذا الفعل الصالح معارضا لعمل أوّلى كالدفاع عن الوطن أو مقاومه الطاغيه.

و هكذا يدعو الإنسان السوىّ ربّه التوفيق للقيام بعمل صالح مرضى عنده و ليس كلّ عمل صالح،كما يدعو إلى أن يكون امتداده فى الحياه و ذريّته من الصالحين.

لقد سهر الآباء لتربيه هذا الجيل على الفضيله و التقوى،و أنفقوا فى سبيل إنشاء المدارس و المعاهد،و توفير الثقافه الحكميه،و بناء الجوامع و مراكز التوعيه و التوجيه، و قد أثمرت جهودهم فى بناء هذا الجيل الصالح.أ فلا نسعى نحن فى سبيل بناء الجيل الصاعد على ذات الأسس الصالحه؟بلى.إنّ ذلك هو الشكر العملى على نعمه الصلاح التى أسبغها علينا الرب.

و أصلح لى فى ذرّيّتى

إنّ صلاح الذريّه يكرّس مكاسب هذا الجيل الحضاريه،و يبقى لهم الذكر الحسن،و يكون بمثابه صدقه جاريه تغدق عليهم الثواب و هم مستريحون فى أجداثهم،و لعلّه لهذه الأسباب جاء التعبير القرآنى«لى»،بلى.إنّ فائده صلاح الذريّه لى قبل غيرى.

إنّى تبت إليك

فخلال رحله العمر ذات الأربعين ربيعا أزاغته الذنوب عن صراط ربّه العزيز الحميد،و قد ذهبت الآن شرّه السهو عنه،كما تلاشت لذّات الشهوات،و أزالت طوارق الزمن سكره الشباب،و اكتمل عقله،و عرف أنّ طريق الفلاح ينحصر فى التوبه إلى اللّه عزّ و جل.

لقد قرأت أخيرا فى مجلّه غربيّه واسعه الانتشار مقالا يدعو من بلغ الأربعين ألّا يحاول تغيير عاداته،و يبدو أنّ الكاتب كان يعتمد فى ذلك على أنّ الإنسان فى مثل هذا الوقت لا- يملك إراده التغيير،و هذا ينسجم مع النظره الماديه إلى الإنسان، و تلخيص دوافعه فى الشهوات الدنيويه التى تتراجع عند سنّ الأربعين و يتلاشى بعضها ممّا لا يجد دافعا نحو التغيير،بينما البصيره القرآنيه تدعونا إلى التوبه عند سنّ الأربعين،حيث يكتمل العقل،و تلتهب جذوه الضمير،و تتهيّأ فرصه الإصلاح،و تتنامى دواعى الخير و بواعث الفضيله فيه.

و هكذا يكون عقد الأربعين أفضل مناسبه للثوره الذاتيه،بالتوبه إلى اللّه، و التسليم للشريعه التى تخاطب العقل،و تذكى دواعى السعى للآخره التى يكون صاحب الأربعين أقرب إليها من غيره.

وَ إِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ فاذا دعتنى سكره الشباب الى التمرّد ردحا من الزمن فها أنا ذا اليوم أعترف بالذنب،و أخضع لك يا ربّ خضوعا تامّا،و أفتّش فى صفحات تاريخى،فاذا وجدت فاحشه هنا و خطيئه هناك،و ظلما للناس،و غصبا للحقوق،و انحرافا فى العقيده،و زيفا فى الثقافه،و عادات سيئه و ما أشبه،فانّى أسعى لتغييرها و التخلّص من وزرها و تبعاتها بتوفيقك. أو ليس كلّ ذنب و زيغ و انحراف يخلّف

أثره فى قلب الإنسان،دعنا إذا نتخلّص منه بالتوبه،لنطهّر القلب من أدرانه، و السلوك من سيئات العادات،و نترک جانبا الاستخفاف بالقيم،و التهاون بالواجبات و السهو عن الصلاه و الزكاه و..و..

[۱۶]و بالرغم من ابتعاد هذا الفريق من الناس حينا عن الصراط السوى فانّ توبتهم مقبوله،و يتقبّل اللّه حسناتهم،و يتجاوز عن سيئاتهم،و يدخلهم الجنه مع الصالحين من عباده.

أُولٰئِکَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا و إنّما يتقبّل اللّه من المتقين،و قد يتقبّل من غيرهم بعد توبتهم حيث يعتبرهم كالذين لم يذنبوا أبدا و هم المتقون من عباده.

و قال المفسّرون:إنّ المراد من أحسن الأعمال الواجبات و المندوبات،بينما المباحات لا ثواب عليها بالرغم من حسنها.

و قد يقال:إنّ لقبول الحسنات أيضا شروطا لا تتوافر فيها جميعا فلا يتقبّل اللّه منها إلاّ الأحسن،ممّا يبعث الإنسان إلى السعى لتحقيق كلّ شروط العمل الصالح.مثلا لا يقبل اللّه من الصلاه إلاّ ما التفت العبد فيها إليه،فلنقم الصلاه بحيث يتقبّلها اللّه جميعا لا جزء منها هو الأحسن.

وَ نَتَجٰاوَزُ عَنْ سَيِّئٰاتِهِمْ أو ليسوا قد تابوا إلى اللّه منها توبه نصوحا،و اللّه سبحانه هو التوّاب الرّحيم؟ فِی أَصْحٰابِ الْجَنَّهِ أولئک الصالحين الذين أخلصوا للّه حياتهم،و أيّه كرامه أعظم لأمثالنا أن

يدخلنا اللّه فى الصالحين من عباده و نحن ممّن خلط عملا صالحا و آخر سيّئا؟! وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ [١٧]و يضرب القرآن مثلا من واقع الصراع بين الأجيال،حيث يتمرّد الجيل الصاعد على قيم الحق و تقاليد الصلاح عند الجيل السائد،لنعتبر به ألاّ نهلك باتباعه.

وَ الَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا بينما الدّين أوصانا بالإحسان إليهما نجد هذا الفاسق يضجر من والديه اللذين هما أصل وجوده و كلّ خير فيه،و يقول لهما:أفّ لكما.

و كلّما يحذّره الوالدان من مغبّه الإيغال فى الخطيئه ينهرهما،و يكفر بالجزاء قائلا:

أَ تَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ بعد الموت للحساب،كلاّ.إنّه وعد مكذوب،ثمّ يستشهد بما درج عليه الجاحدون للجزاء:بأنّ القرون المتطاوله قد مضت،و لمّا يخرج منهم أحد.أ رأيت ميّتا أحياه اللّه بعد أن أقبر و أوقفه للجزاء؟!كذلك لا أخرج أنا.

وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى أ فلا يعلم أنّ الحياه الآخره تأتى بعد انقضاء الحياه الأولى، و يومئذ يبعث اللّه الأوّلين و الآخرين معا،و يحقّق وعده الحق؟ و هكذا يتمرّد الفاسق على تربيه الوالدين و هما يبذلان كلّ جهد ممكن لإقناعه

بالحق،فاذا شعرا بالفشل استغاثا باللّه أن يعينهما فی إصلاح ابنهما الضّال.

وَ هُمٰا يَسْتَغِيثٰانِ اللّٰهَ و التربيه الحق هی التی تزرع فی قلب الولد خشيه اللّه،إذ ما قيمه السعاده فی الدنيا إذا أعقبها الشقاء الأبدی؟! وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ و نستلهم من هذه الآيه المنهج السليم لتربيه الطفل الذی كان يتبعه الوالدان المؤمنان،و الذی أنشأ اللّه به ذلك الجيل الصالح الذی احترم الجيل الماضی بالإحسان إليه و الاستغفار له،كما عمل فی سبيل إنشاء جيل صالح بالدعاء و العمل.و هذا المنهج قائم علی أساس توسيع رؤيه الطفل ليری الحياه الأخری فيوازن بينها و بين الدنيا فی قراراته،فيسعی لهما سعيا عادلا،و لا يترك إحداهما للأخری، لأنّهما فی الواقع حياه واحده ممتده من اليوم حتی يوم الجزاء.

بيد أنّ بعض الآباء يخفقون فی هذا السبيل،و عليهم ألاّ يقلقوا فقد أدّوا مسئوليتهم،و ما جعل اللّه لهما سلطانا يكرهان به ولدهما علی اتباع الحق.كيف و قد خاطب اللّه رسوله الكريم : «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ »،و قال: «لاٰ إِكْرٰاهَ فِی الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ».

و قد خلق اللّه الناس أحرارا يبتليهم،و لعلّنا نستفيد من هذه الآيه أنّ مسئوليه الدعاه و حمله الرساله تقتصر علی البلاغ،و حتی لو كانت لديهم قوه رادعه فلا يستحسن التوسّل بها لاكراه الناس علی اتباع الرشد،فبالرغم من أنّ للوالدين السيطره الطبيعيه علی الولد إلاّ أنّهما حين يقومان بدور الداعيه يستفرغان الجهد فی إقناعه بالحجه،و ليس بإكراهه،و عاده ينجحان،أمّا إذا فشلا فذلك أمر يعود الی

وجود حریه القرار عند الولد الذی قد یتمرّد علی الحق بحجه أنّه تقالید بالیه و أفکار رجعیه.

فَیَقُولُ مٰا هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ و یبـدو من هـذه الکلمه أنّه متمرّد علی الماضـی،و یتهمه بأنّه یمثّل الخرافه و الدجل،و هذا شأن صراع الأجیال الذی یحرم الجیل الصاعد من ثقافه الجیل السائد و تجاربه و عبره و عظاته،و یقضی علی التواصل الحضاری الذی هو عنوان تقدّم الأمم.

و قد کان لهذا النفس المشؤوم آثاره السیّئه علینا نحن المسلمین فی العصر الحدیث،حیث لم یمیّز الشباب بین المسلمین و الغثّ من تجارب آبائهم فرفضوها، و سعوا نحو تقلید الأجانب،فکانوا کالغراب الذی حاول تقلید الطاووس فی مشیته فلم یفلح فضیّع المشیتین! إنّ من لا یملک أصاله لا یستطیع الانتفاع بتجارب الآخرین، لأنّه لا یملک مقیاسا سلیما یمیّز به ما ینفعه من تجاربهم و ما یضره،فیکون کمن یبنی علی الرمال سرعان ما ینهار بناؤه.

و قـد دلّت تجـارب التاریـخ علی أنّ الأمم ذات الأصاله هی الأقـدر علی احتواء تجارب غیرها من الأمم المتمرّده علی تاریخها و مکاسب حضارتها.

و نحن الیوم بانتظار ذلک الجیل المؤمن الذی یعیش بثلاثه أبعاد:متفاعلا مع حاضره،مستفیدا من ماضیه،متطلّعا لمستقبله.

[۱۸]الدّین و الکفر قدیمان عند البشر،فکما کان منذ القدم رجال صالحون ملتزمون بالدّین کان آخرون یکفرون به،فاذا کان کلّ قدیم رجعیه فانّ الکفر هو

الآخر قـديم!و هـذه الأفكار التى يروّجها الجاهليّون باسم التقدّميه موغله فى الرجعيه،إذ أنّها تدعو إلى حاله البدائيه حيث لم يكن لـدى أهلهـا التزام بالقيم و العادات الصالحه،و هـذا الـذى يكفر بالبعث و يـدّعى أنّه من أساطير الأوّلين سوف يحشـر مع أولئك الكفّار من الأوّلين،حتى يتبيّن له أنّ الكفر-و ليس الدّين-هو من أساطير الأولين.

أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ و كيف حقّ القول عليهم؟ لقد كفروا فطبع اللّه على قلوبهم،و سلبهم توفيق الايمان،فظلّوا كافرين حتى أدخلهم اللّه النار فى الأمم الغابره.

إِنَّهُمْ كٰانُوا خٰاسِرِينَ و علينا أن نعتبر بمصـيرهم فلا نبادر إلى الكفر فيغلق اللّه علينا باب التوبه إلى الأبـد،و لا يقولنّ الواحـد:أكفر الآن فاذا أردت الايمان فالطريق مفتوح أمامى.

كلاّ..إنّ فرصه الايمان محدوده،و قد تسلب منك حتى الأبد.

و فى هـذا درس للداعيه ألاّ يهلك نفسه أسـفا على بعض الناس إن لم يؤمنوا، فلعلّهم ممّن طبع اللّه على قلبه فلا يسـتطيع الايمان أبدا.

[١٩]و لكى لاـ يزعم الإنسـان أنّ تقسـيم الناس على الجنّه و النار اعتباطى،يزيـدنا السـياق هـدى بأنّ أعمال الناس هى التى تسوق أصـحابها إلى المصـير النهـائى إمّا الجنه أو النار،و تأكيـدا على ذلك أنّ للجنّه درجات كما للنار دركات،و منازل أهل الجنه أو أهل النار تحدّد بأعمالهم أيضا،حتى لا يدع للشك مجالا فى أنّهم لا

يظلمون،بل هم يجزون بما كانوا يعملون.

وَ لِكُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا يبدو أنّ المراد من«و لكلّ»أهل الجنه و أصحاب النار لكلّ درجته و منزلته حسب عمله.

وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ أى ليجزيهم أعمالهم جزاء تامّا وافيا.

وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ فمن يعمل مثقال ذرّه خيرا هنا، يره هناك بدرجاته المتعاليه فى الجنّه،و من يعمل مثقال ذرّه شرّا هنا،يره هناك بعذاب دركات النار.

[۲۰]و لا يدع كتاب ربّنا الحكيم الإنسان فى غمّه من أمره بل يكشف له أسباب الكفر فيبيّن له علاجها،لكى لا تكون للناس حجه بعد البيان،ذلك أنّ النار شىء عظيم،فكيف يلقى ربّ الرحمه عبده العاصى فيها دون أن يتمّ عليه الحجه كامله.

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ هنالك حيث تستعدّ النار لاستقبال أفواج الكفّار و العصاه بألسنه اللّهب المتصاعده و الشهقات الواسعه التى تبتلع الملايين،هنالك إذ تتوضّح الحقائق،فلا غفله،و لا استرسال و لا تبرير،و لا إهمال،هنالك تقال لهم كلمه الحق التى لو عرفوها فى الدنيا إذا ما أهملوا،و لا تشبّثوا بالأعذار التى لا تغنى شيئا.

أَذْهَبْتُمْ طَيِّبٰاتِكُمْ فِى حَيٰاتِكُمُ الدُّنْيٰا

فهذا هو السبب المباشر للمأساه.الوقت و الطاقه و الفراغ و سائر النعم هی ذخیره الإنسان لیوم الحساب،فمن بذّرها للمتعه العاجله فی الدنیا فما ذا یبقی له لیوم فاقته؟ إنّما السعید من قدّم شیئا ممّا عنده لحیاته الخالده،و قسّم وقته و طاقاته بین السعی للدنیا و العمل للآخره،و لم یکن همّه التمتّع بکل ما یملک فی دنیاه فیکون مثله کذلک الشاب الذی أبلی شبابه فی اللّذات فاذا تقدّم به العمر إلی خریف الحیاه لم یجد إلاّ الحرمان و الألم و الحسرات.

و لکن ما الذی یدعو الإنسان إلی التبذیر بالطیّبات فی الدنیا،هل الحاجه الضروریه؟کلاّ..ذلک أنّ حاجات الإنسان محدوده،و یمکن له توفیرها ببعض قدراته.إنّه یوفّر لقمه عیشه و سکناه و أمتعته بأیسر الجهد،إنّما لهث البشر یکون عاده وراء الکمالیّات.إنّه یختار ألذّ الطعام،و أرفه المساکن،و أرقی المتاع،حتی و لو کان علی حساب آخرته،فیظلم الناس بالسرقه و الغش،و قد یصبح أداه للطغاه من أجل الحصول علی الکمالیّات،و لأنّ الکمالیّات بدورها درجات و لا یمکنه أن یبلغ مداها فانّک تراه دائب اللهث وراءها،فاذا بنی قصرا و وجد قصر صاحبه أفخم عقد العزم علی بناء ما هو أعظم من بناء صاحبه،و إذا اقتنی سیاره و علم أنّ أخری خیرا منها دخل السوق سعیا نحو شرائها بکلّ وسیله ممکنه،و هکذا..

و هنا نتساءل:ما هو جذر التنافس علی الکمالیّات بهذه الشدّه،مع أنّ بعضها لا یمسّ شهوات الإنسان من قریب؟.

الجواب:إنّه الاستکبار.حیث یبحث الإنسان أبدا عن التعالی علی أقرانه بحق أو بباطل،و إذا نزع الإنسان رداء الکبریاء،و تسربل بالخشوع و القنوع،فانّه یقتلع جذر الانحراف من نفسه،هنالک یکتفی بالضرورات و ما یتیسّر له من زینه الدنیا،

فیقسّم طاقاته بعداله بین حیاته هنا و حیاته الأبدیّه هناک.أمّا إذا استکبر فانّه یشتری هوان العذاب فی الآخره،و یقال لمثله:

فَالْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ الْهُونِ بِمٰا کُنْتُمْ تَسْتَکْبِرُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ وَ بِمٰا کُنْتُمْ تَفْسُقُونَ و الفسق هو الخروج عن الحدود،ممّا یدلّ علی أنّ المستکبر بغیر حق یتجاوز حدود الشرع ممّا یوجب له ألیم العذاب.

الحیاه بین الحکمه و المتعه:

إنّ حیاتنا فی هذه الدنیا ذات حکمه تنبسط علی کلّ ممارستنا فیها،ممّا یجعل لکلّ بعد منها هدفا محدّدا لو سعینا نحوه کانت الحیاه شریفه.أمّا إذا فرّغنا أعمالنا من أهدافها،و مارسناها لذاتها،فإنّها تصبح متعه زائله،فمثلا:الطعام سبیلنا إلی القوّه فمن طعمه لشهوه الأکل(لا-لبلوغ سلامه البدن و قوّته)کان ممّن أذهب طیباته،و الثیاب وسیله للستر و الزینه فمن استهدف المفاخره بها أذهب طیباته، و هدف التعلّم العمل فمن تعلّم العلم للعلم دون أیّ هدف آخر ضلّ سبیله و أضلّ عمله،و لیس صحیحا أن نجعل الفنّ للفنّ،إنّما لتوعیه الناس،و تحسیسهم بالحقائق،و إثاره حوافز الخیر فیهم،و من دون ذلک یصبح الفنّ هراء،و یذهب بطیباتنا.

و حین یفقه الإنسان حکمه الحیاه و مفرداتها یعتدل سلوکه فیها.یبصر الهدف من طعامه فیزهد فیما لا ینفع جسده،و یعرف الهدف من ثیابه فلا یفاخر و لا یبذّر، و یضع علمه فی خدمه قیمه،و إذا مارس الفنّ حقّق أهداف أمّته من ورائه.

ألا تری کیف کان یعیش رسول اللّه و الأئمه الصالحون من خلفائه علیهم جمیعا

صلوات اللّه.

روى فى الحديث أنّ عمر ابن الخطّاب قال: استأذنت على رسول اللّه صلى الله عليه و آله فدخلت عليه فى شربه أمّ إبراهيم،و إنّه لمضطجع على خصفه و إنّ بعضه على التراب،و تحت رأسه و ساده محشوّه ليفا،فسلّمت عليه ثمّ جلست فقلت:

يا رسول اللّه أنت نبيّ اللّه و صفوته و خيرته من خلقه،و كسرى و قيصر على سرر الذهب و فرش الديباج و الحرير؟!!فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله :«أولئك قوم عجّلت طيّباتهم،و هى وشيكه الانقطاع،و إنّما أخّرت لنا طيّباتنا» (1).

أمّا

الإمام أمير المؤمنين فيقول عنه حفيده الإمام الباقر(عليهما السلام):

«و اللّه ان كان على يأكل أكله العبد،و يجلس جلسه العبد،و إن كان يشترى القميصين فيخيّر غلامه خيرهما ثمّ يلبس الآخر،فإذا أجاز أصابعه قطعه،و إذا جاز كعبه حذفه، و لقد ولّى خمس سنين ما وضع آجره على آجره،و لا لبنه على لبنه،و لا أورث بيضاء و لا حمراء،و إن كان ليطعم الناس خبز البرّ و اللحم، و ينصرف إلى منزله فيأكل خبز الشعير و الزيت و الخل،و ما ورد عليه أمران كلاهما للّه عزّ و جل فيه رضا إلاّ أخذ بأشدّهما على بدنه،و لقد أعتق ألف مملوك من كدّ يمينه،تربت منه يداه،و عرق فيه وجهه،و ما أطاق عمله أحد من الناس،و إن كان ليصلّى فى اليوم و الليله ألف ركعه،و إن كان أقرب الناس به شبها علىّ بن الحسين ما أطاق عمله أحد من الناس بعده» (2)و هكذا كان يربّى النبى أصحابه،

فقد ورد فى الحديث أنّه(صلّى اللّه عليه و آله) دخل على أهل الصّفه و هم يرقّعون ثيابهم بالأدم (3)ما يجدون لها رقاعا،فقال:

١- ١) نور الثقلين/ج(۵)-ص(١۵).

٢- ٢) المصدر/ص(١۶).

٣- ٣) الجلد المدبوغ.

«أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم فى حلّه و يروح فى أخرى،و يغدى عليه بجفنه و يراح عليه بأخرى،و يستر بيته كما تستر الكعبه؟قالوا:نحن يومئذ خير، قال:بل أنتم اليوم خير» (1).

[21]عذاب الدنيا أهون من جهنّم،و لكنّه شاهد عليها،و لقد استمتع الكفّار بدنياهم،و أذهبوا فيها طيباتهم،فابتلوا بعذاب بئيس هنا قبل الآخره.ألا يكفينا ذلك عبره؟ هؤلاء قوم عاد ملأ قلوبهم حبّ الدنيا حتى حجبهم عن فهم حقائق الآخره، فإذا بهم يعرضون عن النذر بالرغم من بلاغ إنذارهم.

و يبدو أنّ السياق يضرب لنا من قصّه عاد مثلا على جمله البصائر التى تقدّمت فى هذا الدرس،و التى منها:تشبّث الإنسان بالتقاليد،و توغّله فى شهوات الدنيا.

وَ اذْكُرْ أَخٰا عٰادٍ دعنا نذكرهم لنتعظ بمصيرهم.

و كان هود من ذات القبيله فكان إنذاره بليغا.أو ليس يتحدّث بلسانهم و حسب مستواهم العقلى؟و بالإضافه إلى ذلك هو من أنفسهم يحبّ لهم الخير.

إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقٰافِ قالوا:الأحقاف هى الكثبان الرمليه التى تتجمّع هنا و هناك.

و قالوا:إنّها كانت وسط الجزيره العربيه بين نجد و الأحساء و حضرموت

ص:163

1- 1) نور الثقلين/ج(5)/ص(17).

و عمان.

و قال بعضهم:كانت جنوب الجزيره باتجاه اليمن أو فى سواحل بحر العرب بين عمان و عدن،و قيل أنّهم كانوا مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشّحر. (۱)

و يبدو أنّ ذكر الأحقاف هنا للدلاله على أنّ اللّه أسبغ عليهم نعمه الماء و الكلأ فى موقع يندران فيه أى بين التلال الرمليه المتحرّكه،و كان عليهم أن يشكروا نعمه اللّه،و يستجيبوا للنذر. أو لا يرون طبيعه الأرض من حولهم،و كيف تكاد الرمال المتحرّكه تبتلع حضارتهم الهشّه،و لكنّهم اغتروا،و تجبروا،و استكبروا فى الأرض بغير الحق،و فسقوا عن أمر ربهم فجاءتهم عاصفه رمليه دمّرت حياتهم.

وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ لعلّ المراد من هذه الكلمه:أنّ النذر توالت عليهم فى فترات متعاقبه قبل بعثه هود،فبعضهم كانوا قريبين من عصره« مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ »،بينما كان بعضهم بعيدين من عصره«من خلفه»،و اللّه العالم.

أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ هذه هى الرساله بصوره مختصره،و هى تحتوى على سائر التعاليم،فمن عبد اللّه وحده تعبّد بالشريعه التى أمر بها،و من عبد اللّه وحده كفر بالطاغوت و كلّ مستكبر و ظالم،و رفض التبعيه،و من عبد اللّه وحده لم يسترسل مع شهوات الدنيا حتى الهلاك.

إِنِّى أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

ص:۱۶۴

۱- ۱) راجع التفاسير و بالذات تفسير القرطبى/ج(۱۶)ص(۲۰۴)و تفسير نمونه(بالفارسيه)/ج(۲۱)- ص(۳۵۱).

[۲۲]أمّا عاد فقد تشبّثوا بالواقع الراهن رغم فساده،لأنّهم زعموا أنّ مصالحهم تتعرّض للخطر لو آمنوا بربهم.

قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا لِتَأْفِكَنٰا عَنْ آلِهَتِنٰا و كأنّ آلهتهم التی کانت رمزا لقوی الظلم و الاستكبار هی المقدّسات التی أراد هود أن يصرفهم إفكا عنها.

و ربما يوحی الاستفهام بأنّهم لم يصدّقوا أنفسهم كيف يجرأ أحد علی مقاومه تلك الآلهه،لذلك تحدّوا هودا بكلّ صلافه قائلين:

فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ و هكذا الذی يركن إلی الماده يستبدّ به الغرور إلی درجه تراه يتحدّی من ينذره، و يستعجل لنفسه العذاب.

[۲۳]و كعاده الكفّار بالغيب زعمت عاد أنّ هودا هو الذی ينزل عليهم العذاب،و أنّ بيده أمره،فنفی ذلك بصراحه:

قٰالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ و إنّما هو رسول يبلّغهم أمر اللّه.

وَ أُبَلِّغُكُمْ مٰا أُرْسِلْتُ بِهِ و هذه مسئوليه أصحاب الرساله الأساسيه،بيد أنّ ذلك لا يعنی أنّه مجرّد ساعی بريد،كلاّ..بل له بدوره كلام ينصحهم به ألاّ يكذّبوا بالرساله:

وَ لٰكِنِّی أَرٰاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ

ذلک أنّ تحدّی جبّار السموات و الأرض،و استعجال عذاب الإباده و التدمیر، لا یکون إلاّ عن جهل مطبق.

[۲۴]و ها هی إرهاصات العذاب تلوح فی الأفق.أ رأیت الأعاصیر الترابیه کیف تبدو من بعید؟کأنّها سحابه سوداء،و بما أنّهم قد منع عنهم الغیث لفتره حتی أجدبت أرضهم استبشروا خیرا بما رأوا،و زعموا أنّه غیث یستقبل أودیتهم العطشی.

فَلَمّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِیَتِهِمْ قالُوا هٰذا عارِضٌ مُمْطِرُنا و لعلّ تأخّر المطر عنهم کان بهدف إنذارهم عملیّا لعلهم یتضرّعون إلی ربّهم، کما کانت بین یدی غرق فرعون و جنوده آیات تهدف إیقاظهم من سباتهم، و لکنّهم أصرّوا علی کفرهم،فجاءهم النداء:

بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ من العذاب.

رِیحٌ فِیها عَذٰابٌ أَلِیمٌ [۲۵]إنّها عاصفه رملیه مأموره من عند اللّه بأن تدمّر کلّ شیء ممّا عند قوم عاد فی الوقت المحدّد،فهی إذا لیست هو جاء تمضی من دون أمر.

تُدَمِّرُ کُلَّ شَیْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها تتصل ظواهر الطبیعه بعمل الإنسان حتی لا تکون حادثه صغیره أو کبیره إلاّ و لها علاقه بما یختلج فی قلبه أو تکسبه یداه،أو تبلو به سرائره و تختبر إرادته،فحتی

الأمواج الهادره التی تحیط بالسفن الشراعیه و هی تمخر عباب البحر لیست بعیده عمّا یجری فی داخل السفینه.أ رأیت کیف تتساقط أغشیه الشرک عن أبصارهم فیهرعون إلی الدعاء لکی ینقذهم اللّه من ورطتهم،کما یصف ربنا ذلک بقوله : «هُوَ الَّذِی یُسَیِّرُکُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتّی إِذا کُنْتُمْ فِی الْفُلْکِ وَ جَرَیْنَ بِهِمْ بِرِیحٍ طَیِّبَهٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِیحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ کُلِّ مَکانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِیطَ بِهِمْ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ لَئِنْ أَنْجَیْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَکُونَنَّ مِنَ الشّاکِرِینَ ». (۱)

بلی.إنّ هذه البصیره تجعل الإنسان یزداد تحسّسا بالمسؤولیه،و اتقاء للأخطاء، و انضباطا فی أعماله و أقواله و نیّاته ألاّ تفسق عن الحدود التی رسمها له اللّه.أو لیس کلّ شیء یحدث بأمر ربّه؟أو لیس اللّه حکیما لا یقضی بشیء من دون استحقاق؟إذا دعنا نکن حذرین،نتورّع عن ما یغضب الرب،و نعتبر بمصیر الغابرین.

إنّ الجهل و العناد و الجحود لا تنفعنا شیئا،بل هی مسئوله عن وقوع أکثر الناس فی المهالک.إنّهم یزعمون أنّ الطبیعه عمیاء تصیب ضحایاها بلا قانون!کلاّ..

إنها مأموره،و ربّها الذی یدبّرها علیم حکیم.

و ها قد نزلت الکارثه بقوم عاد بأمر اللّه،و اجتاحت العاصفه دیارهم و دمّرتهم.

فَأَصْبَحُوا لا یُری إِلاّ مَساکِنُهُمْ و دلیل أنّ الریح کانت مأموره أنّها لم تأخذ إلاّ المجرمین منهم.

کَذلِکَ نَجْزِی الْقَوْمَ الْمُجْرِمِینَ

۱- ۱) یونس /(۲۲-۲۳).

فهی سنّه عامه لا تخصّ عادا وحدهم،فأیّ قوم مجرمین لا بد أن یحیق بهم عملهم یوما.

أمّا هود و المؤمنون معه فقد أنجاهم اللّه.قالوا:إنّهم اعتزلوا فی حظیره، ما یصیبه و من معه إلاّ ما یلین أعلی ثیابهم،و تلتذ الأنفس به،بینما کانت تمرّ من عاد بالظعن بین السماء و الأرض و تدمغهم بالحجاره حتی هلکوا. (۱)

و قد جاء فی التاریخ:أنّ الخلیفه العباسی المهدی أمر بحفر بئر بقرب قبر العبادی(و هو حسب قول الحموی:منزل فی طریق مکه من القادسیه إلی العذیب) لعطش الحاج هناک،فحفروا أکثر من مأه قامه،فبینما هم یحفرون إذ خرقوا خرقا و إذا تحته هواء لا یدری قعره،و هو مظلم،و للریح فیه دویّ،فأدلوا رجلین فلما خرجا تغیّرت ألوانهما فقالا:رأینا هواء واسعا،و رأینا بیوتا قائمه،و رجالا و نساء، و إبلا و بقرا و غنما،و کلّما مسنا شیئا رأیناه هباء،فسألنا الفقهاء عن ذلک فلم یدر أحد ما هو،فقدم أبو الحسن موسی بن جعفر-علیه السّلام-علی المهدی فسأله عن ذلک فقال:«هؤلاء أصحاب الأحقاف و هم بقیه من قوم عاد، ساخت بهم منازلهم»و ذکر علی مثل قول الرجلین. (۲)

۱- ۱) تفسیر القرطبی/ج(۱۶)-ص(۲۰۷).

۲- ۲) تفسیر نور الثقلین/ج(۵)-ص(۱۸)نقلا عن الخرائج و الجرائح.

[سوره الأحقاف (۴۶): الآیات ۲۶ الی ۳۵]

اشاره

وَ لَقَدْ مَكَّنّٰاهُمْ فِيمٰا إِنْ مَكَّنّٰاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنٰا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصٰاراً وَ أَفْئِدَةً فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لاٰ أَبْصٰارُهُمْ وَ لاٰ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كٰانُوا يَجْحَدُونَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۲۶) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنٰا مٰا حَوْلَكُمْ مِنَ اَلْقُرىٰ وَ صَرَّفْنَا اَلْآيٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۷) فَلَوْ لاٰ نَصَرَهُمُ اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ قُرْبٰاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (۲۸) وَ إِذْ صَرَفْنٰا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ اَلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ اَلْقُرْآنَ فَلَمّٰا حَضَرُوهُ قٰالُوا أَنْصِتُوا فَلَمّٰا قُضِيَ وَلَّوْا إِلىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (۲۹) قٰالُوا يٰا قَوْمَنٰا إِنّٰا سَمِعْنٰا كِتٰاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسىٰ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى اَلْحَقِّ وَ إِلىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (۳۰) يٰا قَوْمَنٰا أَجِيبُوا دٰاعِيَ اَللّٰهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذٰابٍ أَلِيمٍ (۳۱) وَ مَنْ لاٰ يُجِبْ دٰاعِيَ اَللّٰهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي اَلْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءُ أُولٰئِكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۳۲) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اَللّٰهَ اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقٰادِرٍ عَلىٰ أَنْ يُحْيِيَ اَلْمَوْتىٰ بَلىٰ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۳۳) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى اَلنّٰارِ أَ لَيْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ قٰالُوا بَلىٰ وَ رَبِّنٰا قٰالَ فَذُوقُوا اَلْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۴) فَاصْبِرْ كَمٰا صَبَرَ أُولُوا اَلْعَزْمِ مِنَ اَلرُّسُلِ وَ لاٰ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مٰا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَةً مِنْ نَهٰارٍ بَلاٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ اَلْقَوْمُ اَلْفٰاسِقُونَ (۳۵)

ص:۱۶۹

اللغه

(٣١) يُجِزْكُمْ :أى يحفظكم.

ص:١٧٠

فاصبر كما صبر أولو العزم

هدى من الآيات:

يستمر السياق فى الحديث عن سنّه اللّه فى الخليقه التى تتجسد فى بعث الأنبياء -عليهم أفضل الصلاه و السلام-كلّما انحرف الناس عن المسيره،و إنذارهم بمصيرهم المرتقب،و يشير إلى القرى التى أنذر أهلها بالأنبياء،و أنزل لهم الكتب لعلّهم يهتدون،و لكنّهم بدل أن يعبدوا اللّه و يعتمدوا عليه إذا بهم يعبدون الأنداد من دونه،فلم يغنوا عنهم-ساعه الانتقام-شيئا.

و يقصّ علينا ربّنا فى هذا السياق كيف صرف إلى الرسول نفرا من الجن يستمعون القرآن فلمّا آمنوا به و ولّوا إلى قومهم منذرين،و لعلّ سبب ذكر هذه القصه فى هذا السياق أنّ الكفّار كانوا يزعمون بأنّ الجن أنصاف آلهه،و أنّهم يدفعون عنهم الضراء.أو لم يقل ربّنا سبحانه: «وَ أَنَّهُ كٰانَ رِجٰالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجٰالٍ مِنَ الْجِنِّ »،فجاءت هذه القصه لبيان حاجه الجن أيضا إلى الرساله.

بينات من الآيات:

[۲۶]عند ما يفرّ الجاحد-لآيات اللّه-من مسئوليه الاعتراف بالحق، و التسليم له،يلجأ-فى زعمه-إلى ركن الغرور بالقوّه و العلم،و يعتقد أن ما يملكه من أموال،و من كيد،و من مكر تغنيه شيئا عند ما يحدق به خطر الدمار،بسبب كفره باللّه و رسالته.

كلاـ.إن مصير الغابرين من عاد،و ثمود،و فرعون و هامان و جنودهما، و غيرهم يكفينا عبره بأن قدراتنا الماديه و العلميه إن هى إلاّ غرور.

وَ لَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنّاكُمْ فِيهِ قال المبرّد:«ما»فى قوله:«فيما»بمنزله(الذى)و«إن»بمنزله(ما) و التقدير:و لقد مكّناهم فى الذى ما مكناكم فيه،و المعنى:أنّهم كانوا أقوى منكم،و أكثر منكم أموالا (۱)و كذا فى قوله تعالى: «كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ » و هكذا كانت الإمكانات التى سخّرت لهم أكثر مما سخرت لقريش،و ربما لكلّ قوم يتلون الكتاب من بعدهم.

وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً و بما أنّهم كانوا مزوّدين بهذه الأجهزه زعموا بأنها تنقذهم من عذاب اللّه.ذلك أن الإنسان يهلك إذا كان ضعيفا،أو جاهلا،أو غافلا،و لم يكن أولئك القوم كذلك،و مع ذلك اهلكوا عند ما أراد اللّه.

۱- ۱) يمرط:ينزع.

فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ و انما ينتفع الإنسان بهذه الجوارح إذا كان مؤمنا بآيات اللّه،أمّا إذا كفر بها فإنه سوف يخطأ المنهج السليم للانتفاع بها..أ رأيت الذى يملك أفضل وسيله سير ثم يخطأ السبيل فهل تنفعه وسيلته لبلوغ غايته إذا كانت وجهه سيره خاطئه؟!كذلك الذى لا يؤمن بالحقائق الكبرى ثم لا يستفيد من معرفته بالحقائق الجزئيه التى تقع فى اطارها و يكون مثله كالذى لا يعترف أنّ عدوّه يمتلك قنبله نوويّه،ثم يجدّ فى معرفه عدد دبابات العدو..انه سيخسر المعركه قطعا حتى إذا عرف كلّ حقيقه فى سلاح المدرعات عند العدو.

هكذا من لا يعتقد بقوّه اللّه التى أرسلت على قوم عاد تلك العاصفه الهوجاء، التى دمّرت كلّ شىء بإذن ربّها،أو التى أخذت فرعون و جنوده و نبذتهم فى اليمّ نبذا.إن مثل هذا الرجل لن ينتفع شيئا بمعرفته مثلا بأصول الهندسه،أو كيفيّه تنظيم الجيش،لأن كل ذلك وضع فى مواجهه أخطار بسيطه،أما مقاومه تغيير طبيعى هائل فانه فوق قدراتنا المنظوره..تماما كالذى يجهد نفسه فى بناء خندق عميق فى مواجهه سلاح ذرىّ..إنه مغرور لأن الخندق انما أنشئ لمواجهه سلاح تقليدىّ و ليس سلاحا ذرّيّا.

و هكذا السمع و الأبصار و الأفئده انما هى أدوات لمواجهه أخطار عاديّه،و لا تنفع الذى يخالف إراده اللّه شيئا.

إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ من الحقائق الكبيره التى جحدوها،و سخروا منها.انها نزلت بهم كالصاعقه،و تنزل بمن يسير فى خطهم الباطل.

[۲۷]لا تزال على الطبيعه من حولنا آثار تنطق بسنن اللّه فى التاريخ،فهذه القرى من حولنا قد أهلكت بفعل ضلالتهم عن الحق.و لكن هل أهلكوا فجأه و من دون نذر؟كلّا..

و كانت قريش تمرّ على قرى مدين و ثمود عند رحلتهم صيفا نحو الشمال،و على قرى الأحقاف عند رحلتهم شتاء نحو الجنوب،و جاء القرآن يبصّرهم بعبر تلك القرى الخاويه على عروشها،و تلك الآبار المعطّله،و آثار القصور المشيده.

و هكذا يستنطق كتاب اللّه حوادث التاريخ و آثار الغابرين،و يجعلها تحكى للإنسانيه عبر أسلافهم لعلّهم يسعدون بتجاربهم.

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى و فى أىّ بلد كنت طف على القرى الغابره من حولك.قف على أطلالها، و استنطق آثار الأوّلين،و سائلهم:لماذا أهلكوا،فاستوعب عبر حياتهم قبل أن تكون عبره لمن يعقل من بعدك،ذلك أنّ البلاد جميعا لا تخلو من آثار الغابرين الذين كتبوا عليها دروسا لم يتعلّموها من أحد،و لو تعلّموا بعضها إذا ما أهلكوا.

وَ صَرَّفْنَا الْآياتِ لنا كما لأولئك الغابرين،فلم تدمّر حياتهم بلا سابق إنذار،و كانت النذر تترى عليهم بهدف صرف العذاب عنهم إذا اتبعوا النذر و عادوا إلى الرشد.

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ و نستوحى من كلمه «يَرْجِعُونَ »أنّهم كانوا مستبصرين فى أوّل حياتهم، ماضين على الفطره الأولى،فلمّا انحرفوا أنذروا بالعذاب لعلّهم يرجعون إلى فطرتهم

الأولی.

[۲۸]فلما ذا تولّوا عن النذر،و لم یستجیبوا لداعی اللّه،و لماذا لم یعتبروا بمصیر من سبقهم؟ لأنّهم اتخذوا من دون اللّه قربانا آلهه فزعموا أنّهم ینصرونهم من عذاب اللّه، و لکن هیهات.

و هکذا یزعم الإنسان أنّ بمقدوره التمسک بذیل من یزعم أنّهم مقرّبون إلی اللّه،من آبائه أو عظماء قومه لینجونه من مصیره،و هکذا یخدع نفسه و یظل فی غروره حتی یأتیه العذاب فیکتشف متأخّرا أنّه کان فی ضلال بعید،و أنّهم لا یستطیعون نصره أبدا.

فَلَوْ لاٰ نَصَرَهُمُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ قُرْبٰاناً آلِهَةً و کما أنّهم لم یقدروا علی نصرهم فی الدنیا من الدمار فإنّهم لا ینصرونهم فی الآخره من عذاب النار.

بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ لقد ضلّت الآلهه عنهم فلم یجدوا لها أثرا عند نزول العذاب،شأنهم شأن کلّ دجل و خداع تری له صورا، و تسمع جلبه،و تستقبل و عودا فی الرخاء،أمّا عند الشده فهی تتلاشی کما یتلاشی السراب عند ما تقترب منه.

و لکن من المسؤول:الآلهه التی طالما وعدت أنصارها بالنصر ثم ضلّت عنهم عند ما دقّت ساعه الانتقام،أم أولئک الذین خدعوا بهم؟لا ریب أنّ الذین قبلوا الانسیاق مع ضلالات الآلهه هم المسؤولون،لأنّ الآلهه من دون الأنصار لا تعنی

شيئا.أ رأيت لو لم يعبد أحد صنما هل يختلف الصنم عن أيّه حجاره أخرى؟أو رأيت إن لم يتبع الناس الطغاه هل هم يتميّزون شيئا عن غيرهم؟ إذا المسؤول أوّلا الإنسان الذى يصنع الإفك،و يفترى على اللّه.

وَ ذٰلِكَ إِفْكُهُمْ قالوا:الإفك الكذب،و كذلك الأفيكه،و الجمع الأفائك،و إفك الجماعه كان يتمثّل فى تقديس الآلهه و الإعتقاد بقوّتهم.

وَ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ و لعلّ المراد من ذلك الأنظمه الفاسده التى كانت تترتب على هذا الإفك، و التى كانوا يفترونها على اللّه كذبا.

و هكذا تكون الحاله الشركيه و الفساد العريض الذى يؤدى إليه نتيجه ثقافه الضلاله،و فساد الأخلاق و الأنظمه و العادات،و يزعم البسطاء أنّ الكيان السياسى الفاسد و النظام الاقتصادى و الاجتماعى المنحرفين قادرين على المحافظه على مصالحهم،و لكنّهم يصطدمون فجأه بالواقع المرير الذى يفرزه هذا الإفك الكبير حين لا ينفعهم الندم.

و قد نستلهم من الآيه أنّ الأصنام التى كانت تعبد من دون اللّه،و كذلك الطغاه و المترفين الذين كانوا يسيطرون على مقدّرات الناس،إنّما هم جميعا صوره مجسّده لمجمل ضلاله المجتمع و انحرافه.

[۲۹]و من الناس من يتخذ الجن آلهه من دون اللّه،و يأفك القداسه لهم،فلا ينتفع بعبر الغابرين اتكالا عليهم،و قد يستعيذ بهم من دون اللّه،و يزعم أنّهم

يمنعونه عن سيئات عمله،و يغنون عنه من اللّه شيئا.

كلاّ..الجن كالإنس خلق برأهم اللّه،و هم بحاجه إلى الرساله،و انّ الرسل الذين يبعثون إلينا هم النذر المرسلون إليهم أيضا..و إذ يحدّثنا السياق هنا عن قصه استماع الجن للقرآن و إيمان نفر منهم ثم انصرافهم الى قومهم منذرين فإنّه يصحّح بذلك تلك الصوره المشوّهه عنهم فى أذهان كثير من الناس حيث يزعمون بأنّ الجن مصدر كلّ شر و خبث،كلاّ..بل منهم المؤمنون الذين يحملون رسالات اللّه إلى قومهم.

و يبدو من خطاب القرآن إليهم فى آيات عديده أنّهم مكلّفون به،و أنّهم متعايشون معه،و لكنّنا حتى الآن محجوبون عنهم،كما يظهر أنّهم مجزيّون على إيمانهم و أعمالهم كما الإنس سواء بسواء،فلا يجوز أن يستعيذ بهم الإنس لأنّهم يزيدونهم رهقا.

وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ أى ألهمنا نفرا من الجن الحضور عندك،أو حملناهم على المرور بك من دون تقدير منهم.

يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ قالوا:فى أثناء عوده الرسول صلى الله عليه و آله من سوق عكاظ نزل بمكان يقال له:مجنّه، نسبه إلى الجنّ،فبات فيه،و كان من عادته صلى الله عليه و آله انه يبيت لربه ساجدا قائما، يتلو أجزاء القرآن يرتّلها ترتيلا،و بينما كان يتلو القرآن مرّ به نفر من الجن قالوا كانوا من أهل نصيبين،فإذا بهم يسمعون ذكرا عجبا.

فَلَمّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا

ص:۱۷۷

دعونا نستمع لهذا الذكر! و قد ذكر المفسرون هنا قصه رحله النبى صلى الله عليه و آله إلى الطائف التى التقى فى العوده منها بالجن،و هى رحله حافله بالدروس و العبر،بالذات فيما يتصل بالصبر و الاستقامه اللذين أمرنا بهما فى نهايه السوره،و لهذا نجد من المفيد بيان أبعاد هذه الرحله الجهاديه العظيمه.

قال المفسرون(ابن عباس و سعيد بن جبير و مجاهد و غيرهم): لمّا مات أبو طالب خرج النبى(صلّى اللّه عليه و سلّم)وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصره،فقصد عبد يا ليل و مسعودا و حبيبا و هم إخوه بنو عمرو بن عمير-و عندهم امرأه من قريش من بنى جمح،فدعاهم إلى الإيمان،و سألهم أن ينصروه على قومه، فقال أحدهم:هو يمرط ثياب الكعبه إن كان اللّه أرسلك!و قال الآخر:ما وجد اللّه أحدا يرسله غيرك!و قال الثالث:و اللّه لا أكلّمك كلمه أبدا،إن كان اللّه أرسلك كما تقول فأنت أعظم خطرا من أن أردّ عليك الكلام،و إن كنت تكذب فما ينبغى لى أن أكلّمك.ثمّ أغروا به سفهاءهم و عبيدهم يسبونه و يضحكون به، حتى اجتمع عليه الناس و الجؤوه إلى حائط لعتبه و شيبه ابنى ربيعه،فقال للجمحيه:«ماذا لقينا من أحمائك»؟ثم قال:«اللّهمّ إنّى أشكو إليك ضعف قوّتى،و قلّه حيلتى،و هوانى على الناس،يا أرحم الراحمين،أنت ربّ المستضعفين،و أنت ربّى،لمن تكلنى!إلى عبد يتجهّمنى،أو إلى عدوّ ملّكته أمرى!إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى،و لكن عافيتك هى أوسع لى،أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بى غضبك أو يحلّ علىّ سخطك،لك العتبى حتى ترضى،و لا حول و لا قوّه إلّا بك»،فرحمه ابنا ربيعه،و قالا لغلام لهما نصرانى يقال له عدّاس:خذ قطفا من العنب وضعه فى هذا الطبق ثم ضعه بين يدى هذا الرجل،فلمّا وضعه بين يدى رسول اللّه(صلّى اللّه عليه و سلّم)قال النبى

(صلّی اللّه علیه و سلّم):«باسم اللّه»ثمّ أکل،فنظر عدّاس إلی وجهه ثم قال:

و اللّه إنّ هذا الکلام ما یقوله أهل هذه البلده!فقال النبی(صلّی اللّه علیه و سلّم):

«من أیّ البلاد أنت یا عدّاس و ما دینک»؟قال:أنا نصرانی من أهل نینوی، فقال له النبی(صلّی اللّه علیه و سلّم):«أمن قریه الرجل الصالح یونس بن متّی»؟قال:و ما یدریک ما یونس ابن متّی؟قال:«ذاک أخی کان نبیّا و أنا نبی»فانکبّ عدّاس حتی قبّل رأس النبی(صلّی اللّه علیه و سلّم)و یدیه و رجلیه، فقال له ابنا ربیعه:لم فعلت هکذا؟!فقال:یا سیدی ما فی الأرض خیر من هذا،أخبرنی بأمر ما یعلمه إلاّ نبی.ثم انصرف النبی(صلّی اللّه علیه و سلّم)حین یئس من خیر ثقیف،حتی إذا کان ببطن نخله قام من اللیل یصلی فمرّ به نفر من جنّ أهل نصیبین،و کان سبب ذلک أنّ الجنّ کانوا یسترقون السمع،فلمّا حرست السماء و رموا بالشهب قال إبلیس:إنّ هذا الذی حدث فی السماء لشیء حدث فی الأرض،فبعث سرایاه لیعرف الخبر،أوّلهم رکب نصیبین و هم أشراف الجن إلی تهامه،فلمّا بلغوا بطن نخله سمعوا النبی(صلّی اللّه علیه و سلّم)یصلّی صلاه الغداه ببطن نخله و یتلو القرآن،فاستمعوا له و قالوا:أنصتوا. (1)

فَلَمّٰا قُضِیَ حین انتهی الرسول من قراءته..

وَلَّوْا إِلیٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِینَ

ص:179

1 - 1) تفسیر القرطبی/ج(16)-ص(210-211).و ما نقله القرطبی قد یتعارض مع ظاهر الآیات التالیه. من أن إبلیس قد بعث بسرایاه لیعرفوا ما الخبر من حراسه السماء.لأنهم أولا:و کما أکدت الآیات التالیه انهم مؤمنون بموسی علیه السلام .و هذا یتناسب و الآیه(10)من ایمان بعض علماء بنی إسرائیل بالنبی صلی الله علیه و آله ،و ثانیا:هذه الحادثه(أی إرسال إبلیس لسرایاه لیعلموا ما الخبر)ذکرها المفسرون فی بعثه النبی صلی الله علیه و آله و بعض ذکرها فی مولده الشریف صلی الله علیه و آله .

يبدو أنّهم كانوا ذاهبين إلى مهمّه مّا،و لكنّهم حينما استمعوا إلى القرآن عادوا دون أن يقوموا بمهمتهم،لكى ينذروا قومهم.

[۳۰]و فيما يلى من الآيات نصّ الإنذار الذى حمله الجنّ إلى قومهم:

قٰالُوا يٰا قَوْمَنٰا إِنّٰا سَمِعْنٰا كِتٰاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسىٰ قالوا:إنّ الرساله الحقيقه من بعد رساله إبراهيم عليه السلام كانت رساله اللّه إلى عبده و كليمه موسى عليه السلام ،و أمّا الإنجيل فقد كان تكميلا للتوراه،كما قال اللّه عن لسان عيسى عليه السلام : «وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ » (۱)،و استمرّت رساله موسى إلى أن بعث اللّه نبيّنا الأكرم صلى الله عليه و آله ،و خلال هذه الفتره-بين الرسالتين- بعث اللّه أنبياء و لكن ضمن رساله موسى عليه السلام .

مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ إنّ وحده القيم و المبادئ و التعاليم و المناهج و الشرائع فى الرسالات الربّانيه شاهد صدق على أنّها من عند اللّه الواحد،و لو لا ذلك كيف تتناغم هذه المنظومه المتكامله من المعارف و الأنظمه عبر العصور المختلفه و البلاد المتفاوته و الرجال المتباعدين عن بعضهم فى أكثر الأبعاد الماديه؟ و هكذا اهتدى الجن إلى صدق الرسول من خلال النظر العميق فى رسالته و أنّها تنسجم مع جوهر رسالات اللّه السابقه،فهى صادقه كما أنّ ما سبقتها كانت صادقه.

و يا ليت شعرى كيف كان يكفر بالقرآن من آمن حقّا بالتوراه،و القرآن هو

ص:۱۸۰

۱- ۱) آل عمران/(۵۰).

الصيغه الأكمل للتوراه؟! يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ و الحق هو ذلك النور الذى يسطع على كلّ قلب سليم،و كلّ عقل متحرّر، و كلّ فطره نقيّه،و حين يذكّر القرآن به لا يجد الإنسان مبرّرا للكفر به،إذ يتوافق الكتاب مع حقائق العقل.

و هكذا استدل الجن على صدق الرساله بمحتواها الحق،فعرفوا الرسول برسالته فصدّقوا به.

وَ إِلىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ليس فى الكتاب آيه إلاّ و تهدينا إلى ما يحكم به العقل،إلاّ أنّ العقل لا يقدر على معرفه الشرائع الواضحه لتحقيق الحق،فمثلاً عباده اللّه و التحرّر من الطاغوت و العداله و التقدّم و التعاون و السلام تلك هى الحقائق التى يذكّر بها الشرع،و يشهد بها العقل،و لكن كيف نحقّقها؟إنّ الإجابه عن ذلك نجدها فى الرساله التى تهدينا إلى السبل الواضحه و القويمه لبلوغ الأهداف الساميه،تلك التى نسمّيها بالشريعه و الأحكام.

[۳۱]و ما لبث المنذرون من الجن أن تحمّلوا مسئوليه الدعوه بإصدار الأمر بطاعه الرسول بعد أن عرفوا صدقه قائلين:

يٰا قَوْمَنٰا أَجِيبُوا دٰاعِيَ اللّٰهِ و أشاروا بكلمه«قومنا»أنّهم يريدون لهم الخير باعتبارهم من قومهم،ثم أمروا بطاعه الرسول لأنّه يدعو إلى اللّه،و هكذا يؤدّبنا القرآن ألاّ نكرم أحدا أو نطيعه إلاّ

باسم اللّه و باعتباره داعيا إليه.

وَ آمِنُوا بِهِ لعلّ الإجابه هی التسلیم له بصوره مجمله،بینما الإیمان هو العمل برسالته.

یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ تلک الذنوب التی تراکمت علینا قد ذهبت لذّاتها و تلاشت دوافعها،بینما بقیت تبعتها و آثارها علی القلب،و عواقبها علی المستقبل،لعلّنا نسیناها،بید أنّ کتاب ربّنا قد أحصاها،لذلک کان الخلاص منها غایه منی الموقنین،و أعظم باعث لهم نحو الطاعه للقیاده الشرعیه،و الجهاد فی سبیل إعلاء کلمه الحق،و ربما الشهاده فی سبیل اللّه.

و تساءل المفسرون:لماذا قال «مِنْ ذُنُوبِکُمْ »،أو لیس الإسلام یجبّ ما قبله، ممّا یعنی أنّ اللّه یغفر کلّ الذنوب السابقه علیه؟و من هنا قال بعضهم:إنّ«من» زائده.

و لکن قال الآخرون:إنّ«من»لیست زائده،و إنّ مجرّد الإسلام لا یطهّر صاحبه من تبعات کلّ الذنوب،بل کلّما عمل الإنسان ببعض الواجبات کلّما سقطت عنه طائفه من الذنوب حتی لا یبقی منها إلاّ النزر الیسیر،و انطلاقا من هذا التفسیر الموافق لظاهر القرآن(حیث أنّ الظاهر ألاّ تکون أیّه کلمه أو حرف زائده)یجتهد المؤمنون فی الأعمال الصالحه لتذهب بالسیئات.

وَ یُجِرْکُمْ مِنْ عَذٰابٍ أَلِیمٍ و من ذا الذی یجیر العبد من ربّه المحیط به علما و قدره؟!و إذا کان الجن

ص:۱۸۲

بحاجه إلى من يجيرهم من عذاب اللّه،فهل يقدرون على إجاره أحد من الأنس ممّن يستعيدون بهم؟! حقّا:إنّنا جميعا نبحث عن الأمن فهل نجده إلاّ عند ربّنا الكريم،و لكن هل يجيرنا الربّ من دون طاعه رسوله الداعى إليه؟ [۳۲]و هل يستطيع أحد أن يهرب من حكومه اللّه،و يخرج من حدود سلطانه؟ أنّى له ذلك و كلّ ذرّه فى وجوده قائمه به سبحانه.

وَ مَنْ لاٰ يُجِبْ دٰاعِيَ اللّٰهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ فلا يستطيع هربا من عاقبه كفره أنّى مضى من أطراف هذه الأرض التى هى فى قبضه ربّها.إنّه لا يعجزه فرارا كما يعجز أحدنا الآخر بالانتقال من حدود سيطرته أو علمه.

وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءُ ينصرونه،بالرغم من أنّ الإنسان يزعم أنّ عشيرته أو أسرته أو حز به و ناديه يهرعون إلى مساعدته عند ما يتعرّض للعذاب،و لكنّ ذلك لا ينفعه أمام عذاب اللّه الذى قد يشملهم جميعا.

بلى.الخلاص من العذاب ممكن بالهرب إلى اللّه من عذابه،و الالتجاء إلى فناء عفوه،فرارا من سطوه انتقامه،و لكنّ ذلك مشروط بإجابه داعى اللّه.

أُولٰئِكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ قد يضلّ الإنسان و هو يزعم أنّه على هدى،و لكنّ ضلال البشر عن ربّه لا يمكن

تبريره أو إخفاءه أنّه ضلال مبين،لأنّ القياس باطل تماما بين اللّه و خلقه.أليس كذلك؟فكيف يمكن للإنسان أن يزعم أنّ من خلقه اللّه بقادر على إنقاذه من غضبه ربّه الخالق الجبّار؟! [۳۳]و العذاب الأدنى فى هذه الحياه شاهد صدق على العذاب الأكبر فى الآخره، أوّلا:لأنّه ينسف بنى التبرير،و التشبّث بالأعذار،و الغرور بنعم اللّه، و الإعتقاد بأنّ اللّه لا يعذّب أحدا،كلاّ..أو ليس قد عذّب عادا الأولى،و ثمود فما أبقى؟،و ثانيا:لأنّه يرينا صوره واضحه عن شدّه عذاب اللّه،فإذا كان العذاب الأدنى ريحا تدمّر كلّ شىء بإذن ربّها فكيف بالعذاب الأكبر؟!إذا فإنّ ما أنذر به المرسلون من عظيم العقاب فى اليوم الآخر حق لا ريب فيه،ثالثا:حينما نشهد عذاب اللّه للأمم الغابره تلين القلوب،و تستعد لتقبّل المواعظ الربّانيه، و كانت من قبل سادره فى غفلتها،محجوبه بغرورها و بانشغالها بالشهوات العاجله و الأمانى و الأحلام،لذلك كانت تلجأ إلى كهف التكذيب بالآخره،و اختلاق الشبهات حولها،فرارا من ثقل المسؤوليه،و مسارعه فى اللّذات،و مضيّا مع الشهوات حتى الثماله.

و أكثر الشبهات شيوعا عندهم ما قالوا:كيف يعيد اللّه هذه الأعظم الباليه و قد أضحت رميما تذروه الرياح؟!و كيف يحيى اللّه الموتى و قد فسد نظام أجسادهم، و ماتت خلايا المخّ عندهم،و لم نر أحدا منهم عاد إلى الحياه أبدا؟! و هذه الشبهه تافهه جدّا،إلاّ أنّها تستمد قوّتها من عزم البشر على التهرّب من الإيمان بالآخره خشيه تحمّل مسئولياته الثقيله،و لو لا ذلك فإنّها تتلاشى كما يتلاشى ظلام الليل حينما ينبلج فجر الحقيقه،بشرط ألاّ يحتجب الإنسان عنه بغشاوه الشهوات،دعنا نستمع إلى القرآن و هو يبدّد هذه الشبهه بتساؤل يمسّ أوتار

الفطره النقيه مسّا رقيقا:

أَ وَ لَمْ يَرَوْا إنّها حقيقه ترى ليس بالعين وحدها،فإنّ البصر قد يزيغ،و لكن بالقلب الذى تجتمع لديه أحاسيس كلّ الجوارح.

أَنَّ اللّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقٰادِرٍ عَلىٰ أَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتىٰ بلى.لأنّنا نشهد فى كلّ أفق من آفاق هذه الخليقه الواسعه تجدّد الحياه بعد الموت،فهذا الربيع حيث تحيا الأرض بعد موتها،و تستيقظ الأشجار بعد همودها، تشهد بقدره البارئ التى تحيط بكلّ شىء.

إنّ التنوّع الهائل الذى يعجز البشر عن إحصائه فى الخلق:من أقسام الأحجار و المعادن و الأتربه و صنوف الأحياء،و من الفيروس حتى الفيل،و من أصغر خليه حيّه فى البحر حتى الحوت العظيم،و من أصغر حشره طائره حتى النسور و العقبان.

و اختلاف البشر خلقا،و تقلّبهم من حاله النطفه حتى بلوغ مرحله الاكتمال.

ثمّ ما أوتينا من عظيم خلق السموات التى لو قيست أرضنا بها لكانت كحبّه رمل فى صحراء واسعه.

كلّ ذلك يرينا جانبا من قدره اللّه،و أنّه سبحانه لا يعجزه شىء أبدا..فهل يستحيل عليه أن يحيى الموتى؟! بَلىٰ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

و قدره اللّه تنبسط على الخليقه،حتى لا تدع شيئا يتصوّره البشر إلاّ و قد خلقه ربّنا،و أكمل خلقه،و خلق له صنوفا و أنواعا.سبحان ربّنا و تعالى! [۳۴]و ما عسى أن ينفع التكذيب؟هل يذهب نور الشمس لو احتجبت عنه؟!هل يدرأ خطر الموت عن نفسه من يكذّب به،أم أنّه بتكذيبه يقرّبه إلى نفسه أكثر فأكثر؟! هكذا من يكذّب بالآخره لا يدرأ عن نفسه عذابها،بل يزداد إثما بتكذيبه و استحقاقا للعذاب أكثر فأكثر.

و حين يحس جحده البعث بحراره النار،و يرون بأمّ أعينهم جبالا-من اللهب الذى يتميّز من الغيظ فى جهنّم حتى لكاد قلوبهم تنخلع من شهيقها و زفيرها، يومئذ يؤمنون بالعذاب،و لكن بعد فوات الأوان.

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى اَلنّٰارِ أَ لَيْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ قٰالُوا بَلىٰ وَ رَبِّنٰا قٰالَ فَذُوقُوا اَلْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ إنّها عاقبه من كفر بالعذاب،و جحد بالبعث،و تساءل مستنكرا:كيف يحيى اللّه الموتى؟! حقّا:مجرّد تصوّر تلك اللحظه التى يأتى اللّه بالكفّار ليشهدوا جهنّم و نيرانها الملتهبه يكفى للتصديق بها.أو تدرى لماذا؟لأنّ أساس الكفر بالآخره قائم على الغفله،و الاسترسال مع الهوى،و الاستهزاء بالحق،فيكون تصوّر هذا العذاب المهيب كافيا لزعزعه أساس الكفر،و تنبيه الإنسان إلى ضروره التفكّر الجدّى، و إيقاف استرساله الخطير مع الشهوات،و بالتالى إسقاط حجب الغرور عن عينه ليرى بها الحقائق مباشره.

ص:۱۸۶

[٣٥]لکی تمضی سنّه الامتحان فی الکافرین کما أرادها اللّه بحکمته البالغه، لا بدّ أن یکتفی المنذرون بالبلاغ،و یصبروا علی أذی قومهم دون أن یستعجلوا لهم العذاب.

و لکی لا یتحوّل الصراع مع الکفّار إلی صراع ذاتی بین طائفه و أخری،بل یبقی نقیّا عن أیّه مصلحه مادیه لأهل الحق حتی تتم الحجه علی أعدائهم،لا بد من الصبر.

فَاصْبِرْ کَمٰا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ أو لیس الرسول صلی الله علیه و آله منهم و هو أفضلهم،فلیصبر کما صبر نوح علیه السلام عند ما دعا قومه ألف سنه إلاّ خمسین عاما فلم یؤمن به إلاّ نفر قلیل،و کما صبر إبراهیم علیه السلام عند ما ألقی فی النار،و عند ما هاجر إلی ربّه،و عند ما أسکن من ذرّیّته بواد غیر ذی زرع عند بیت اللّه المحرّم،و عند ما حاول ذبح ابنه استجابه لأمر ربّه، و کما صبر موسی علیه السلام فی مواجهه أعتی طاغوت مع شعب خائر العزیمه کبنی إسرائیل،و کما صبر عیسی علیه السلام مکاره الدنیا بزهده و مقاومته لعتاه بنی إسرائیل.

هؤلاء هم أولوا العزم من الرسل الذین أخذ اللّه منهم میثاقا غلیظا،لأنّهم کانوا أصحاب شریعه جدیده،لکلّ أهل الأرض،و کانوا بحاجه إلی صبر عظیم لتبلیغها إلی الناس.

فقال ربّنا سبحانه عنهم: «وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِنَ النَّبِیِّینَ مِیثٰاقَهُمْ وَ مِنْکَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ وَ أَخَذْنٰا مِنْهُمْ مِیثٰاقاً غَلِیظاً ». (١)

١- ١) الأحزاب/(٧).

و هذه الآیه تشهد علی مدی الأذی الذی کان ینتظر هذه الصفوه الخالصه من الأنبیاء فأخذ منهم میثاقا غلیظا علی ضروره الصبر علیه.

و قال ربّنا و هو یبیّن أنّ هؤلاء الخمسه المطهّرین هم أصحاب شریعه: «شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ مٰا وَصّٰی بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ وَ مٰا وَصَّیْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ » (۱).

و هکذا

جاء فی الحدیث عن الإمام الصادق(علیه السلام):

«ساده النبیین و المرسلین خمسه،و هم أولوا العزم من الرسل،و علیهم دارت الرحی:نوح و إبراهیم و موسی و عیسی و محمّد» (۲).

أمّا عن سبب تسمیه هؤلاء الخمسه بأولی العزم

فقد جاء فی حدیث مروی عن الإمام الصادق علیه السلام قال:

«لأنّ نوحا بعث بکتاب و شریعه،و کلّ من جاء بعد نوح أخذ بکتاب نوح و شریعته و منهاجه،حتی جاء إبراهیم بالصحف و بعزیمه ترک شریعه نوح لا کفرا به،فکلّ نبی جاء بعد إبراهیم أخذ بشریعته و منهاجه و بالصحف،حتی جاء موسی بالتوراه و شریعته و منهاجه و بعزیمه ترک الصحف،فکلّ نبی جاء بعد موسی أخذ بالتوراه و شریعته و منهاجه،حتی جاء المسیح بالإنجیل و بعزیمه ترک شریعه موسی و منهاجه،فکلّ نبی جاء بعد المسیح أخذ بشریعته و منهاجه،حتی جاء محمّد فجاء بالقرآن و بشریعته و منهاجه،فحلاله حلال إلی یوم القیامه،و حرامه حرام إلی یوم القیامه،فهؤلاء أولوا العزم من الرسل» (۳)

۱- ۱) الشوری/(۱۳).

۲- ۲) تفسیر(نمونه)ج(۲۱)-ص(۳۸۰)نقلا عن الکافی/ج(۱)باب طبقات الأنبیاء و الرسل.

۳- ۳) نور الثقلین/ج(۵)-ص(۲۲).

وَ لاٰ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ لأنّ العـذاب الـذى يرونه يكفيهم،و الأجل الـذى يتمتعون فيه لا يسوى شـيئا إذا قيس بـذلك العـذاب الرهيب الخالد.

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مٰا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَةً مِنْ نَهٰارٍ فإذا كان اليوم الواحد فى الآخره ألف عام،فما قيمه سبعين عاما إذا قيست بسـنىّ تلك الأيّام؟!إنّها فى أفضل حال لحظات من نهار فى عمر طويل،و هل يسـعد من خسر كلّ عمره لقاء لحظات تمتع فيها؟! و هكذا ينبغى أن يتسلّح المؤمن بحسابات أخرويه،فلا يجزع من تأخير النصر، و يقول:كم سنه مرّت و لمّا ينصرنا اللّه!بل يحسب سنواته قياسا على أيّام الآخره و سنينها،هنالك يستطيع أن يتّبع خطى أولى العزم من الرسل فى الصبر و الاستقامه.أليس يتبعهم فى مسئوليه أداء الرساله و بلاغها؟ كذلك نجد فى النصوص الإسلاميه التوصيه بالصبر اتباعا لنهج الأنبياء،

ففى رساله مفصّله إلى أصحابه يقول الإمام الصادق(عليه السلام):

إنّه لا يتمّ الأمر حتى دخل(يـدخل)عليكم مثلما دخل على الصالحين قبلكم،و حتى تبتلوا فى أنفسـكم و أموالكم،و حتى تسـمعوا مـن أعـداء اللّه أذى كـثيرا و تصـبروا و تعركـوا (1)بجنـوبكم،و حـتى يسـتذلوكم و يبغضوكم،و حـتى تحملوا الضـيم،فتحتملوه منهم،تلتمسون بـذلك وجه اللّه و الدار الآخره،و حتى تكظموا الغيظ الشديد فى الأذى فى اللّه جلّ و عزّ،يجترمونه إليكم،و حتى يكذّبوكم بالحق،و يعادوكم فيه،و يبغضوكم عليه،فتصبروا على ذلك منهم.

١- ١) عرك الأذى بجنبه أى احتمله.

و مصداق ذلک کلّه فی کتاب اللّه الذی أنزله جبرئیل علی نبیّکم.سمعتم قول اللّه عزّ و جلّ لنبیّکم:« فَاصْبِرْ کَمٰا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لاٰ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ » (1) بَلاٰغٌ ألا یکفینا هذا البلاغ؟بلی.لمن یأخذه مأخذ الجدّ.

فَهَلْ یُهْلَکُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفٰاسِقُونَ الذین یتجاوزون الحدود بأعمالهم.

ص:190

1- 1) نور الثقلین/ج(5)-ص(23).

سوره محمّد

اشاره

ص:۱۹۱

بسم الله الرحمن الرحیم

فضل السوره

قال الامام أبو عبـد اللّه الصادق علیه السـلام : «من قرأ سوره الذین کفروا لم یرتب أبدا،و لم یدخله شک فی دینه أبدا،و لم یبتله اللّه بفقر أبدا،و لا خوف سلطان أبدا،و لم یزل محفوظا من الشرک و الکفر أبدا حتی یموت،فاذا مات و کلّ اللّه به فی قبره ألف ملک یصلون فی قبره،و یکون فی أمان اللّه و أمان محمد صلی الله علیه و آله ».

تفسیر نور الثقلین ج /۵ص ۲۵ و

عنه علیه السـلام انه قال: من أراد أن یعرف حالنا و حال أعدائنا فلیقرأ سوره محمد(صلّی اللّه علیه و آله و سلّم)فإنه یراها آیه فینا و آیه فیهم.

المصدر

ص:۱۹۳

الإطار العام

الاسم الآخر لهذه السوره هو:القتال،و بين الطاعه لمحمد-صلّى اللّه عليه و آله-الذى ذكر اسمه المبارك فى فاتحه السوره و للقياده الشرعيه عموما و بين القتال ضد الكفار الذى يحتاج إلى الطاعه التامه للرسول تدور محاور هذه السوره التى تميز بالتركيز على بيان الأمثال للناس..حيث تتوالى آياتها،تضرب مثالب الكفار و المنافقين،و تقارنها بصفات المؤمنين و لعل ١٧ مفارقه بين الفريقين تنطوى عليها السوره مما يثير التساؤل لماذا هذا التركيز فى سوره القتال على الفرق بين الفريقين؟ الجواب لسببين:

ألف/ربّما لأن قلوب المؤمنين تعتمر بالرحمه الإيمانيه،و من الصعب تعبئه هذه القلوب بروحيه الحرب إلاّ ببيان صفات الكفار السلبيه،ليكون عداءهم للكفر و مثالبه قبل أن يكون لأشخاص الكفار.

باء/لأن القتال أفضل ميزان يعرف به الرجال،و يتميز به المؤمنون عمن فى

قلوبهم مرض.

۱-فی مستهل السوره یصرّح السیاق ببیان أن اللّه یضلّ أعمال الکفار،بینما یصلح بال المؤمنین،و یغفر ذنوبهم.لماذا؟ ۲-لأن أولئک اتبعوا الباطل،بینما سلّم هؤلاء للحق،و هنا یؤکد ربنا ما یبدو انه المحور الأساسی للسوره حیث یقول: «کَذٰلِکَ یَضْرِبُ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ أَمْثٰالَهُمْ ».

و بعد أن یأمر بقتال الکفار بلا هواده،و استمرار ذلک حتی تضع الحرب أوزارها-بظهور الحق کله علی الباطل کله-و یختصر تبیان حکمه القتال فی کلمه (الابتلاء)بعدئذ یبین فضائل الشهداء فی سبیل اللّه حیث یحفظ اللّه دماءهم، و سیهدیهم،و یصلح بالهم،و یدخلهم الجنه.

۳-و ینصر اللّه الذین آمنوا إن هم نصروا دینه و رسوله،بینما یفشل الکفار، و یضیّع جهودهم.أو لیس قد کرهوا ما أنزل اللّه؟! (فلهم التعس و الفشل) و أحبط اللّه أعمالهم(حتی تلک التی تبدو صالحه)و حوادث التاریخ تشهد بهذه السنه. أَ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ من الکفار کانت عاقبتهم؟أن دمر اللّه علیهم،حتی ما بقی منهم شیء،و هذه سنه اللّه تجری فیمن یأتی بمثل ما جری فیمن مضی،و لذلک کان للکافرین أمثالها.

۴-و اللّه مولی الذین آمنوا(یؤیدهم بنصره و یرعی شؤونهم)و ان الکافرین لا مولی لهم(بالرغم من ولایتهم للأصنام و الأنداد إلاّ انها لیست بشیء).

۵-الذین آمنوا و عملوا الصالحات یسیرون عبر منهج سلیم نحو اهداف سامیه،و لذلک یدخلهم اللّه الجنه،بینما الکفار یتمتعون بالدنیا بلا أهداف،

ص:۱۹۶

وَ يَأْكُلُونَ كَمٰا تَأْكُلُ الْأَنْعٰامُ،وَ النّٰارُ مَثْوىً لَهُمْ ،لأنهم لم يسعوا فى الدنيا لاتقائها.

و ينسف القرآن أساس الأفكار على القوه الظاهريه التى يملكها الكفار ببيان:

ان هناك قرى كانت أشد من قريه مكه أهلكها اللّه فلم يكن لها ناصر.

۶-المؤمنون على هدى من ربهم لا يمارسون عملا إلاّ بحجّه واضحه من اللّه، بينما الكفار يتبعون أهواءهم التى زيّنت لهم و ليسوا سواء أبدا.هؤلاء يمضون على شريعه من الأمر واضحه،بينما أمر أولئك فرط،لأنهم يميلون مع رياح الهوى انى اتجهت.

۷-قرار المؤمنين و عاقبه أمرهم الجنه بانهارها المتنوعه التى تعطيهم الرواء، و القوه،و النشاط،و اللذه،و بثمراتها المتنوعه،و بما فيها من نعمه روحيه متمثله فى مغفره اللّه،بينما ليس للكفار إلاّ النار بما فيها من ماء يغلى يقطع أمعاءهم.

۸-كل ذلك لأن الكفار أصمّوا آذانهم عن الحق،بينما اهتدى المؤمنون فزادهم اللّه هدى،و علمهم كيف يتقون النار.

أولئك لا يؤمنون حتى تأتيهم الساعه التى ظهرت علاماتها،بينما هؤلاء يستغفرون لبعضهم لأنهم يعلمون ألاّ إله إلاّ اللّه،و يستغفرون لذنوبهم،كما للمؤمنين و المؤمنات.

بعد بيان هذه الصفات التى تبصرنا الفروق بين المؤمنين و الكفار ترى السياق ينعطف لبيان المنافقين،حيث بيّن أمثالهم أيضا و يجعل القتال فى سبيل اللّه محكّ التجربه لهم،فحين ينتظر المؤمنون حقّا.و بفارغ الصبر الأوامر الالهيه بالقتال ترى أولئك إذا نزلت سوره محكمه و ذكر فيها القتال ينظرون نظر المغشى عليه من الموت (خوفا و حزنا)و هكذا يخرج الجهاد أضغانهم،و يظهر مرض قلوبهم.

ص:۱۹۷

و قد كان خيرا لهم لو أنّهم صدقوا اللّه فی ساعه الجد،و إذا ملكوا السلطه-و هی مختبر آخر بعد الجهاد لحقیقه أنفسهم-تراهم یفسدون فی الأرض، بمنع أعمارها، و نشر الرذیله،و الفسق،و الظلم بین أرجائها،و یقطعون أرحامهم،كما فعلت بنو أمیه و بنو العباس بآل الرسول(صلی اللّه علیه و آله).

أُولٰئِكَ الَّذِینَ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ فَأَصَمَّهُمْ (عن سماع الحق)و أعمی أبصارهم(عن رؤیه شواهده).

(و القرآن میزان لمعرفه حقائق الناس و لكن لمن تدبر فیه)« أَ فَلاٰ یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلیٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا »(فلا تنفذ بصائر القرآن إلی أفئدتهم).

و یهدینا السیاق إلی سبب الضلاله بعد الهدی عند هذا الفریق من مرضی القلوب،الذین سقطوا فی وهده النفاق و یقول:ان هؤلاء الذین ارتدوا علی أدبارهم من بعد أن عرفوا السبیل فانما الشیطان سوّل لهم(بأن زین لهم الضلال)و أملی لهم.

و إن من مثالب المنافقین و مؤامراتهم القذره انک تراهم یقولون للذین كرهوا ما نزّل اللّه من الهدی نحن معكم،و سوف نطیعكم فی بعض الأمر،و نتعاون علی ضرب الإسلام(و اللّه یعلم اسرارهم-كما یعلم اعلانهم).

و انهم یزعمون ان اتصالهم بالعدو یوفر لهم الحمایه،و لكنهم ماذا یصنعون غدا حین تضرب ملائكه الموت وجوههم و ادبارهم(و لا ینفعهم یومئذ أعوانهم من المشركین بل لا ینتفعون حتی من أعمالهم الصالحه)ذلك لأنهم اتبعوا ما أسخط اللّه،و كرهوا رضوانه(المتمثل فی طاعه الرسول،و النصح للقیاده الشرعیه،و التسلیم لأوامر القتال الصادره منها)فأحبط اللّه أعمالهم.

ص:۱۹۸

كلا..و يعتمد المنافقون على مبدأ السريه،و لكن أ يحسبون ان اللّه لن يخرج أضغانهم،و يظهر مرض القلب الذى تنطوى عليه أنفسهم بالأمر بالقتال؟! بلى.ربنا قادر على كشفهم الآن،بتغيير صورهم،بل انك قادر على معرفتهم من خلال تضاعيف كلماتهم،أو من ملامح صورهم.

و يعود القرآن إلى الحديث عن القتال ببيان حكمته المتمثله فى الابتلاء، و يؤكد:أن الكفار لن يضروا اللّه شيئا،و سيحبط أعمالهم.و يأمر المؤمنين بطاعه اللّه و الرسول و التسليم لأمره بالقتال،و لا يبطلوا أعمالهم.

أما الكفار الذين يموتون و هم كفار فلن يغفر اللّه لهم.

و يشحذ اللّه عزيمه الاستقامه عند المقاتلين،و يدعوهم إلى الصمود،و ألاّ يهنوا، و يدعوا إلى السلم(الذليل)و هم الأعلون(بايمانهم)و أن اللّه لن يترهم أعمالهم.

و يهون شأن الدنيا فى أعينهم،و يبين إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ (إلاّ ما طلب بها الآخره)ففيه الجزاء بشرطين(الايمان و التقوى)و إذا آمنوا و اتقوا يؤتهم اللّه أجورهم،و لا يطلب منهم أموالهم.

و فى خاتمه السوره يذكرنا السياق بضروره الإنفاق فى سبيل اللّه-خصوصا و ان القتال بحاجه إليه-و إذا طلب اللّه كل أموالكم-و هذا امتحان صعب-لأنكم تبخلون،و يخرج اللّه أضغانكم(و مدى تشبثكم بالدنيا).

كيف و أنتم حين تدعون لإنفاق بعض أموالكم فان منكم مَنْ يَبْخَلُ،وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ،وَ اللّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ .

و فى نهايه السوره نجد إنذارا للمؤمنين بأنهم إن لم يتحملوا مسئوليه الرساله، و يتولوا،يستبدل اللّه بهم قوما غيرهم.

[سوره محمد (۴۷): الآیات ۱ الی ۱۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِ . اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اَللّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (۱) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلی مُحَمَّدٍ وَ هُوَ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ کَفَّرَ عَنْهُمْ سَیِّئاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ (۲) ذلِکَ بِأَنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا اِتَّبَعُوا اَلْباطِلَ وَ أَنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا اِتَّبَعُوا اَلْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ کَذلِکَ یَضْرِبُ اَللّهُ لِلنّاسِ أَمْثالَهُمْ (۳) فَإِذا لَقِیتُمُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فَضَرْبَ اَلرِّقابِ حَتّی إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا اَلْوَثاقَ فَإِمّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّا فِداءً حَتّی تَضَعَ اَلْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِکَ وَ لَوْ یَشاءُ اَللّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لکِنْ لِیَبْلُوَا بَعْضَکُمْ بِبَعْضٍ وَ اَلَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اَللّهِ فَلَنْ یُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (۴) سَیَهْدِیهِمْ وَ یُصْلِحُ بالَهُمْ (۵) وَ یُدْخِلُهُمُ اَلْجَنَّهَ عَرَّفَها لَهُمْ (۶) یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اَللّهَ یَنْصُرْکُمْ وَ یُثَبِّتْ أَقْدامَکُمْ (۷) وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (۸) ذلِکَ بِأَنَّهُمْ کَرِهُوا ما أَنْزَلَ اَللّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (۹) أَ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَهُ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اَللّهُ عَلَیْهِمْ وَ لِلْکافِرِینَ أَمْثالُها (۱۰) ذلِکَ بِأَنَّ اَللّهَ مَوْلَی اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ أَنَّ اَلْکافِرِینَ لا مَوْلی لَهُمْ (۱۱)

اللغه

(۲) بالَهُمْ :حالهم شأنهم.

(۴) أَثْخَنْتُمُوهُمْ :أی أثقلتموهم بالجراح و ظفرتم بهم، و قیل أی بالغتم فی قتلهم و أکثرتم القتل حتی ضعفوا.

ص:۲۰۱

أَوْزٰارَهٰا :الوزر الثقل،أی أثقالها فإن للحرب أثقالا کالسلاح و نحوها،و إضافتها إلی الحرب مجازیه.

ص:۲۰۲

إن تنصروا اللّه ينصركم

هدى من الآيات:

هل يكفى الإنسان مكسبا أن يمارس العمل أنّى كان؟كلّا..بل لا بد أن يكون العمل على أساس الإيمان باللّه و برسله،و التسليم لما جاءت به الرساله.أمّا الذين يكفرون بذلك فإنّ اللّه يضل أعمالهم.

هكذا تذكّر آيات الدرس الأوّل من سوره القتال بالأسس الثابته للعمل المقبول،و هى:

أوّلا:الإيمان بما نزل على محمّد(صلّى اللّه عليه و آله)دون تمييز أو انتقاء.

ثانيا:اتباع الحق،و نبذ الباطل.

ثالثا:الجهاد فى سبيل اللّه.

و عن الأساس الثالث الذى يمحّص اللّه به قلوب المؤمنين،و يطهّر صفوفهم من

المنافقين،يفصّل السياق انسجاما مع الإطار العام للسوره المباركه،و يبين هنا درجات الشهداء حيث يتقبّل اللّه أعمالهم،و يهديهم،و يصلح بالهم،و يدخلهم الجنه التى وعدهم إيّاها و عرّفهم بها.

و يحرّض ربنا على الجهاد الذى يعتبره نصرا لدين اللّه،بأن يعد المؤمنين بالتأييد الظاهر المتمثّل فى النصر،و الباطن المتمثّل فى تثبيت الأقدام.

كما ينذر الكافرين(الذين رفضوا قبول الرساله ككل،فلم يتبعوا الحق،و لم يجاهدوا فى سبيل اللّه)بزلزله المواقف،و عدم ثبات القدم،كما بضياع الجهود، و ضلال الأعمال،كما ينذرهم بإحباط العمل جزاء كرههم لما أنزل اللّه،و يأمرنا بالسير فى الأرض لنرى بأنفسنا هذه الحقيقه،و كيف أنّ مخالفه الحق سبّبت فى هلاكهم و تدميرهم كليّا.

بينات من الآيات:

[۱]لماذا يضل اللّه أعمال الكافرين؟و كيف تتلاشى جهودهم،و تنهار مقاومتهم للرساله الإلهيّه؟أ رأيت الذى يجدّ السير فى اتجاه الشرق و هو يبتغى مدينه فى الغرب،هل يبلغ هدفه يوما؟كذلك الذى يعاكس حركه التاريخ،و يخالف سنن اللّه فى الحياه،ألم يخلق اللّه السموات و الأرض بالحق،فكيف يحقّق من ينشد الباطل هدفه؟ لقد جاهد المترفون من النصارى أكثر من ألف عام ليثبتوا للناس أنّ الجنس لعنه،فهل استطاعوا تمرير ذلك؟و حاول المادّيون أن يلغوا الجانب الروحى فى الإنسان،فهل قدروا؟لماذا فشل هؤلاء و أولئك؟لأنّهم ساروا فى الاتجاه المعاكس لسنن اللّه،لأنّ اللّه أودع فى البشر الجنس،كما فطره على الإيمان،فهو لا يستطيع أن يتجرّد عن الماده كلّيا و لا عن المعنويات،فذهبت جهود القوم سدى،لأنّها

رامت الباطل،و هكذا قاوم الجاهليون على امتداد الزمن بعثه الرسل فأضلّ اللّه أعمالهم،لأنّها لم تكن فى الإطار الصحيح.

اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ فلأنّهم كفروا فقد أضل اللّه أعمالهم التى كانت ظاهره الصلاح،فحتى لو سقوا الحاج،و عمروا المسجد الحرام،فإنّها لم تكن نافعه،لأنّها كما البناء الذى زلزل أساسه أو الشجره التى اجتثّت من فوق الأرض.

فمن كفر باللّه يكفر بقيم الرسالات،بالحريه و الاستقلال و العداله و المساواه و المنهجيه العلميه و..و..،و هذه القيم أساس كل عمل صالح.

و هكذا لا ينبغى أن نغتر بظاهر التقدّم الذى يحرزه هذا الفريق من الناس،لأنّه ينطوى على تخلّف خفى،و لا يزال بنيانهم على شفا جرف هار.

أ رأيت كيف وظّفوا تقدمهم فى انتهاب ثروات الشعوب،و استعباد المحرومين، و العلوّ فى الأرض بغير الحق؟ أ رأيت كيف أشعلوا نار الحروب،و دمّروا الديار لكى يحرّكوا عجله اقتصادهم ببيع الأسلحه؟ ألم تر كيف تسابقوا فى صناعه اللعنه،و ملأوا ترساناتهم بأدوات التدمير ذات الشرّ المستطير؟ أ ليس ذلك شاهدا كافيا على تلك الحقيقه،أنّ أعمالهم قد ضلّت عن طريقها، و لم تحقّق أهدافا فى رفاه الإنسانيه و خيرها؟

كما أنّهم حين صدّوا عن سبيل اللّه،و قاوموا الرسالات الإلهيه و امتداداتها، فشلوا و ذهبت مساعيهم سدى،و هل ينفع سعى من أراد حجب ضوء الشمس بيده؟! [۲]أمّا الذين آمنوا باللّه،و آمنوا بكلّ تلك السنن الماضيه فى الكائنات و القيم المنبعثه منها،فإنّهم اختاروا الإطار المناسب لعملهم،و بالتالى و فّروا الضمانه المناسبه لبقاء أعمالهم،كمن يبنى فى الصحراء سورا منيعا يحفظ أرضه من الرياح السافيات و العواصف الهوج ثمّ يزرع ما يشاء.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ ضمن إطار الإيمان،و على أساسه،و انطلاقا من قيمه.

وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ الرسول الذى أكمل اللّه به رسالاته،فلم يفسدوا قلوبهم بالعصبيه و الحقد و العداء للرسول و التكبر عليه.

و تشير الآيه إلى ضروره الإيمان بالنبىّ محمّد(صلّى اللّه عليه و آله)بصوره كامله، فمن يزعم بأنّه نبى العرب دون غيرهم،أو أنّه قائد بشرى لا يتميّز بالعصمه الإلهيه،أو أنّه قد ينطق عن الهوى،أو يهجر حسب الظروف،أو ما أشبه،فإنّه لم يؤمن حقّا بمحمّد(صلّى اللّه عليه و آله)،و قد قال اللّه سبحانه: «ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » (۱)،و قال: «وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ »،و قال:

«وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ ».

۱- ۱) الحشر/(۷).

الإيمان بمحمّد صلى الله عليه و آله دليل لصدق الإيمان باللّه،فمن استكبر عن هذا الإيمان فإنّه قد كفر بالحق و هو أساس كلّ إيمان.

وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ فلأنّه حق من اللّه لا بد من التسليم له،لا على أسس باطله،فلأنّ محمّدا صلى الله عليه و آله خليفه اللّه فى الأرض لا بد من طاعته و التسليم له،لا لأنّه قائد عربى أو سيّد قرشى أو عظيم من بنى هاشم.

و من آمن بالرسول انطلاقا من هذه القيمه-قيمه الحق-آمن كذلك بخلفائه الأئمه الأبرار،لأنّهم الامتداد الصادق له،و من آمن بالأئمه على هذا الأساس فإنّه يؤمن بالفقهاء الصالحين،الذين هم ورثه الأنبياء و حجج اللّه بالنيابه..و هكذا لا يجد المؤمن بالحق حرجا فى نفسه من طاعه أولى الأمر الشرعيين و من التسليم لكلّ ما هو حقّ،لأنّ مقياسه فى كلّ ذلك سواء.

أمّا من آمن بالرسول بحوافز ماديه فإنّه ينفصل عن خط الرسول،و يمضى أنّى اتجهت حوافزه،فإذا وجد قائدا عربيّا مخالفا للرسول أو سيّدا قرشيّا عاصيا للّه أو عظيما هاشميّا فاسقا فإنّه لا يجد حرجا فى اتباعه،بينما اللّه يأمره بالكفر بالطاغوت و الثوره عليه.

كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ يبدو أنّ هذا جزاء إيمانهم.أ تدرى لماذا؟لأنّ الهدف الأسمى من تشريع الأحكام ابتلاء الإنسان فى مدى طاعته للحق و تسليمه لمن أرسل به،فإذا أطاع الإنسان ربّه،و سلّم للقياده الشرعيه،فقد ابتلى بأصعب الأمور،ذلك لأنّ الطاعه فى المسائل السياسيه و الاجتماعيه،و حيث تعصف رياح الفتن،و تغتلم

العصبيات،و يعلو غبار الشبهات.إنّ هذه الطاعه هی صعب مستصعب لا يحتمله إلاّ من امتحن اللّه قلبه للإيمان.

و إنّ كثيرا من الناس ممّن سكن شيطان الكبر و العصبيه فی قلوبهم يفضّلون أداء أحمز الأعمال الصالحه علی لحظه واحده من التسليم للقياده الشرعيه فيما يخالف أهواءهم أو يعارض آراءهم.

من هنا يكفّر اللّه سيئات من أطاع اللّه و رسوله و أولی الأمر الشرعيين تسليما للّه و رضا بما فرضه عليه.

وَ أَصْلَحَ بٰالَهُمْ قالوا:البال هو الحال أو الشأن،و أمور الإنسان،و أهمّ أحواله،و قال بعضهم:هو القلب،من قولهم:ما يخطر ببالی. (1)

و إصلاح البال:رخاء الحال بما يرضی القلب.

و يبدو أنّ ذلک يتعلّق بالأعمال الصالحه التی أدّوها ضمن إطار الإيمان فأثمرت صلاحا فی أنفسهم و ما يتعلّق بها من شؤون،لأنّها كانت فی الطريق السليم،و لو كانت فی سبيل الكفر فإنّها لن تثمر بل كان اللّه يضلّها.

[۳]كيف نقيّم النّاس،و علی أیّ مقياس،هل بلغتهم أو وطنهم أو أنسابهم أو بقدر ما يملكون من مال و جاه و سلطه؟كلاّ..لأنّ كلّ ذلک جاهليه و تخلّف، فهل تصادق كلّ من يتحدّث العربيه و لو كان خائنا شقيّا؟و ايّهما أفضل لک من يسكن بلادا بعيده و يسدی إليک خدمه أو جارک السیء الذی دائما يؤذيک؟و هل

۱- ۱) القرطبی/ج(۱۶)-ص(۲۲۴).

هما سواء عندك ابن عمك الذی يأكل أموالك بالباطل و القاضی الذی يردّ حقّك إليك؟و ماذا ينفعك غنی الثری الذی يمتص دماء المحرومين؟و ما ذا يضرّك فقر البائس الذی يعيش إلی جنبك بوداعه و طيبه؟ العقل يحكم بفساد تلك المقاييس جميعا،و إنّما المقياس هو الحق،فمن اتبعه صاحبناه،و من خالفه عاديناه،أنّی كانت سائر الوشائج بيننا و بينه.

و بما أنّ الكفّار اتبعوا الباطل بما يحمل من أخطار عليهم و علی الإنسانيه فإنّنا نعاديهم،حتی و لو كانوا ينطقون بلغتنا،و يسكنون وطننا،أو كانوا من ذوی أقاربنا.

بينما المؤمنون الذين يتبعون الحق نستريح إليهم،لأنّ الحق ينفعنا جميعا،حتی و لو كانوا من الأبعدين لغه،و وطنا،و قرابه.

ذٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبٰاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ و العقل يعرف الحق،و لكن ليس بذلك الوضوح الذی يجعله مطمئنا بكلّ تفاصيله،بينما الوحی الذی يهدينا إليه العقل يفصّل مجملات العقل تفصيلا مبينا.العقل يحكم-مثلا- بحسن العدل،و لكنّه قد يتشابه عليه العدل فی قضيه فيقف حائرا،و هنا يفصّل الوحی حكم العدل فيها بما يستثيره من دفائن العقل، و يكشفه من خبايا العلم،و ما يبيّنه من أحكام الشرع.

كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ أَمْثٰالَهُمْ المثال:مجموعه الصفات التی يجسّدها الشخص،فإذا قلنا:مثال فلان،أی

جمله نعوته الحسنه أو السيئه،ممّا تستصحب على من يشابهه فيها،و هى فى مقابل الذات،و الذّات لا تهمّنا(لأنّ الناس فى الذات لا يختلفون)،إنّما يهمّنا الصفات التى تحيط بهذه الذات،و هى مثالهم.

و حين يعطينا القرآن مقياس الحق و الباطل فإنّه يبيّن لنا أمثال الناس،و جمله صفاتهم،و التى بها نستطيع أن نعرف كيف نتصرّف مع هذا و ذاك،فمن اتبع الحق واليناه،لأنّه(مثل حسن)،و من اتبع الباطل عادیناه،لأنّه(مثل سیء).

[۴]و لأنّ هنالك مثالين:مثال الحق المتجسّد فى المؤمنين،و مثال الباطل المتجسّد فى الكفّار،فإنّ الصراع قائم بينهما،و يتحوّل إلى قتال،و على المؤمنين أن يستعدّوا نفسيّا للمواجهه.

فَإِذٰا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقٰابِ اللقاء هنا هو لقاء المواجهه الداميه،و لا يعنى-فيما يبدو من سياق الكلمه فى سائر الآيات-أىّ لقاء بين مؤمن و كافر.

و ضرب الرقاب:تعبير عن أشدّ أنواع القتل و أوضح صوره،و به يتجلّى الغضب المقدّس الذى تمتلأ به روح المؤمن المخلص للحق.

و قالوا:معناه:اضربوا ضرب الرقاب.

و لعلّ الكلمه توحى بضروره حسم المعركه بأقوى الأسلحه،ممّا تسمّى بالحرب الصاعقه التى عاده تقلّل من الخسائر فى الطرفين،بعكس حرب الاستنزاف التى قد تكون وبالا على الطرفين.

و لعلّ الحرب الصاعقه هى المراده أيضا من آيات أخرى فى الكتاب،كقوله

سبحانه: «فَإِمّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِی الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ » حَتّی إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ قالوا:الثخن بمعنی الغلظه،و یطلق علی الغلبه،و نقل عن لسان العرب اثخن إذا غلب و قهر،و قال البعض:أنّه بمعنی تراکم القتلی و الجرحی فوق الأرض.

فَشُدُّوا الْوَثاقَ أی قیّدوهم بحبل أو ما أشبه بشدّه کنایه عن أسرهم.

و یستوحی من الآیه أنّ مرحله أخذ الأسری متأخّره عن مرحله القتال،فلا ینبغی أن ینشغل الجیش قبل قهر عدوّه بالأسری.

فَإِمّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّا فِداءً هنالک یختار القائد بین أن یمنّ علی الأسیر بإطلاق سراحه،حین لا یری فی إبقائه مصلحه أو یری فی إطلاق سراحه مصلحه هامّه للمسلمین،و بین أن یقبل الفدیه التی قد تکون قدرا من المال یفرض علی العدو بإزاء کلّ أسیر،و قد تکون بعض التنازلات و الضمانات أو ما أشبه،و لعلّ من معانیه القیام بتبادل الأسری مع العدو.

و قال الفقهاء تبعا للنصوص الشرعیه:إنّ هنالک خیارا ثالثا هو استرقاق الأسری.

حَتّی تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها و الوزر هو الثقل،و الحرب ثقیله علی الأمه بما فیها من مشاکل،کما أنّ

ساحات القتال تشهد الأسلحه و الأدوات و الأجهزه القتاليه و إذا توقف القتال أعيدت كلّيّا إلى المخازن،و هذه كنايه عن توقّف الحرب،و لكن متى تتوقف حرب المسلمين مع أعدائهم بصوره كلّيّه؟ إنّ من السذاجه الركون إلى السلم فى عالم تحكمه شريعه الغاب،يأكل القوى الضعيف،و ينفق الأعداء قسما كبيرا من مواردهم فى الاستعداد للحرب،بالرغم من أنّ النفوس تكره الحرب بطبعها،و تميل إلى الخفض و الدّعه،و قد ينخدع الإنسان بمظاهر الودّ و الموادعه الحاكمه على الأجواء،فلا يعدّ نفسه للقتال،فيؤخذ على غرّه.

لذلك أمرنا القرآن بالاستعداد أبدا للدفاع عن أنفسنا و عن الرساله التى نحملها إلى الإنسانيه المعذّبه،فقال: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّهٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ».فما دام المسلمون يرفضون التخلّى عن قيمهم و استقلالهم و حقوقهم فلا بد أن يستعدوا للدفاع المقدّس،و قد يكون الاستعداد التام للدفاع أفضل وسيله لتجنّب ويلات الحرب،لأنّه يردع الأشرار من الاعتداء.

لذلك

جاء فى الحديث المأثور عن النبى(صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): «و الجهاد ماض مذ بعثنى اللّه إلى أن يقاتل آخر أمتى الدّجال». (1)

ذٰلِكَ وَ لَوْ يَشٰاءُ اللّٰهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لٰكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ فاللّه سبحانه الذى دمّر عادا الأولى بالريح الصرصر،و أهلك ثمود فما أبقى، و لم يذر أحدا من القرى المؤتفكه من قوم لوط،أو ليس بقادر على أن يبعث على كلّ طاغيه و مستكبر صاعقه من السماء فيهلكهم؟بلى.و قد يفعل بهم عند ما يبلغون

1- 1) مجمع البيان/ج(6)-ص(98).

آجالهم،لأنّه ينصر دينه بما يشاء،كيف يشاء.

بيد أنّ حكمه الحرب التى يخوضها المسلمون تتلخّص فى إظهار خبايا المسلمين، و إبلاء سرائرهم.

أوّلا:بفصل الصادقين منهم عن الكاذبين.

ثانيا:بتطهير قلوب الصادقين منهم من شوائب النفاق و المصلحيّه.

و قد قال ربّنا سبحانه(و هو يبيّن الهدف الأوّل): «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّهَ وَ لَمّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصّابِرِينَ » (۱)،و قال تعالى(و هو يشير إلى الهدف الآخر): «وَ لِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ ». (۲)

و إذا كانت الحرب بوتقه تطهّر المجتمع الإسلامى من العناصر الضعيفه و المنافقه،كما تطهّر قلب كلّ من يخوضها من أدرانه،فإنّ علينا أن نتخذ منها مدرسه للبطوله و الإيثار،لا ننشد منها فخرا و لا نصرا،و إنّما نسعى لتزكيه أنفسنا فيها،و تربيتها على الشجاعه و الفداء،و نتبع فى ذلك

الإمام على(عليه السلام) حيث يقول: «و اللّه لو تظاهرت العرب على قتالى لما ولّيت عنها» (۳)، و

يقول و هو يوصى نجله محمّد بن الحنفيه حين يدفع به فى أتون المعركه:«تزول الجبال و لا تزل عضّ على ناجذك.أعر اللّه جمجمتك.تد فى الأرض قدمك.إرم ببصرك أقصى القوم،و غضّ بصرك،و اعلم أنّ النصر من عند اللّه سبحانه» (۴).

۱- ۱) آل عمران/(۱۴۲).

۲- ۲) آل عمران/(۱۴۱).

۳- ۳) نهج البلاغه/كتاب(۴۵).

۴- ۴) المصدر/ص(۵۵).

و إذا كان الهدف من الحرب الأساسى ابتلاء المؤمنين فإنّ النصر من عند اللّه، ينزله عليهم متى تمّت حكمه الابتلاء،و علم منهم الصبر و الاستقامه،سواء توافرت عوامل النصر الماديّه،أم لا،و معرفه هذه الحقيقه تزيد الجيش الإسلامى بطوله و استبسالا و صبرا و استقامه.

وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ لأنّهم مضوا على النهج الإلهى،و استشهدوا فى سبيل اللّه،فإنّ اللّه الذى لا تضيع عنده الودائع، اللّه الذى له ملك السموات و الأرض.إنّه سبحانه يحفظ أعمالهم،و يؤيّد بقدرته القضيه التى ضحّوا من أجلها،و هذا هو أهمّ ما ينشده العاملون فى سبيل اللّه.

و نستوحى من هذه الآيه أنّ الدم المقدّس الذى يرخصه صاحبه فى سبيل اللّه هو السياج المنيع لقيم الرساله.

و ربما أشار إلى ذلك

الحديث المأثور عن الإمام الصادق عن آبائه(عليهم السلام) عن رسول اللّه(صلّى اللّه عليه و آله) فى فضل الجهاد فى سبيل اللّه:

«للجنّه باب يقال له باب المجاهدين،يمضون إليه فاذا هو مفتوح،و هم متقلّدون سيوفهم،و الجمع فى الموقف،و الملائكه ترحّب بهم،فمن ترك الجهاد ألبسه اللّه ذلاّ فى نفسه،و فقرا فى معيشته،و محقا فى دينه.إنّ اللّه تبارك و تعالى أعزّ أمّتى بسنابك خيلها،و مراكز رمحها» (۱) [۵]الأمّه التى تجاهد فى سبيل اللّه لا تضيع جهودها،و لا تضلّ أعمالها.إنّها سوف تحقّق أهدافها،و لا يستطيع أحد أن يصادر حقوقها،و ينهب ثرواتها.

ص:۲۱۴

۱- ۱) بحار الأنوار/ج(۹۷)-ص(۹).

أ ليست تقاوم المعتدى،و تصنع حول حقوقها و جهودها سورا منيعا من بطولات أبنائها و دماء شهدائها؟ و هذه الأمّه لا تضلّ طريقها،لأنّ اللّه يهديها بفضل جهادها فی سبيله.

سَيَهْدِيهِمْ إنّ الجبن أكبر حاجز دون فهم الحقائق،و كثير من الناس يبرّرون الفساد و التبعيه جبنا و فرارا من مواجهه السلطات الطاغيه،و هكذا يخدعون أنفسهم، و يسلب اللّه عنهم نور الهدايه،و يذرهم فی ظلمات الجهل،أو لم يقل ربّنا سبحانه: «وَ اللّهُ لاٰ يَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ »؟ بينما المجاهدون الذين يتقدّمون بخطی شجاعه حتی الشهاده فی سبيل اللّه، يتبصّرون الحقائق بوضوح كاف،لأنّهم مستعدّون لمواجهتها أنّی كانت عواقب المواجهه.

و هذه الهدايه التی يورّثها الشهداء لأمّتهم تتصل بالهدايه فی الآخره حيث تبلغ بهم منازلهم فی الجنه.

وَ يُصْلِحُ بٰالَهُمْ إنّ الشهاده عنوان الاستقلال،و سور التقدم،و طريق الغنی،و سبيل العزّه، و أمّه تملك الشهداء لا تعدم هذه المكاسب.

إنّ الحياه السعيده المطمئنه الصالحه رهينه الدماء التی تراق فی سبيل اللّه.

و صلاح البال و رفاه الحال فی الدنيا يتصل بصلاح بال الشهداء فی الآخره(بل

و صلاح بال من هم فی خطّهم و علی خطاهم من أنصارهم و من تجری فیهم شفاعتهم)حیث هم أحیاء عند ربّهم یرزقون.

و هکذا نستوحی من الآیه أنّ المعنی بها لیس فقط الشهداء أنفسهم،بل أمّتهم أیضا و لیس فی الآخره فحسب،بل فی الدنیا أیضا،أو لیست الآخره امتدادا للدنیا،و هما بالتالی حیاه واحده أوّلها هنا و آخرها هناک؟ و إنّنا نجد فی النصوص الإسلامیه التی وردت فی فضل الجهاد توضیحا لهذه الشمولیه(للدنیا و الآخره)،لأنّ المجاهدین کلمه تعمّ الشهداء منهم و الأحیاء المنتظرین للشهاده،کما قال ربّنا سبحانه: «مِنَ الْمُؤْمِنِینَ رِجٰالٌ صَدَقُوا مٰا عٰاهَدُوا اللّٰهَ عَلَیْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضیٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ یَنْتَظِرُ وَ مٰا بَدَّلُوا تَبْدِیلاً ». (۱)

[۶] وَ یُدْخِلُهُمُ الْجَنَّهَ عَرَّفَهٰا لَهُمْ تلک الجنه التی طالما اشتاقوا إلیها بما عرّفها ربّهم لهم،و ربما شاهد کلّ واحد منهم منزله فی الجنه قبل خروج روحه لینتقلوا إلی الدار الآخره بکلّ رضا و طمأنینه،

فقد جاء فی حدیث مفصّل مأثور عن أمیر المؤمنین عن النبی(صلّی اللّه علیه و آله):

«و إذا زال الشهید عن فرسه بطعنه أو ضربه لم یصل إلی الأرض حتی یبعث اللّه عزّ و جلّ زوجته من الحور العین فتبشّره بما أعدّ اللّه له من الکرامه،فإذا وصل إلی الأرض تقول له:مرحبا بالروح الطیّبه التی أخرجت من البدن الطیب.أبشر فإنّ لک ما لا عین رأت،و لا أذن سمعت،و لا خطر علی قلب بشر.

و یقول اللّه عزّ و جل:أنا خلیفته فی أهله،و من أرضاهم فقد أرضانی،و من أسخطهم فقد أسخطنی،و یجعل اللّه روحه فی حواصل طیر خضر تسرح فی الجنّه

۱- ۱) الأحزاب/(۲۳).

حیث تشاء،تأکل من ثمارها، و تأوی إلی قنادیل من ذهب معلّقه بالعرش، و یعطی الرجل منهم سبعین غرفه من غرف الفردوس ما بین صنعاء و الشام،یملأ نورها ما بین الخافقین،فی کلّ غرفه سبعون بابا،علی کلّ باب سبعون مصراعا من ذهب» (۱).

[۷]و یحرّض القرآن الذین آمنوا،و استعدّوا لتنفیذ أوامر الرساله،و عرفوا قیم الحق الذی أنزل من ربّهم،یحرّضهم علی الجهاد فی سبیل اللّه بنصر دینه، و یبشّرهم لقاء ذلک بالفتح و الثبات.

یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ یَنْصُرْکُمْ وَ یُثَبِّتْ أَقْدٰامَکُمْ ذلک أنّ الإیمان لیس مجرّد العمل بالإسلام فی حدود القضایا الشخصیه،و إنّما أیضا تحمّل مسئولیه الجهاد فی سبیل إعلاء کلمه اللّه فی الأرض.

و ربما جاء التعبیر بنصر«اللّه»مع أنّ اللّه غنی عن العالمین،لیکون شاملا لنصر کلّ ما یتصل بالإیمان باللّه،فی کلّ حقل،و فی کلّ عصر و مصر،حتی یکون المؤمن قوّاما للّه،مستعدا للدفاع عن الحق أبدا فی مواجهه أیّ شخص أو قوّه.

و إنّما جزاء النصر نصر مثله،فمتی نصرت اللّه بتطبیق دینه علی نفسک و أهلک و الأقربین منک و مجتمعک،و دافعت عنه ضدّ أعداء اللّه،فإنّ اللّه ینصرک بذات النسبه.أمّا إذا اقتصر نصرک علی بعض المجالات فلا تنتظر نصرا شاملا.

و هکذا تتسع آفاق هذه الآیه لکلّ جنبات الحیاه،و لا تختصر فی الجهاد المقدّس،بالرغم من أنّه المثل الأعلی لها.

۱- ۱) راجع موسوعه بحار الأنوار/ج(۱۰۰)-ص(۱۳).

و ثبات القدم هو التأييد الربّانىّ الأسمى،لأنّ هزيمه النفس أنكر هزيمه، و الحرب صراع إرادات قبل أن تون مقارعه الأسلحه،و من كان أكثر صبرا،و أمضى إراده،و أعظم ثباتا،فإنّه يكون أقرب إلى النصر.

و صراع الإنسان مع هوى نفسه أعظم من صراعه مع أعدائه.ألم تكن مخالفه الهوى هى الجهاد الأكبر؟و اللّه سبحانه قد وعد المؤمنين بأن يعينهم فى جهادهم مع أنفسهم إن هم نصروا دينه و جاهدوا أعداءه،و هذه أعظم نعمه من نصرهم على عدوّهم الظاهر.

و الواقع:إنّ سنّه اللّه قد قضت بأنّ القيم و الشرائع التى أريقت الدماء من أجل تكريسها أشدّ ثباتا فى النفوس و فى المجتمع من غيرها،و هكذا فى كلّ أمر، فكل مكسب حصلت عليه بصعوبه لا بد أن تتشبّث به بشده،أمّا الذى ملك البلاد بغير حرب فإنّه يهون عليه تسليم البلاد.

[٨]أمّا الكفر الذى يتشعّب إلى شعب،فمنه الكفر باللّه،و منه الكفر بالرسول،و منه الكفر ببعض ما أرسل به كالجهاد فى سبيل اللّه،فإنّه يؤدّى إلى زلزله الموقف،و ضياع الجهد.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ قالوا:التعس هو الوقوع على الوجه،و كأنّه تعبير عمّا يقابل ثبات القدم.

وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ حتى الذى يبدو صالحا من أعمالهم،لأنّه لم يكن على الطريق السوى.

[٩]ما هو سبب كفرهم و هلاكهم؟إنّ جذر ذلك كرههم لرساله اللّه المنبعث

من كبرهم و تعصبهم و تقليدهم لآبائهم،فاتخذوا موقفا سلبيّا من الرساله.

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ و بالذات فيما يخالف هواهم،أو يعارض مصالحهم كالسياسه و الإقتصاد.

فَأَحْبَطَ أَعْمٰالَهُمْ فإذا لم يسلّموا لولايه اللّه فى السياسه و الإقتصاد و سائر الأمور الأساسيه لم تنفعهم صلاتهم و صدقاتهم،لأنّها لم تكن ضمن الإطار الصحيح،و كان مثلهم كالذى زرع فى غير أرضه أو سعى بغير هدى أو سار على غير طريقه.

إنّ عشرات السنين من الجهد قد تذهب بها ساعه من التهوّر أو الجبن أو اتباع الشهوه،كالذى يبنى أعظم عماره فوق أرض رمليه!أ رأيت كيف يقود طاغيه مهووس بالسلطه باحث عن الكبرياء فى الأرض شعبه الذى سلّم له خوفا و طمعا فى حرب طاحنه،تهدم البلاد،و تقتل الملايين،و تضيع مساعى عشرات السنين فى بضعه أيّام؟أو ما سمعت ما حدث فى ألمانيا على عهد الطاغيه هتلر،و كيف أنّهم بخضوعهم لذلك الديكتاتور أحبطت أعمالهم،و تلاشت جهودهم؟ و كم من مثل يتجلّى لنا فى صفحات التاريخ لهذه المعادله.

و ليس الإقتصاد الفاسد بأقل خطرا من السياسه الفاسده،فإنّ الاستغلال قد يذهب بمكاسب الملايين من البشر،و لا يدعهم يستفيدون من مكاسبهم.أليس من الحكمه أن يصلحوا اقتصادهم حتى لا تحبط أعمالهم،و لا تذهب جهودهم سدى؟ قالوا:إنّ الجسم الذى يبتلى بالطفيليّات لا تنفعه المقوّيات،إذ أنّها بدل أن تقوّى الجسد تقوّى عدوّه المتمثّل فى الطفيليّات،و كذلك الإقتصاد المبتلى بالمستغلّين

لا ينشط إلّا لمصلحتهم،و باعتبارهم أعداء الإقتصاد فإنّ دوره نشاطه لا تزيده إلّا تخلّفا،و هذا أحد معانى الإحباط.

و فى الأخلاق-كما فى السياسه و الإقتصاد-تصدق هذه المقوله،فإنك تجد البعض من الناس يفقدون فى لحظه تهوّر أو نزق ما اكتسبوه من سمعه حسنه خلال عشرات السنين.أ ليس ذلك يعنى الإحباط؟ و بكلمه:إنّما ينفع العمل إذا كان أساسه سليما،أمّا العمل القائم على أساس منهار فإنّه ليس لا ينفع فقط،بل و قد يصبح خطرا على صاحبه.

و أساس العمل الصالح:السياسه الصالحه،الإقتصاد الصالح،القيم الراشده فى السلوك.

[۱۰]و التاريخ أفضل مدرسه،و السير فى الأرض لدراسه تجارب الأوّلين على الطبيعه أفضل منهج فى هذه المدرسه،إذ يجعلنا نلمس الحقائق بصوره مباشره بعيدا عن تفسيرات المتخلّفين،و خرافات الأوّلين.

أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي اَلْأَرْضِ دعنا نسير فى مناكب الأرض لنبحث عن آثار الأوّلين فيها،بشرط ألّا تستوقفنا الآثار بل العبر التى وراءها.

فَيَنْظُرُوا بأمّ أعينهم على الطبيعه،دون وسائط نقل،و تفسيرات خاطئه.

كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اَللّٰهُ عَلَيْهِمْ

كان الدمار شاملا فوقهم،فلم يبق من أنبائهم و أموالهم و ديارهم شىء،و هذه ليست خاصه بعصر دون عصر،إنّما هى شامله لكلّ العصور.

وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها فكلّ كافر لا بد أن ينتظر شيئا مشابها لذلك العذاب،لأنّ سنن اللّه لا تتغيّر.

[۱۱]ما الذى يضمن أعمال المؤمنين؟إيمانهم باللّه،و دخولهم فى حصن ولايته،و هى الولايه الحق التى تشمل الخليفه.أمّا الكفّار فهم بقوا خارج هذا الحصن المنيع فضاعت جهودهم،و تلاشت مساعيهم.

ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا و قد زعم الكفّار بأنّ الآلهه المزيّفه تحفظهم و تحفظ أعمالهم فخاب سعيهم،لأنّ الآلهه ليست أبدا موالى بحق.إنّهم ضعفاء مثلهم،و هل يحمى ضعيف ضعيفا؟ وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لاٰ مَوْلىٰ لَهُمْ

ص:۲۲۱

[سوره محمد (۴۷): الآیات ۱۲ الی ۱۹]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ یُدْخِلُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا یَتَمَتَّعُونَ وَ یَأْکُلُونَ کَمٰا تَأْکُلُ اَلْأَنْعٰامُ وَ اَلنّٰارُ مَثْویً لَهُمْ (۱۲) وَ کَأَیِّنْ مِنْ قَرْیَهٍ هِیَ أَشَدُّ قُوَّهً مِنْ قَرْیَتِکَ اَلَّتِی أَخْرَجَتْکَ أَهْلَکْنٰاهُمْ فَلاٰ نٰاصِرَ لَهُمْ (۱۳) أَ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ کَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اِتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ (۱۴) مَثَلُ اَلْجَنَّهِ اَلَّتِی وُعِدَ اَلْمُتَّقُونَ فِیهٰا أَنْهٰارٌ مِنْ مٰاءٍ غَیْرِ آسِنٍ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ یَتَغَیَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّهٍ لِلشّٰارِبِینَ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّی وَ لَهُمْ فِیهٰا مِنْ کُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ وَ مَغْفِرَهٌ مِنْ رَبِّهِمْ کَمَنْ هُوَ خٰالِدٌ فِی اَلنّٰارِ وَ سُقُوا مٰاءً حَمِیماً فَقَطَّعَ أَمْعٰاءَهُمْ (۱۵) وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْتَمِعُ إِلَیْکَ حَتّٰی إِذٰا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِکَ قٰالُوا لِلَّذِینَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ مٰا ذٰا قٰالَ آنِفاً أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ طَبَعَ اَللّٰهُ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ وَ اِتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ (۱۶) وَ اَلَّذِینَ اِهْتَدَوْا زٰادَهُمْ هُدیً وَ آتٰاهُمْ تَقْوٰاهُمْ (۱۷) فَهَلْ یَنْظُرُونَ إِلاَّ اَلسّٰاعَهَ أَنْ تَأْتِیَهُمْ بَغْتَهً فَقَدْ جٰاءَ أَشْرٰاطُهٰا فَأَنّٰی لَهُمْ إِذٰا جٰاءَتْهُمْ ذِکْرٰاهُمْ (۱۸) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اَللّٰهُ وَ اِسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ وَ اَللّٰهُ یَعْلَمُ مُتَقَلَّبَکُمْ وَ مَثْوٰاکُمْ (۱۹)

اللغه

(۱۵) غَیْرِ آسِنٍ :غیر متغیر الطعم و الریح.

ص:۲۲۲

(۱۸) أَشْرَاطُهَا :علاماتها.

(۱۹) مُتَقَلَّبَكُمْ :أى تقلبكم فى كافه أحوالكم.

وَ مَثْوَاكُمْ :حين ترجعون إلى بيوتكم للمنام و الاستراحه.

ص:۲۲۳

مَثَلُ الْجَنَّهِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ

هدی من الآیات:

لکی لا تتمیّع الحدود بین الحق و الباطل،بین الکفر و الایمان،و بالتالی بین الکافرین و المؤمنین،تتوالی آیات الذکر ببیان الفروق الکبیره بین الفریقین فی الدنیا و فی الآخره.

و لکی یستعدّ المؤمنون لمواجهه الکفّار عسکریا،بالرغم من اعتمار قلوبهم بالرحمه الایمانیه،لا بد أن یعرفوا ماذا یعنی الکفر،و ما مصیر الکفّار؟ ألف/إنّ اللّه یدخل المؤمنین الجنه لماذا؟لأنّهم عرفوا حکمه الخلق فحققوها بأفعالهم،بینما استمتع الکفّار بالحیاه الدنیا،و أکلوا بلا هدف،کما تأکل الانعام،فکان مصیرهم النار.

باء/و اللّه ولی المؤمنین ینصرهم،بینما الکفّار لا ناصر لهم،و شاهد ذلک أنهم أهلکوا فلم ینتصر لهم أحد.

ص:۲۲۴

جيم/و المؤمنون على هدى و بيّنه من ربهم.أمّا الكفّار فقد زين لهم سوء أعمالهم،و اتبعوا أهواءهم.

دال/و فى الجنه أنهار مختلفه،تروى عطش المؤمنين،و تعطيهم القوه و النشاط و اللذه،بينما الكفّار يخلدون فى النار،و يسقون ماء حميما يقطّع أمعاءهم.

هاء/و بينما طبع اللّه على قلوب الكفّار حتى أنّهم لا يفقهون ما يقال لهم فاتبعوا أهواءهم،نجد المؤمنين قد اهتدوا بضياء الوحى فزادهم اللّه هدى،و زوّدهم بالتقوى حتى يتبعوا الحق من ربّهم.

و ترى الكفّار ينتظرون،بينما المؤمنون يهتدون،و لكن ما ذا ينتظرون؟ الساعه.فهذه علاماتها و قد جاءتهم،و إذا نزلت بهم فجأه ما ذا ينفعهم الهدى؟ و ينتهى الدرس بالتذكره باللّه الذى لو علم الإنسان أنّه اللّه الواحد الأحد استغفر لذنبه(و لم يتشبّث بالأنداد من دونه ليخلّصوه من ذنوبه)كما استغفر للمؤمنين و المؤمنات الذين سوف يرتبط بهم إيمانيا،و يتخذ منهم موقفا لا عداء فيه و لا تقديس،و اللّه يعلم أطوار حياه البشر و تقلّباتهم،كما يعلم مثواهم.

بينات من الآيات:

[۱۲]من يؤمن باللّه،و لا يكتفى بالايمان وحده،بل يجعل من صبغه حياته تفيض على سلوكه،فله أجره عند ربه،و ما أعظمه من أجر! إِنَّ اللّٰهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ تعالوا إلى حيث رسول اللّه يرغّبنا بكلامه الصادق العذب فى جنّات ربّنا،

حيث أعدّها اللّه دارا لضيافته،و دعا إليها كرام خلقه،و ها

هو الرسول يحدّثنا ألا تسمعون:فيدخل(المؤمن الجنه)فاذا هو بشجره ذات ظل ممدود،و ماء مسكوب، و ثمار مهدله،يخرج من ساقها عينان تجريان،فينطلق إلى إحداهما فيغتسل منها فيخرج عليه نضره النعيم،ثم يشرب من الأخرى فلا يكون فى بطنه مغص و لا مرض و لا داء أبدا،و ذلك قوله: «وَ سَقٰاهُمْ رَبُّهُمْ شَرٰاباً طَهُوراً »،ثم تستقبله الملائكه فتقول:طبت فادخلها مع الخالدين،فيدخل فاذا هو بسماطين من شجر، أغصانها اللؤلؤ،و فروعها الحليّ و الحلل،ثمارها مثل ثدى الجوارى الأبكار، فتستقبله الملائكه معهم النوق و البراذين و الحلى و الحلل فيقولون:يا ولى اللّه اركب ما شئت،و البس ما شئت،و سل ما شئت،قال:فيركب ما اشتهى،و يلبس ما اشتهى،و هو على ناقه أو برذون من نور،و ثيابه من نور،و حليّه من نور،يسير فى دار النور،معه الملائكه من نور،و غلمان من نور،و وصائف من نور،حتى تهابه الملائكه ممّا يرون من النور،فيقول بعضهم لبعض:تنحّوا فقد جاء وفد الحليم الغفور،قال:فينظر إلى أوّل قصر له من فضه مشرفا بالدرّ و الياقوت فتشرف عليه أزواجه فيقولون:مرحبا مرحبا انزل بنا،فيهم أن ينزل بقصره،قال:فيقول الملائكه:سر يا ولى اللّه فان هذا لك و غيره،حتى ينتهى إلى قصر من ذهب مكلل بالدر و الياقوت فتشرف عليه أزواجه فيقلن:مرحبا مرحبا يا ولى اللّه انزل بنا،فيهمّ أن ينزل به فتقول له الملائكه:سر يا ولى اللّه فانّ هذا لك و غيره.

قال:ثم ينتهى إلى قصر مكلل بالدر و الياقوت فيهمّ بالنزول بقصره فيقول له الملائكه:سر يا وليّ اللّه فانّ هذا لك و غيره،قال:ثم يأتى قصرا من ياقوت أحمر مكللا بالدر و الياقوت فيهمّ بالنزول بقصره فيقول له الملائكه:سر يا ولى اللّه فانّ هذا لك و غيره،قال:فيسير حتى أتى تمام ألف قصر،كلّ ذلك ينفذ فيه بصره،و يسير فى ملكه أسرع من طرف العين،فاذا انتهى إلى أقصاها قصرا نكّس رأسه،فتقول

الملائكه:مالك یا ولیّ اللّه؟قال:فیقول:و اللّه لقد کاد بصری أن یختطف، فیقولون:یا ولیّ اللّه أبشر فانّ الجنه لیس فیها عمی و لا صمم،فأتی قصرا یری باطنه من ظاهره،و ظاهره من باطنه،لبنه من فضه،و لبنه ذهب،و لبنه یاقوت، و لبنه در ملاطه المسک،قد شرّف بشرف من نور یتلألأ،و یری الرجل وجهه فی الحائط.

قال:و إنّ فی الجنّه لنهرا حافتاه الجواری،قال:فیوحی إلیهن الرب تبارک و تعالی:أسمعن عبادی تمجیدی و تسبیحی و تحمیدی،فیرفعن أصواتهنّ بألحان و ترجیع لم یسمع الخلائق مثلها قط،فتطرب أهل الجنه، و إنّه لتشرف علی ولیّ اللّه المرأه لیست من نسائه من السجف فملأت قصوره و منازله ضوءا و نورا،فیظنّ ولیّ اللّه أنّ ربّه أشرف علیه،أو ملک من ملائکته،فیرفع رأسه فاذا هو بزوجه قد کادت یذهب نورها نور عینیه،قال:فتنادیه:قد آن لنا أن تکون لنا منک دوله،قال:

فیقول لها:و من أنت؟قال:فتقول:أنا ممّن ذکر اللّه فی القرآن: «لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ فِیهٰا وَ لَدَیْنٰا مَزِیدٌ »،فیجامعها فی قوّه مائه شاب،و یعانقها سبعین سنه من أعمار الأولین،و ما یدری أ ینظر إلی وجهها أم إلی خلقها أم إلی ساقها؟!فما من شیء ینظر إلیه منها إلاّ رأی وجهه من ذلک المکان من شدّه نورها و صفائها،ثم تشرف علیه أخری أحسن وجها و أطیب ریحا من الأولی،فتنادیه فتقول:قد آن لنا ان یکون لنا منک دوله،قال:فیقول لها:و من أنت؟فتقول:أنا من ذکر اللّه فی القرآن:

«فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِیَ لَهُمْ مِنْ قُرَّهِ أَعْیُنٍ جَزٰاءً بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ ».

قال:و ما من أحد یدخل الجنّه إلاّ کان له من الأزواج خمسمائه حوراء،مع کلّ حوراء سبعون غلاما و سبعون جاریه کأنهنّ اللؤلؤ المنثور،کأنهن اللؤلؤ المکنون (و تفسیر المکنون بمنزله اللؤلؤ فی الصدف لم تمسه الأیدی،و لم تره الأعین،و أمّا المنثور فیعنی فی الکثره)و له سبع قصور فی کلّ قصر سبعون بیتا،فی کلّ بیت سبعون

سريرا،على كلّ سـرير سبعون فراشا،عليها زوجه من الحور العين، «تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ »« أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ »صاف ليس بالكدر،« وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ »لم يخرج من ضـرر المواشـى، « وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى» لم يخرج من بطون النحل،« وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّهٍ لِلشّارِبِينَ »لم يعصره الرجال بأقدامهم، فاذا اشـتهوا الطعام جاءهم طيور بيض يرفعن أجنحتهن فيأكلون من أىّ الألـوان اشـتهوا جلوسـا إن شـاؤوا أو متكئين،و إن اشـتهوا الفـاكهه تسـعّبت إليهم الأغصان فأكلوا من أيّها اشـتهوا،قال:« اَلْمَلائِكَهُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدّارِ » (۱).

هذا و طبيعه المتقين فى الجنه تختلف عنها فى الدنيا اختلافا شاسعا،

فقد روى عن الامام أبى جعفر الباقر عليه السلام :

«إنّ أهـل الجنه جرد مرد مكحلين مكللين مطوقين مسورين مختمين نـاعمين محبورين مكرمين،يعطى أحـدهم قوه مائه رجل فى الطعام و الشـراب و الشـهوه و الجماع،قوّه غـذائه قوّه مائه رجل فى الطعام و الشـراب،و يجـد لـذّه غذائه مقدار أربعين سـنه،و لذّه عشائه مقدار أربعين سنه،قد ألبس اللّه وجوههم النور، و أجسادهم الحرير،بيض الألوان،صفر الحلى،خضر الثياب».

«إنّ هل الجنه يحيون فلا يموتون أبـدا،و يستيقظون فلا ينامون أبـدا، و يسـتغنون فلا يفتقرون أبـدا،و يفرحون فلا يحزنون أبـدا،و يضـحكون فلاـ يبكون أبـدا،و يكرمون فلاـ يهـانون أبـدا،و يفكهون و لاـ يقطبون أبـدا،و يحـبرون و يسـرّون أبـدا،و يـأكلون فلا يجوعون أبـدا،و يروون فلا يظمؤون أبـدا،و يكسون فلا يعرون أبـدا،و يركبون و يتزاورون أبدا،و يسـلّم عليهم الولدان المخلّدون أبدا بأيديهم

۱- ۱) بحار/ج ۸-ص ۲۱۲

أباریق الفضه و آنیه الذهب أبدا،متکئین علی سرر أبدا،علی الأرائک ینظرون أبدا،یأتیهم التحیّه و التسلیم من اللّه أبدا،نسأل اللّه الجنه برحمته. أَنَّهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ » (۱).

أما الکافرون فلیس لهم سوی النار مثوی و حصیرا.

وَ الَّذِینَ کَفَرُوا یَتَمَتَّعُونَ وَ یَأْکُلُونَ کَمٰا تَأْکُلُ الْأَنْعٰامُ وَ النّٰارُ مَثْویً لَهُمْ و السبب فی دخولهم النار بدل الجنه هو أنّهم استنفذوا طیباتهم فی حیاتهم الدنیا،و غاروا فی أوحال الشهوات،و لم یستهدفوا من وراء النعم الوصول الی الغایه الأسمی(الدار الآخره)،و هذا ما بیّنته الآیه العشرین من سوره الأحقاف:

« وَ یَوْمَ یُعْرَضُ الَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی النّٰارِ أَذْهَبْتُمْ طَیِّبٰاتِکُمْ فِی حَیٰاتِکُمُ الدُّنْیٰا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهٰا ».

و نتساءل:ما معنی« یَأْکُلُونَ کَمٰا تَأْکُلُ الْأَنْعٰامُ »؟ الجواب:المؤمن یأکل لیعمل،و یعمل للهدف،و یبتغی الهدف للّه،« وَ أَنَّ إِلیٰ رَبِّکَ الْمُنْتَهیٰ »،بینما القضیه معکوسه عند الکافر الذی یعمل لیحصل علی متعه الأکل(و سائر الشهوات)،فالهدف عنده الذی تتمحور حوله سائر نشاطاته هو الأکل.ألیس ذلک حاله الأنعام؟ [۱۳]تلک کانت النار و هی موعدهم(فی الآخره)،أمّا فی الدنیا فقد یصیبهم اللّه بعذاب من عنده الیم.

وَ کَأَیِّنْ مِنْ قَرْیَهٍ هِیَ أَشَدُّ قُوَّهً مِنْ قَرْیَتِکَ الَّتِی أَخْرَجَتْکَ أَهْلَکْنٰاهُمْ فَلاٰ نٰاصِرَ لَهُمْ

ص:۲۲۹

۱- ۱) بحار/ج ۸-ص ۲۲۰

كـانوا يبنون بكـلّ ريع آيه يعبثون،و يتخـذون مصانع لعلّهم يخلـدون،و إذا بطشوا بطشوا جبّارين،و كانوا ينحتون من الجبال بيوتا فـارهين،و كـانت الأنهار تجرى من تحتهم،و كانوا يسـتخفّون بالمؤمنين،و يقولون:إنّهم لشـرذمه قليلون..و لكن ألم تر كيف فعل ربـك بهم،ألم يصبّ عليهم سوط عـذاب؟!بلى.فهـل وجـدوا لهم نصـيرا؟! و من هـذا السـياق(علاقه الآيه ۱۲ بالآيه ۱۳)نستوحى الحقيقه التاليه:انّ المؤمنين يتعاملون مع الأشـياء-كلّ الأشـياء-باعتبارها وسائل للوصول إلى الأهـداف،فهم لا يعتمدون عليها،و لا يتخـذونها أنـدادا للّه،و لا يحجبهم حبّهم لها أو تعاملهم معها عن اللّه و رسالاته و أحكامه،و بكلمه واحـده:إنّهم يجعلونها وسـيله يسـخّرونها لتحقيق الحكمه من خلقهم،و لا يجعلون أنفسـهم سـخره لها،بينما الكفّار ينظرون إلى الأشياء نظره ذاتيه،فيغترّون بها،و يعتمدون عليها،و لكنّها لن تغنى عنهم شيئا.

[۱۴]حين يفصـل الكتاب بين المؤمنين و الكافرين لا يفصل بينهما كعنوانين ظاهرين،بل كقيمتين واقعيتين،ينفصل على أساسـهما من يتظاهر بالايمان عن الفاسق و المنافق.

ذلك أنّ القرآن يتحـدّث غالبا عن الحق،و ليس عن مظاهره،و لـذلک فالكافر فى آياته ليس دائما الـذى يتظاهر به،بل قد يكون الـذى يكفر-مثلا-بآيه فى القرآن أو يكفر عمليّا بفريضه إلهيه،لأنّ الحـديث القرآنى هو عن واقع الكفر لا ظاهره،ممّا يشـمل كلّ من يوجد لديه هذا الواقع.

ص:۲۳۰

و هذه السوره تتميّز بالصراحه فی هذا الفصل،و لذلک

جاء فی الحدیث المروی عن أبی عبد اللّه الصادق علیه السلام : «من أراد أن یعرف حالنا و حال أعدائنا فلیقرأ سوره محمّد(صلّی اللّه علیه و آله و سلم)،فانّه یراها آیه فینا و آیه فیهم» (۱)أی أنّها تتحدّث بوضوح تام عن منهاج محمّد و آله الحق،و المنهاج الباطل المخالف لهم.

أَ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ فدار مع الحق أینما دار،و لم یجعل ذاته أو هواه محورا لقراراته.

کَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ کلاّ..لا یستویان.إنّه لفرق کبیر بینهما،فأولئک محورهم الحق،و هؤلاء محورهم الهوی.

إنّ المؤمن یفکّر ثم یتحدّث،و یخطط ثم یعمل،بینما الکافر و المنافق یتحدّث بلا رویه،و یعمل بلا هدف سلیم،لأنّه لا یعتمد الحق مقیاسا لشؤون حیاته.أو لم یقل

الامام علی علیه السلام : «لسان العاقل وراء قلبه،و قلب الأحمق وراء لسانه»؟ (۲).

إنّ المؤمن یعلم أنّه قد یخطئ صراط الحق،و من هنا فهو لا یتحرّک إلاّ عن بیّنه، فلا یخطو خطوه إلاّ و هو یعلم أنّه سیضعها فی الموقع السلیم،کمن یحمل مصباحا و یقدّمه أمامه ثم یبدأ المشی،و بالعکس الکافر و المنافق.إنّه یتخبّط فی ظلمات الباطل،لأنّ الدافع الأساسی له الهوی

«و کم من عقل أسیر،تحت هوی

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵-ص ۲۴

۲- ۲) نهج/حکمه /۴۰ص ۴۷۶

أمیر؟!» (۱).

و إنّ المؤمن یعیش حیاه الصدق،لأنّه یعیش فی إطار الحق فلا یحتاج إلی التبریر و التلبیس و الدجل،بینما یعیش أصحاب الهوی الالتواء و الأعذار و الزیف.إنّ ضمائرهم ترفض باطلهم لو لا أنّه یزیّن لهم،و یلبس بالحق،و یبرر بصنوف المعاذیر.أ رأیت الذی یطعم العسل لا یحتاج إلی خلطه بماده أخری،بینما الذی یجترع العلقم لا یستسیغه إلاّ إذا وضع فیه قطعه حلوی.کذلک الحق و الباطل.فهل الحاکم المنتخب بنزاهه،العامل بالعدل،الحکیم،الصادق،الصالح،بحاجه إلی الاعلام کالطاغیه الظالم الطائش الفاسد؟ و هکذا نجد الدول کلّما توغّلت فی الظلم کلّما أنفقت علی الدعایه.

کما نجد أکثر الفلسفات البشریه جاءت لتبریر واقع فاسد للناس فرادی أو جماعات،ففی العهد الماضی ابتدعت نظریات کثیره کالمرجئه و القدریه لتبریر الواقع الفاسد للافراد و حالات الترهل و الکسل،کما انتشر فی العصر الحدیث الفساد الجنسی،و غطت أوروبا المیوعه و المجون،فجاء فروید بنظریته الجنسیه المعروفه.

[۱۵]لکی یتعمق الفصل بین فریقی المؤمنین و الکافرین فی أعیننا حتی لا نزعم انهما سواء،و نستدرج-بسبب هذا الزعم-نحو الکفر،و لکی نرغب فی الایمان بما یلقیه علی عواتقنا من مسئولیات،و نحذر من الکفر بالرغم مما حفت به من شهوات،لکل ذلک یذکرنا السیاق بمصیر الفریقین،و یبین صفات الجنه و النار:

مَثَلُ الْجَنَّهِ

ص:۲۳۲

۱- ۱) نهج/حکمه ۲۱۱-ص ۵۰۶

هذه هی صفه الجنه.

اَلَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ الذین یتبعون الحق،و یتجنبون ما یسخط ربهم،و یحفظون أنفسهم من النار، و ما یوجبها من سیئات.

فِیهٰا أَنْهٰارٌ متنوعه أولا.

مِنْ مٰاءٍ غَیْرِ آسِنٍ غیر متغیر لطول المقام کما تتغیر میاه الدنیا،ذلک ان الجنه طاهره من النجاسات و الجراثیم و الأدران.و قال بعضهم:إن هذا النهر وضع لرفع عطشهم.و أقول:بلی.

و أیضا لتطهیر أجسادهم و أرواحهم من شوائب الحیاه الدنیا فاذا شربوا منها نظفت أبدانهم من کل جرثومه أو مرض کما طهرت قلوبهم من کل غلّ..و نستوحی ذلک من عدم قابلیه الماء للأسن و التغییر.و إذا عرفنا ان الماء بذاته مطهر،فان مقاومته للتأثر تعنی انه ماء مطهر لکل نجاسه،لأنه لو لم یکن کذلک إذا کان یتأثر بها، و یدل علی ذلک أیضا الحدیث الذی مضی آنفا عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله.

وَ أَنْهٰارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ یَتَغَیَّرْ طَعْمُهُ فلا یعتریه شیء من العوارض التی تصیب الألبان فی الدنیا،و نحن نعرف ان اللبن شراب یقوم بدور الطعام،أو طعام متکامل فی صوره شراب سائغ إلا انّه قد یتغیر بسبب سرعه اجتذابه للجراثیم.بید ان لبن الآخره یقاوم الجراثیم،فهو إذا غذاء سائغ هدفه بعث القوه فی أبدانهم.

وَ أَنْهٰارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّٰارِبِينَ يتلذذون بشربها،و لا يتأذون بها و لا بعاقبتها،بخلاف خمر الدنيا التى لا تخلو من المراره و السكر و الصداع،فاذا شربوها ازدادوا نشاطا و حيويه.

وَ أَنْهٰارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى خالص من الشمع و الرغوه و القذى و من كل ما يقلل من قيمته،و من جميع العيوب التى تكون لعسل الدنيا،فهو حلوى يتذوقونها.أو ليس تشتهى النفس بعد الطعام الى الحلواء؟ هكذا تجرى فى الجنه هذه الأنهار تبعث البهجه و الطمأنينه فى نفوس أهل الجنه حيث لا يبقى فى نفوسهم خوف من الجوع مستقبلا،أو حرص على الطعام فى الحاضر.أ رأيت من يعيش على شاطئ الفرات الفائض هل يخشى العطش أو يحرص على تخزين الماء لمستقبله؟كلا.هكذا أهل الجنه يبعث اللّه فى نفوسهم الغنى بما تراه أعينهم من وفور النعمه.

وَ لَهُمْ فِيهٰا مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰاتِ لا يتناولونها بعد جهد و عناء كما فى الدنيا،لأنها متهدله عليهم.

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بعد تلاوته للآيه الكريمه: «وَ دٰانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاٰلُهٰا وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُهٰا تَذْلِيلاً »:«من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذى يشتهيه من الثمار بفيه،و هو متكئ،و إن الأنواع من الفاكهه ليقلن لولى اللّه:يا ولى اللّه!كلنى قبل أن تأكل هذا قبلى» (۱)و حيث كان يتحدث عن شجره طوبى قال صلى الله عليه و آله :

«أسفلها ثمار أهل الجنه،و طعامهم متذلل فى بيوتهم،يكون فى القضيب منها مأه

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵-ص ۲۱۶

لون من الفاكهه،مما رأيتم فی دار الدنيا و مما لم تروه،و ما سمعتم به و ما لم تسمعوا مثلها،و كلما يجتنی منها شیء نبتت مكانها أخری،لا مقطوعه و لا ممنوعه» (۱).

و بالرغم من وجود لحم الطير مما يشتهيه الإنسان فانه لم يذكر فی هذا السياق، و لعل منشأ ذلک شمول كلمه الثمرات لمثله إذ ان الثمره هی التی تفرزها الأرض أو النبات ثم ينتفع بها الإنسان بلا صعوبه..و لحوم الطير من هذا النوع و اللّه العالم.

وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ حيث لا- يبقی بينهم و بين معرفه اللّه و الا-نس بحضرته حجاب من ذنوب،و هذا أعظم نعمه إذ ان لذه الروح أعمق من لذه الجسد،و ان من عرف اللّه و ناجاه و ازداد معرفه به بلغت به الراحه،و الطمأنينه و الانس،و الحب،و انشراح القلب،و لذه الروح أبعد مداه.

روی عن علی بن الحسين(عليهما السلام): إذا صار أهل الجنه فی الجنه، و دخل ولی اللّه الی جنانه و مساكنه،و اتكأ كل مؤمن منهم علی أريكته،حفته خدامه،و تهدلت عليه الثمار،و تفجرت حوله العيون،و جرت من تحته الأنهار، و بسطت له الزرابی،و صففت له النمارق،و أتته الخدام بما شاءت شهوته من قبل أن يسألهم ذلک،قال:و يخرج عليهم الحور العين من الجنان فيمكنون بذلک ما شاء اللّه.

ثم إن الجبّار يشرف عليهم فيقول لهم:أوليائی و أهل طاعتی و سكان جنتی فی جواری الأهل أنبئكم بخير مما أنتم فيه؟فيقولون:ربنا و أی شیء خير مما نحن فيه؟نحن فيما اشتهت أنفسنا،و لذت أعيننا من النعم فی جوار الكريم.قال:

۱- ۱) المصدر

فیعود علیهم بـالقول فیقولون:ربنـا نعم فاتنا بخیر مما نحن فیه فیقول لهم تبارک و تعالی:رضای عنکم و محبتی لکم خیر و أعظم مما أنتم فیه.قال:فیقولون:نعم یا ربنا رضاک عنا و محبتک لنا خیر لنا و أطیب لأنفسنا.ثم قرأ علی بن الحسین (علیهما السلام)هذه الآیه: «وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها وَ مَساکِنَ طَیِّبَهً فِی جَنّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللّهِ أَکْبَرُ ذلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ ». (۱)

إن اللّه خلق الإنسـان و هو یحمـل فی جوانحه طموحـا لاـ حـدود له،فکلمـا حصل علی نعمه هفت نفسه نحو نعمه أخری،و الربّ یـذکر النعیم الاـخروی الـذی وعـده المتقین،و یعلم ان الإنسان لا یکتفی به،لهـذا یعقب: «وَ مَغْفِرَهٌ مِنْ رَبِّهِمْ »أو لیس اللّه و رضاه غـایه آمـال العـارفین،و منتهی طموح الراغبین؟ و نتسـاءل:أیهمـا أفضـل أن ننتقل من الـدنیا الی الآخره فنحصل علی ذلک النعیم العظیم المعنوی و المادی،أو أن نلقی فی النار علی وجوهنا أذلاء خاسئین،مهانین مخزیین؟! کَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِی النّارِ

روی عن أمیر المؤمنین علی علیه السلام حدیث طویل،قاله للأحنف بن قیس،یصف فیه أهل النار:

«فکم یومئـذ فی النـار من صـلب محطوم،و وجه مهشوم،و مشوّه مضـروب علی الخرطوم،قـد أکلت الجـامعه کفه،و التحم الطوق بعنقه.

فلو رأیتهم یا أحنف ینحدرون فی أودیتها،و یصعدون جبالها،و قد ألبسوا

۱- ۱) بحار الأنوار/ج ۸/ص ۱۴۰

المقطعات من القطران،و أقرنوا مع فجارها و شياطينها،فاذا استغاثوا بأسوء أخذ من حريق شدت عليهم عقاربها و حياتها،و لو رأيت مناديا ينادى و هو يقول:

يا أهل الجنه و نعيمها و يا أهل حليّها و حللها،خلّدوا فلا موت،فعندها ينقطع رجاؤهم و تنغلق الأبواب،و تنقطع بهم الأسباب،فكم يومئذ من شيخ ينادى، وا شيبتاه!و كم من شاب ينادى وا شباباه!و كم من امرأه تنادى وا فضيحتاه! هتك عنهم الستور.فكم يومئذ من مغموس،بين أطباقها محبوس،يا لك غمسه ألبستك بعد لباس الكتّان،و الماء المبرد على الجدران،و أكل الطعام ألوانا بعد ألوان.لباسا لم يدع لك شعرا ناعما كنت مطعمه إلا بيّضه،و لا عينا كنت تبصر بها الى حبيب إلا فقأها» (۱) وَ سُقُوا مٰاءً حَمِيماً إنهم لا يستسيغونه بل يضطرهم عطشهم الشديد الى شرب الماء الذى يغلى حراره.

فَقَطَّعَ أَمْعٰاءَهُمْ و هنا ننقل حديثا رهيبا مأثورا

عن الامام الباقر(عليه السلام)يصف فيه بعضا من عذاب الكافرين:

ثم يضرب رأسه ضربه فيهوى سبعين ألف عام حتى ينتهى الى عين يقال لها آنيه،يقول اللّه تعالى:«تسقى من عين آنيه»و هو عين ينتهى حرها و طبخها، و أوقد عليها من خلق اللّه جهنم،كل أوديه النار تنام و تلك العين لا تنام من حرها،و يقول الملائكه:يا معشر الأشقياء ادنوا فاشربوا منها،فاذا أعرضوا عنها ضربتهم الملائكه بالمقامع،و قيل لهم:« ذُوقُوا عَذٰابَ الْحَرِيقِ ذٰلِكَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ ».

۱- ۱) بحار الأنوار/ج ۶۸-ص ۱۷۲

قال:ثم يؤتون بكأس من حديد فيه شربه من عين آنيه،فاذا أدنى منهم تقلصت شفاههم،و انتشر لحوم وجوههم،فاذا شربوا منها و صار فى أجوافهم يصهر به ما فى بطونهم و الجلود (۱)و المتقون لهم من كل الثمرات،اما هؤلاء المجرمون فليس لهم سوى الزقوم مطعما..

يقول الامام الباقر عليه السلام :

«ثم يضرب على رأسه ضربه فيهوى سبعين ألف عام حتى ينتهى الى شجره الزقوم،شجره تخرج فى أصل الجحيم،طلعها كأنه رؤوس الشياطين،عليها سبعون ألف غصن من نار،فى كل غصن سبعون ألف ثمره من نار،كل ثمره كأنها رأس الشيطان قبحا و نتنا،تنشب على صخره مملسه سوخاء كأنها مرآه ذلقه،ما بين أصل الصخره(الشجره خ ل)سبعون الف عام،أغصانها يشرب من نار و ثمارها نار،و فرعها نار،فيقال له:يا شقى اصعد،فكلما صعد زلق، و كلما زلق صعد،فلا يزال كذلك سبعين الف عام فى العذاب،و إذا أكل منها ثمره يجدها أمرّ من الصبر،و أنتن من الجيف،و أشد من الحديد،فاذا واقعت بطنه غلت فى بطنه كغلى الحميم،فيذكرون ما كانوا يأكلون فى دار الدنيا من طيب الطعام». (۲)

هل نختار هذا المصير السيء على عاقبه المتقين؟و هكذا يبين القرآن مدى الفرق بين المؤمن و الكافر،لكى لا ننظر الى ظاهر الأمر و نزعم انه يستوى هذا و ذاک،أو تستوى حاله الايمان و حاله الكفر،فننجر الى الكفر باهمالنا و غفلتنا،نعوذ باللّه منه و من مصير الكافرين.

۱- ۱) بحار الأنوار/ج ۸-ص ۳۲۱

۲- ۲) المصدر

[۱۶]و لا- تعی القلوب المحاطه بالهوی بصائر القرآن،أما من اتقی حجب الشهوات تلقی أنوار الهدی.أو لم یقل: «إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّکْرَ وَ خَشِیَ الرَّحْمنَ بِالْغَیْبِ».

و هذه البدایه،و علینا أبدا العوده الی المبادئ لحل الغاز الحیاه.فاذا کنت تبحث عن الجنه أصلح اولا منهج التفکیر فی نفسک،فلا تتبع الهوی و استمع الی الحق و تفکّر فی آیات اللّه.

وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْتَمِعُ إِلَیْکَ لا لکی یفقه،و انما لیجادل فی آیات اللّه بغیر هدی.

حَتّی إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِکَ قالُوا لِلَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً عن ما ذا تحدث؟و الی أی شیء أشار؟و ما هی الأفکار التی ذکرها؟و ما هی الأوامر التی کلفنا بها؟یقول ذلک فور خروجه من بیت الرساله،لماذا؟لأنه لم یقتنع بما قیل له فحاول أن یجد له تفسیرا و تأویلا.إنه لفرط عقده النفسیه لا یری الأمور إلا بصوره معکوسه،و لا یعتقد صدق متحدثیه،بل یبحث فی أحادیثهم عن زوایا مبهمه یجعلها ماده تساؤله،و مناقشاته،و جدلیاته،و یزعم ان ذلک من العلم و لا یعرف انه دلیل جهله و انغلاق قلبه.

أُولئِکَ الَّذِینَ طَبَعَ اللّهُ عَلی قُلُوبِهِمْ فأصبحت لا تعی و لا تعقل.مضوا قدما فی طریق الهوی.

وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ

لأنّ الإنسان لا يمكن أن يخضع لشهواته،و يركب مطيّه أهوائه،و هو واع بصير.إذ انه آنئذ سيهتم بتزكيه نفسه و ترويضها،كما

الامام أمير المؤمنين على عليه السلام الذى قال و هو يحكم إمبراطوريه عريضه:«و إنّما هى نفسى أروضها بالتقوى لتأتى آمنه يوم الخوف الأكبر،و تثبت على جوانب المزلق،و لو شئت لاهتديت الطريق، الى مصفى هذا العسل و لباب هذا القمح،و نسائج هذا القزّ،و لكن هيهات أن يغلبنى هواى،و يقودنى جشعى الى تخيّر الأطعمه..

إليك عنى يا دنيا،فحبلك على غاربك،قد انسللت من مخالبك،و أفلت من حبائلك،و اجتنبت الذهاب فى مداحضك..اعزبى عنى!فو اللّه لا ـ أذل لك فتستذلينى،و لا أسلس لك فتقودينى،و أيم اللّه يمينا أستثنى فيها بمشيئه اللّه-لأروضن نفسى رياضه تهش معها الى القرص إذا قدرت عليه مطعوما، و تقنع بالملح مأدوما،و لأدعن مقلتى كعين ماء نضب معينها،مستفرغه دموعها». (۱)

[۱۷]و من أراد ان يعى الحقائق،و يزداد بصيره و هدى،و يستقيم على المنهج السليم،فعليه أن يسعى بنفسه نحو الهدايه،لأن على الإنسان الخطوه الاولى و على اللّه التوفيق.

وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا بحثوا عن الحق بأنفسهم،وسعت قلوبهم نحو البصيره،أولئك الذين يأخذ ربهم بأيديهم فى طريق الهدايه،فيزيدهم هدى كما يثبت أقدامهم أن تزل بفعل عواصف الشهوه و رياح الفتن.

ص:۲۴۰

۱- ۱) نهج/رساله ۴۵-ص ۴۱۷

زَادَهُمْ هُدیً وَ آتٰاهُمْ تَقْوٰاهُمْ تماما بعکس أولئک المنافقین الذین سبق الحدیث عنهم،فبینما طبع اللّه علی قلوب أولئک،زاد هدی هؤلاء.و بینما یتبع أولئک أهواءهم،أتی هؤلاء التقوی بتنمیه معارفهم و وعیهم،و تنبیههم فی أوقات الغفله،و تنمیه إرادتهم و عزمهم، و إغنائهم بنعمه الحلال عما حرم علیهم.و بکلمه:توفیقهم لتجنب ما یسخط ربهم.

[۱۸]لما ذا-إذا-لا نخطو نحو ربنا الخطوه الاولی لیزیدنا هدی و یؤتینا التقوی؟إنّه الانتظار الساذج،و التسویف الخادع،کأننا نتوقع أن تکون الخطوه الأولی من غیرنا،و ننتظر و الی متی ننتظر؟هل الی قیام الساعه،حیث لا تنفع التوبه.فقد توافرت علائمها أ فلا نبادر بالتوبه قبل فوات أوانها؟ فَهَلْ یَنْظُرُونَ إِلاَّ السّٰاعَهَ أَنْ تَأْتِیَهُمْ بَغْتَهً قد تتمثل الساعه فی یوم القیامه،أو عند ما ینزل اللّه عذاب الاستیصال،أو عند ما یفاجئ الإنسان أجله الذی لا مفر منه.المهم انها تباغت البشر،بید انها لیست مفاجئه تماما إذ ان علاماتها قد ظهرت مما تکفینا دلاله علیها.

فَقَدْ جٰاءَ أَشْرٰاطُهٰا أشراط الساعه،أی علائمها فما هی علائمها؟ لقد اختلف المفسرون فی تأویلها قال بعضهم:إنها بعثه الرسول أو لم یقل صلی اللّه علیه و آله:

بقیت أنا و الساعه کهاتین و ضم السبابه و الوسطی. أو لم یخطب فی أصحابه قبل الغروب و

قال: و الذی نفس محمد بیده،مثل ما مضی من الدنیا فیما

بقی منها،إلا مثل ما مضی من یومکم هذا فیما بقی منه،و ما بقی منه الا الیسیر (۱)مما یدل علی اننا نعیش فی نهایات الدنیا..و من علامات ذلک بعثه خاتم الرسل الذی لا نبی بعده الی یوم القیامه.

و قال بعضهم:إن أشراط الساعه هی ما ذکر فی النصوص من انتشار الفساد و لا ریب ان ذلک أیضا من علامات قیام الساعه التی تقوم علی شر خلق اللّه.

بید ان أشراط الساعه-حسبما یبدو-تعم کل الشواهد التی تهدینا الی قیامها،و تختلف الشواهد حسب الأشخاص و الأمم و العصور.فلا ریب ان ما جری علی الأمم الماضیه من عذاب التدمیر من أشراط الساعه التی تهدینا الی وقوعها، و حتی موت الأعزاء و رحیلهم الأبدی عن الدنیا یمکن أن یکون منذرا لنا حتی نبادر بالتوبه.

بلی.هناک علامات الساعه ذکرت فی النصوص توحی بضروره انتظار قیام الساعه عند ما ینتشر الفساد و ینحسر الصلاح کما

جاء فی الحدیث المأثور عن عبداللّه بن عباس قال: حججنا مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله حجه الوداع،فأخذ بحلقه باب الکعبه ثم أقبل علینا بوجهه فقال:ألا أخبرکم بأشراط الساعه؟و کان أدنی الناس منه یومئذ سلمان رحمه اللّه فقال:بلی یا رسول اللّه.فقال:من أشراط القیامه إضاعه الصلوات و اتباع الشهوات،و المیل مع الأهواء،و تعظیم أصحاب المال،و بیع الدین بالدنیا،فعندها یذاب قلب المؤمن فی جوفه کما یذاب الملح فی الماء مما تری من المنکر،فلا یستطیع أن یغیره.قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول اللّه؟قال:إی و الذی نفسی بیده یا سلمان إن عندها یلیهم أمراء جوره، و وزراء فسقه،و عرفاء ظلمه،و أمناء خونه.قال سلمان:و ان هذا لکائن یا رسول

۱- ۱) تفسیر نمونه/ج ۲۱-ص ۴۵۱ نقلا عن روح المعانی.

اللّه؟قال:إی و الذی نفسی بیده یا سلمان،ان عندها یکون المنکر معروفا و المعروف منکرا،و یؤتمن الخائن و یخون الأمین،و یصدق الکاذب و یکذب الصادق،قال سلمان:و إن هذا الکائن یا رسول اللّه؟قال:إی و الذی نفسی بیده یا سلمان،فعندها ستکون إماره النساء و مشاوره الإماء و قعود الصبیان علی المنابر، و یکون الکذب ظرفا،و الزکاه مغرما و الفیء مغنما،و یجفو الرجل والدیه،و یبر صدیقه،و یطلع الکوکب المذنب.قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول اللّه؟ قال:إی و الذی نفسی بیده یا سلمان،و عندها تشارک المراه زوجها فی التجاره، و یکون المطر قیظا،و یغیظ الکرام غیظا،و یحتقر الرجل المعسر،فعندها تقارب الأسواق إذ قال هذا لم أبع شیئا و قال هذا لم اربح شیئا،فلا اری إلا ذاما للّه.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول اللّه؟قال:إی و الذی نفسی بیده یا سلمان، فعندها یلیهم أقوام إن تکلموا قتلوهم،و إن سکتوا استباحوهم لیستأثرون بفیئهم و لیطأن حرمتهم،و لیسفکن دماءهم،و لتملئن قلوبهم غلا و رعبا فلا تراهم إلا وجلین خائفین مرهوبین.قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول اللّه؟قال:إی و الذی نفسی بیده یا سلمان،إن عندها یؤتی بشیء من المشرق و شیء من المغرب یلون أمتی فالویل لضعفاء أمتی منهم و الویل لهم من اللّه لا یرحمون صغیرا و لا یوقرون کبیرا و لا یخافون (1)عن مسیء،جثتهم جثه الآدمیین و قلوبهم قلوب الشیاطین.قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول اللّه؟قال:أی و الذی نفسی بیده یا سلمان،و عندها یکتفی الرجال بالرجال،و النساء بالنساء،و یغار علی الغلمان کما یغار علی الجاریه فی بیت أهلها،و تشبه الرجال بالنساء و النساء بالرجال، و ترکبن الفروج السروج،فعلیهن من أمتی لعنه اللّه.قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول اللّه؟فقال:أی و الذی نفسی بیده یا سلمان إن عندها تزخرف المساجد کما تزخرف البیع و الکنائس،و تحلی المصاحف،و تطول المنارات،و تکثر

۱- ۱) و فی نسخه البحار:«و لا یتجاوزون»

الصفوفات بقلوب متباغضه،و السن مختلفه.قال سلمان:و إن هذا لكائن يا رسول اللّه؟قال:إی و الذی نفسی بیده یا سلمان،و عندها تحلی ذکور أمتی بالذهب و یلبس الحریر و الدیباج،و یتخذون جلود النمور صفاقا.قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول اللّه؟قال:أی و الذی نفسی بیده یا سلمان،و عندها یظهر الزنا و یتعاملون بالعیّنه و الرشی و یوضع الدین و ترفع الدنیا.قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول اللّه؟قال:إی و الذی نفسی بیده یا سلمان،و عندها یکثر الطلاق.فلا یقام للّه حد.و لن یضروا اللّه شیئا.قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول اللّه؟ قال:إی و الذی نفسی بیده یا سلمان،و عندها تظهر القینات (۱)و المعازف و یلیهم أشرار أمتی.قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول اللّه؟قال:إی و الذی نفسی بیده یا سلمان،و عندها تحج أغنیاء أمتی للنزهه،و تحج أوساطها للتجاره،و تحج فقراؤهم للریاء و السمعه،فعندها یکون أقواما یتعلمون القرآن لغیر اللّه،و یتخذونه مزامیر،و یکون أقواما یتفقهون لغیر اللّه،و تکثر أولاد الزنا،و یتغنون بالقرآن و یتهافقتون بالدنیا.قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول اللّه؟قال:إی و الذی نفسی بیده یا سلمان:ذاک إذا انتهکت المحارم و اکتسبت المآثم و تسلط الأشرار علی الأخیار و یفشو الکذب و تظهر اللجاجه و تغشو الفاقه و یتباهون فی اللباس،و یمطرون فی غیر أوان المطر و یستحسنون الکوبه (۲)و المعازف،و ینکرون الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر حتی یکون المؤمن فی ذلک الزمان أذل من الامه،و یظهر قراؤهم و عبادهم فیما بینهم التلاوم فأولئک یدعون فی ملکوت السماوات الارجاس الأنجاس.قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول اللّه؟قال:إی و الذی نفسی بیده یا سلمان،فعندها لا یحض الغنی علی الفقیر حتی أن السائل یسأل فیما بین الجمعتین لا یصیب أحدا یضع فی کفه شیئا.قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول

۱- ۱) القینات:المغنیات.

۲- ۲) الکوبه:کالشطرنج و الطبل الصغیر.

اللّه؟فقال:إی و الذی نفسی بیده یا سلمان،فعندها یتکلم الرویبضه،فقال سلمان:و ما الرویبضه یا رسول اللّه فداک أمی و أبی؟قال صلی اللّه علیه و آله:

یتکلم فی أمر العامه من لم یکن یتکلم،فلم یلبثوا إلاـ قلیلاـ حتی تخور الأرض خوره فلاـ یظن کل قوم إلاـ انها خارت فی ناحیتهم،فیمکثون ما شاء اللّه،ثم ینکتون فی مکثهم فتلقی لهم الأرض أفلاذ کبدها ذهبا و فضه-ثم أومأ بیده الی الأساطین- فقال:مثل هذا،فیومئذ لا ینفع ذهب و لا فضه،فهذا معنی قوله:

«فقد جاء أشراطها». (۱)

و لعل هذا النص و النصوص المشابهه تحثنا علی مقاومه الفساد و مناهضه الانحراف حتی لا تبغتنا الساعه بدمارها سواء کانت الساعه النهائیه للعالم(یوم القیامه).أم ساعه أمتنا أم ساعه الأفراد.

فَأَنّٰی لَهُمْ إِذٰا جٰاءَتْهُمْ ذِکْرٰاهُمْ هل ینتفع التلمیذ فی المدرسه حین یجیب علی الأسئله خارج قاعه الامتحانات؟ کلا..و هکذا لا تنفع التوبه بعد قیام الساعه،کما قال تعالی: «فَیَوْمَئِذٍ لاٰ یَنْفَعُ الَّذِینَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لاٰ هُمْ یُسْتَعْتَبُونَ ».

[۱۹]إذا کان الانتظار و التسویف،و تجاهل الحقائق و اتباع الهوی،و الانغلاق دون هدی اللّه،انها جمیعا ینهار بأهله فی نار جهنم! فکیف النجاه؟ العلم و التوحید و الاستغفار..رکیزه النجاه،لأن العلم بالتوحید یجعل العبد

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵-ص ۲۴.نقلاـ عن تفسیر القمی ج /۲ص ۳۰۳ و هی أصح.نقلها صاحب نور الثقلین بأغلاط کثیره،و صححت علی أساس المصدر الأساسی.

يتحسس بضآلته أمام جبار السموات و الأرض فيستغفر لذنبه،و لشفقته على أحبائه من المؤمنين يستغفر لهم أيضا.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ و ربنا يقول: «فَاعْلَمْ »لأن العقبه التى تعترض الإنسان أمام التوحيد هى الجهل،أو لم يقل عزّ و جلّ: «وَ حَمَلَهَا الْإِنْسٰانُ إِنَّهُ كٰانَ ظَلُوماً جَهُولاً » (۱)و لهذا كرر القرآن الحكيم كثيرا ذكر هذا العامل الذى يصرف الناس عن الايمان و الهدى.قال عزّ من قائل: «قٰالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » (۲)، «قُلْ أَ فَغَيْرَ اللّٰهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجٰاهِلُونَ » (۳)، «وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » (۴)«وَ لٰكِنِّى أَرٰاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ » (۵)، «وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجٰاهِلِينَ » (۶)، «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » (۷).

و كلما ازداد البشر علما ازداد تواضعا،لأنه يعرف حجمه بإزاء سائر ما يعلم من مخلوقات،بينما الجهل سبب التكبر،و لذلك يقول ربنا سبحانه و هو يعالج صفه التكبر فى النفس: «وَ لاٰ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبٰالَ طُولاً » (۸).

و كلما ازداد البشر علما ازداد خشوعا لربه أ ليست الكائنات مرآه أسماء اللّه،

۱- ۱) الأحزاب/۷۲

۲- ۲) الأعراف/۱۳۸

۳- ۳) الزمر/۶۴

۴- ۴) الانعام/۱۱۱

۵- ۵) الأحقاف/۲۳

۶- ۶) الأعراف/۱۹۹

۷- ۷) النمل/۵۵

۸- ۸) الإسراء/۳۷

و تجلیات خلقه و قدرته و حکمته؟ و هکذا تتصل کلمات هذه الآیه ببعضها،فالعلم یهدینا الی التوحید،و التوحید یهدینا الی الاستغفار،لأن الاستغفار هی حاله النفس عند معرفه الرب،و وعی قدرته و هیمنته و عظمته،إنّه الاحساس بالتقصیر فی مقام الألوهیه،إنه الاحساس بالذنب المقرون بالتطلع نحو الإصلاح،و أی سلم أفضل لبلوغ درجه القبول عند ربّ العزه من معراج التوبه،أم أی تحیه أکرم عند لقاء العبد بربه من التسلیم،و أی حاله تسلیم أفضل من الاستغفار.ثم إنّ الکبر هو الحجاب الأکبر الذی یمنع إشراقه نور الحق علی جنبات الفؤاد،و أی علاج أنجح من الاستغفار لاقتلاع جذوره.

لیس من الیسیر القضاء علی کبر النفس،لأن منشأ الکبر هو الجهل،و الجهل هو من ذات النفس،و مرتکز فی صمیم خلقته،و إنما بدوام الاستغفار من الذنب نستطیع القضاء علی الجهل و مظهره المتمثل فی الکبر.

و الذی یستغفر لذنبه یزداد تقوی و ورعا من العوده الیه،کما یزداد عزما لتنفیذ واجبات الدین و اجتناب محرماته.

و یتساءل البعض:کیف أمر الرسول صلّی اللّه علیه و آله بالاستغفار؟أو لیس هو المعصوم من کل ذنب؟بلی.و لکن:

أولا:لیکون قدوه لأمته فی الاستغفار.

ثانیا:لأن الحضور فی مقام الربّ یستدعی الاستغفار،لأنه المعراج الی المزید من الکمال،و لأنه بالتالی الحبل الممتد بین الربّ و العبد.و حتی لو کان الفرد غیر مذنب بالذنوب المعروفه،و لعل التعبیر بالذنب دون الذنوب یشیر الی إن المراد منه هو مجمل القصور و التقصیر الذی لا یخلو منه العبد.

ص:۲۴۷

ثالثا:إن القرآن نزل على لغه إياك أعنى و اسمعى يا جاره،فالرسول هو المخاطب و الأمه مقصوده بذلك.

و نتساءل-مره أخرى-عن معنى الاستغفار للمؤمنين و المؤمنات فى هذا السياق؟ و الجواب:

أولا:إنه فيما يتصل بالرسول يعنى الشفاعه،لأن حقيقه الشفاعه هى طلب المغفره من اللّه للمذنبين.

ثانيا:إن الاستغفار يعبر عن العلاقه الحميده مع سائر المؤمنين،فهى ليست عدائيه بدليل طلب الرحمه لهم،و ليست تابعيه بحيث يسترسل المؤمن مع إخوته باعتقاد انهم كلهم معصومون من الخطأ،لأنهم بالتالى بشر،و البشر يخطأ و يصيب، و إذا بالغ المؤمن فى حبه لإخوانه و إكرامه لهم الى درجه الاعتقاد بقداستهم،فانه سوف يعطل عقله فى تقييمهم و إصلاحهم.

بلى إن لهم ذنوبا و لكنها لا تدعونا الى قطيعتهم بل الى إصلاحهم و لو بالاستغفار.

وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْوٰاكُمْ إنه سبحانه يعلم حركات الإنسان و سكناته فى نهاره و ليله،كما يعلم تقلباته الروحيه من الكفر و النفاق و الكبر الى الإسلام و الايمان و التقوى..

فلا بد من الحذر الشديد لكى لا نفكر فى الخداع،فان الإنسان إذا لا يخدع إلا نفسه.

[سوره محمد (۴۷): الآیات ۲۰ الی ۳۱]

اشاره

وَ یَقُولُ اَلَّذِینَ آمَنُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَتْ سُورَهٌ فَإِذٰا أُنْزِلَتْ سُورَهٌ مُحْکَمَهٌ وَ ذُکِرَ فِیهَا اَلْقِتٰالُ رَأَیْتَ اَلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یَنْظُرُونَ إِلَیْکَ نَظَرَ اَلْمَغْشِیِّ عَلَیْهِ مِنَ اَلْمَوْتِ فَأَوْلیٰ لَهُمْ (۲۰) طٰاعَهٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذٰا عَزَمَ اَلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اَللّٰهَ لَکٰانَ خَیْراً لَهُمْ (۲۱) فَهَلْ عَسَیْتُمْ إِنْ تَوَلَّیْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِی اَلْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحٰامَکُمْ (۲۲) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ لَعَنَهُمُ اَللّٰهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمیٰ أَبْصٰارَهُمْ (۲۳) أَ فَلاٰ یَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْآنَ أَمْ عَلیٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا (۲۴) إِنَّ اَلَّذِینَ اِرْتَدُّوا عَلیٰ أَدْبٰارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَیَّنَ لَهُمُ اَلْهُدَی اَلشَّیْطٰانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلیٰ لَهُمْ (۲۵) ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لِلَّذِینَ کَرِهُوا مٰا نَزَّلَ اَللّٰهُ سَنُطِیعُکُمْ فِی بَعْضِ اَلْأَمْرِ وَ اَللّٰهُ یَعْلَمُ إِسْرٰارَهُمْ (۲۶) فَکَیْفَ إِذٰا تَوَفَّتْهُمُ اَلْمَلاٰئِکَهُ یَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ (۲۷) ذٰلِکَ بِأَنَّهُمُ اِتَّبَعُوا مٰا أَسْخَطَ اَللّٰهَ وَ کَرِهُوا رِضْوٰانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمٰالَهُمْ (۲۸) أَمْ حَسِبَ اَلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ یُخْرِجَ اَللّٰهُ أَضْغٰانَهُمْ (۲۹) وَ لَوْ نَشٰاءُ لَأَرَیْنٰاکَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِیمٰاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِی لَحْنِ اَلْقَوْلِ وَ اَللّٰهُ یَعْلَمُ أَعْمٰالَکُمْ (۳۰) وَ لَنَبْلُوَنَّکُمْ حَتّٰی نَعْلَمَ اَلْمُجٰاهِدِینَ مِنْکُمْ وَ اَلصّٰابِرِینَ وَ نَبْلُوَا أَخْبٰارَکُمْ (۳۱)

اللغه

(۲۰) فَأَوْلیٰ لَهُمْ :أی أنّ الموت أولی لهم من الحیاه و هذا دعاء علیهم بالهلاک.

(۲۵) سَوَّلَ لَهُمْ :سهّل لهم رکوب الآثام،من السول بمعنی الاسترخاء.

ص:۲۴۹

وَ أَمْلِى لَهُمْ :أى قرّر عليهم كالذى يملى على الآخر الشىء ليكتبه،فالشيطان أولا جعلهم رخوا ثم قرّر لهم أن يخرجوا عن الطاعه.

(٢٩) أَضْغانَهُمْ :أحقادهم.

(٣٠) بِسِيماهُمْ :سيما الإنسان ملامح وجهه.

لَحْنِ الْقَوْلِ :اللحن هو الإماله فإن المنافق يميل بكلامه حيث أنّ قلبه لا يرضى أن يتكلم حسب موازين الإيمان.

ص:٢٥٠

أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ

اشاره

أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفالُها

هدى من الآيات:

كيف يتميز المؤمنون عن المنافقين و من فى قلوبهم مرض؟و كيف يخرج اللّه أضغان القلوب؟و كيف يبلو المجاهدين و الصابرين؟ يضرب لنا القرآن الأمثال لنعرف هذه المقاييس الحق فى ذلك.

أولا:المؤمنون يتطلعون الى آيات الجهاد،و يستجيبون لها،أما الذين فى قلوبهم مرض فتراهم فى حاله المحتضر إذا سمعوا آيات القتال.

ثانيا:المؤمنون يطيعون اللّه و يقولون قولا معروفا و يصدقون اللّه فى المواقف الصعبه.بينما المنافقون يولون الأدبار و يفسدون فى الأرض و يقطعون أرحامهم تماما فى الجهه المعاكسه للمؤمنين.

ثالثا:يتدبر المؤمنون فى القرآن ليجدوا فيه شفاء دائهم،بينما على قلوب أولئک

أقفالها،و يرتدون على أدبارهم و الشيطان يقول لهم و يملى لهم،بينما القرآن يشفى قلوب هؤلاء و يهديهم.

رابعا:ترى المنافقين يبحثون عن أمثالهم و يتآمرون معهم لضرب القياده الرشيده.و اللّه لهم بالمرصاد حين يتوفاهم ملائكه العذاب يضربون وجوههم و أدبارهم،و يحبط اللّه أعمالهم لأنهم اتبعوا الشيطان،و رفضوا ولايه الرحمن.

و هكذا يخرج اللّه أضغان أولئك المنافقين(بآيات القتال)و يفضحهم،و كما يبلى حقيقه المجاهدين و الصابرين و يرفع مقامهم.

بينات من الآيات:

(٢٠)يستقبل المؤمنون الحقائق بأذن واعيه،و بصائر نافذه من دون حجاب، و بقلوب طاهره من الجهاله و العناد و التكبر،بلى.إن مثل حقائق الرساله و مثلهم كما الأرض الموات تستقبل زخات الغيث المباركه،فاذا نزلت عليهم سوره وعوها و استعدوا لتنفيذ أحكامها،و إذا لم تزل تراهم يتساءلون أ فلا حبينا بها،أ فلا قرّت أعيننا بالنظر الى آيات جديده؟! وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَتْ سُورَةٌ لما يغمر قلوبهم من اللهفه إليها،و لما تنطوى جوانحهم من العزم الشديد للعمل بكل ما فيها من أوامر.أما الذين فى قلوبهم مرض،فإنهم على العكس تماما،إذ يتخوّفون أن تنزل عليهم أوامر جديده،تأمرهم بالقتال مع العدو،لأنهم لا يملكون الاستعداد الكافى لتطبيق الأحكام.

فَإِذٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ لا يمكن الجدال لأنها واضحه لا تحتمل التأويل.

ص:٢٥٢

وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتٰالُ آنئذ تبلى حقائق الرجال.

رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ من نفاق،أو شك،أو جبن.

يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ و هكذا يمتاز المؤمنون عن هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض،لأن المؤمنين يثبتون فى مختلف الظروف،بينما هؤلاء فى حاله من الرعب تشبه حاله المحتضر الذى يشخص ببصره فزعا،و هو فاقد لقدره التركيز و ربما قال ربنا: «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »و لم يقل:(الذين نافقوا)لأن الخط المنحرف لا يقتصر على المنافقين،بل يضمّ الكثير ممّن يزعمون أنّهم مؤمنون و لكنّ وجود المرض فيهم يجرّهم الى خط النفاق، و يتوضح لنا من بعض الآيات ان الذين فى قلوبهم مرض هم طائفه أخرى غير المنافقين،يقول عزّ و جلّ: «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ».

يهدد القرآن هؤلاء،و يوعدهم العاقبه السوءى قائلا:

فَأَوْلىٰ لَهُمْ تستخدم هذه الكلمه فى اللعن،و اختلفوا فى معناها الدقيق،هل هو بمعنى:يليه مكروه،أو لهم الويل أو الموت أولى لهم،و يبدو ان هذه الكلمه تأتى بعد بيان سيئه من سيئاتهم فعلا أو قولا فيكون معناها إنهم يستحقون تلك السيئه و هم أحق بها، و أولى من غيرهم،و فى المقام يكون المعنى ان هذه العاقبه السيئه التى انتهوا إليها من

رفضهم لسوره القتال يستحقونها لما كان فی قلوبهم من مرض،ذلك لأن النفاق و الخوف الذی یحول الإنسان عن قتال الأعداء،جرم کبیر و ضلاله بعیده،لأنه یجر صاحبه الی الاستسلام للطاغوت و فقدان استقلاله أمام الغزاه،و التنازل عن قیمه و شخصیته خشیه بطش الجبارین.و کل من ارتد عن الدین أو اتبع الظالمین انساق الی مصیره الأسود بسبب تلك الأمراض الخطیره التی تمکنت من قلبه.

[۲۱]بینما لو أطاعوا أوامر الرساله،و استقبلوها برضی،و طهروا قلوبهم من الأمراض الفتاكه،و صدقوا فی الظروف الصعبه،لکانوا یعیشون العزّه و الکرامه و الاستقلال.

طاعَهٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللّهَ لَکانَ خَیْراً لَهُمْ عزم الأمر،یعنی بلغ الموقف حدا یستدعی الهزیمه و الاراده النافذه،و قال البعض معناه:جد القتال.

و نستوحی من هذه الآیه بصیرتین:- الأولی:إن قول المعروف عند صدور أوامر الرساله و برامجها بعد التسلیم و الطاعه مؤشر واضح علی تفاعل الإنسان مع الرساله،و صدق انتمائه لها،و خلوّ قلبه من حسکه النفاق و أی مرض آخر،کالجهل و الجبن و التکبر،لأن هذه الأمراض تجعل الإنسان یعیش حاله التقزز و الاشمئزاز و الضجر مما یظهر علی فلتات لسانه،فلا یقول قولا معروفا عند المواقف الصعبه.

و بالرغم من انّ المنافقین قد یعیشون هذه الحاله،و لکن الظرف قد یستدعی منهم أن یکتموها،بید انه عند ما یعزم الأمر لا یمکنهم کتمام واقعهم.

إن مرضی القلوب هم الذین یؤدون الطاعات و یعملون الصالحات علی کره،

ص:۲۵۴

فلذلک تراهم یرفقونها بالحدیث السلبی معها،و لذلک تراهم لا یقضون صلاتهم إلا و یتبعونها بالقول تضجّرا،کم هی ثقیله هذه الصلاه؟!و لا ینهون صوم یوم من أیام رمضان إلا و یقولون کم هو مرهق هذا الصیام؟!و لا یزکون و یخمسون إلا و یضجون:لقد أفقرنا هـذا الدین..فی حین کان علیهم أن یتحسّـسوا هذه النعم الجسام،و یحمدوا اللّه عزّ و جلّ علی أن وفقهم لها،و لکنه الجهل و التکبر و النفاق و حب الدنیا کل أولئک لا یدع الإنسان یعرف قیمه الرساله،و نفعها العمیم للإنسان.

الثانیه:نستشف من هـذه المقطوعه الرائعه:« طٰاعَهٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ »ان علینا أن ننفذ الأوامر الرسالیه و نسعی جاهـدین من أجل تحقیقها دون نقاش أو تبریر أو جدال أو معارضه،لأنها صادره من اللّه تبارک و تعالی.و الواجب علینا أن نروض أنفسنا لتستجیب و نتفاعل مع الأحکام الالهیه.و لکن کیف؟ من شاء أن یکون صادقا فی المواقف الصعبه،مستعدا لتحمل المسؤولیات الجسام،فعلیه أن یتدرّج فی تربیه نفسه شیئا فشیئا،فأولا یعوّدها علی تأدیه الأعمال الصغیره بصدق و جدّیّه،ثمّ الأکبر منها فالأکبر،حتی یرتقی الی مستوی عال فیؤدی الأعمال الکبیره بکل صدق و رضی.

[۲۲]إنهم یهربون من القتال،و إنما فرض اللّه القتال من أجل إصلاح الأرض،و تکریس قیم المحبه،فمن یتولّ عنه فسوف یقاتل،و لکن فی صفوف المنافقین و من أجل نشر الفساد فی الأرض و قطع الأرحام(و مخالفه قیم الخیر و الفضیله).أو لیست الحیاه صراعا،و لا مفر منه،و من لم یقدم علی اختیار جبهه الخیر انساق الی جبهه الشر،و لا مسافه بین الحق و الباطل،فمن لم ینفعه الحق أضره الباطل.

ص:۲۵۵

أولئك الذين يزعمون ان القتال شر مستطير،و انهم دعاه السلام،تراهم وقود معارك الباطل ضد الحق.ألم تقرأ فى التاريخ:كيف ان أهل الكوفه رفضوا القتال مع الامام الحسين عليه السلام ضد الأمويين باسم الخروج من الفتنه،ثم استخدمهم يزيد فى قتال السبط الشهيد كرها.

إن لحكم القرآن ثمنا من لم يدفعه راضيا ابتلى بحكم الطاغوت و دفع أضعاف ذلك الثمن مكرها.

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحٰامَكُمْ كلمه عسى تدل على التوقع..فهذه هى العاقبه المتوقعه لمن يتولى عن الحق! و لان الحديث فى هذه السوره عن الحكم الالهى و الولايه الشرعيه و تحمل مسئولياتها فى طليعتها الدفاع عن الدين،فان معنى التولى هنا الانسحاب من ساحه المواجه و ترك القياده الرشيده وحدها فى الميدان،و لذلك فسر البعض هذه الكلمه، بأنه بمعنى الولايه أى إذا أصبحتم حكاما،و أوله البعض فى بنى أميه استنادا الى ما

رواه عبد اللّه بن مغفل قال سمعت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم يقول: فهل عسيتم إن توليتهم أن تفسدوا فى الأرض..ثم قال:هم هذا الحى من قريش أخذ اللّه عليهم إن ولوا الناس ألا يفسدوا فى الأرض و لا يقطعوا أرحامهم. (۱)

و الفساد فى الأرض،هو النتيجه الطبيعيه للنظام الذى لا يستلهم من الدين أحكامه..فيفسد الإقتصاد و الاجتماع كما يفسد الأخلاق و الآداب و من أبرز مظاهر إفساده تفريق الكلمه،و اشاعه الفساد فى الخلق،الذى يؤدى الى تفكك الأسره و قطع الأرحام.و يبدو ان قطع الرحم هو آخر عروه ينقض من عرى

ص:۲۵۶

۱- ۱) تفسير القرطبى/ج(۱۶)-ص(۲۴۵).

المجتمع،لأن الفساد إذا بلغ الأسره فقد أتى على آخر قلعه من قلاع الاستقلال عند البشر.

[۲۳]و إذا بلغ الإنسان هذا الدرک فقد کل فرصه له للهدایه، لأن اللّه یلعنه و یسد علیه أبواب الهدی.

أُولٰئِکَ الَّذِینَ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ و طردهم من رحاب رحمته.

فَأَصَمَّهُمْ فلم ینتفعوا بتجارب غیرهم.

وَ أَعْمیٰ أَبْصٰارَهُمْ فلم یعودوا ینتفعون حتی بتجاربهم،و هکذا یستمرون فی الهبوط حتی الدرک الأسفل.و هذه عاقبه الدول و التجمعات التی لم تقم علی أساس الوحی.و هکذا نعرف ان بدایه السقوط الکبیر قد یکون زللا بسیطا یستهین به صاحبه،کما قد تکون بدایه رحله الموت میکروبا یستخف به المریض..و استخفاف الإنسان بالدفاع،و بخله بنفسه و ماله عن الإنفاق فی سبیل اللّه،هو بدایه رحله السقوط الکبیر..و هو بدوره ناشئ من الأمراض القلبیه التی لا بد من المبادره بعلاجها.

[۲۴]و السؤال العریض کیف إذا نعالج أمراض القلب الکبر،المرض المستفحل الذی جعل إبلیس یرفض السجود لادم،و جعل أبناء آدم یرفضون التسلیم للقیاده الشرعیه عبر التاریخ؟ الحسد ذلک الذی أوقد نار الحرب بین هابیل و قابیل،و لا یزال یجعلنا فی صراع

دائم.

الجبن الذی هدم حضارات عظیمه لم یدافع أهلها عنها أمام الغزاه البرابره.

و غیرها من أمراض القلب؟ و یجیب القرآن..بالتدبر فی القرآن.

أَ فَلاٰ یَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْآنَ و التدبر أن نسیر بأفكارنا الی عاقبه الأمور أو دبرها.و حین نتدبر فی القرآن فاننا نتفكر فی تطبیقات الآیات الكریمه،و تجسدها فی الواقع العملی،و حسب التعبیر القرآنی فی تأویلها.

الذین یتدبرون فی القرآن یطبقون آیات القرآن علی واقعهم،فاذا قرءوا فیها آیه تذكرهم بسنن الأولین،بقوم عاد و ثمود.یتساءلوا ماذا لو فعلوا مثل فعلتهم.أ فلا یكون جزاؤهم الدمار أیضا؟و إذا سمعوا موعظه زجروا أنفسهم بها أو سمعوا مرضا قالوا لعله موجود فینا دعنا نفتش فی أوضاعنا عن آثاره،فان وجدناه سارعنا لمحاربته و هكذا..

و لأن مثل القرآن مثل الشمس فان یطبق كل یوم علی أهل ذلك الیوم،فلا بد أن نفتش فی الواقع الخارجی،و فی أنفسنا عمن یجری فیهم القرآن بأعینهم و صفاتهم.فمن هم المنافقون الیوم و من هم المؤمنون؟و من هو الطاغوت الذی أمرنا لنكفر به؟و من هو الامام الذی تجب طاعته؟و من هی الدول التی تنتظر عاقبه قوم عاد؟و ما هی الحضارات التی تمثل حضاره ذی القرنین أو داود و سلیمان؟ و هكذا..و حینما تعصف بالأمه الفتن حتی تدع الحلیم حیرانا،هنالك لا بد من التدبر فی القرآن لمعرفه السبیل الی الخروج منها.هكذا

أمرنا الرسول الأكرم

ص:۲۵۸

صلّى اللّه عليه و آله حين قال:«فاذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن» (۱) و

قال الامام أمير المؤمنين عليه السّلام: «عليكم بكتاب اللّه فانه الحبل المتين،و النور المبين،و الشفاء النافع،و الريّ الناقع،و العصمه للمتمسک،و النجاه للمتعلق». (۲)

و المتدبر فی القرآن يطبق آياته على نفسه،و يتساءل عن آيه عائبه فيها ليصلحها،أو عارفه ناقصه عنده ليكملها،أو طريقه رشد فيتبعها،أو منهج ضلال فيتركه.

قال الامام أمير المؤمنين عليه السّلام و هو يصف المؤمنين:

«أما الليل فصافون أقدامهم،تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا،يخوفون به أنفسهم،و يستثيرون به دواء دائهم.فاذا مروا بآيه فيها تشويق،ركنوا إليها طمعا،و تطلعت نفوسهم إليها شوقا،و ظنوا أنها نصب أعينهم.و إذا مروا بآيه فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم،و ظنوا أن زفير جهنم و شهيقها فی أصول آذانهم». (۳)

و بكلمه:إن ما أفهمه من التدبر هو البحث عن تطبيقات الآيات سواء على أنفسهم أو على الخليقه..و لكن للتدبر أيضا شرطه المتمثل فی الانفتاح على القرآن بعيدا عن حجب القلب و أقفاله،عن تلک الأحكام المسبقه،و القوالب الفكريه الجاهزه،و التأويلات القائمه على أساس الهوى و الشهوات.

أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا

۱- ۱) بحار الأنوار/ج(۹۲)-ص(۱۷).

۲- ۲) المصدر/ص(۲۳).

۳- ۳) نهج البلاغه/الخطبه رقم(۱۹۳).

قـالوا:القفـل من القفيل الـذى هو ما يبس من الشـجر،فكان القلب يعشو فلا يسـتقبل نور القرآن و يكون كالشـجره اليابسه التى لا تسـتفيد من المـاء و الأشـعه.و قـال البعض:إنه من القفول بمعنى الرجوع،فكان القلب المنصوب عليه القفل لا ينفـذ فيه الهوى،بل يرجع عنه كما يرجع من واجه بابا مقفلا..و يبـدو إن أقفال القلب هى الأهواء المطاعه،و الرذائل الراسـخه فيها،و ما يسـبب قسوتها أو الختم عليها.و من أراد فهم القرآن زكى نفسه،و طهرها من الشـكوك و الريب و حب الشـهوات و من الكبر و الحقد و الحسد و الجبن و ما أشبه،فآنئذ ينساب نور الهدى فيه بلا حجب و لا موانع.

جاء فى الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السّـلام: إن لك قلبا و مسامع و إن اللّه إذا أراد أن يهدى عبدا فتح مسامع قلبه،و إذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه،فلا يصلح أبدا و هو قول اللّه عزّ و جلّ «أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ». (۱)

[۲۵]و لأن هذه الفئه تركت أمراضها القلبيه تتراكم،فقضت على بقايا نور الايمان فى أنفسهم،كانت عاقبه أمرهم الرده عن القياده الشرعيه،و بالتالى عن الدين.

و كثير أولئك الذين ارتدوا عن الدين بسبب بعض هذه الأمراض،و نحن نشـير الى بعضهم لنعتبر بهم.فأولهم قابيل الذى طوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصـبح من الخاسرين،و كان مرضه الحسد إذ تقبل قربان أخيه و لم يتقبل منه،و كذلك كان مرض عابد بنى إسـرائيل المعروف ب(بلعم بـاعورا)الـذى بلغ درجه عـاليه من الأيمان و التقوى حتى اسـتحق أن يعطى الاسم الأعظم،و كان يدعو به فيستجيب اللّه له،و لكنه حين اختار اللّه موسى عليه السّلام مال الى فرعون و ارتضى لنفسه أن

ص:۲۶۰

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۵)-ص(۴۱).

یکون بمشابه الکلب،کما قال تعالی: «وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ الَّذِی آتَیْنٰاهُ آیٰاتِنٰا فَانْسَلَخَ مِنْهٰا فَأَتْبَعَهُ الشَّیْطٰانُ فَکٰانَ مِنَ الْغٰاوِینَ* وَ لَوْ شِئْنٰا لَرَفَعْنٰاهُ بِهٰا وَ لٰکِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَی الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوٰاهُ فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ الْکَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَیْهِ یَلْهَثْ أَوْ تَتْرُکْهُ یَلْهَثْ ». (۱)

أما الزبیر بن العوام الذی کان له تاریخ نضالی حافل،و ملاحم بطولیه رائعه، و لقد کان یکشف الکرب بسیفه عن وجه رسول اللّه صلی الله علیه و آله ،إنه الآخر انحرف،إذ أسرته الدنیا بمناصبها الحقیره و زینتها الفانیه..فدفعه حب الرئاسه الی محاربه إمام عصره أمیر المؤمنین علی علیه السّلام.

إِنَّ الَّذِینَ ارْتَدُّوا عَلیٰ أَدْبٰارِهِمْ و تراجعوا عن العهود و المواثیق التی الزموا أنفسهم بها تجاه الرسول ألاّ یخونوه، و ألاّ یخذلوه عند لقاء العدو.

مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَیَّنَ لَهُمُ الْهُدَی و علموا أن الرسول علی حق،و لکنهم جبنوا عن مواجهه الأعداء،و بحثوا عن السلطه و الثروه.

اَلشَّیْطٰانُ سَوَّلَ لَهُمْ رغبهم فی ذلک عند ما زین لهم الدنیا و غرهم بما فیها من فتنه ظاهره،و کلمه سوّل من السؤل أی الحاجه،و کأن الشیطان جعلهم حریصین علی هذه الحاجه، و أثار فیهم الرغبه فیها.

وَ أَمْلیٰ لَهُمْ

ص:۲۶۱

۱- ۱) الأعراف/(۱۷۵-۱۷۶).

قالوا:الکلمه من الأمل بمعنی منّاهم بطول الأمل،فأنساهم الحساب.

[۲۶]لقد رغبوا فی البقاء لینعموا بالرئاسه،کما إنهم انضموا الی رکب الرساله من أجلها.لقد کانت حساباتهم تدعوهم الی مواکبه هذا التیار الاجتماعی الصاعد لیرثوا مغانمه،فما دام الخیره یتنافسون علی نیل الشهاده فسوف یصفو لهم الجو، و تتاح لهم الفرصه للسیطره علی الناس،و حکمهم باسم الرساله..لذلک ما کانوا ینفکون عن المؤامره ضد السلطه الشرعیه،و قد بلغ بهم الأمر الی التخابر مع الأعداء (الیهود و المشرکین)لجلب تأییدهم!!و أعطوهم وعدا بطاعتهم فی بعض القضایا التی تهمهم.

ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لِلَّذِینَ کَرِهُوا مٰا نَزَّلَ اللّٰهُ سَنُطِیعُکُمْ فِی بَعْضِ الْأَمْرِ و لعل الآیه تشیر الی مؤامره کان بعض المرتدین یحیکونها فی عهد الرسول صلّی اللّه علیه و آله لینفذوها من بعده.و الفئه الکارهه کانت القوه العربیه المعارضه للإسلام و هی قوه بنی أمیه التی عارضت الرسول منذ البدایه و حتی استسلامها فی فتح مکه،حیث غیرت استراتیجیتها فقط فعملت سرا بعد ما کانت تعمل جهرا.

و یشیر الی ذلک

حدیث مأثور عن الامام الصادق علیه السلام قال: «دعوا بنی أمیه الی میثاقهم ألا یصیروا الأمر فینا(أهل بیت الرساله)بعد النبی و لا یعطونا من الخمس شیئا». (۱)

وَ اللّٰهُ یَعْلَمُ إِسْرٰارَهُمْ و یمکر بهم و هو خیر الماکرین،و هکذا ذهبت جهود بنی أمیه هباء،و بقی الدین خالصا للّه عبر القرون بالرغم من ان هدف بنی أمیه و حلفاءهم کان طمس

ص:۲۶۲

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۵)-ص(۴۲).

معالمه.

[٢٧]إن نجحت مؤامرتهم ضـد الولاـيه الاـلهيه،و أفلتوا من عقـاب الـدنيا،فهل يهربون من عـذاب اللّه الـذى يفاجئهم منـذ خروج أرواحهم من الـدنيا؟ فَكَيْفَ إِذٰا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاٰـئِكَهُ يَضْـرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ تلك الوجوه التى كلحت فى وجه الحق،و تلك الأدبـار التى تولت عنه،و لكن أين أعمـالهم الصالحه؟أين صـلاتهم و زكاتهم و حسـناتهم التى اقترفوها؟إنها تحبط لأنهم خالفوا اللّه فى أعظم أوامره و اتبعوا أهواءهم.

[٢٨] ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مٰا أَسْخَطَ اللّٰهَ من أهواء.و إذا صلى العبد و صام و قام،و لكنه اتبع هواه فما ذا ينفعه عمله؟أو ليست حكمه هـذه الفرائض ترويض النفس حتى لاـ تتبع هواهـا و تزكيتهـا من كبرهـا و حسـدها و غلهـا الـدفين فيها،بينما مثل هؤلاء يكرسون بصلاتهم و أعمالهم كبرهم و عنادهم بل يجعلون صلاتهم وسيله لنيل شهواتهم من الرئاسه فى الدنيا.

وَ كَرِهُوا رِضْوٰانَهُ المتمثل فى ولايته التى أمر بها،فلم يطيعوا قيادتهم الشرعيه.

فَأَحْبَطَ أَعْمٰالَهُمْ [٢٩]هكذا ابتلى اللّه عباده حتى ظهروا على حقيقتهم و أخرج اللّه ما ستروه من أمراض.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللّٰهُ أَضْغٰانَهُمْ

إن هـذا الظن هـو الـذى غرّهم بربهم و جعلهم يزعمـون قـدرتهم على الاختبـاء وراء مظهر النفـاق الى الأبـد،و لكن اللّه أخرج ما ستروه من أحقاد و حسد و بغضاء.قالوا الاضغان:ما يضمر من المكروه.

[۳۰]و كمـا اللّه قادر على أن يظهر حقيقتهم بامتحانهم فى القتال،فهو قادر على أن يعرف رسوله واقعهم بطريق أخرى كأن يجعل على سيماهم و ملامحهم علامات النفاق.

وَ لَوْ نَشٰاءُ لَأَرَيْنٰاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمٰاهُمْ و فعلا هناك على مظهر كل واحد منهم علامات النفاق،و لكن لا تظهر إلا لأهل الخبره و المؤمنين المتوسـمين الذين ينظرون بنور اللّه.فمثلا:باسـتطاعتك أن تعرف المنافق بالنظر الى قسـمات وجهه،حينما ينادى المنادى بالصـلاه أو بالزكـاه أو بالجهـاد أو بطـاعه ولى الأـمر،فان قسـماته تنكمش كالشن البالى،بينما تنبسط قسـمات وجه المؤمنين كما البدر.

وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ بلى.فى تضـاعيف الكلاـم تظهر حقيقه المتحـدثين،أو ليس المرء مخبوء تحت لسـانه حـتى أن التحليل الحديث لعلم النفس يستفيد من أغلاط المتحدث لمعرفه خلفياته النفسـيه،و حتى أعظم رجال السـياسه و أشدهم مكرا لا يمكنه أن يخفى مواقفه الحقيقيه عند الحديث عن شىء،لأن الكلمه التى يتلفظ بها إذا كانت صادقه تخرج بعفويه و يسر،بينما إذا كانت كاذبه لا تخرج إلا بصعوبه و بتكلف.

و من هنا

يقول الامام أمير المؤمنين عليه السّلام: «ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر فى فلتات لسانه و صفحات وجهه». (۱)

۱- ۱) نهج البلاغه/الحكمه رقم(۲۶).

وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ كما يعلم أقوالكم،يعلمها بنياتها و خلفياتها.

[۳۱]و هذه سنه اللّه فى خلقه أن يختبرهم اختبارا لا لكى يفضح المنافقين فقط، بل و أيضا لتتجلى حقيقه المجاهدين و الصابرين لأنفسهم و للناس فيتخذوا قدوه و نبراسا.

وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بأنواع البلاء و منها القتال.

حَتّٰى نَعْلَمَ الْمُجٰاهِدِينَ مِنْكُمْ الذين لا يدعون جهدا لديهم إلا بذلوه فى سبيل اللّه.

وَ الصّٰابِرِينَ و لعلهم أعظم درجه من المجاهدين و أشد تعرضا للبلاء.

وَ نَبْلُوَا أَخْبٰارَكُمْ تلك التى يحاول البشر أن يسترها بأى داع من الدواعى فمن الناس من يخشى أن يظهر خبره خشيه الفضيحه،و منهم من يخشى ذلك خوف الرياء و السمعه، و لكن اللّه يبلوها بحكمته عبر أنواع البلاء،و من أبرزها القتال.

ص:۲۶۵

[سوره محمد (۴۷): الآيات ۳۲ الى ۳۸]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ شَاقُّوا اَلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ اَلْهُدىٰ لَنْ يَضُرُّوا اَللّٰهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمٰالَهُمْ (۳۲) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُوا اَلرَّسُولَ وَ لاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَكُمْ (۳۳) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ ثُمَّ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اَللّٰهُ لَهُمْ (۳۴) فَلاٰ تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى اَلسَّلْمِ وَ أَنْتُمُ اَلْأَعْلَوْنَ وَ اَللّٰهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمٰالَكُمْ (۳۵) إِنَّمَا اَلْحَيٰاةُ اَلدُّنْيٰا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لاٰ يَسْئَلْكُمْ أَمْوٰالَكُمْ (۳۶) إِنْ يَسْئَلْكُمُوهٰا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغٰانَكُمْ (۳۷) هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمٰا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اَللّٰهُ اَلْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ اَلْفُقَرٰاءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاٰ يَكُونُوا أَمْثٰالَكُمْ (۳۸)

اللغه

(۳۲) وَ شَاقُّوا اَلرَّسُولَ :هم فى شق أى طرف و الرسول فى شق.

(۳۷) فَيُحْفِكُمْ :فيبالغ فى الطلب،فإنّ الإحفاء بمعنى المبالغه.

ص:۲۶۶

فَلاٰ تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ

اشاره

وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ

هدى من الآيات:

إن التسليم للرسول(و الولىّ المنصوب من عند اللّه)شاهد على صدق التسليم للّه،بينما الشقاق عنه كفر و صدّ عن سبيل اللّه،و يسبب حبط العمل و إبطاله.

فلا بد إذا من الطاعه للرسول التى هى امتداد لطاعه اللّه،لكى لا تبطل أعمالنا.

و إذا مات العبد كافرا فلن يغفر اللّه له.

هكذا أرسى القرآن قواعد الانضباط(التى نحتاجها فى السلم و بصوره أكبر فى الحرب)و اتباع القياده الشرعيه،ثم أمر المسلمين بالاستقامه و عدم الوهن بطلب السلام الذليل ما دمنا الأعلى و الأقوى و إن اللّه مع المؤمنين و لا يضيع أجر العالمين.

و فى الختام رغب السياق المؤمنين عن الدنيا التى هى عبث و لهو(إلا إذا طلب الإنسان بها الآخره فصارت ذات هدف سام)و وعد المؤمنين المتقين بأنه يؤتيهم أجرهم و لا يسألهم أموالهم.فلو سألها كلها بإصرار أخرج ما يخفوه من البخل ألا ترى

كيف ان البعض يبخل عن الإنفاق(ببعض أمواله)فى سبيل اللّه،بينما الإنفاق هو ذخيره لنفسه.فاذا بخل فانما يبخل عن نفسه،لأن اللّه هو الغنى و هم الفقراء.

و أنذر ربنا المسلمين بأن توليهم عن واجبات الرساله(و فى طليعتها القتال و الإنفاق)يفقدهم صلاحيه حمل الرساله،فيستبدل اللّه غيرهم فلا يكونوا أمثالهم.

بينات من الآيات:

[۳۲]ليس من السهل التسليم لقياده الحق للأسباب التاليه:

أولا:لأن القائد بشر كسائر الناس يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق و لا ينى الشيطان يوسوس للإنسان،كيف تطيع بشرا مثلك؟و من الذى فضله عليك؟ و كانت هذه أخطر العقبات التى منعت الناس من اتباع الرسل بادئ ذى بدء.

و ثانيا:لأن كثيرا من قرارات القياده تمس الحياه اليوميه،و قد لا تكون مفهومه عند الفرد كما قد تخالف مصالحه العاجله أو آراءه أو أهواءه..مما يستدعى المزيد من العزم حتى يتغلب الفرد على الحاله النفسيه التى تمنعه من تنفيذ القرار.

و ثالثا:لأن صاحب الولايه الالهيه يسوق الناس نحو الكمال أبدا،مما يجعل قراره صعبا مستصعبا..لا يحتمله إلا كل مؤمن امتحن اللّه قلبه للايمان..لأن قراره نابع من الوحى و القيم الحق التى أنزل بها،و منها التطلع نحو الكمال.

من هنا فان طاعه الرسول تأتى فى مقدمه فرائض الرساله،كما ان مخالفته تعتبر ارتدادا عن الدين و كفرا و سببا لابطال الأعمال.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللّٰهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمٰالَهُمْ

و يبدو من قوله سبحانه «وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ »و قوله سبحانه «مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدىٰ »ان هذا الفريق هم من المنافقين الذين فضحتهم الأوامر بالقتال،و زعموا أن شقهم عصى الطاعه يفت فى عضد الرسول بينما الواقع هو انهم هم الذين خسروا أعمالهم الصالحه التى قاموا بها،فاحبطها اللّه حيث لم يستقيموا على الصراط،و لا يجوز أن يمنوا بها على الرسول،لأنهم أبطلوها بخيانتهم للقياده فى الوقت الحرج.

و قال أكثر المفسرين إن المعنى بهذه الآيه هم كفار مكه أو يهود المدينه،لأنهم صدّوا عن سبيل اللّه بمحاربه الإسلام.و فسروا قوله تعالى «مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدىٰ »بوضوح الحجج الالهيه عموما للناس الشاهده على صدق الرسول.و لكننى أرجح التفسير الأول لموافقته للظاهر من الآيه حيث يظهر من هذه الكلمه انه قد تبين لهم الهدى فاهتدوا بالرساله ردحا من الزمان،كما إن هذا التفسير متوافق مع السياق القرآنى الذى يحدثنا عن الموقف من القياده الشرعيه.

[۳۳]و يعود القرآن يؤكد ضروره الطاعه للرسول و ينذر المؤمنين بأن شقاقهم عنه يبطل أعمالهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَكُمْ فالآيه هذه هى العبره الواعظه التى لا بد أن يعيها المؤمنون من عاقبه من سقط فى الامتحان فارتد عن دينه و شاق الرسول.و هذا الأمر ينسحب على كل ولايه الهيه فى كل عصر.

فقد جاء فى الحديث عن الامام جعفر بن محمد الصادق،عن أبيه،عن آبائه عليهم السلام قال:قال رسول اللّه(صلّى اللّه عليه و آله): «حدثنى جبرئيل عن ربّ العزّه جلّ جلاله انه قال:من علم انه لا إله إلا أنا وحدى،و أن محمّدا عبدى و رسولى،و أن على بن أبى طالب خليفتى،و أن الأئمه من ولده حججى أدخلته الجنه برحمتى،و نجيته من النار بعفوى،و أبحت له جوارى،و أوجبت له

کرامتی،و أتممت علیه نعمتی،و جعلته من خاصتّی و خالصتی،إن نادانی لبیته، و إن دعانی أجبته،و إن سألنی أعطیته،و إن سکت ابتدأته،و إن أساء رحمته،و إن فرّ منی دعوته،و إن رجع الی قبلته،و إن قرع بابی فتحته.

و من لم یشهد أن لا إله إلا أنا وحدی أو شهد و لم یشهد أن محمدا عبدی و رسولی أو شهد بذلک و لم یشهد أن علی بن أبی طالب خلیفتی أو شهد بذلک و لم یشهد أن الأئمه من ولده حججی فقد جحد نعمتی،و صغر عظمتی،و کفر بآیاتی و کتبی.إن قصدنی حجبته،و إن سألنی حرمته،و إن نادانی لم أسمع نداءه، و إن دعانی لم أسمع دعاءه،و إن رجانی خیبته،و ذلک جزاؤه منی، و ما أنا بظلام للعبید». (۱)

و

عن مهزم الأسدی قال:سمعت أبا عبد اللّه علیه السّلام یقول: قال اللّه تبارک و تعالی:«لأعذبن کل رعیه دانت بإمام لیس من اللّه،و إن کانت الرعیه فی أعمالها بره تقیه،و لأعفون عن کل رعیه دانت بکل إمام من اللّه و إن کان الرعیه فی أعمالها مسیئه». (۲)

و

عن عبداللّه بن سنان عن الامام أبی عبد اللّه(علیه السّلام)انه قال: «إن اللّه لا یستحی أن یعذب أمه دانت بإمام لیس من اللّه،و إن کانت فی أعمالها بره تقیه،و إن اللّه یستحی أن یعذب أمه دانت بإمام من اللّه،و إن کانت فی أعمالها ظالمه مسیئه». (۳)

و

عن ابن أبی یعفور قال الامام الصادق(علیه السّلام): لا دین لمن

۱- ۱) المصدر/ص(۱۱۸).

۲- ۲) المصدر/ص(۱۰۵).

۳- ۳) المصدر/ص(۱۱۳).

دان بولايه إمام جائر ليس من اللّه،و لا عتب على من دان بولايه إمام عدل من اللّه،قال:قلت:لا دين لأولئك و لا عتب على هؤلاء؟فقال:نعم،لا دين لأولئك و لا عتب على هؤلاء،ثم قال:أما تسمع لقول اللّه: «اللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ »يخرجهم من ظلمات الذنوب الى نور التوبه و المغفره لولايتهم كل إمام عادل من اللّه و قال: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيٰاؤُهُمُ الطّٰاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمٰاتِ »قال:قلت:أ ليس اللّه عنى بها الكفار حين قال: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا »؟قال:فقال:و أى نور للكافر و هو كافر فأخرج منه الى الظلمات؟انما عنى اللّه بهذا انهم كانوا على نور الإسلام فلما أن تولوا كل امام جائر ليس من اللّه،خرجوا بولايتهم إياهم من نور الإسلام الى ظلمات الكفر فأوجب لهم النار مع الكفار، فقال: «أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ ». (۱)

[۳۴]هل لهؤلاء الذين كفروا بالرساله و مضوا على كفرهم من توبه؟كلا..

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ و يبدو ان أعظم الصدّ هو منع الناس عن الجهاد،و لو بإصدار الفتاوى السلطانيه التى تزور الحقائق،و تحرف الآيات و تبرر الواقع الفاسد.

ثُمَّ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ بلى.إن هؤلاء الذين يصدّون عن سبيل اللّه يزعمون انهم سوف يتوبون الى اللّه،كما انهم يستخفون بذنوبهم،أو انهم يحسبون أنهم مهتدون.

ص:۲۷۲

۱- ۱) المصدر/ص(۱۰۴).

[۳۵]إن صلابه الجبهه الداخليه شرط أساسى للانتصار،و ينعطف السياق نحو المؤمنين فيأمرهم-بعد الطاعه-بمقاومه إغراءات السلام،بعد تراكم الصعوبات،ذلك السلام الذى يعنى الاستسلام و الصغار.

فَلاٰ تَهِنُوا لا تخشو الهزيمه،و لا تهابوا العدو و إن كان أكثر منكم عده و عددا.

وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ فلا تكونوا أول من يدعوا الى الصلح من الفريقين المتحاربين،خشيه الموت و الهزيمه.

وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ فما دمتم مؤمنين،فأنتم الأعلون بقيامكم و قدراتكم،لأن الايمان بصيره و قوه، بصيره لما يوفره فينا من منهجيه عقليه،و رؤيه حياتيه،و قوه بما يلهمه من عزم فى الاراده،و تلاحم فى الصفوف،و وله فى الشهاده،و استقامه و صبر فى المكاره.

و السؤال:أى صلح هذا الذى نهى عنه القرآن،بينما يقول ربنا سبحانه:

«وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ »؟فهل هذه ناسخه أم تلك؟ يبدو ان هذه الآيه نهت عن الدعوه الى الصلح القائم على أساس الوهن،لأنها تستتبع الذل و الهزيمه،و هى بالتالى استسلام للعدو..بينما أمرت الآيه الأخرى بقبول الصلح الذى يدعو اليه العدو لوهن أصابه و ضعف،و كلا الأمرين يخدمان بالتالى القيم الرساليه..ففى الوقت الذى يكون الصلح لمصلحه الإسلام و قوته و غلبته و تأتى الدعوه اليه من العدو لا بد من قبوله،بينما لا ينبغى المبادره من قبل

المسلمين الى الدعوه اليه انطلاقا من الاحساس بالوهن و الضعف.و لذلك

جاء فی الحديث المأثور عن الامام أمير المؤمنين(عليه السلام) فی عهده لمالك الأشتر انه قال:

«و لا تدفعن صلحا دعاك اليه عدوك و للّه فيه رضا». (۱)

وَ اللّٰهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمٰالَكُمْ قالوا:معناه لن يؤدكم من دون أعمالكم،لأن الوتر بمعنی الإفراد،و إنما سمی الذی قتل منه أحد موتور،لأنه بقی مفردا من دونه.و هكذا ضمن اللّه حفظ أعمال المؤمنين،كما أوعد الكفار بحبط أعمالهم،فكلّما بذله المسلمون فی طريق تقدم الرساله يحفظه اللّه و يجعله مفيدا.

ينبغی إذا ألّا نستعجل النتائج،و أن نصبر فی المواجهه،حتی يأتی النصر.

و لنعلم ان النصر آت،و كل آت قريب،و قد لا نراه نحن و إنما يقطف ثماره أبناؤنا.

و زينب بنت علی(عليهما السلام)ضربت أروع الأمثله فی التحلی بهذه البصيره، فلقد كانت تتذكر حين شده البلاء،و تراكم المصائب و الآلام،هذه الحقيقه إن اللّه لا يضيع جهود المجاهدين.فلقد ألقت نظره علی مصارع إخوتها و أبنائها و أصحاب الرساله،و

قالت مخاطبه الامام علی بن الحسين(عليهما السلام)ابن أخيها: «مالی أراك تجود بنفسك يا بقيه جدی و إخوتی،فو اللّه إن هذا لعهد من اللّه الی جدك و أبيك،و لقد أخذ اللّه ميثاق أناس لا تعرفهم فراعنه هذه الأرض،و هم معروفون فی أهل السموات،انهم يجمعون هذه الأعضاء المقطعه،و الجسوم المضرجه، فيوارونها،و ينصبون بهذا الطف علما لقبر أبيك سيد الشهداء،لا يدرس أثره، و لا يمحی رسمه علی كرور الليالی و الأيام،و ليجتهدن أئمه الكفر و أشياع الضلال فی محوه و طمسه،فلا يزداد أثره الا علوا» (۲)و كذلك

حين خاطبت يزيد الحاكم

۱- ۱) تفسير نمونه نقلا عن نهج البلاغه الرساله رقم(۵۳).

۲- ۲) كامل الزيارات:ص(۲۶۱).

الأموی الـذی قتل ذریه رسول اللّه فقالت له:«و لئن اتخـذتنا مغنما لتجـدنا وشـیکا مغرما، حین لا تجـد إلا ما قـدمت یداک..فکد کیدک،واسع سعیک،و ناصب جهدک،فو اللّه لا تمحو ذکرنا،و لا تمیت وحینا،و لا یرخص عنک عارها». (۱)

هکـذا کـانت علیه السـلام تنظر الی آفاق المسـتقبل البعیـده،دون أن تأسـرها مصاعب اللحظات الراهنه الآنیه،و هکـذا کان جمیع حمله الرسـاله عبر التاریـخ،ینظرون الی الآفـاق البعیـده،فکـانوا یتحملون تلـک المصـائب الرهیبه التی لو أنزلت علی جبـل لهـدّته هـدّا!بلی.بالایمـان بـأن اللّـه معهـم،و انـه لاـ یضـیع أعمـالهم الصـالحه،و یحفـظ جمیـع جهـودهم،و یبارکهـا و ینمیهـا و انه یکید الکافرین،و یحبط أعمالهم و یبطلها، و ان العاقبه للمتقین،بکل ذلک کان المجاهدون علی امتداد التاریخ یتحدون الصعاب.

[۳۶]و نتساءل:لماذا تخور عزائم البعض فی مواجهه أعداء الدین؟لماذا یسـتحوذ علیهم الوهن و یدعون الی السـلم؟ إن السبب هو حب الدنیا،و لذلک یحذرنا الرب منها،و یبین لنا القیمه الحقیقیه لها فیقول:

إِنَّمَـا الْحَیٰاهُ الـدُّنْیٰا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ و إذا انتزعنـا حب الـدنیا من قلوبنـا،فسوف نتسـلح بالشـجاعه الکافیه لمواجهه الأعـداء،کما نسـتعد لاقتلاع جذور سائر الأمراض القلبیه التی تحدثت عنها هذه السوره المبارکه کالنفاق و الحسد و الکبر،لأن

«حب الدنیا رأس کل خطیئه » -کما فی حدیث مأثور-.

۱- ۱) مقتل الخوارزمی/ج(۲)-ص(۶۴).

و إذا جردت حياتنا فی الدنيا من هدفها المتعالی المتمثل فی بلوغ الجنه و الرضوان، فهل يبقی فيها هدف معقول؟كلا..و ماذا نتصوره من هدف حكيم للطعام و الشراب لو تفكرنا فيه ليس سوی لذه عابره،و قوه تتبدد،و دورات قصيره لا ننتهی من واحده حتی نقع فی الثانيه،و اللعب هو السعی الذی يهدف غايه غير حكيمه (خياليه)،و اللهو هو السعی الذی لا هدف له أبدا..و ما الدنيا إلا لعب و لهو لأن ما فيها يزول،لو لا ما نبقی منها لحياتنا الحقيقيه فی الآخره،و هو الذی يشير اليه السياق:

وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ فی الدنيا كرامه و سعاده و عزا،و فی الآخره جنات النعيم.

وَ لاٰ يَسْئَلْكُمْ أَمْوٰالَكُمْ قالوا:معنی ذلك انه سبحانه لا يطلب منكم أجرا بإزاء هدايتكم،و لعل معناه انه سبحانه يعترف لكم بالملكيه،و لا يسلبكم الأموال بصوره كامله دون إكراه،بل بالترغيب و هذا لا ينافی الأمر بالإنفاق لما فيه من فوائد عظيمه لكم،لأنه دليل واقعی علی انتماء الفرد لمجتمع الايمان و الفضيله،كما انه سيجعل النفوس نقيه صافيه طاهره،و سيجعل المجتمع متماسكا ملتحما و يسير بسرعه أكبر نحو التقدم.

[۳۷]و من حكمه ربّنا و رحمته بنا انه لم يأمرنا بإنفاق جميع أموالنا،و إلا لم يكن يتمسك بعروه الإسلام إلا القليل من الناس.

إِنْ يَسْئَلْكُمُوهٰا فَيُحْفِكُمْ يجهدكم فی المسأله من الإحفاء بمعنی الإصرار فی المسأله.

تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ و لكنه جعل دينه سهلا لينتمى اليه أكبر عدد من الناس،و إذا كان صعبا و يأمر بإنفاق كل المال كان يظهر البخل الذى تنطوى عليه أغلب النفوس.

[٣٨]و بالرغم من ان اللّه لم يأمرنا بإنفاق جميع الأموال،ترى البعض يبخلون،كما بخلوا بأنفسهم حين أمروا بالقتال.

ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ لأنهم لم يعلموا أنفسهم على البذل و العطاء و التضحيه،و جذبهم حب الدنيا و أوثقهم بوثائقه،و بالتالى تصوروا ان الإنفاق مغرم،بينما هو مغنم كبير.

وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ لأنه لو أنفق شيئا لردّ اليه أضعافا مضاعفه،و حاز على رضوان اللّه الأكبر. و أى خساره كهذه الخساره،أن يحرم الإنسان ثواب ربه و رضاه؟!و لا يدل أمر اللّه بالإنفاق على حاجته الى ما نملك،تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

وَ اللّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ و لأننا فقراء يجب علينا أن ننفق حتى يغنينا من فضله.

وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ فإذا بخلت أمه عن العطاء،فان الربّ يستبدلها بأمه خيرا منها،تنفق من أموالها،و تجاهد فى سبيل اللّه،و تقدم التضحيات تلو التضحيات،و تصبر و تستقيم.

إن توفيق حمل الرسالات الالهيه شرف عظيم لا يعطيه اللّه إلا لمن استعد لدفع ثمنه،و ثمنه خوض القتال و الإنفاق،فاذا ضعفت أمه عنها قيّض اللّه لها أمّه أخرى!و حول هذا المقطع من الآيه جاءت روايه ذكرها أغلب المفسرين و بطرق عديده:

عن أبى هريره إن أناسا من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله قالوا:يا رسول اللّه من هؤلاء الذين ذكر اللّه فى كتابه؟و كان سلمان الى جنب رسول اللّه صلى الله عليه و آله فضرب صلى الله عليه و آله يده على فخذ سلمان فقال:«هذا و قومه،و الذى نفسى بيده لو كان الايمان منوطا بالثريّا لتناوله رجال من فارس» (1) و

جاء فى روايه أخرى عن الامام الصادق(عليه السلام)قال: «و اللّه أبدل بهم خيرا منهم الموالى» (2).

و الواقع:إن التاريخ يشهد ان رساله الإسلام حملها بعد العرب شعوب أخرى كالبرابره و الفرس و الأتراک،و إذا خذلها المسلمون اليوم فقد يقيض اللّه لها من أقصى الأرض من يحملها و يؤدى حقها ثم لا يكونوا أمثال المسلمين.

ص:278

1- 1) نور الثقلين/ج(5)-ص(46).

2- 2) تفسير نمونه نقلا عن مجمع البيان/ج(9)-ص(108)

سوره الفتح

اشاره

ص:۲۷۹

بسم الله الرحمن الرحیم

فضل السوره

قال الامام ابو عبد اللّه الصادق علیه السلام : حصنوا أموالکم و نسائکم و ما ملکت أیمانکم من التلف بقراءه«إنا فتحنا لک»فانه إذا کان ممن یدمن قراءتها نادی مناد یوم القیامه حتی تسمع الخلائق:أنت من عبادی المخلصین،الحقوه بالصالحین من عبادی،و أدخلوه جنات النعیم،و اسقوه من الرحیق المختوم بمزاج الکافور.

تفسیر نور الثقلین ج ۵ ص ۴۶-۴۷

الإطار العام

لقد كان صلحا صاخبا ذلك الذى رجع المسلمون به من مكه بعد أن تمنوا دخولها منتصرين أو لا أقل آمنين،و الصلح مع مشركى قريش واحد من أهم أحداث السيره النبويه إثاره للجدل..إذ كيف يمكن للمؤمنين الذين امتلأت نفوسهم غضبا على الكفار و سوقا إلى القتال معهم،و شوقا إلى الشهاده أن يصالحوا عدو كافر ظالم؟ و لعل نزول سوره كامله فى هذا الموضوع و تسميتها باسم الفتح دليل على حساسيه معالجه موضوع الصلح،و من زوايا عديده.

أولا:إن الصلح لا يعنى تسليما،و لا ضعفا،و لا تنازلا عن الأهداف الاستراتيجيه للامه.

ثانيا:لا يعنى الصلح تغليب رأى المنافقين الداعين إلى الصلح أو التهاون بالتعبئه العسكريه.

ص:٢٨٣

ثالثا:الصلح أو الحرب رهين أوامر القياده،و الامه المتمسكه بحبل قيادتها الالهيه لن تهزم لا فى الحرب و لا فى الصلح.

و لعل هذه الزوايا هى مجمل محاور هذه السوره الكريمه التى وصفت الصلح بأنه فتح مبين،و أن اللّه قد غفر لنبيه ما تقدم و ما تأخر مما اعتبرها الأعداء ذنوبا،و أنه هداه الى الصراط المستقيم الذى يؤدى إلى أهدافه الساميه و التى منها النصر العزيز.

و بعد هذه البراعه فى افتتاح السوره(٣/١)نجد القرآن يمدح المؤمنين،الذين أطاعوا الرسول فى الصلح بمثل طاعتهم له فى الحرب،و يجعل ذلك وسيله للنصر، حيث أنه سبحانه أنزل سكينته فى قلوب المؤمنين..و علموا أنهم لمنصورون ما داموا قد انتظموا فى سلك جند اللّه،الذى له جنود السماوات و الأرض،و أنهم ينتظرون جنات تجرى من تحتها الأنهار.

أمّا المنافقون الذين خالفوا الرسول فى السلم بمثل مخالفتهم له فى الحرب فان اللّه يعذبهم،لأنهم ظنوا باللّه ظن السوء-و أنه لا ينصرهم-فدارت عليهم دائره السوء أنى اتجهوا وجدوا سوءا،و غضب اللّه عليهم و لعنهم و أعدّ لهم جهنم.

إذا محور المجتمع الاسلامى هو الرسول الذى لو نصحوا له أطاعوه مخلصين سعدوا به،لأن اللّه قد أرسله شاهدا و مبشرا و نذيرا،و جعله محورا لحياتهم،ليؤمنوا باللّه و رسوله و يعزروه و يوقروه..و يعظموا اللّه بتعظيم رسوله.ذلك ان يد الرسول هى يد اللّه،و يد اللّه فوق أيديهم.

و ينعطف السياق على المنافقين الذين أرادوا انتهاز فرصه الصلح ليطعنوا فى مصداقيه الرساله و يقول:سيقول الاعراب الذين تخلفوا عن الرسول فى خروجه إلى مكه شغلتنا أموالنا و أهلونا،و يريدون العوده إلى صفوف الرساله بعد أن أبعدوا

عنها بتخلفهم،و لكن اللّه يفضح مكرهم و أنهم كانوا يرجون ألاّ يعود الرسول إليهم،و ظنوا ظن السوء فكانوا قوما بورا-هالكين-.

و الآن حيث صعد نجم المسلمين و طوّعوا أكبر قوه فى الجزيره-قريش-حتى اعترفت بهم كقوه سياسيه مناوئه،يريد الانتهازيون الالتحاق بركب الرساله طمعا فى المغانم،و هذه من مشاكل الصلح دائما.و رفض الإسلام عودتهم إلاّ إذا استعدوا للجهاد إذا دعوا اليه مره أخرى،فيومئذ إن أطاعوا يؤتيهم اللّه أجرا حسنا، و إن تولوا-كما فى السابق-يعذبهم اللّه عذابا أليما.

و بعد أن استثنى السياق من هذا الحكم المرضى و المعوقين عاد و أثنى على المؤمنين الذين بجهودهم حصل المسلمون على هذا الصلح حيث أنهم بايعوا الرسول على القتال تحت شجره كانت هنالك فرضى اللّه عنهم،و أنزل السكينه عليهم، و أثابهم-فى الدنيا-فتحا قريبا متمثلا فى مكاسب صلح الحديبيه،ثم فتح مكه.

و يعدد اللّه مكاسب المؤمنين بما يلى:صلح الحديبيه كما أنه صدّ أذى الناس عنهم، و جعل ذلك آيه،و عبره تاريخيه يستفيد منها المؤمنون.

و كان نصر المؤمنين على اقتدار،و ليس عن ضعف أو ذل و مهانه،فلو قاتلهم الذين كفروا عند مداخل الحرم المكى لولّوا الأدبار و هذه سنه اللّه التى لا تتبدل، و لو أن اللّه أراد لشب القتال و انهزم الكفار،و لكن لحكمه كف الأيدى عن الحرب ببطن مكه.و كانت قريش تستحق القتال،فقد صدوهم عن المسجد الحرام،أما حكمه كف الأيدى فلأنه كانت طوائف من المؤمنين متداخلين مع قريش يعملون بالتقاه.

قتال المؤمنين لا ينبعث من العصبيه بل من مصلحه الرساله لذلك فهو يدور على محور المصلحه الايمانيه،بينما قتال الكفار ينطلق من منطلق العصبيات الجاهليه،

و لذلک فهم لا یبلغون أهدافهم به.

فقلوب الکفار ملیئه بالحمیه الجاهلیه،بینما تعتمر أفئده المؤمنین بالسکینه الایمانیه،لأنهم قد التزموا بکلمه التقوی.

هذا و قد تبین صدق الرؤیا التی رآها الرسول،بأنه یدخل المسجد الحرام هو و المؤمنین بالحق،بلا خوف فجعل قبله فتحا قریبا.أما الهدف الأبعد فهو أن یظهر الدین الاسلامی علی الدین کله و لو کره المشرکون.

و فی خاتمه السوره یبین القرآن صفات أصحاب الرسول الذین اتبعوا الرسول فی ساعه العسره،فی السلم کما فی الحرب،و یبین أن کل فضائلهم آتیه من علاقتهم بعباده ربهم،و التبتل إلیه،لذلک تراهم أشداء علی الکفار رحماء بینهم،یبحثون عن رضوان ربهم سیماهم فی وجوههم من أثر السجود..

و بهذا تحیط السوره بکل زوایا الصلح مع قریش،و تعالج المشاکل الجانبیه التی قد تنشأ من أی صلح محتمل مع عدو کافر.

ص:۲۸۶

[سوره الفتح (۴۸): الآیات ۱ الی ۷]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ . إِنّٰا فَتَحْنٰا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً (۱) لِیَغْفِرَ لَکَ اَللّٰهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ مٰا تَأَخَّرَ وَ یُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَ یَهْدِیَکَ صِرٰاطاً مُسْتَقِیماً (۲) وَ یَنْصُرَکَ اَللّٰهُ نَصْراً عَزِیزاً (۳) هُوَ اَلَّذِی أَنْزَلَ اَلسَّکِینَهَ فِی قُلُوبِ اَلْمُؤْمِنِینَ لِیَزْدٰادُوا إِیمٰاناً مَعَ إِیمٰانِهِمْ وَ لِلّٰهِ جُنُودُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ عَلِیماً حَکِیماً (۴) لِیُدْخِلَ اَلْمُؤْمِنِینَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا وَ یُکَفِّرَ عَنْهُمْ سَیِّئٰاتِهِمْ وَ کٰانَ ذٰلِکَ عِنْدَ اَللّٰهِ فَوْزاً عَظِیماً (۵) وَ یُعَذِّبَ اَلْمُنٰافِقِینَ وَ اَلْمُنٰافِقٰاتِ وَ اَلْمُشْرِکِینَ وَ اَلْمُشْرِکٰاتِ اَلظّٰانِّینَ بِاللّٰهِ ظَنَّ اَلسَّوْءِ عَلَیْهِمْ دٰائِرَهُ اَلسَّوْءِ وَ غَضِبَ اَللّٰهُ عَلَیْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سٰاءَتْ مَصِیراً (۶) وَ لِلّٰهِ جُنُودُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ عَزِیزاً حَکِیماً (۷)

اللغه

ص:۲۸۷

(۶) عَلَيْهِمْ دٰائِرَةُ السَّوْءِ :دائر عليهم و حائق بهم، و سميت دائره من دوران الفلك فقد دارت دائره سيّئه بالنسبه إليهم،و قوله«عليهم»إمّا إخبار أو دعاء عليهم.

ص:۲۸۸

إِنّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً

هدی من الآیات:

بالرغم من أنّ اللّه ینجز وعده لعباده المؤمنین فینصرهم علی أعدائهم،و بالرغم من أنّهم ینتظرون فتحا قریبا و نصرا عاجلا،إلاّ أنّه قد یتأخر عنهم،لمصلحه یعلمها اللّه،فلربما لو جاءهم النصر عاجلا منع عنهم فتحا کبیرا لمّا تتهیّأ أسبابه،فهذا رسول اللّه صلی الله علیه و آله یری فی منامه،و یخبر المؤمنین أنّه سوف یدخل المسجد الحرام آمنا، ثم یقودهم حاجا الی بیت اللّه،فیجد المشرکین قد استعدوا لحربه أو صدّه عنه،فلم تتحقّق رؤیاه فی الظاهر،و لکنّه صلی الله علیه و آله دخله فاتحا فی السنین اللاحقه،بسبب ذلک الصلح الذی أبرمه فی تلک السنه.

المسلمون من جهتهم فهموا رؤیا الرسول علی أنّها تؤکّد دخول مکه فی تلک السنه،و لکنّه صلی الله علیه و آله مع علمه بالواقع جعلها غامضه،فلم یبیّن لهم بأنّ النصر لا یأتیهم فی ذلک العام،لأنّه لو أخبرهم ربما تقاعسوا عن الجهاد،و إذ لم یخبرهم الرسول بواقع الأمر سارعوا نحو مکه یحدوهم أمل الانتصار،و انتهی الأمر بهم الی

صلح الحديبيه الذى كان تمهيدا لفتح مكّه المكرمه،و لو أنّ المسلمين دخلوا المسجد الحرام فى ذلك العام فلربما فاتهم فتحها،و بالتالى فتح الجزيره العربيه،و انتشار الإسلام فى الأرض.

إنّ الهدف القريب الذى توخّاه المسلمون بعد إخبار الرسول لهم برؤياه هو دخول مكه،و لم يشأ اللّه أن يتحقّق ذلك تمهيدا لتحقيق الهدف الأكبر و هو فتح مكه، و العبره من ذلك أن لا يستعجل المسلمون للنتائج،و إنّما ينبغى الانتظار ريثما تنضج الظروف.

بينات من الآيات:

[۱] إِنّٰا فَتَحْنٰا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ماذا تعنى كلمه الفتح فى هذه الآيه؟ قال بعض المفسرين:إنّ الآيه و إن كانت نزلت قبل فتح مكه إلاّ أنّها تعنيه و تؤكّده و تبشّر المؤمنين به،و قال آخرون:إنّها تنصرف الى فتح خيبر،و لكنّ الآيه تدلّ كما يبدو على الفتح السياسى و الثقافى لمكه و الذى سبق فتحها العسكرى،و قد تجسّد ذلك فى صلح الحديبيه الذى مهّد لفتحها عسكريّا،و منه انطلق انتصار الإسلام و انتشاره فى الجزيره العربيه،ذلك لأنّ أىّ حركه ناشئه-و بالذات تلك التى تعاكس أفكار المجتمع و عاداته-تسعى نحو اكتساب الاعتراف من المجتمع المحيط حتى تتحرك بحريه فى التوسعه و الانطلاق،و حركه الإسلام-فيما يتعلّق بالجانب الظاهرى منها و ليس الغيبى-كانت فى البدء حركه ناشزه عند المشركين حيث كان المجتمع الجاهلى يعتبرون المسلمين صابئه لأنّهم فى نظرهم متمرّدون على العادات و التقاليد،فحركتهم إذن حركه خارجه عن الشرعيه.

و السؤال:متى تمّ الاعتراف بحركه الرسول فى ذلك المجتمع؟ لقد تمّ ذلك فى صلح الحديبيه،حيث اعترفت من خلاله قريش التى كانت سيده على مكه و سائر العرب بالرسول و أتباعه و رسالته كأمر واقع،و قد تأكّد هذا الاعتراف بوضوح عند التوقيع على البند القائل:من أراد من القبائل الانضمام الى الرسول صلى الله عليه و آله و التحالف معه،أو الانضمام الى قريش و التحالف معها فله ذلك..

و ذلك يعنى أنّ هناك حكومتان فى الجزيره حكومه قريش و حكومه الإسلام.

و فعلا تحالفت طائفه من القبائل-كخزاعه-مع الرسول صلى الله عليه و آله ،و بدأ الإسلام بالانتشار فى ربوع الجزيره،و لعل الآثار الايجابيه التى ترتبت على صلح الحديبيه-و من أهمّها تحالف القبائل العربيه مع النبى الأعظم-هى التى يسمّيها القرآن بالفتح المبين.

فالفتح المبين ليس هو الفتح العسكرى،إنّما هو الفتح السياسى و الثقافى الذى حقّقه الرسول فى صلح الحديبيه،و كان تمهيدا و مرتكزا للفتح العسكرى فيما بعد، حيث حصل بعد الصلح على حاله السلام،صار يتحرك بسرعه جاده تحت مظلته لنشر الدين،

قال الامام الصادق عليه السلام : «فما انقضت تلك المدّه-يعنى مده الصلح-حتى كاد الإسلام يستولى على أهل مكه» (1).

و من الطبيعى أنّ الحركه الثوريه الناجحه تتقوّى،و تبنى نفسها فى ظروف السلام،و تستعد لظروف المواجهه،و ما دامت الحكومه(الواقعيه)فى الجزيره أوقفت حربها مع الحركه الرساليه بعد الصلح،تحرّك المؤمنون بقياده الرسول صلى الله عليه و آله لنشر الإسلام،و صاروا يقوّون أنفسهم فى ظروف الهدنه،الى أن فتحوا مكه عسكريّا بعد سنوات قليله.

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۲۰ ص ۳۶۳

[۳-۲]و كان لهذا الفتح معطيات عظيمه،من أبرزها غفران اللّه لرسوله الأكرم صلى الله عليه و آله ما تقدّم و ما تأخر من الذنب،و إتمام النعمه عليه،و هدايته الى الصراط الحق،و قد اختلف المفسرون فى بيان معنى الذنب بالنسبه للرسول،فمن قائل بأنّ للرسول ذنوبا قبل الإسلام و بعده غفرها اللّه له،و من قائل بأنّه كانت له ذنوب قبل الفتح و بعده(فتح مكه)فأعطاه اللّه صك الأمان بغفران السابق و اللاحق منها، و قالت جماعه بأنّ الرسول لم يذنب و إنّما الغفران متوجه الى أمته باعتبارها أمّه مرحومه.

و يبدو أنّ كلمه الذنب لا تنصرف الى المعنى الظاهر منها و هو المعصيه،و إنّما تنصرف الى ما كان الكافرون و المشركون يعدّونه ذنبا،إذ كانت حركه الرسول صلى الله عليه و آله بذاتها ذنبا فى اعتقادهم،لأنّها تمرّد على الواقع القائم،فصار جزء من الواقع القائم بعد الصلح فارتفع عنه ذلك التصوّر و غفر له ذنبه فى نظرهم،و لتقريب الفكره أكثر نقول:إنّ موسى عليه السلام لم يكن فى ذمته ذنب حينما قال: «وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ » (1)و إنّما كان ذلك وفق القانون الحاكم،كذلك الرسول صلى الله عليه و آله كان مذنبا حسب ذلك القانون حتى تغيّر القانون فى صلح الحديبيه، حيث أنّ رسولنا الأكرم صلى الله عليه و آله كان قد قتل منهم فى بدر و أحد و الأحزاب،و غنم أموالهم،و أسر رجالهم،بل و غيّر أوضاعهم،فهو كان عندهم مذنبا،و جاء الصلح ليطوى هذه الصفحه من أذهان المشركين،و يصيّرهم فى سلام مع المسلمين.

أمّا أن يكون معنى الذنب هو ظاهر الكلمه فإنّ ذلك لا يليق بمقام الأنبياء، و بالذات مقام أعظمهم شأنا و أرفعهم منزله عند اللّه،و حاشا للّه أن يبعث رسولا يرتكب الذنوب،كما أنّه من الخطأ أيضا القول بأنّ اللّه أعطى الرسول صك الغفران،إذ كيف يرفع المسؤوليه عن أحد بدون مبرّر؟و هل بينه و بين أحد من

۱- ۱) الشعراء۱۴/

خلقه قرابه حتی یفعل ذلک؟أو لم یقل فی شأن رسوله صلی الله علیه و آله : «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَیْنا بَعْضَ الْأَقاوِیلِ* لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْیَمِینِ* ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِینَ* فَما مِنْکُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِینَ » (۱)..بلی.هناک بعض الفرق الصوفیه هی التی تعتقد بأنّ الإنسان یصل الی مستوی من العبودیه و الوعی بحیث ترفع عنه المسؤولیه،حتی قال قائل منهم لأتباعه:أنتم تجب علیکم الصلاه،أمّا أنا فقد وصلت الی مقام فوق الصلاه! إنّ الإسلام لا یری نهایه للمسؤولیه إلاّ بالیقین(الموت)،و هذا هو القرآن یخاطب الرسول صلی الله علیه و آله -مع أنّه انتهی الی غایه الکمال البشری-بأنّه یحتاج الی المزید من الصلاه و التقرّب الی اللّه عزّ و جل: «أَقِمِ الصَّلاهَ لِدُلُوکِ الشَّمْسِ إِلی غَسَقِ اللَّیْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ کانَ مَشْهُوداً* وَ مِنَ اللَّیْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَهً لَکَ عَسی أَنْ یَبْعَثَکَ رَبُّکَ مَقاماً مَحْمُوداً » (۲).

و یقول القرآن فی هذه السوره:

لِیَغْفِرَ لَکَ اللّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ و الغفران هنا من باب الوعد و لیس الحتم و الإلزام،و لو کان کذلک لاقتضی الأمر تغییر الآیه الکریمه: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ » (۳)،و الحال أنّه تعالی یأمر رسوله بالاستغفار لنفسه و للمؤمنین من حوله،و تناسب اللام هنا فی هذه السوره و الاستغفار لا مع الفتح،لأنّ الفتح قضیه سیاسیه فلا بد أن یکون الذنب هو الآخر ذنبا سیاسیّا،بینما لو اعتبرنا الذنب هنا شخصیّا بین العبد و ربّه لظهرت اللام مبهمه.

۱- ۱) الحاقه۴۴/-۴۷

۲- ۲) الإسراء۷۸/-۷۹

۳- ۳) محمّد۱۹/

وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ بالفتح،و بتكريس الإسلام فى المجتمع.

وَ يَهْدِيَكَ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً قال البعض:الصراط المستقيم هو السبيل الى تدعيم أركان الإسلام و نشره، و لعلّنا نفهم من الآيه و السياق أنّ لكلّ تطوّر جديد فى الساحه السياسيه معطيات سلبيه و إيجابيه يخشى أن تحرّف مسيره الإنسان،فمع كلّ تطوّر ضغوط،و مع كلّ ضغط احتمال للانحراف،و اللّه يعد نبيّه فى هذه الآيه بأن لا تؤثر فيه تلك التطوّرات،سواء كانت من نوع الضغوط و الهزائم،أو الاغراءات و الانتصارات، و أن يبقى مستقيما على خطّ الرساله.

وَ يَنْصُرَكَ اللّٰهُ نَصْراً عَزِيزاً لعلّ معنى العزيز هنا الثابت الذى لا يغالب،و قد تجسّد هذا النصر فى فتح مكه المكرمه،حيث أنّ صلح الحديبيه كان تمهيدا لهذا النصر العزيز.

إذن فللفتح خمس نتائج رئيسيه و هامه و هى:

أولا:غفران ذنب الرسول الذى كان يعتقده المشركون،حيث انتهى بعد الصلح الحصار الاعلامى المطلق،فتحول الرسول من حركه العصيان و التمرد الى الحركه الشرعيه.

ثانيا:إتمام النعمه على الرسول،بأن هيّأ ربّنا بهذا الصلح له الظروف ليكون أقدر على نشر الدين فى المجتمع.

ثالثا:تصفیه العقبات التی اعترضت طریق انتشار الإسلام،و بالتالی دفع جانب من الضغوط التی یواجهها الرسول صلی الله علیه و آله و أصحابه.

رابعا:تهیئه الظروف المناسبه للنصر العزیز.

[۴]أمّا النتیجه الخامسه و التی یمکننا اعتبارها نعمه کبیره بذاتها،فهی بعث روح السکینه فی روع المؤمنین،فإذا بهم وهم بضع مئات یتحرّکون من المدینه باتجاه مکه التی یوجد فیها عشرات الألوف من أعدائهم المدججین بالسلاح،و لو لا هذه السکینه لما تحرّک الجیش الاسلامی الی حدودها.

هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ السَّکِینَهَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ لِیَزْدادُوا إِیماناً مَعَ إِیمانِهِمْ و هل الایمان یزید و ینقص؟بلی.إذن فما هو الایمان حتی یقبل الزیاده و النقصان؟إنّه إقرار بالقلب،و قول باللسان،و عمل بالحواس و الجوارح،و معنی ذلک أنّ الإنسان بکلّ کیانه المادی و المعنوی قوه واحده یسلم لها بطوعه و إرادته و هی قوه اللّه،فلیس بإیمان ذلک الذی یبقی فی حدود العلم و المعرفه،دون أن یعکس علی صاحبه سلوکا و عملا من جنسه فی الحیاه،و القرآن یقول عن فرعون و قومه حیث کفروا بالآیات: «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَیْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَهُ الْمُفْسِدِینَ » (۱) إذن فیقین القلب وحده لا ینفع من دون العمل الصالح.

إنّ مشرکی قریش کانوا یعرفون فی داخل أنفسهم صدق الرسول و أمانته، و لکنّهم لم یعترفوا له بذلک فی واقع حیاتهم،بل خالفوه و اتهموه بالکذب و السحر، بینما الایمان الحقیقی هو المعرفه بالقلب و العمل بالجوارح،و لذلک

جاء فی حدیث

۱- ۱) النمل/۱۴

مفصّل عن الامام على عليه السلام أنّ الإيمان موزّع على جوارح الإنسان،لكلّ جارحه منه ما يناسبها من الايمان (۱)،و بقدر انحراف أىّ جارحه عن التزاماتها يفقد البشر من إيمانه.

و

عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله : من لقى اللّه كامل الايمان كان من أهل الجنه،و من كان مضيّعا لشىء ممّا فرضه اللّه تعالى فى هذه الجوارح و تعدّى ما أمره اللّه،و ارتكب ما نهاه عنه،لقى اللّه تعالى ناقص الايمان،قال عزّ و جل: «وَ إِذٰا مٰا أُنْزِلَتْ سُورَهٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زٰادَتْهُ هٰذِهِ إِيمٰاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »،و قال: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذٰا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »،و قال سبحانه: «إِنَّهُمْ فِتْيَهٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنٰاهُمْ هُدىً »و قال: «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زٰادَهُمْ هُدىً وَ آتٰاهُمْ تَقْوٰاهُمْ »،و قال: «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَهَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدٰادُوا إِيمٰاناً مَعَ إِيمٰانِهِمْ »،و يعلق الامام على عليه السلام على هذه الروايه فيقول:«فلو كان الايمان كلّه واحدا لا زياده فيه و لا نقصان،لم يكن لأحد فضل على أحد، و لتساوى الناس، فبتمام الايمان و كماله دخل المؤمنون الجنّه،و نالوا الدرجات فيها،و بذهابه و نقصانه دخل الآخرون النار» (۲).

و ربّنا فتح للمسلمين مكه،و أنزل عليهم السكينه،لكى يكمل إيمانهم أكثر، فيصير اقتصادهم و اجتماعهم و حكمهم إيمانيّا،و تصبح سياستهم و شوؤنهم العسكريه مبنيه على أساس الايمان.

وَ لِلّٰهِ جُنُودُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ

ص:۲۹۶

۱- ۱) الروايه مفصله و طويله،راجع بح/ج ۹۳ ص ۴۹-۵۳

۲- ۲) بح/ج ۹۳ ص ۵۳

و هو ينصـر المؤمنين،إمّـا عن طريق تثبيتهم و تقويه عزائمهم بـانزال السـكينه فى قلوبهم،و إمّـا عن طريق جنود من عنـده مباشـره كالملائكه و الظواهر التى تقوم الملائكه بتدبيرها.

وَ كٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً فهـو لاـ ينصـر المـؤمنين أو يبعث السـكينه فى قلوبهم و يزيـدهم إيمانـا إلاّـ بحكمه بـالغه،و لو أنّهم لم يجاهدوا لما حصلوا على كلّ ذلك.

[۵]و هـدف المؤمنين من الانتصـار و الفتـح يجب أن لاـ يكون إسـقاط الحكم الفاسـد و اغتنـام الأنفال،أو أن يتحوّلوا من حركه إلهيه الى حركه ثقافيه مترفه،أو حركه سياسيه متقلّبه،إنّما الهدف الأسمى من ذلك هو دخولهم الجنه،كما يقول تعالى:

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ وَ كٰانَ ذٰلِكَ عِنْدَ اللّٰهِ فَوْزاً عَظِيماً إذن فالهدف الأسـمى ليس النصـر أو الفتح،و القرآن يعبّر عن هٰذه الفكره فى سوره الصف بصيغه أخرى إذ يقول: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ تِجٰارَهٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذٰابٍ أَلِيمٍ* تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجٰاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوٰالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ وَ مَسٰاكِنَ طَيِّبَهً فِى جَنّٰاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ* وَ أُخْرىٰ تُحِبُّونَهٰا نَصْرٌ مِنَ اللّٰهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ » (۱).

[۶]و كما أنّ جزاء المؤمنين الحقيقى ليس هو انتصارهم على عدوّهم،فإنّ

۱- ۱) الصف ۱۰/-۱۳

جزاء أعدائهم ليس سقوطهم من سدّه الحكم،و لا ما يلقونه من العذاب على أيدى المؤمنين و حسب،و إنّما جزاؤهم الحقيقى عذاب اللّه الدائم فى الآخره.

وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ الظّانِّينَ بِاللّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ فهم محاطون بالشر من كلّ جانب،كما تحيط الدائره بمركزها.

وَ غَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً [٧]و فى خاتمه الدرس يؤكّد ربّنا قوّته و حكمته التى يدبّر بها شؤون الخلق.

وَ لِلّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً و هدف هذا التأكيد على قدره اللّه بعث روح الأمل بالنصر و الفتح فى نفوس المؤمنين،حيث يشعرهم الربّ بأنّ جند اللّه الذين لا يحصر عددهم كالملائكه و السنن الطبيعيه و..و..كلّهم يقفون صفّا واحدا الى جانبهم و هم يجاهدون فى سبيله،فهم على خلاف أعدائهم الذين يحوطهم الشرّ كالدائره.

صلح الحديبيه:

و قبل إنهاء الحديث فى هذا الدرس لا بأس أن نقرأ جانبا من قصه الصلح التى تنفع الأمّه الاسلاميه فى بعض ظروفها،فهى حينما تصالح عدوّها عن قوّه و مناوره حكيمه فإن صلحها حينئذ سيكون كصلح الحديبيه،أمّا لو صالحت عن ضعف، و كانت مكاسب العدو منها أكبر من مكاسبها من الصلح فإنّ ذلك استسلام لا يقبله اللّه.

ص:٢٩٨

جاء فی تفسیر علی بن إبراهیم عن الامام الصادق(علیه السلام)قال: کان سبب نزول هذه الآیه و هذا الفتح العظیم أنّ اللّه جلّ و عزّ أمر رسوله (صلّی اللّه علیه و آله و سلّم)فی النوم أن یدخل المسجد الحرام و یطوف و یحلق مع المحلّقین،فأخبر أصحابه و أمرهم بالخروج فخرجوا،فلمّا نزل ذا الحلیفه أحرموا بالعمره،و ساقوا البدن،و ساق رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله و سلّم)سته و ستین بدنه،و أشعرها عند إحرامه،و أحرموا من ذی الحلیفه ملبّین بالعمره،و قد ساق من ساق منهم الهدی معرات مجلّلات، فلما بلغ قریشا ذلک بعثوا خالد بن الولید فی مأتی فارس کمینا یستقبل رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله)فکان یعارضه علی الجبال،فلمّا کان فی بعض الطریق حضرت صلاه الظهر فأذّن بلال فصلّی رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله)بالناس،فقال خالد بن الولید:لو کنّا حملنا علیهم و هم فی الصلاه لأصبناهم،فإنّهم لا یقطعون صلاتهم،و لکن تجیء الآن لهم صلاه أخری أحبّ إلیهم من ضیاء أبصارهم،فإذا دخلوا فی الصلاه أغرنا علیهم،فنزل جبرئیل(علیه السلام)علی رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله)بصلاه الخوف فی قوله عزّ و جل: «وَ إِذٰا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاٰةَ »الآیه،فلمّا کان فی الیوم الثانی نزل رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله)الحدیبیه و هی علی طرف الحرم،و کان رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله)یستنفر الأعراب فی طریقه،فلم یتبعه أحد،و یقولون:أ یطمع محمد(صلّی اللّه علیه و آله)و أصحابه أن یدخل الحرم أو قد غزتهم قریش فی عقر دیارهم فقتلوهم،أنّه لا یرجع محمّد(صلّی اللّه علیه و آله) و أصحابه إلی المدینه أبدا.

و من هذه الروایه نعرف بأنّ الأعراب لم یدخلوا الإسلام،و لم یقبلوا دعوه الرسول صلی الله علیه و آله قبل الصلح (۱).

۱- ۱) الی هنا الروایه منقوله عن نور الثقلین/ج ۵ ص ۵۰

و

فی روایه أخری قال ابن عبّاس: إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله خرج یرید مکّه،فلمّا بلغ الحدیبیه وقفت ناقته،و زجرها فلم تنزجز،و برکت الناقه،فقال أصحابه:

خلأت الناقه،فقال صلی الله علیه و آله :ما هذا لها عاده،و لکن حبسها حابس الفیل،و دعا عمر بن الخطاب لیرسله الی أهل مکه لیأذنوا له بأن یدخل مکه،و یحلّ من عمرته، و ینحر هدیه،فقال:یا رسول اللّه مالی بها حمیم،و إنّی أخاف قریشا لشدّه عداوتی إیّاها،و لکن أدلّک علی رجل هو أعز بها منّی:عثمان بن عفّان،فقال:صدقت، فدعا رسول اللّه صلی الله علیه و آله عثمان فأرسله الی أبی سفیان و أشراف قریش یخبرهم أنّه لم یأت لحرب،و إنّما جاء زائرا لهذا البیت،معظّما لحرمته،فاحتبسته قریش عندها، فبلغ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و المسلمین أنّ عثمان قد قتل (۱)،فقال صلی الله علیه و آله :«لا نبرح حتی نناجز القوم»فدعا الناس الی البیعه،فقام رسول اللّه صلی الله علیه و آله الی الشجره فاستند إلیها،و بایع الناس علی أن یقاتلوا المشرکین و لا یفرّوا،قال عبد اللّه بن مغفّل:

کنت قائما علی رأس رسول اللّه صلی الله علیه و آله ذلک الیوم،و بیدی غصن من السّمره(شجره شائکه تنبت فی الأماکن الحاره)أذبّ عنه و هو یبایع الناس،فلم یبایعهم علی الموت،و إنّما بایعهم علی أن لا یفرّوا (۲)،فبینما هم کذلک إذ جاءهم بدیل بن ورقاء الخزاعی فی نفر من خزاعه و کانوا عیبه نصح رسول اللّه صلی الله علیه و آله من أهل تهامه، فقال:إنّی ترکت کعب بن لؤی و عامر بن لؤی و معهم العوذ المطافیل و هم مقاتلوک و صادّوک عن البیت،فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله :«إنّا لم نجئ لقتال أحد،و لکنّا جئنا معتمرین،و إنّ قریشا قد نهکتهم الحرب و أضرّت بهم،فإن شاؤوا ماددتهم مدّه و یخلوا بینی و بین الناس،و إن شاؤوا أن یدخلوا فیما دخل فیه الناس فعلوا، و إلاّ فقد جموا،و إن أبوا فوا الذی نفسی بیده لأقاتلنّهم علی أمری هذا حتی تنفرد سالفتی،أو لینفذنّ اللّه تعالی أمره»، (و هذا من الحکمه السیاسیه و لا ریب أنّ

ص:۳۰۰

۱- ۱) و عاده ما تنشر الشائعات فی مثل هذه الظروف و الأحداث.

۲- ۲) بح/ج ۲۰ ص ۳۲۹

بیعه الرسول صلی الله علیه و آله مع أصحابه تحت الشجره قد أرهبت قریشا،لأنّها کانت مظهرا للقوه،و مناوره یرهبها الأعداء،و التظاهر بالقوه أمر مهم،و بالذات لمن یرید الصلح،لأنّ ذلک یجعله فی موقع القوی المهاب علی طاوله المفاوضات،و فی سیاسه الیوم تتکرر کلمه الردع النووی و هی مظهر لسیاسه القوه).

فقال بدیل:سأبلغهم ما تقول،فانطلق حتی أتی قریشا فقال:إنّا قد جئناکم من عند هذا الرجل،و إنّه یقول کذا و کذا،فقام عروه بن مسعود الثقفی فقال:إنّه قد عرض علیکم خطّه رشد فاقبلوها و دعونی آته،فقالوا:ائته،فأتاه فجعل یکلّم النبی صلی الله علیه و آله ،و قال له رسول اللّه صلی الله علیه و آله نحوا من قوله لبدیل،فقال عروه عند ذلک:أی محمّد أ رأیت إن استأصلت قومک،هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلک؟و إن تکن الأخری فو اللّه إنّی لأری وجوها و أری أو باشا من الناس خلقا أن یفرّوا و یدعوک،فقال له أبو بکر:أمصص بظر اللاّت.أ نحن نفرّ عنه و ندعه؟فقال:من ذا،قالوا:أبو بکر،قال:أما و الذی نفسی بیده لولا ید کانت لک عندی لم أجزک بها لأجبتک،قال:و جعل یکلّم النبی صلی الله علیه و آله ،و کلّما کلّمه أخذ بلحیته،و المغیره بن شعبه قائم علی رأس النبی صلی الله علیه و آله و معه السیف و علیه المغفر،فکلّما أهوی عروه بیده الی لحیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله ضرب یده بنعل السیف، و قال:أخّر یدک عن لحیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله قبل أن لا ترجع إلیک،فقال:من هذا؟ قالوا:المغیره بن شعبه،قال:أی غدر.أو لست أسعی فی غدرتک؟قال:و کان المغیره صحب قوما فی الجاهلیه،فقتلهم و أخذ أموالهم،ثم جاء فأسلم،فقال النبی صلی الله علیه و آله :«أمّا الإسلام فقد قبلنا،و أمّا المال فإنّه مال غدر لا حاجه لنا فیه. » ثم

إنّ عروه جعل یرمق صحابه النبی صلی الله علیه و آله إذا أمرهم رسول اللّه صلی الله علیه و آله ابتدروا أمره،و إذا توضّأ ثاروا یقتتلون علی وضوئه،و إذا تکلّموا أخفضوا أصواتهم عنده،و ما

يحدّون إليه النظر تعظيما له،قال:فرجع عروه الى أصحابه و قال:أى قوم!و اللّه لقد وفدت على الملوك،و وفدت على قيصر و كسرى و النجاشى،و اللّه إن رأيت ملكا قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمّد محمّدا،إذا أمرهم ابتدروا أمره،و إذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه،و إذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده،و ما يحدّون إليه النظر تعظيما له،و إنّه قد عرض عليكم خطّه رشد فاقبلوها،فقال رجل من بنى كنانه:دعونى آته،فقال:ائته،فلمّا أشرف عليهم قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله :

«هذا فلان و هو من قوم يعظّمون البدن فابعثوها»فبعثت له،و استقبله القوم يلبّون،فلمّا رأى ذلك قال:سبحان اللّه ما ينبغى لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت،فقام رجل منهم يقال له:مكرز بن حفص فقال:دعونى آته:فقالوا:ائته،فلمّا أشرف عليهم قال النبى صلى الله عليه و آله :«هذا مكرز و هو رجل فاجر»،فجعل يكلّم النبى صلى الله عليه و آله فبينما هو يكلّمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال صلى الله عليه و آله :قد سهّل اللّه عليكم أمركم، فقال:أكتب بيننا و بينك كتابا،فدعا رسول اللّه صلى الله عليه و آله علىّ بن أبى طالب (عليه السّلام)فقال له:«أكتب:بسم اللّه الرّحمن الرّحيم»فقال سهيل:أمّا الرحمن فو اللّه ما أدرى ما هو،و لكن أكتب:باسمك اللّهم،فقال المسلمون:و اللّه لا نكتبها إلاّ بسم اللّه الرّحمن الرّحيم،فقال النبى صلى الله عليه و آله :«أكتب:باسمك اللهم،هذا ما قاضى عليه محمّد رسول اللّه صلى الله عليه و آله »فقال سهيل:لو كنّا نعلم أنّك رسول اللّه ما صددناك عن البيت و لا قاتلناك،و لكن أكتب:محمّد بن عبد اللّه، فقال النبى صلى الله عليه و آله :إنّى لرسول اللّه و إن كذّبتمونى ثم قال لعلىّ(عليه السّلام):

«أمح:رسول اللّه»فقال:«يا رسول اللّه إنّ يدى لا تنطلق بمحو اسمك من النبوه»،فأخذه رسول اللّه صلى الله عليه و آله فمحاه،ثم قال:«أكتب:هذا ما قاضى عليه محمّد بن عبد اللّه سهيل بن عمرو،و اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين،يأمن فيهنّ الناس،و يكفّ بعضهم عن بعض،و على أنّه من قدم مكه من أصحاب محمّد حاجّا أو معتمرا أو يبتغى من فضل اللّه فهو آمن على دمه و ماله،

و من قـدم المـدينه من قريش مجتـازا الى مصـر أو الشـام فهـو آمن على دمه و مـاله،فـإنّ بيننـا عيبه مكفوفه،و انّه لاـ إسـلال و لا إغلال،و انّه من أحبّ أن يـدخل فى عقـد محمّـد و عهـده دخل فيه،و من أحبّ أن يـدخل فى عقـد قريش و عهـدهم دخل فيه» (۱)و

فى روايه أخرى: و كتبه علىّ بن أبى طـالب و شـهد على الكتاب المهاجرون و الأنصار ثم قال رسول اللّه صـلى الله عليه و آله :يا على إنّك أبيت أن تمحو اسـمى من النبوه، فو الذى بعثنى بالحق نبيّا لتجيبنّ أبناءهـم الى مثلها و أنت مضـيض مضطهد(أى أنّك سوف تتعرّض لمثـل هـذه الضـغوط،و سوف تتنـازل عن حقوقك و واجباتك الظاهريه،و لكن للّه)فلمّا كان يوم صـفّين،و رضوا بـالحكمين،كتـب:هـذا مـا اصـطلح عليه أمير المـؤمنين علىّ بن أبى طـالب عليه السـلام و معـاويه ابن أبى سـفيان،فقـال عمرو بن العـاص:لـو عملنـا أنّـك أمير المـؤمنين مـا حاربنـاك،و لكن أكتب:هـذا مـا اصـطلح عليه علىّ ابن أبى طـالب و معـاويه ابن أبى سفيان،فقال أمير المؤمنين (صـلوات اللّه عليه):صدق اللّه و صدق رسوله.أخبرنى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله بذلك ثم كتب الكتاب (۲)و عن محمّد بن كعب قال:ثم رجع رسول اللّه صـلى الله عليه و آله الى المدينه فجاءه أبو بصير(رجل من قريش و هو مسـلم)و هذا يبيّن أنّ الصلح صار سببا لانتشار الإسلام بين الناس،و هنا فكره نستفيدها من عموم حديث الحديبيه و هى:إنّ الثوره الحقيقيّـه تسـتفيد مـن كـلّ الظروف فى سبيـل تقـدّمها،لأنّهـا تعتمـد على جـوهر التقـدّم،و هـو إراده الإنسـان و تصـميمه على الحركه،فمن ظروف السلم تستفيد خطّه لبناء كوادرها و ترتيب أوراقها،و من ظروف الحرب تستفيد خطّه لنشر أفكارها

۱- ۱) بح،ج ۳۱ ص ۳۳۴

۲- ۲) نور الثقلين/ج ۵-ص ۵۳

و الاعلام الجماهيرى المركّز،فإذا ما استشهد أحد أبنائها فى الحرب رفعته علما فى كلّ أفق،و إذا بقى حيّا استفادت من كلّ أبعاد وجوده.

و حيث وقّع رسولنا الأكرم صلى الله عليه و آله مع قريش بنود الصلح التزم بها لكى يستفيد من فتره السلم بينه و بينهم فى بناء حركته و إعدادها إعدادا قويّا لمواجهه المتغيّرات و الظروف المختلفه،لهذا كان يرفض أىّ عمل أو قرار ينتهى الى إشعال الحرب، لأنّه يخسره مكتسبات ظروف السلم،و حيث

سمعت قريش عن رجل يسمّى أبو بصير لحق بالنبى صلى الله عليه و آله أرسلت فى طلبه رجلين،فقالوا للرسول صلى الله عليه و آله :

العهد الذى جعلت لنا؟فدفعه الى الرجلين،فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفه فنزلوا يأكلون من تمر لهم،فقال أبو بصير لأحد الرجلين،إنّى لأرى سيفك هذا جيّدا،فاستلّه و قال:أجل إنّه لجيّد و جرّبت به ثمّ جرّبت،فقال أبو بصير:أرنى أنظر إليه؟فأمكنه منه فضربه به حتى برد،و فرّ الآخر حتى بلغ المدينه فدخل المسجد يعدو،فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله حين رآه:«لقد رأى هذا ذعرا»فلما انتهى النبى صلى الله عليه و آله قال:قتل و اللّه صاحبى و إنّى لمقتول،قال:فجاء أبو بصير فقال:

يا نبىّ اللّه!قد أوفى اللّه ذمّتك،و رددتنى إليهم،ثمّ أنجانى اللّه منهم،فقال النبى صلى الله عليه و آله :«ويل أمّه مسعر حرب لو كان له أحد»فلمّا سمع ذلك عرف أنّه سيردّه إليهم،فخرج حتى أتى سيف البحر،و انفلت منهم ابو جندل بن سهيل فلحق بأبى بصير،فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلاّ لحق بأبى بصير،حتى اجتمعت عليه عصابه،قال:فو اللّه لا يسمعون بعير لقريش قد خرجت الى الشام إلاّ اعترضوا لها فقتلوهم،و أخذوا أموالهم،فأرسلت قريش الى النبى صلى الله عليه و آله تناشده اللّه و الرحم لما أرسل إليهم،فمن أتاه منهم فهو آمن،فأرسل صلى الله عليه و آله إليهم فأتوه (۱)

۱- ۱) بح/ج ۲۰ ص ۳۳۵

و

فی تفسیر القمّی:و قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله لأصحابه(بعد کتابه الصلح):

انحروا بـدنکم،و احلقـوا رؤوسـکم،فـامتنعوا و قـالوا:کیـف ننحر و نحلق و لـم نطف بـالبیت،و لم نسع بین الصـفا و المروه؟فـاغتمّ لذلک رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و شکا ذلک الی أمّ سلمه،فقالت:یا رسول اللّه انحر أنت و احلق،فنحر رسول اللّه صلی الله علیه و آله فحلق، فنحر القوم علی حیث یقین و شـک و ارتیـاب(و هنـا تتبیّن فکره مهمّه و هی:إنّ القیاده حینما تقول و تعمل بما تقول یکون قرارها أمضی أثرا فیمن حولها).

و حیث رجع المسلمون الی المدینه قالوا:هذا لیس بفتح،لأنّهم حسبوا الفتح هو النصر الذی یأتی بالقتال،و یکون فیه الأسر و أخذ الغنـائم،و لم یکونوا یعرفون أبعـاد الفتـح الحقیقیه،أمّا الرسول صـلی الله علیه و آله فهو یعرف کلّ ذلک،و بمجرّد أن سـمع هـذا الکلام جمع أصحابه و أکّد لهم بأنّ ما حدث هو أعظم الفتح،

فقال: «لقد رضی المشرکون أن یدفعوکم بالراح عن بلادهم »و هذه مرحله من مراحل الفتح،أنّ العدو یعترف بالمسلمین،

«و یسألوکم القضیه،و یرغبون إلیکم فی الإیاب »أی أنّهم اعترفوا بکم کندّ لهم

«و قد کرهوا منکم ما کرهوا،و قد أظفرکم اللّه علیهم، فردّکم سالمین غانمین مأجورین،فهذا أعظم الفتح» ثم ذکّرهم بالماضی و قال:

«أنسیتم یوم أحـد إذ تصعدون و لا تلوون علی أحد و أنا أدعوکم فی أخراکم؟! أنسـیتم یوم الأحزاب إذ جاؤوکم من فوقکم و مـن أسـفل منکم،و إذ زاغت الأبصـار،و بلغت القلـوب الحنـاجر،و تظنّـون بـاللّه الظنونـا؟!قـالوا:صـدق اللّه و رسـوله،و هـو أعظم الفتوح،و اللّه یا نبی اللّه ما فکرنا فیما فکرت فیه،و لأنت أعلم باللّه و بالأمور منّا،فأنزل اللّه سوره الفتح» (1)و

جـاء فی عیون الأخبار بإسـناده الی علیّ بن محمـد بن الجهم قال: حضـرت مجلس المأمون و عنـده الامام الرضا،فقال المأمون:یا ابن رسول اللّه!ألیس من قولک

۱- ۱) تفسیر القمی عند الایه إِنّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً

أنّ الأنبياء معصومون؟قال:بلی،قال:فأخبرنی عن قول اللّه تعالی: «لِيَغْفِرَ لَکَ اللّهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ مٰا تَأَخَّرَ »قال الرضا(علیه السّلام):لم یکن أحد عند مشرکی مکه أعظم ذنبا من رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله)لأنّهم کانوا یعبدون من دون اللّه ثلاثمأه و ستین صنما فلما جاءهم بالدعوه الی کلمه الإخلاص کبر ذلک علیهم و عظم و قالوا: أَ جَعَلَ الْآلِهَهَ إِلٰهاً وٰاحِداً إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ عُجٰابٌ* وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلیٰ آلِهَتِکُمْ إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ یُرٰادُ* مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِی الْمِلَّهِ الْآخِرَهِ إِنْ هٰذٰا إِلاَّ اخْتِلاٰقٌ فلما فتح اللّه تعالی علی نبیّه صلی الله علیه و آله مکه،قال له:یا محمد «إِنّٰا فَتَحْنٰا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً لِیَغْفِرَ لَکَ اللّهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ مٰا تَأَخَّرَ » عند مشرکی أهل مکه بدعائک توحید اللّه فیما تقدّم و ما تأخّر،لأنّ مشرکی مکه أسلم بعضهم،و خرج بعضهم عن مکه،و من بقی منهم لم یقدر علی إنکار التوحید إذا دعا الناس الیه،فصار ذنبه عندهم فی ذلک مغفورا بظهوره علیهم فقال المأمون:للّه درّک یا أبا الحسن (۱)

۱- ۱) نور الثقلین-ج /۵ص ۵۶

[سوره الفتح (۴۸): الآیات ۸ الی ۱۴]

اشاره

إِنّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً (۸) لِتُؤْمِنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُکْرَهً وَ أَصِیلاً (۹) إِنَّ اَلَّذِینَ یُبایِعُونَکَ إِنَّما یُبایِعُونَ اَللّهَ یَدُ اَللّهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ فَمَنْ نَکَثَ فَإِنَّما یَنْکُثُ عَلی نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفی بِما عاهَدَ عَلَیْهُ اَللّهَ فَسَیُؤْتِیهِ أَجْراً عَظِیماً (۱۰) سَیَقُولُ لَکَ اَلْمُخَلَّفُونَ مِنَ اَلْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا یَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَیْسَ فِی قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ یَمْلِکُ لَکُمْ مِنَ اَللّهِ شَیْئاً إِنْ أَرادَ بِکُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِکُمْ نَفْعاً بَلْ کانَ اَللّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً (۱۱) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ یَنْقَلِبَ اَلرَّسُولُ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ إِلی أَهْلِیهِمْ أَبَداً وَ زُیِّنَ ذلِکَ فِی قُلُوبِکُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ اَلسَّوْءِ وَ کُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (۱۲) وَ مَنْ لَمْ یُؤْمِنْ بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنّا أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ سَعِیراً (۱۳) وَ لِلّهِ مُلْکُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ یَغْفِرُ لِمَنْ یَشاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشاءُ وَ کانَ اَللّهُ غَفُوراً رَحِیماً (۱۴)

اللغه

(۹) تُعَزِّرُوهُ :تقوّوه بالنصره و ذلک بتقویه دینه و نصره أحکامه.

(۱۰) نَکَثَ :نقض البیعه.

(۱۲) بُوراً :جمع بائره أی هالکین.

ص:۳۰۸

إِنّا أَرْسَلْنٰاکَ شٰاهِداً

هدی من الآیات:

بعـد تناول القرآن موضوع الفتـح المبین و ما تابع ذلک من حقائق اجتماعیه أظهرها الوضع الجدید یحدّثنا ربّنا عن موقع الرسول صلی الله علیه و آله بین المسـلمین،کـأهمّ عبره تسـتفیدها الأـمّه من هـذه الظـاهره التی لم یعرف النـاس أبعادهـا لو لا أنّ الرسول بحکمته و حزمه تعامـل معهـا،و اکتسب لهم ثمرات الفتـح المبین.فهو صـلی الله علیه و آله لا یمثّل شـخصه،و إنّما یمثّل رسالته و ربّه،و من ثمّ فـإنّ بیعته و الخضـوع لأـوامره لیس إلاّـ للّه عزّ و جـل،و بهـذه المناسـبه یکشـف السـیاق عن واقـع المنـافقین بـأنّهم انتهـازیّون، و یبحثون عن مصالحهم فقط، فتراهم یتبعون القائـد ما دام ذلک لا یتعارض مع مصالحهم،و إلاّ تمرّدوا علیه بمختلف الأعـذار،و لقـد أمرهم النبی صـلی الله علیه و آله بـالتوجّه الی مکّه فنکصوا علی أعقـابهم خوفـا من عواقب ما اعتبروه مغامره غیر محسوبه،و عنـد ما عاد المسـلمون الی المـدینه فاتحین رجعوا إلی صـفوف الأمه علی جسـر من الأعـذار،و لم یکن ذلک إلاّ لأنّ خط الرساله فرض نفسه علی الواقع.

ص:۳۰۹

و لكنّ ربنا لا يـدع الأمر هكذا دون قيد يفرضه عليهم،و بصـيره يهدى بها الرسول القائد و المؤمنين من حوله فى التعامل مع هذا الطراز من النـاس،و إنّمـا يشـترط لقبـول توبتهم أن تكون توبه نصوحـا تحكيهـا أعمـالهم و ممارسـاتهم،و تتجلّى فى مواجهـاتهم اللاحقه مع الكفّار،التى ينبغى أن يثبتوا فيها جدارتهم للانتماء الى خطّ الرساله و تجمّع المؤمنين،أمّا مجرد الكلام و إلقاء الأعذار فلا يمكنه إعادتهم الى الصف الإسلامى أبدا.

بينات من الآيات:

[٨] إِنّٰا أَرْسَلْنٰاكَ شٰاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً و الشاهد:الحاضـر،فكيف ينسـحب هذا المعنى على القائد؟إنّ الشاهد هو الحاضـر الذى يكون سـلوكه مقياسا للحق،و شهاده الرسول على الأمّه حجّيته،و كونه المقياس العملى للخير و الفضيله،و الميزان الواقعى للضلاله و الهدى،و ليس المراد من شـهادته صـلى الله عليه و آله حضوره الجسدى بين المسلمين،و إلاّ لما كان ذلك يحتاج الى الإرسال من قبل اللّه باعتباره تحصـيل حاصل،ثمّ انّ هذه الشـهاده لا تنحصـر زمنيّا بوجوده المادى،و إنّما تشـمل البشـريه التى أرسل إليها جيلا بعد جيل،و زمنا بعد زمن.

و لكى يتضـح معنى الشـهاده بالنسـبه للرسـول القائـد صـلى الله عليـه و آلـه لا بـد مـن الحـديث عـن صـفتين تجسّـدانها من صفاته،هما:دعوته الناس الى الرساله عن طريق كلامه و بيانه،و الأخرى دعوته لهم من خلال سـلوكه و عمله،و ذلك بصنعه واقعا يتأثّر به المجتمع من حوله،و مثال ذلك أنّه صـلى الله عليه و آله حينما يوقّع على صلح الحديبيه،و يقبل بمحو اسم(رسول اللّه)من الوثيقه تكتيكيّا،فلكى يسـتمر الصـلح بفوائده استراتيجيّا،و حينما يوقد جيشا لجبا الى المعركه،و حينما يصلّى خاشعا لربّه، و حينما يعفو و يسامح،و..و..كلّ هذه السلوكيات تؤثّر واقعيّا على المجتمع،

ص:٣١٠

و تـدفعه دفعـا قويّا و من الأعماق للتأسّـِی بصاحبها و اتباعه،إذن فالقیاده قبل أن تکون منصـبا سیاسـیّا و اجتماعیّا،و قبل أن تکون قرارا من أعلی،هی-فی الواقع- مبادره و واقع عملی،و الأئمه علیه السلام أکثر ما أمروا أصحابهم و اتباعهم بالعمل لا بالکلام،و

الامام الصادق علیه السـلام یقول: «کونوا دعاه لنا بغیر ألسنتکم »یعنی بسلوککم و عملکم،لأنّ ذلک أمضی أثرا فی واقع الناس و نفوسـهم،و أکـبر دلالـه علی خطّ الإنسـان و فکره،و لقـد قرأنـا فی الـدرس السـابق کیف أنّ الرسول حینمـا أمر المسـلمین بحلق رؤوسهم و نحر بدنهم رفض أکثرهم فبادر شخصیّا الی ذلک فتهافتوا للحلق و النحر.

هـذا من جهه،و من جهه أخری إنّ ألفـاظ الرسـاله تتعرض للتلاـعب من قبـل المنـافقین،کمـا انّهـا تحتمل التأویل و التفسـیر،بینما الشـهاده العملیّه تبقی حجّه جلیّه بالغه،لا تحتمل أکثر من تفسـیرها الواقعی،فلو أمر الرسول صـلی الله علیه و آله الناس بالصـدق و بالأمانه بمجرد الکلام،دون أن یجسّد لهم هذین المعنیین،لکان الکثیر من المسـلمین یکذّب أو یخون،و یفسّـِر ذلک بأنّه الصدق و الأمانه اللّذان أمر بهما الرسول،و لکن الرسول قال و عمل فکان عمله أکبر مفسّر لقوله.

إنّ الرسول یصـبح شاهدا و قائدا للمسـلمین،و تصـبح سـیرته منهجا للأجیال بعد الأجیال،حینما یجمع أصـحابه و یذهب الی مکه فیتهرّب جمع منهم،و ینسلّون من جیشه لواذا خشیه الاباده،فإنّه یصنع واقعا حیّا،أو حین ینصرف من الخندق مع المسلمین،و یضع عنه اللّامه،و یغتسل،و یستحم،فینزل علیه جبرئیل و یقول له:

«عـذیرک من محارب.ألاـ أراک قـد وضـعت عنک اللّامه،و ما وضـعناها بعـد » فإذا به یثب صـلی الله علیه و آله للجهاد،و یتبعه المسلمون،و یحارب بنی قریظه.

هذه المواقف الواقعیه هی التی تترک أثرها البالغ فی نفوس الناس و الأجیال،

فهذه سيره رسول اللّه صلى الله عليه و آله تلهم المسلمين جيلا بعد جيل العزم و الاستقامه،لأنّه لم يكن شاهدا بكلامه و حسب،و إنّما بعمله و سلوكه لقد كان شاهدا فى كلّ حقل، مبادرا فى كلّ مكرمه،صانعا للأحداث،مقتحما غمار الصعاب،و حتى فى الحروب كان القائد الشاهد،و الى الحدّ الذى

قال عنه بطل الإسلام علىّ ابن أبى طالب عليه السّلام: «و كنّا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول اللّه صلى الله عليه و آله ،فلم يكن أحد منّا أقرب من العدوّ منه» (۱)و الرسالى الصادق هو الذى يشهد على عصره،و تفسّر مواقفه العمليه كلماته المضيئه.

[۱۰-۹]و يجرى السياق فى بيان أهداف البعثه.

لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ الذى طاعته و الايمان به امتداد للايمان باللّه.

وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً و هنا اختلف المفسرون فى تحديد الذى تعود عليه ضمائر هذه الكلمات،فقال جماعه بأنّها تعود الى اللّه سبحانه و تعالى،و لا يمكن أن تعود على الرسول،و قد عطف عليهما التسبيح الذى هو مختص به عزّ و جلّ،و قال آخرون بأنّ الضميرين فى تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ يعودان على الرسول،و المعنى تنصرونه و تعظّمونه.

و ما يبدو لى هو أنّ نصر اللّه و تعظيمه يتحققان بنصر رسوله و رفع شأنه لأنّهما جهه واحده،و ليس الرسول سوى وسيله الى اللّه،كما أنّ القبله بذاتها ليست هدفا،

ص:۳۱۲

۱- ۱) نهج/حكمه ۹

و إنّما هی وسیله للعباده،و نجد هذا المعنی جلیّا فی کثیر من الآیات القرآنیّه،و من جملتها قوله تعالی: «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِیعاً » (۱)و حبل اللّه هو الرسول و الأئمه (علیهم السلام)،و لاختصاص العبودیه باللّه نستطیع القول بأنّ الضمیر فی کلمتی «تعزّروه و توقّروه»یعود علی الرسول،بینما یعود فی کلمه«تسبّحوه»علی اللّه مباشره،و فی الآیه اللاحقه بیان و تأکید لهذه الفکره،یقول تعالی:

إِنَّ الَّذِینَ یُبٰایِعُونَکَ إِنَّمٰا یُبٰایِعُونَ اللّٰهَ فالمبایعه للّه،و لکنّها تمرّ عبر الرسول صلی الله علیه و آله ،و غایتها إظهار الولاء التام للقیاده، و التعهّد بالاستمرار فی خطّها، و لعلّ الکلمه مأخوذه من البیع فیکون معنی البیعه أن یبیع أفراد المجتمع المسلم أو التجمّع الرسالی ما لدیهم من طاقات و إمکانات مادیه و معنویه لقیادتهم بإزاء رضوان اللّه،و لیس بالضروره أن تتمّ البیعه بسلام الرجال علی الرسول مصافحه،و وضع النساء أیدیهنّ فی الماء،کما تمّ عند البیعه للرسول أو للإمام علی فی الغدیر،بل یمکن أن تتمّ عن طریق القسم الحرکی،أو بالوکاله بأن یبایع الأفراد نائب القائد،أو حتی بالکتابه،لأنّ المهم إظهار الاستعداد للطاعه بحرکه واضحه.

قال جابر بن عبداللّه(رضی اللّه عنه):بایعنا رسول اللّه تحت الشجره علی الموت،و علی أن لا نفر. (۲)

و کان الرسول صلی الله علیه و آله الذی یمثّل اللّه یضع یده علی أیدی المؤمنین فی البیعه،و قد أکّد ربّنا لنبیّه أنّه سیکون بالمرصاد لکلّ من تسوّل له نفسه الخیانه.

یَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ

ص:۳۱۳

۱- ۱) آل عمران۱۰۳/

۲- ۲) الزمخشری ج ۴ ص ۳۳۵

أی قوّته و قدرته أعلی من کلّ أحد.

فَمَنْ نَکَثَ فَإِنَّمٰا یَنْکُثُ عَلیٰ نَفْسِهِ لأنه سوف یضع نفسه فی موضع المحارب للّه ذی القوّه و الطول،و لن تقتصر خسارته علی الآخره و حسب،بل سوف یخسر فی الدارین،و علی عکسه الذی یلتزم بالعهد و یتم البیعه فإنّه یجنی السعاده فی الدنیا و الآخره.

وَ مَنْ أَوْفیٰ بِمٰا عٰاهَدَ عَلَیْهُ اللّٰهَ فَسَیُؤْتِیهِ أَجْراً عَظِیماً [۱۱]من معطیات السیر نحو مکه،و من تجلّیات الفتح المبین،کشف العناصر الضعیفه التی تعیش فی الأمّه،و حیث اللّه أعلم بعواقب الأمور،و واقع هؤلاء الناکثین،و أنّهم سوف یظهرون للنبی من الأعذار و التبریرات غیر الذی یضمرون، بیّن ذلک لرسوله،و لکی یتخذ منهم موقفا حاسما.

سَیَقُولُ لَکَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرٰابِ شَغَلَتْنٰا أَمْوٰالُنٰا وَ أَهْلُونٰا فَاسْتَغْفِرْ لَنٰا و هل ذلک عذر مقبول فی مثل هذه الفتره الحاسمه من حیاه الأمّه الاسلامیه؟ بلی.إنّ هؤلاء یقترفون الأخطاء ثم یحاولون خداع القیاده و استرضاءها بمجموعه من الأعذار الواهیه لتستر خلفیّاتهم،و هم بذلک یرتکبون خطأ آخر بالإضافه الی نکثهم و هو نفاقهم عبر تبریراتهم الکاذبه،و لکن اللّه یفضحهم،و یبیّن لرسوله واقعهم،و أنّهم لیسوا صادقین فی توبتهم،بل و لا فی أعذارهم.

یَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مٰا لَیْسَ فِی قُلُوبِهِمْ من نفاق و خیانه،و لعلّ هذه الکلمه تنطبق أکثر شیء علی تظاهرهم بالندم من

تخلّفهم و رجائهم الرسول بأن يستغفر لهم.

بلى.إنّ التبريرات قد تدفع عن الإنسان جزاء آتيا من أمثاله من البشر، أمّا جزاء اللّه فلا،لأنّه يغيب عنه شيء أو يمنع إرادته أحد.

قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرٰادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرٰادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كٰانَ اللّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً هكذا أمر اللّه رسوله أن يفضح المنافقين،و يعلن واقعهم.

[١٢] بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً ممّا أثار فيهم الظنون و التصوّرات،التى انعكست على تفكيرهم،و لم يكن مصدر ظنّهم هذا العلم الحاصل من تقييم الحوادث،إنّما كان سببه الخوف و الجبن،فى صوره ثقافه سلبيه ترتكز على التبرير.

وَ زُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ من زيّن لهم التقاعس؟إبليس و جنوده من الذين تجسّدت فيهم ثقافته.

وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ربما يعنى ذلك الحاله السلبيه التى تؤثّر فى التفكير،و يزيغ بصاحبه نحو الأفكار المتشائمه.

وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً و هكذا تدرّج أولئك الخاسرون فى دركات السقوط درجه درجه،فزيّن

-أوّلا-الشيطان أعمالهم السابقه فى قلوبهم حتى رأوها حسنه، ثم دفعهم ظنّ السوء الى التقييم السلبى،و أخيرا هلكوا،و من هنا نعرف أنّ بدايات الانحراف قد لا تستثير الإنسان،و لكنّها خطيره لأنّها تهوى بالبشر الى الهلاك المطلق.

[۱۳]و قد اعتبر اللّه هذه الخطوه دليلا على عدم الإيمان لدى هؤلاء،و توعّدهم بعذاب جهنّم جزاء لهذا الكفر فقال:

وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً إذن فربّنا هيّأ النار و أعدّها،و يا ترى كم ستكون مؤذيه هذه النار التى سجّرها اللّه لغضبه بالنسبه للبشر الضعيف؟! دعنا نقرأ هنا روايه عن الرسول صلى الله عليه و آله لعلّنا نخشى اللّه،و نجتنب المعصيه:

«إنّ جبرئيل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه و آله عند الزوال فى ساعه لم يأته فيها و هو متغير اللون،و كان النبى صلى الله عليه و آله يسمع حسّه و جرسه فلم يسمعه يومئذ،فقال له النبى صلى الله عليه و آله :يا جبرئيل مالك جئتنى فى ساعه لم تكن تجئنى فيها،وارى لونك متغيّرا،و كنت أسمع حسّك و جرسك فلم أسمعه؟!فقال:إنّى جئت حين أمر اللّه بمنافخ النار فوضعت على النار،فقال النبى صلى الله عليه و آله :أخبرنى عن النار يا جبرئيل حين خلقها اللّه تعالى؟فقال:إنّه سبحانه أوقد عليها ألف عام فاحمرّت،ثم أوقد عليها ألف عام فابيضّت،ثم أوقت عليها ألف عام فاسودّت،فهى سوداء مظلمه،لا يضىء جمرها،و لا ينطفئ لهبها،و الذى بعثك بالحقّ نبيّا لو أنّ مثل خرق إبره خرج منها على أهل الأرض لاحترقوا عن آخرهم، و لو أنّ رجلا دخل جهنم ثم أخرج منها لهلك أهل الأرض جميعا حين ينظرون إليه،لما يرون به،و لو أنّ ذراعا من السلسله التى ذكره اللّه تعالى فى كتابه وضع على جميع جبال الدنيا لذابت عن آخرها،و لو أنّ بعض خزّان جهنم التسعه عشر نظر إليه أهل الأرض

لماتوا حين ينظرون إليه،و لو أنّ ثوبا من ثياب أهل جهنّم أخرج إلى الأرض لمات أهل الأرض من نتن ريحه،فأكبّ النبی صلی الله عليه و آله و أطرق يبكی و كذلك جبرئيل، فلم يزالا يبكيان حتی ناداهما ملك من السماء:يا جبرئيل و يا محمّد إنّ اللّه قد آمنكما من أن تعصياه فيعذّبكما» (۱) [۱۴]و لكی لا يستبد بنا اليأس عند الحديث عن النار و عذابها،يؤكّد لنا اللّه رحمته الواسعه و غفرانه للذنوب.

وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً و قد حكی أنّ الرسول صلی الله عليه و آله لمّا سمع كلمه أفلاطون:(إذا كانت السماء قوسا،و البلاء سهما،و الرامی هو اللّه فأين المفر؟)نزلت عليه الآيه الكريمه:

«ففرّوا الی اللّه» (۲)بلی.إنّ الفرار ممكن،و لكن كيف نفر؟نفرّ من غضب اللّه إلی رضاه،و من سخطه الی عفوه،و ربنا برحمته الواسعه يقبل فرار العبد اليه،و لكن بشرط أن يستغفره و يتوب اليه صادقا.

و هنا فی هذه الآيه جعل اللّه نهايتها «غَفُوراً رَحِيماً »مع أنّه قال: «يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ »و ذلك تأكيدا لرحمته و رأفته بخلقه،و طردا لليأس من نفوسنا.

ص:۳۱۷

۱- ۱) بح/ج ۸ ص ۳۰۵

۲- ۲) الذاريات/۵۰

[سوره الفتح (۴۸): الآیات ۱۵ الی ۲۱]

اشاره

سَيَقُولُ اَلْمُخَلَّفُونَ إِذَا اِنْطَلَقْتُمْ إِلىٰ مَغٰانِمَ لِتَأْخُذُوهٰا ذَرُونٰا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاٰمَ اَللّٰهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونٰا كَذٰلِكُمْ قٰالَ اَللّٰهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنٰا بَلْ كٰانُوا لاٰ يَفْقَهُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً (۱۵) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ اَلْأَعْرٰابِ سَتُدْعَوْنَ إِلىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقٰاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اَللّٰهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَمٰا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذٰاباً أَلِيماً (۱۶) لَيْسَ عَلَى اَلْأَعْمىٰ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَى اَلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَى اَلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ مَنْ يُطِعِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذٰاباً أَلِيماً (۱۷) لَقَدْ رَضِيَ اَللّٰهُ عَنِ اَلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبٰايِعُونَكَ تَحْتَ اَلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مٰا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اَلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثٰابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (۱۸) وَ مَغٰانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهٰا وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۹) وَعَدَكُمُ اَللّٰهُ مَغٰانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهٰا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ اَلنّٰاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً (۲۰) وَ أُخْرىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهٰا قَدْ أَحٰاطَ اَللّٰهُ بِهٰا وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (۲۱)

اللغه

(۱۵) ذَرُونٰا :دعونا.

ص:۳۱۸

وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً

هدى من الآيات:

لقد وفّر الفتح المبين(صلح الحديبيه)للمسلمين حاله من السلام،التى تساعدهم على الانتشار و إعداد أنفسهم للمواجهه الحاسمه مع أعدائهم على الصعيد الخارجى،كما أنّه على صعيد الجبهه الداخليه كشف عن حقيقه المنتمين إليهم مما ساهم فى تصفيه العناصر الضعيفه و تمتين الجبهه الداخليه.

بلى.إذا كان هؤلاء يريدون العوده الى صفّ المؤمنين و القياده الرساليه لا بد أن يتوبوا توبه صادقه،و هنالك تسعهم رحمه اللّه،و تستوعبهم صفوف المؤمنين،و تقبلهم القياده،و لكن بشرط أن يبرهنوا عمليّا على صدقهم عبر الوقوف مع المؤمنين فى الشدائد الحاسمه.

و نستفيد من هذا الحكم الالهى حكمه بالغه فى معامله هذه النوعيه من الأفراد، و هى أن لا تقبلهم القياده الرساليه بعد ما تخلّفوا عن تجمّعها و أوامرها فى الشده، إلاّ

إذا أظهروا توبتهم،و وطّنوا أنفسهم على خوض الجهاد تحت رايتها،لأنّ قبول هذه النوعيه من دون امتحان عسير يثبت صدقها قد يكلّف الحركه الرساليه الكثير،لو أنّهم عادوا لطبيعتهم الانهزاميه و انشقّوا و شقّوا عصا الطاعه فى موقف خطير أو مهمّه حاسمه يكلّف التمرّد فيهما أضعاف ما يكلّفه التمرّد فى الظروف العاديه.

بينات من الآيات:

[۱۵] سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا و قد تمرّدوا من قبل على أمر القياده،و تخلّفوا عن المسير معكم،لا لأنّهم اكتشفوا خطأ فى خط الرساله،بل لأنّهم التحقوا به التحاقا مصلحيّا،و حيث ظنّوا-مجرّد ظن-بأنّ المسير الى مكّه يعنى الاباده،فهو خال من المصالح،نكصوا على أعقابهم،أمّا الآن و المسلمون يسيرون الى فتح مؤكّد فى نظرهم-و هو غزوه حنين حسب بعض التفاسير-فإنّهم يحاولون بكلّ طريق العوده الى صفوف الجيش الاسلامى،و لكن ليس من باب التوبه و إنما المصلحه.

ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ و قد حذّرهم اللّه من عواقب التخلّف عن نصره رسوله صلى الله عليه و آله ،و أنّه سوف يعذّبهم،و يمحوا أسماءهم من قائمه المقاتلين المؤمنين،لأنّ المقاتل المؤمن هو الذى يتبع أوامر قيادته فى كلّ مكان و أى زمان،و حيث نكصوا جزاهم اللّه بذلك،و هم الآن يسعون لتبديل ما حكم اللّه به.

يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاٰمَ اللّٰهِ و لكن هذا الحكم الشرعى تابت لا يتغيّر،و هو أنّ من يتمرّد على القياده الرساليه فى الظروف الصعبه ينبغى أن يطرد من صفوف المقاتلين.

قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونٰا فنحن مأمورون من قبل اللّه أن لا نقبلكم من دون شرط و قيد.

كَذٰلِكُمْ قٰالَ اللّٰهُ مِنْ قَبْلُ و هذا جزاؤكم الطبيعى.

و لأنّ هؤلاء مجبولون على التبرير فإنّهم لن يعترفوا بواقعهم،و إنّما سيحاولون التستّر بأعذار لا تنفع،شبيهه بتلك التى برّروا بها تخلّفهم عن المسير و القتال من قبل.

فَسَيَقُولُونَ و هم يتهمون المؤمنين و القياده الرساليه التى تجسّدت يومئذ فى الرسول صلى الله عليه و آله .

بَلْ تَحْسُدُونَنٰا و بالتالى فإنّكم تريدون من رفض انتمائنا إليكم التفرّد بالمكاسب،و فى مقابل هذه التهمه يأتى الردّ الالهى الحاسم بأنّهم غارقون فى الجهل.

بَلْ كٰانُوا لاٰ يَفْقَهُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً و يدلّ على ذلك أمران:

الأمر الأوّل:و قد عالجته الآيه فى مطلعها،و هو جهل هؤلاء بأنّ الانتهازىّ الذى يترك جماعته فى ساعه الحرج لا يمكن أن يحتسب منهم فى الرخاء كأمر واقعى،و بالذات فى المجتمع العربى الذى يعدّ ذلك من صميم عاداته و تقاليده

آنذاك.

فمن كـان يتخلّى عن عشيرته عنـد الشـده كـانوا ينبـذونه نبـذا تامّـا،و يحرّمـون عليه حـتى الزواج منهم!إذن فمن السـذاجه القول بأنّ(الصـلاه خلف عليّ أتم،و الأكل مع معاويه أدسم،و الوقوف على التلّ أسـلم)،و لا يمكن أن يسـمّى من هذا شعاره موحّدا أو منتميا الى الإسلام انتماء صحيحا،إنّما هو لقيط،و ينبغى للمؤمنين رفض انتمائه إليهم.

و قـد يشير الى هـذا الأمر خاتمه الآيه التى نحن بصدد تفسيرها،حيث تؤكّد بأنّ المخلّفين ساذجون لا يسـتطيعون سبيلا الى فهم الحقائق.

الأمر الثانى:الذى يدلّ على جهلهم أنّهم ينسـبون الحسد الى شـخص الرسول صلى الله عليه و آله مع اعتقادهم بأنّه مرسل من اللّه عزّ و جل،و هل الرسول يذنب أو يتمحور حول نفسه حتى يسعى وراء المغانم؟! و إذا افترضنا أنّهم لا يؤمنون به رسولا من اللّه،و لاـ قائـدا حقيقيّـا،فلمـا ذا يتبعونه،و يريـدون القتـال تحت لوائه؟! و لعـلّ تفسـير خـاتمه الآـيه أنّ هؤلاـء لاـ حظّ لهم من الوعى إلاّ القليـل،لأـنّهم أضـلّوا الطريق العـام فلاـ تنفعهم معرفتهم ببعض الطرق الفرعيه،ذلك لأنّ محور حقائق العلم هو معرفه اللّه،و سـنته الحق،و بصائر رسالاته،فإذا أخطئوا المحور فلا جرم أنّهم يتيهون فى الضلالات.

و مـاذا ينفع العلم بكـافه الحقول العلميه إذا كـان الخط العام لحياه الإنسان خاطئا؟أ رأيت كيف يوجّه المسـتكبرون كلّ علمائهم فيما يبعدهم عن اللّه، و يسبّب هلاكهم و هلاك العالم؟

ص:٣٢٣

فمجمل أفكارهم خاطئه،و بتعبير آخر أنّ القله هنا نوعيه لا كميّه.

[۱۶]و مع أنّ اللّه يفشل كلّ محاولاتهم لتبرير تخلّفهم أوّلا ثم عودتهم الى صفوف المسلمين فإنّه يفتح أمامهم طريقا للتوبه،و الطريق الواسع الى رحاب التوبه بالانتماء الحقيقى،إذ ليس صعبا أن ينتمى الشخص الى صفّ الرساليين ظاهرا، و إنّما الصعب أن يكون انتماؤه انتماء حقيقيّا تكشف عنه استقامته فى الظروف الصعبه.

و حيث مرّ هؤلاء بتجربه عمليه كشفت للقياده الرساليه و المؤمنين ضعف انتمائهم،فهم بحاجه إذن الى تجربه أخرى تثبت صدق توبتهم،و لا شك أنّ الذى يتوب عن صدق سوف يقبل بما يشترط عليه ليكون دليلا لتوبته،يحدوه الى ذلك خوفه من اللّه،و إحساسه بضروره التكفير عن ذنبه،و لذلك أمر اللّه رسوله أن يلزم التائبين من المخلّفين بشرط الثبات فى المواقف المستقبليه،و لعلّه عبّر فى مطلع الآيه بكلمه«قل»لبيان أنّ الشرط إنّما هو من عند اللّه عزّ و جل،و ليس من لدن الرسول صلى الله عليه و آله حتى يمنع بذلك أىّ محاوله أخرى للاعتراض أو التبرير.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرٰابِ سَتُدْعَوْنَ إِلىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقٰاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ و الاحتمال الأقوى أنّهم يختارون الحرب و لو فى بادئ الأمر،على الأفل تقه بالنصر على المسلمين و اعتمادا على قوّتهم الظاهريه،إذن فالابتلاء عظيم، و الامتحان عسير،يحتاج فيه هؤلاء عزم راسخ و إراده قويه لكى يثبتوا صدق توبتهم،و بالتالى تقبلهم القياده الرساليه فى تجمّعها،و لا يخوض غمار هذا الابتلاء إلاّ الصادقون،أمّا الانتهازيون و المصلحيون فإنّهم لن يجازفوا بأنفسهم.

ص:۳۲۴

و بالرغم من أنّ القرآن يشجّع المؤمنين فى الأغلب على الحرب يبعث الأمل بالنصر فى أنفسهم،إلّا أنّه هذه المره يصف العدو بالشده لأنّه يتناسب مع هدف هذه الآيه و القضيه التى جاءت بصددها و هو امتحان المخلّفين ليثبتوا جدارتهم للانتماء الى صفّ المؤمنين،بعد أن فقدوها بالانهزام السابق.

و قد اختلف المفسرون فى تحديد المعركه التى تشير إليها هذه الآيه الكريمه،فقال بعضهم:إنّها حرب المسلمين مع الروم،و قال جماعه:إنّها حرب المسلمين مع المرتدين بعد الرسول صلى الله عليه و آله ،و قال آخرون:إنّها الحرب التى دارت رحاها على الفرس،و قيل أنّها الحرب مع هوازن و ثقيف بعد فتح مكه،و لعلّ هذا المحمل هو الأقرب الى جوّ الآيات و إيحاءاتها التى تفيد الحديث عن عصر الرسول لا بعده، حيث أنّ غزوه حنين كانت أعظم الغزوات بعد صلح الحديبيه ثم فتح مكه.

و رغّبهم فى قبول هذا الشرط بالترغيب فى ثواب اللّه و عطائه،و ما يترتب على ذلك من قبول لتوبتهم،ثم حذّرهم من عواقب الرفض لأمر اللّه الذى يستتبع العذاب و الخساره.

فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللّٰهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَمٰا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ لمّا دعاكم الرسول الى المسير الى مكه قبل صلح الحديبيه،فجبنتم بسبب سوء الظن باللّه،و قدّمتم المعاذير الواهيه.

يُعَذِّبْكُمْ عَذٰاباً أَلِيماً [۱۷]و بمناسبه الحديث عن الأعذار التى كان يسوقها المتخلّفون يبيّن السياق الأعذار المشروعه التى تسقط القتال عن المؤمن،لكى تتوضّح و لا يتشبّث المتقاعسون بكلّ عذر تافه للتنصّل عن مسئوليه القتال.

ص:۳۲۵

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمىٰ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ و هـذه من سـماحه الإسـلام و نظرته المتوازنه للأمور أنّه فى الوقت الـذى يشـدّد على موضوع القتـال لاـ يغفل عن بيان الأعـذار الحقيقيه التى يعـذر فى إطارها المتخلّفون،ثم يجعل الحدّ الفاصل فى إفرار هـذه الأعـذار أو رفضـها رأى القائد،لأنّه هو الذى يحدّد متى تكون هذه الأعذار الآنفه الذكر مقبوله كمانع عن القتال،فمن يحدّد -مثلا-أنّ الأعمش يلحق بالأعمى،و ما درجه ضـعف العين الذى يسـقط بموجبه الجهاد عن صاحبه،و ما درجه العرجه،و هـل أنّ المرض الـذى لاـ يمنع عن القتـال -كمرض السـكّرى-يعتبر عـذرا؟ثم أنّ هناك أعـذارا حقيقيه لم يتعرّض لها النصّ،مثل شلل اليدين،و البدنه المفرطه،و السفه..،و لعلّه لذلك أكّد ربّنا بعد ذكر الأعذار الشرعيه على طاعه القياده،فقال:

وَ مَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ و إذ يعـد اللّه الطائعين له و لرسوله بهـذا الجزاء،و يشـير فى علاجه لمثـل هـذه القضـيه الى موضوع الآخره،فلأنّ العامل الأساسـى الـذى يـدفع الإنسان للفرار من ساحه المعركه،أو للتمرد على أوامر القيـاده الرساليه بشـكل عام،هو التشـبّث بحطام الـدنيا الزائل،و هكـذا يخلق التـذكّر بالآخره معادله فى ضـمير الإنسان و عقله بين نتائـج الهزيمه السـلبيه،و معطيـات الثبـات و الطاعه الايجابيه العظيمه،و تأتى فى البين خاتمه الآيه لترجع فرار الطاعه و الثبات على فرار الهزيمه بإثاره عامل الخوف و الرهبه من عذاب اللّه عند الإنسان.

وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذٰاباً أَلِيماً

و التولّی هو الفرار من الزحف و الجهاد فی سبیل اللّه،الأمر الذی یستوجب العذاب الألیم.

[۱۹-۱۸] لَقَدْ رَضِیَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِینَ إِذْ یُبٰایِعُونَکَ تَحْتَ الشَّجَرَهِ أمّا هدف العهد مع اللّه فإنّه یستمطر رضاه و ثوابه،فقد وسعت مرضات اللّه المؤمنین حین بایعوا رسول اللّه علی القتال حتی الموت بین یدیه،و ذلک قبل أن یبرم الصلح،فلمّا رأی المشرکون عزم المؤمنین علی الحرب و الاستقامه قبلوا بالصلح.

إنّ اللّه سبحانه قد یقبل بیعه المؤمنین،و یغفر ذنوبهم کلّها. أ لیست الحسنات یذهبن السیئات؟بلی.إنّ الموقف البطولی یسوی عند اللّه الشیء الکثیر،و یرجح فی میزانه علی کلّ عمل،و لعلّه لذلک یغفر اللّه للشهید کلّ ذنوبه.

و لقد کانت بیعه المؤمنین للرسول تحت الشجره دلیلا أکیدا علی عمق إیمانهم بالرساله،و لو لم یکونوا مؤمنین بمعنی الکلمه لما بایعوا الرسول صلی الله علیه و آله و هم یعلمون أنّ المواجهه بینهم و بین المشرکین لو حصلت تعنی حسب المقاییس الظاهره إبادتهم من الوجود،و من هذا المنطلق کانت البیعه فارقا بین المنافقین و ضعاف الایمان و بین المؤمنین الصادقین،و هی کما کشفت فریق المخلّفین میّزت المؤمنین و أفرزتهم، و هکذا تنفع المواقف الحرجه الحرکه الرسالیه فی الکشف عن هویه أفرادها و نقاط القوه و الضعف فیهم.

فَعَلِمَ مٰا فِی قُلُوبِهِمْ من الثبات و صدق الایمان و عموم مؤهلات النصر الالهی.

فَأَنْزَلَ السَّکِینَهَ عَلَیْهِمْ وَ أَثٰابَهُمْ فَتْحاً قَرِیباً* وَ مَغٰانِمَ کَثِیرَهً یَأْخُذُونَهٰا

وَ کٰانَ اللّٰهُ عَزِیزاً حَکِیماً و قد تجسّد ذلک الفتح فی الانتصارات و المغانم التی صار إلیها المؤمنون بعد ذلک فی معرکه خیبر و فتح مکه و غیرهما،و لا شک أنّ المؤمنین کانوا یخسرون الکثیر، و تفوتهم هذه الانتصارات لو کان قرارهم الانهزام،و هذه الحقیقه واضحه فی تاریخ الأمم و الحرکات،فهی عند ما تتمسّک بمبادئها و أهدافها،و تستقیم من أجل ذلک رغم المصاعب و التضحیات،تصل الی ما ترید بتضحیات أقل،بینما تقصر علی غایاتها،و تعیش الذلّ و الهوان،حینما تنقلب علی أعقابها،و تدفع إضافه الی ذلک أضعافا مضاعفه من الخسائر ضریبه للهزیمه.

و من خلال الآیات المتقدمه یتضح أنّ المؤمنین وصلوا للمکاسب التالیه نتیجه لثباتهم علی العهد:

۱-تثبیت الایمان فی قلوبهم و زیادته.

۲-الفتح العسکری القریب إضافه الی الفتح السیاسی المتمثّل فی صلح الحدیبیه.

۳-المغانم الکثیره معنویه و سیاسیه و اقتصادیه.

[۲۰] وَعَدَکُمُ اللّٰهُ مَغٰانِمَ کَثِیرَهً تَأْخُذُونَهٰا فی المستقبل،و لکنّه عجّل لهم أمرین:

الأوّل:المغانم الأولیّه التی حصل علیها المؤمنون إثر الصلح،کدخول أفواج من الناس فی الدین،و تخالف بعض القبائل مع الرسول،و حصول حاله من الأمن تمکّنه من بناء حرکته و إعداد المؤمنین للمواجهه الحاسمه،أمّا ما حصلوا علیه بعد

فتح مكه عسكريّا فهو كثير أيضا،و الذى من أعظمه و أبرزه القضاء على السلطه المنحرفه فيها،و دخول الناس أفواجا فى دين اللّه،ممّا جاء تفصيله و بيانه فى سوره النصر.

الثانى:دفع أذى المشركين و الكفّار عن المؤمنين بصلح الحديبيه،إذ لو كانت المواجهه تحدث يوم ذاك بين المؤمنين بأعدادهم و عدّتهم القليله من جهه،و المشركين بأعدادهم و عددهم الكثيره من جهه أخرى،لكانوا يبادون و تنطفئ شعله الإسلام.

فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النّٰاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ على رضى اللّه عنهم،و نصره لعباده الذين ينصرونه و يطيعون أولياءه،فينبغى للمؤمنين أن يدرسوا هذه الآيات، و يتدبّروا فى هذه الحادثه التاريخيه،ليستفيدوا عبره هامه و هى ضروره الطاعه للقياده فى السلم و فى الحرب،و عدم اتباع الآراء الشخصيه و العواطف المثاره،لأنّ الطاعه للقياده الرساليه هى الطريق الى الهدايه الحقيقه.

وَ يَهْدِيَكُمْ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً [٢١]قبل النصر تجتاح الأمه فتنه الشك فى وعد اللّه،أمّا بعده فإنّهم يتعرّضون للغرور و الاعتقاد بأنّ قوتهم الذاتيه كانت سبب الفتح،مما يدفعهم للاستهانه بالقيم الحق التى هيّأت ظروف النصر عند التمسّك بها،و لعلّه لذلك أكّد ربّنا هنا -و بعد بيان مكاسب صلح الحديبيه-على المكاسب التى لم يقدر على تحقيقها المؤمنون إلاّ بتوفيق،و من توفيقه الوحى الالهى و القياده الربّانيه،و إذا اتبع المجاهدون السبل الأخرى الملتويه فسوف تؤكّد الهزيمه فى واقعهم،مهما كان ظاهر

الأمر یوحی بخلاف ذلک،و من یرد نصر اللّه و رحمته یجب أن یعطیه و یلتزم بأمره.

وَ أُخْریٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَیْهٰا قَدْ أَحٰاطَ اللّٰهُ بِهٰا وَ کٰانَ اللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیراً فهو محیط علما و قدره بالمکاسب الأخری التی تأتی فی المستقبل،و التی تغیب عن وعی المؤمنین،أو ربما کانوا لا یصدّقون بأنّهم سوف یبلغونها لو قیل لهم ذلک، نظرا لکونها مکاسب کبیره بالنسبه الی قدراتهم و إمکاناتهم،فهل کانوا یعلمون أو یصدّقون بالمکاسب التی حصلوا علیها فیما بعد من بلاط کسری و قیصر؟کلاّ..

و هی کلّها من معطیات صلح الحدیبیه لو درسنا التاریخ دراسه واقعیه معمّقه، فانتصار الرسول علی یهود خیبر و فتحه لمکه المکرمه عسکریّا،الأمر الذی کان یعنی سیطرته التامه علی شبه الجزیره العربیّه بکاملها،کلّ ذلک کان من مکاسب الصلح،و هذه الانتصارات بدورها وحّدت القوی آنذاک کلّها تحت رایه الإسلام، فإذا بالمسلمین قوه ضاربه تنطلق شرقا لتفتح بلاد فارس،و غربا و شمالا لتنتهی الی سلطان الروم،و تبنی علی انقاضها حضاره الإسلام.

و لم یکن أحد من المؤمنین-إلاّ من شاء اللّه-یتوقّع النجاه من ید مشرکی مکه حینما دعاهم الرسول للبیعه،بل کان کثیر منهم فریسه للشک فی الدین، و التخلّف عن أوامر القیاده الرسالیه،فکیف بهم یدرکون تلک المکاسب العظیمه أو یؤمنون بها؟ إنّ المؤمنین کانوا یخسرون هذه المکاسب لو اتبعوا أهواءهم و آرائهم الشخصیه القاصره فتخاذلوا عن نصره الرسول و البیعه له یومئذ،لذلک ینبغی لنا فی کلّ مکان و زمان أن نتبع الوحی الالهی،و نسعی فی تطبیقه،لا أن نتبع أهواءنا و تصوّراتنا البشریه المحدوده.

[سوره الفتح (۴۸): الآیات ۲۲ الی ۲۹]

اشاره

وَ لَوْ قاتَلَکُمُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَوَلَّوُا اَلْأَدْبارَ ثُمَّ لا یَجِدُونَ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً (۲۲) سُنَّهَ اَللّهِ اَلَّتِی قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهِ اَللّهِ تَبْدِیلاً (۲۳) وَ هُوَ اَلَّذِی کَفَّ أَیْدِیَهُمْ عَنْکُمْ وَ أَیْدِیَکُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَکَّهَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَکُمْ عَلَیْهِمْ وَ کانَ اَللّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیراً (۲۴) هُمُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوکُمْ عَنِ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرامِ وَ اَلْهَدْیَ مَعْکُوفاً أَنْ یَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِیبَکُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّهٌ بِغَیْرِ عِلْمٍ لِیُدْخِلَ اَللّهُ فِی رَحْمَتِهِ مَنْ یَشاءُ لَوْ تَزَیَّلُوا لَعَذَّبْنَا اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِیماً (۲۵) إِذْ جَعَلَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فِی قُلُوبِهِمُ اَلْحَمِیَّهَ حَمِیَّهَ اَلْجاهِلِیَّهِ فَأَنْزَلَ اَللّهُ سَکِینَتَهُ عَلی رَسُولِهِ وَ عَلَی اَلْمُؤْمِنِینَ وَ أَلْزَمَهُمْ کَلِمَهَ اَلتَّقْوی وَ کانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها وَ کانَ اَللّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً (۲۶) لَقَدْ صَدَقَ اَللّهُ رَسُولَهُ اَلرُّؤْیا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ اَلْمَسْجِدَ اَلْحَرامَ إِنْ شاءَ اَللّهُ آمِنِینَ مُحَلِّقِینَ رُؤُسَکُمْ وَ مُقَصِّرِینَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِکَ فَتْحاً قَرِیباً (۲۷) هُوَ اَلَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِینِ اَلْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی اَلدِّینِ کُلِّهِ وَ کَفی بِاللّهِ شَهِیداً (۲۸) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اَللّهِ وَ اَلَّذِینَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَی اَلْکُفّارِ رُحَماءُ بَیْنَهُمْ تَراهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً یَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اَللّهِ وَ رِضْواناً سِیماهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ اَلسُّجُودِ ذلِکَ مَثَلُهُمْ فِی اَلتَّوْراهِ وَ مَثَلُهُمْ فِی اَلْإِنْجِیلِ کَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوی عَلی سُوقِهِ یُعْجِبُ اَلزُّرّاعَ لِیَغِیظَ بِهِمُ اَلْکُفّارَ وَعَدَ اَللّهُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَهً وَ أَجْراً عَظِیماً (۲۹)

اللغه

(۲۵) اَلْهَدْیَ :الإبل التی ساقها المسلمون لعمرتهم.

مَعْکُوفاً :من عکف إذا حبس لأنّ الإبل کانت محبوسا علی الهدی لینحر بعد قضاء العمره،فقد منع المشرکون أن یبلغ الهدی محله،أی المکان الذی ینحر فیه بمکه.

مَعَرَّهٌ :أی مکروه.

لَوْ تَزَيَّلُوا :تفرّقوا و تميّز المسلم عن الكافر فى مكه.

ص:۳۳۲

(۲۹) شَطْأَهُ :فراخه.

فَآزَرَهُ :فقوّاه و شدّه و أعانه.

سُوقِهِ :جمع ساق و هو القصب و الأصل.

ص:۳۳۳

هدى من الآيات:

لأنّه قد جرى فى البدء جدل بين المسلمين حول صلح الحديبيه،نجد السياق القرآنى هنا يؤكّد على المكاسب الكبيره التى جناها المسلمون من وراء هذا الصلح المبارك، ليؤكّد على سلامه النهج الرسالى،و ضروره الطاعه أبدا للقياده الربانيه، كما تذكّر الآيات بهذه المناسبه بطائفه من الحقائق التى غابت عن الأذهان،و التى تتصل بهذا الأمر اتصالا مباشرا.

الأولى:إنّ الحرب ليست هدفا بذاتها،و إنّما هى وسيله الى هدف لو حقّقناه من دونها يكون الأمر أفضل،بل لا يصح آنئذ إثارتها أبدا.

الثانيه:إنّ وصول المسلمين الى أهدافهم من دون الحرب ليس إلاّ دليلا على تأييد اللّه لهم،لأنّه يصعب الوصول الى مثل هذه الأهداف من دون التضحيات الباهظه.

ص:٣٣۴

الثالثه:لو أنّ المشركين أشعلوا فتيل الحرب مع المسلمين ببطن مكه لانتصر المسلمون عليهم بإذن اللّه،و هذه سنّه إلهيه سابقه و دائمه لا يمكن أن تتبدّل،و لكنّ عدم حدوث الحرب ليس فى صالح المشركين و حسب،باعتبارهم كانوا يهزمون لو بدأوها،و إنّما هى فى صالح المسلمين أيضا.

الرابعه:لو أنّ الحرب وقعت بين المشركين و المسلمين يومذاك ربما لم يكونوا يستطيعون النفاذ الى قلوب المشركين و بذلك القدر من الأثر العميق،بل ربما ازداد المشركون تعنّتا و رفضا،و بالذات كانت لدى قريش و من لفّ لفها مشكله نفسيه، تتمثّل فى الحميّه الجاهليه التى أوغرت قلوبهم ضد المسلمين،فلو كان المسلمون يدخلون فى نفق العصبيه،فبدل أن يقيّموا الأحداث و الواقع تقييما موضوعيّا يأخذ بعين الاعتبار المصلحه الرساليه،يتّبعون ردّات الفعل و العواطف المستثاره، و يصرّون على عدم الرجوع بدون الطواف حول الكعبه و النحر و تقديم الهدى و..

و..،كما أراد ذلك قسم من المسلمين،لتساووا فى العصبيه مع كفّار قريش و مشركيها.

و من هذه الفكره نستفيد عبره هامه،و هى ضروره أن يدرس المؤمنون القضايا و المواقف المختلفه دراسه رساليه،نابعه من نهج موضوعى،هدفه مصالح الإسلام، و ليس إرضاء نزواتهم و عواطفهم.

ثم إنّ القرآن يسوق الحديث عن الرسول صلى الله عليه و آله و الذين حوله من المؤمنين، و كيف أنّ شخصيتهم الايمانيّه ذات بعدين،فظاهرها العذاب و الحدّه على أعداء اللّه،و باطنها الرحمه و اللّطف برفاق المسيره الواحده،و فى الضمن يتبّهنا إلى فكره هامه،و هى أنّ أصحاب الرسول ليسوا مبرّأون من الأخطاء،و ليسوا حجج اللّه على الناس،و إنّما الرسول وحده الحجه أو من نصّبه اللّه لذلك.و كيف يكون حجه

مطلقه من أمكن خطأه؟نعم.المؤمن-كلّ مؤمن-حجه على الآخرين فيما يصح من أعماله و صفاته،و لذلك فإنّ مغفره اللّه و أجره لا يشملان كلّ الذين صحبوا النبى صلى الله عليه و آله ،و إنّما يختصّ بهما المؤمنون الصادقون الذين أخلصوا الصحبه، و استقاموا على الحق إلى الأخير.

بينات من الآيات:

[۲۲]بالرغم من قوّه قريش و حلفائها التى تفوق فى ظاهرها قوه المسلمين، و بالرغم من اعتقادهم-و ربما اعتقاد كثير من المسلمين-بأنّ الحرب بين الطرفين تعنى غلبتهم على حزب اللّه،يؤكّد ربّنا لرسوله و للمؤمنين أنّ الحرب لو دارت رحاها لانتصروا عليهم،و لهزموهم شرّ هزيمه.

وَ لَوْ قٰاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبٰارَ فرارا من المواجهه،دون أن تجرأ قوى الحلفاء كثقيف و هوازن على إسناد قريش،لأنّها هى الأخرى سوف يدخلها الرعب ممّا يسلبها شجاعه اتخاذ قرار الدعم و النصره.

ثُمَّ لاٰ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً إنّ أولئك الذين كانوا يعتقدون بقياده قريش،و يسلّمون لولايتها عليهم، سوف تتبدّل قناعاتهم فيها،لأنّهم إنّما صاروا الى ذلك ثقه فى قوّتها و قدرتها،و قد هزمت فهى إذن لا تستحق أن تتولاّهم..ثم لنفترض أنّهم تدخّلوا لصالحها فى الحرب،فهل ذلك يبدّل هزيمتهم إلى نصر؟كلاّ..و ما هى قوّتهم أمام إراده اللّه؟ [۲۳]ثم ليعلم هؤلاء و أشباههم عبر الزمن أنّ انتصار الحق على الباطل سنّه إلهيه ثابته تحكم الحياه بإذن اللّه،و قد عجز أسلافهم الذين هم أشدّ قوّه منهم عن

تغییر هذه السنه،فکیف بهم؟وهب أنّهم أقوی من الغابرین،أو جاء فی التاریخ من هو أقوی من أولئک،فهل یغلب اللّه علی أمره؟ سُنَّهَ اللّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهِ اللّهِ تَبْدِیلاً أو لم ینتصر نوح علی کلّ الکافرین فی الأرض؟أو لم ینتصر طالوت بفئته القلیله من المؤمنین علی الکافرین فی عصره؟ أو لم یقل اللّه: «کَمْ مِنْ فِئَهٍ قَلِیلَهٍ غَلَبَتْ فِئَهً کَثِیرَهً بِإِذْنِ اللّهِ وَ اللّهُ مَعَ الصّابِرِینَ » (1)؟ [۲۴]إنّ الانتصار القیاسی الذی بلغه المسلمون فی صلح الحدیبیه لم یکن بدهاء منهم،أو بأنّ قریشا رحمتهم فکفّت أذاها عنهم،و إنما اللّه هو الذی صیّر الأمور إلی هذه النتیجه، «وَ کَفَّ أَیْدِیَ النّاسِ عَنْکُمْ » (2)،بلی.لقد بلغ المسلمون هذه المکاسب السیاسیه و المعنویه من دون أدنی خساره عسکریه،و الحال أنّ الوصول إلی ذلک محال بالطرق الطبیعیّه،و لو تحقّق لاقتضی الأمر تضحیات عظیمه.

وَ هُوَ الَّذِی کَفَّ أَیْدِیَهُمْ عَنْکُمْ وَ أَیْدِیَکُمْ عَنْهُمْ فمن ناحیه منّ اللّه علی المؤمنین بالخلاص من أیدی المشرکین قبل صلح الحدیبیه،و من ناحیه أخری منّ علی المشرکین حین عفی عنهم الرسول صلی الله علیه و آله بعد الفتح.

بِبَطْنِ مَکَّهَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَکُمْ عَلَیْهِمْ وَ کانَ اللّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیراً

۱- ۱) البقره/(۲۴۹).

۲- ۲) الفتح/(۲۰).

و مع ورود هذه الآيه فی سياق الحديث عن صلح الحديبيه إلّا أنّها تشير كما يبدو إلی فتح المسلمين عسكريّا لمكّه المكرمه.

[۲۵]و لكن لماذا كف اللّه أيدی المؤمنين عن المشركين،و لم يأمرهم بقتالهم؟ هل لأنّهم طيّبون؟أو لأنّ لهم فضلا و سابقه حسنه معهم؟بالطبع كلّا..و تشهد علی ذلک عقائدهم المنحرفه و أعمالهم السيئه تجاه أتباع الرساله.

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ وَ الْهَدْیَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ لقد منعوا المؤمنين من حجّ بيت اللّه بالرغم من تهيئهم التام لذلک،و كان ذلک من أبشع الجرائم فی عرف العرب يومئذ،لقد فضح ذلک قريشا التی كانت تفتخر علی سائر العرب بأنّها حاميه البيت الحرام،و حافظه حرمه الوافدين إليه.

ماذا بقيت لقريش من شرعيه السياده علی العرب بعد أن منعت الحجّاج و صدّتهم عن إقامه الشعائر التی كانت العرب تقدّسها؟ هكذا كشف النبی(صلّی اللّه عليه و آله و سلّم)عن زيف ادّعاءات قريش، و أسقطها سياسيّا عن كرسی سياده العرب تمهيدا لا سقاطها عسكريّا فيما بعد.

ثم إنّ جريمه قريش كانت كبيره،إذ كيف يمنع المشرفون علی البيت،و المدّعون خدمه الوافدين عليه الناس من ممارسه شعائرهم؟!أوّلا يستحق هؤلاء القتل و العذاب بعد ظفر المسلمين بهم؟نعم.و لكنّ اللّه حجز المؤمنين عن أذاهم لوجود المؤمنين بينهم،سواء المؤمنين بالفعل ممّن أخفی إيمانه تقيه،أو الذين هم علی أعتاب الدخول فی الدّين،و يحدّثون أنفسهم بالانتماء الی الرساله.

وَ لَوْ لاٰ رِجٰالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسٰاءٌ مُؤْمِنٰاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ يعنى لو كنتم تقاتلون الكفار-دون أن يكفّ اللّه أيديكم عنهم-لكنتم تقتلون فيمن تقتلون المسلمين من دون علم،لأنّهم كانوا يكتمون إيمانهم على خوف من قريش،و لأنّ شروط الصلح كانت لا تسمح لهم باللجوء إليكم،و لو فعل المؤمنون ذلك لربما أضرّهم،و لكنّ اللّه لم يأمرهم بالقتال.

و نعرف من هذه الآيه أوّلا:أنّ المؤمنين استفادوا من فتره السلام التى وفّرها الصلح فى تقويه أنفسهم و بناء حركتهم و توسيعها،إلى الحدّ الذى اخترقوا فيه كيان قريش نفسها،و حيث سارت جيوش الإسلام لفتح مكّه كانت قريش منخوره الكيان من الداخل،و كان الجند-و ربما كثير من الزعماء الذين ينتظر منهم محاربه أتباع الرساله-ينتظرون الفرصه المناسبه للتلاحم مع صفّ المؤمنين ضدّ أعدائهم، و هذا بالفعل ما تؤكّده سوره النصر: «وَ رَأَيْتَ النّٰاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللّٰهِ أَفْوٰاجاً »، و ربما لذلك أيضا لم تجد قريش نفسها قادره على اتخاذ قرار المواجهه العسكريه ضد الجيوش القادمه من المدينه بقياده الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله ،الأمر الذى جعل المسلمين يدخلون مكه فاتحين دون تضحيات.

و ثانيا:انّ المؤمنين كانوا يجهلون هذه المكاسب العظيمه للصلح،و ذلك هو الذى جعل بعضهم يعترض على الرسول،و ربما طفق يشك فى قيادته،فهم لم يكونوا يعلمون بالجبهه الايمانيه الموجوده فى صفوف أهل مكّه،و قول بعضهم و قد حمل الرايه (اليوم يوم الملحمه،اليوم تسبى الحرمه)دليل واضح على هذه الحقيقه.

و من هذا المنطلق يجب أن نستفيد درسا فى علاقتنا بالقياده الرساليه،و هو أنّ جهلنا بخلفيات قراراتها لا يعنى أنّها خاطئه،و يجب أن لا يدفعنا ذلك إلى التشكيك

فيها،فليس بالضروره أن يتضح لنا كلّ شيء،لأنّ كثيرا من الأمور يكشف عنها المستقبل،و رؤيتها تحتاج إلى بصيره ثابته و معلومات متكامله،ممّا لا تتوافر إلاّ عند القياده الشرعيه الرشيده.

لِيُدْخِلَ اللّٰهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشٰاءُ أى فى الايمان،و هل خلق اللّه الناس إلاّ ليرحمهم؟ «إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ » (۱)،و لو أنّ المؤمنين قاتلوا المشركين يومذاك لقتلوا الكثير ممّن دخلوا الدّين فيما بعد،و منعوا عنهم رحمات اللّه و بركاته،و هكذا ينبغى أن تكون استراتيجيه الدوله الاسلاميه قائمه على أساس اجتذاب الناس الى الدّين،و لو بتقديم بعض التنازلات،و ليس تحطيم الخصم و قهر إرادته،و لو سبّب ذلک إثاره البغضاء فى أنفسهم ممّا يشكّل حاجزا نفسيّا يمنعهم مستقبلا من الدخول فى الدّين.

بلى.لو امتاز الفريقان لعذّب اللّه المشركين و الكافرين بسيوف عباده المؤمنين.

لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً و فى الروايات المأثوره:إنّ اللّه ليدفع البلاء عن القريه بالمؤمن،و

جاء فى الحديث القدسى: «لولا شيوح ركّع،و شباب خشّع،و صبيان رضّع،و بهائم رتّع،لصببت عليكم العذاب صبّا» (۲).

[۲۶]و لكن لماذا ينذر اللّه الذين كفروا بالعذاب فى الآيه السابقه؟هل لأنّهم من قريش أم لقيمه ماديه أخرى؟كلاّ..إنّما للحميّه المرتكزه فى قلوبهم.

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجٰاهِلِيَّةِ

ص:۳۴۰

۱- ۱) هود/(۱۱۹).

۲- ۲) كلمه اللّه/للشهيد الشيرازى ص(۷۶).

فالحق ظاهر و بيّن لهم،و يعلمون أنّهم على الباطل،و لكن العزّه بالإثم(القيم الجاهليه التى درجوا عليها)لا تدعهم يقبلون الحق،و يسلّمون لقياده الرسول، فالقائد فى نظرهم يجب أن يكون أكبر القوم سنّا،و أكثرهم مالا و نفرا،فكيف يقودهم رجل يتيم لا مال له؟ لهذا فإنّهم و هم يحاربون أتباع الرساله لم يكونوا يدافعون عن حقّ يؤمنون به، و إنّما يحمون أنفسهم و يدافعون عن قيمهم الجاهليه،بينما المؤمنون يقاتلون من أجل اللّه،و يدافعون عن القيم و القائد الحق.

فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بينما خذل من جهه أخرى فلول الكفّار،لأنّ هؤلاء ينصرونه فهم أولى بنصره، بينما ينصر أولئك أصنامهم و شهواتهم.و لعلّ هذه السكينه كانت أعظم وسيله لنصرهم،فمن اطمأنّ إلى سلامه خطّه حارب دونه بشجاعه فائقه،بينما الذى يحارب للعصبيّات الزائفه ينهزم نفسيّا قبل أن ينهزم عسكريّا،و قد قيل:الحرب صراع إرادات،و لا ريب أنّ إراده صاحب السكينه أمضى.

وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوىٰ وَ كٰانُوا أَحَقَّ بِهٰا وَ أَهْلَهٰا و كانت كلمه التقوى مقابل الحميّه التى تعشعش فى قلوب الكافرين،و من شواهد التزام المؤمنين بها فى سلوكيّاتهم موقف رسول اللّه صلى الله عليه و آله حينما أراد التوقيع على الصلح،فأنكروا عليه كلمه(الرّحمن الرّحيم)،و أن يسمّى رسول اللّه،فقد تنازل عن ذلك لمصلحه الرساله مع أنّ الموقف كان محرجا و لكنه صلى الله عليه و آله لم تأخذه الحميّه،و لم يسمح للعواطف المستثاره أن تؤثّر فى خططه الرشيده.

إنّ التقوى ليست مجرّد كلمه يقولها الإنسان،بل هى برنامج متكامل و التزامات

یفرضـها الدّین علی أتباعه،و من دونها لا یکون أحد متقیا،لأنّ للمتقی صـفات و علامات من أبرزها التزامه بقیمه التقوی فی کلّ ظرف أو وضع نفسـی یمرّ به،فإذا سـخط لم یخرجه سـخطه عن رضـی ربّه،و إذا رضـی لم یدخله رضاه فی سخطه،إنّما هو ملتزم برضی اللّه،یسخط لسخطه و یرضی لرضاه عزّ و جل.

و

جاء فی روایه عن أبی جعفر علیه السـلام : «إنّما المؤمن الذی إذا رضی لم یدخله رضاه فی إثم و لا باطل،و إذا سخط لم یخرجه سخطه من قول الحق،و المؤمن الذی إذا قدر لم تخرجه قدرته إلی التعدّی و إلی ما لیس له بحق» (۱).

و

قال الصادق علیه السـلام : «من ملک نفسه إذا رغب و إذا رهب،و إذا اشتهی،و إذا غضب و إذا رضی،حرّم اللّه جسده علی النار» (۲).

و

عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال: «ما أنفق مؤمن نفقه هی أحبّ إلی اللّه عزّ و جلّ من قول الحقّ فی الرضا و الغضب» (۳).

و لعلّ الآیه تشیر فیما تشیر إلیه الی أنّ المتقی الحقیقی یزیده اللّه تقوی و إیمانا کلّما واجه ظرفا صعبا،لأنّه إذا عمل آنئذ بموجب تقواه تکرّست فی نفسه التقوی..هکـذا حین عمـل المؤمنون حسب تقواهم،و لم تأخـذهم حمیه الجـاهلیه،و لم تؤثّر فیهم إثارات قریش،و صدّهم إیّاهم عن إقامه شعائرهم،بل قبلوا بقرارات القیاده، حینئذ أثابهم اللّه علی ذلک بتنمیه روح التقوی فی أنفسهم.

وَ کٰانَ اللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً

۱- ۱) بح/ج(۷۱)/ص(۳۵۸).

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) المصدر.

فهو محيط بمدى ما يستقلّه قلب الإنسان من التقوى،و لا داعى لاثاره الجدل فى كون فلان من المؤمنين أم لا،و هل يدخل الجنه أم النار،لأنّ ذلك عند اللّه،و لا ينبغى التطفّل فيما يختصّ به الربّ سبحانه.

[۲۷]ثمّ يؤكّد ربّنا صدق وعده لرسوله صلى الله عليه و آله بدخول مكّه،الأمر الذى يؤكّد جدوى الصلح،و كونه الفتح المبين حقّا،و خطأ تصوّرات البعض حوله،حيث تصوّروا أنّهم إذ أبرموا الصلح مع المشركين لم يحقّقوا شيئا،و أنّ الرؤيا التى أخبرهم بها الرسول لم تكن صادقه.

لَقَدْ صَدَقَ اللّٰهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيٰا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لاٰ تَخٰافُونَ أى أنّ دخولكم هذه المره سيكون دخول المنتصرين..و حدث ذلك فعلا فى السنه الثانيه،حيث فتحوا مكّه،و كلّ هذه المزايا و النتائج كانت مجهوله لدى المسلمين.

فَعَلِمَ مٰا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً و هو صلح الحديبيه،أمّا الفتح البعيد فهو فتح مكه الذى جاء فى أثر الصلح، و هذا التأكيد من القرآن على تسميه الصلح بالفتح إنّما كان لبيان حقيقه هامّه، و هى وجوب اتباع القياده و طاعتها عند ما تختار طريقا معيّنا،بعيدا عن العواطف، ذلك أنّ من مشاكل القيادات الثوريه الضغوط التى تواجهها من قبل المتحمّسين و المهيّئين نفسيّا للمواجهه،فهم يريدونها تستجيب لحماسهم،و إلاّ فهى فى نظر البعض جبانه و ضعيفه،و على القائد أن لا يترك الحكمه للحماس و العواطف لتكون قراراته حكيمه و حازمه.

إنّ الرسول صلى الله عليه و آله واجه هذه المشكله،إذ كان البعض يستنكر عليه عدم محاربته المشركين،و حينما صالح اعتبروا صلحه مذله و إهانه،بل و دليلا على ضعف سياسته،و لو كان يستجيب لحماس هؤلاء ما كان المسلمون يبلغون ما بلغوا بعد الصلح،كما واجه-أيضا-وصيّه الامام على-عليه السّلام-فى معركه صفّين معارضه من قبل المتشدّدين الذين سمّوا بعدئذ بالخوارج.

[۲۸]و ربّنا يؤكّد حكمه نبيّه،و صحه قراراته،لأنّه يتبع هدى اللّه و دينه،فلا يصح إذن أن نخالفه أو نشكّك فى قيادته.

هُوَ اَلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ و الظهور(الانتصار)مرّه يكون بالحرب،و مرّه عن طريق الصلح،و الربّ هو الذى أمر الرسول بالصلح مع المشركين،و هو تكفّل بإظهار دينه و رسوله و المؤمنين به على سائر الديانات و الأمم.

وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً لقد تنامت أمواج الرساله فى العالم منذ انبعاث الرسول العظيم محمد بن عبداللّه (صلّى اللّه عليه و آله)و إلى اليوم.أو ليس ذلك دليلا على تحقّق وعد اللّه فى ظهور الإسلام على الدّين كلّه؟و قد جاء فى التقارير أنّ نموّ عدد المسلمين أكبر من ازدياد المنتمين الى أيّ ديانه أخرى ؟و هكذا تنتظر البشريه اليوم الحقّ الذى وعدها اللّه إياه حيث يظهر دينه على الدّين كلّه.

[۲۹]ثم إنّ النبى الذى اتخذ قرار الصلح ليس قائدا عاديّا حتى يجوز معه النقاش.إنّه رسول اللّه الذى عصمه عن الخطأ،و لم يكن الذين حوله من الرجال قد أصابهم الوهن حتى يجد نفسه مجبرا على الصلح،فهم ليوث الأرض و فيهم أسد اللّه

و أسد رسوله على عليه السلام الذى و تربه النبىّ صناديد قريش.

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَى الْكُفّارِ فلا تأخذهم فى اللّه لومه لائم،و لا يتأثّرون بالعواطف فى جنبه،

قال الامام على عليه السلام : «فلقد كنّا مع رسول اللّه(صلّى اللّه عليه و آله)و إنّ القتل ليدور على الآباء و الأبناء و الاخوان و القرابات،فما نزداد على كلّ مصيبه و شدّه إلاّ إيمانا» (۱).

و

فى التاريخ أنّه عليه السلام جلس على صدر أخيه عقيل قبل إسلامه و قد جرّد سيفه ليقتله،فنظر إليه أخوه و قال:أ تقتلنى يا على،قال:«إى و اللّه،إلاّ أن تسلم».

و أراد الرسول صلى الله عليه و آله قتل رجل من المشركين فحاول الآخر استعطافه قائلا:و من للأولاد و أمّهم بعدى،و لكنّه لم يعبأ بكلامه بل قتله،و قال:«لهم اللّه. »و فى الوقت الذى تتميّز الشخصيه الايمانيه بالحدّه و الشدّه ضدّ الأعداء،فإنّها فى وجهها الآخر كلّها رحمه و لطف بإخوه المسيره الواحده.

رُحَمٰاءُ بَيْنَهُمْ هذا عن علاقتهم بالناس،أمّا عن علاقتهم باللّه،فهى علاقه العبوديه و الخضوع المطلق..يمارسون العباده فى كلّ حركه من حركاتهم،و فى كلّ كلمه ينطقون بها، لأنّ كلّ ما يصدر منهم هو تجلّ للصلاه و العبادات بأهدافها و قيمها.

تَرٰاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً إنّك تقرأ الصلاه فى سلوكهم،فهم متصلون باللّه،منتهون عن الفحشاء

۱- ۱) نهج/خ(۱۲۲).

و المنكر،صادقون مع الآخرين،ملتزمون بواجباتهم..إلخ،لأنّ العباده فى نظرهم ليست مجرّد الركوع و السجود،و بالتالى الوقوف عند الصلاه بذاتها،و إنّما التحرّك فى الحياه بمقتضياتها و أهدافها،و أبرز تلك الأهداف اثنان:ابتغاء فضل اللّه فى الدنيا،و رضوانه فى الآخره.

يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَ رِضْوٰاناً و لكثره صلاتهم و سجودهم بالذات و الذى يمثّل قمّه الخضوع للّه،فإنّك تلحظ فى جباههم أثر السجود،و لا ريب أنّ الآثار-الثفنات-لا تظهر إلاّ بالمبالغه فى العباده.

سِيمٰاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ و

الامام على-عليه السّلام-يصف أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله فيقول: «لقد رأيت أصحاب محمّد(صلّى اللّه عليه و آله)فما أرى أحدا يشبههم منكم!لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا،و قد باتوا سجّدا و قياما،يراوحون بين جباههم و خدودهم،و يقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم!كأنّ بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم!إذا ذكر اللّه هملت أعينهم حتى تبلّ جيوبهم،و مادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف،خوفا من العقاب،و رجاء للثواب» (1).

و بيان اللّه لصفات أصحاب الرسول صلى الله عليه و آله إنّما يأتى ليؤكّد الحقيقه التاليه، و هى أنّ صاحب الرسول حقّا من صحبه بقلبه و أخلاقه و قيمه،فاقتداؤهم بالرسول جعلهم فى تلك الدرجه لا مجرّد معيتهم له،و أنت أيضا تستطيع أن تكون من أصحاب الرسول صلى الله عليه و آله إذا تخلّقت بالأخلاق التى يذكرها القرآن،و تشير إليها خطبه

۱- ۱) نهج/خ(۹۷).

الامام علی علیه السلام .

ثم إنّ الرسالات الالهیه بشّرت بهذا النبی و بمن حوله من أعلام الرساله رهبان اللیل و فرسان النهار.

ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِی التَّوْرَاةِ وَ مَثَلُهُمْ فِی الْإِنْجِیلِ و هم فی حاله تکامل ورقی نحو الأکمل بصوره منتظمه،یشبهون فی ذلک الشجره التی تبدأ بذره،و لکنّها تتکامل شیئا فشیئا و تنمو إلی أن تصیر قویّه قائمه علی سوقها.

کَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ یُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِیَغِیظَ بِهِمُ الْکُفَّارَ إنّ القائد الذی یربّی هؤلاء الرجال فی ظلّ أفکاره و قیادته کان یسرّ إذ یراهم، أمّا الأعداء فإنّهم یتمیّزون غیظا و حنقا کلّما رأوا واحدا یترعرع فی ظلّ قیمه و مبادئه،مقاتلا و قائدا رسالیّا یجاهد فی سبیل اللّه تعالی.

و أصحاب النبی محمّد صلی الله علیه و آله الحقیقیین هم المعنیّون بالزرع فی هذه الآیه،و لکن لا تعنی صحبه الرسول صک البراءه من التکالیف الشرعیه،و التحلّل من القیم الالهیه،فلیس کلّ الذین عاصروا الرسول أو صحبوه(حتی من دون التمسّک بأهداف الرساله)تشملهم هذه الآیه،و الدلیل علی ذلک أنّ اللّه لم یترک الکلام مطلقا،و إنّما خصّ بالغفران و الثواب الذین أحسنوا الصحبه،و أبلوا بلاء حسنا فی الطاعه له و نصر رسالته منهم.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً

لذنوبهم و أخطائهم،لأنّ مسيرتهم العامه فی الحياه مسيره سليمه،و الحسنات يذهبنّ السيئات كما ذكر القرآن.

وَ أَجْراً عَظِيماً جزاء لأعمالهم الصالحه.

و الآيه فی هذا المقطع تدحض الفكره القائله بأنّ مجرد انتماء الإنسان إلى شخص أو تجمّع صالح يكفيه،و يرفع عنه المسؤوليه،كلاّ..فهو مطالب بتحمّلها و العمل وفقها حتى النفس الأخير،كما قال اللّه: «وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتّٰى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » (1)يعنی بذلك الموت،أمّا أن نتصوّر المسؤوليه تنتهی بكون الفرد عالما،أو خطيبا،أو منتميا إلى حركه إسلاميه فلا،و التأكيد على هذه الفكره مهم لأنّ الكثير من الناس يعتقدون بأنّ وصولهم إلى مقام ما يرفع عنهم المسؤوليه،و يحوّلها إلى غيرهم.

و أخيرا:إذا كان للرسول صلى الله عليه و آله أصحاب فإنّ له إخوانا يأتون فيما بعده، و إذا لم نحظ بصحبته فلنسعى للتآخی معه،و ذلك بالالتزام بمبادئه،و السعی الى تحقيق أهدافه فی الحياه.

فقد جاء فی الخبر عن أبی ذر(رض):

قال:قال رسول اللّه(صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): أ تدرون ما غمّی؟و فی أیّ شیء تفكيری؟و فی أیّ شیء اشتياقی؟ فقلنا:يا رسول اللّه،أخبرنا عن ذلك،فقال:أخبركم إن شاء اللّه.ثم تنفّس الصعداء،و قال:هاه شوقا إلى إخوانی من بعدی!فقلت:يا رسول اللّه أو لسنا

۱- ۱) الحجر/(۹۹).

إخوانك؟قال:لا،أنتم أصحابی،و إخوانی يجيئون من بعدی،شأنهم شأن الأنبياء،قوم يفرّون من الآباء و الأمّهات،و من الإخوه و الأخوات،و من القرابات كلّهم،ابتغاء مرضاه اللّه،يتركون المال للّه،و يذلّون أنفسهم بالتواضع للّه، لا يرغبون فی الشهوات و فضول الدنيا،يجتمعون فی بيت من بيوت اللّه كأنّهم غرباء،تراهم محزونين لخوف النار و حبّ الجنه،فمن يعلم قدرهم عند اللّه؟ليس بينهم قرابه و لا مال يعطون بها،بعضهم لبعض أشفق من الابن على الوالد، و الوالد على الابن،و من الأخ على الأخ،هاه شوقا إليهم!و يفرغون أنفسهم من كدّ الدنيا و نعيمها،بنجاه أنفسهم من عذاب الأبد،و دخول الجنه لمرضاه اللّه.

اعلم يا أبا ذر أنّ للواحد منهم أجر سبعين بدريّا.

يا أبا ذر!إنّ الواحد منهم أكرم على اللّه من كلّ شیء خلق اللّه على وجه الأرض،قلوبهم إلى اللّه،و عملهم للّه.لو مرض أحدهم له فضل عباده ألف سنه و صيام نهارها و قيام ليلها،و إن شئت حتى أزيدك يا أبا ذر؟فقلت:نعم يا رسول اللّه زدنا،فقال:لو أنّ أحدا منهم إذا مات فكأنّما مات ما فی السماء الدنيا،من فضله على اللّه،و إن شئت أزيدك؟فقلت:نعم يا رسول اللّه زدنی، قال:يا أبا ذر لو أنّ أحدهم يؤذيه قمله فی ثيابه،فله عند اللّه أجر أربعين حجّه، و أربعين عمره،و أربعين غزوه،و عتق أربعين نسمه من ولد إسماعيل،و يدخل واحد منهم اثنی عشر ألفا فی شفاعته.

فقلت:سبحان اللّه!فقال النبی:أ تعجبون من قولی،و إن شئتم حتى أزيدكم؟قال أبو ذر:نعم زدنا،فقال النبی:

يا أبا ذر!لو أنّ أحدا منهم اشتهی شهوه من شهوات الدنيا فيصبر و لا يطلبها، كان له من الأجر بذكر أهله،ثم يغتم و يتنفس،كتب اللّه له بكلّ نفس ألفی

ص:۳۴۹

ألف حسنه،و محا عنه ألفی ألف سیئه،و رفع له ألفی ألف درجه،و إن شئت حتی أزیدک یا أبا ذر؟قلت:حبیبی یا رسول اللّه زدنی:قال:لو أنّ أحدا منهم یصبر مع أصحابه لا یقطعهم،و یصبر فی مثل جوعهم و فی شدّه غمّهم،کان له من الأجر کأجر سبعین ممن غزا تبوک.

و إن شئت حتی أزیدک؟قلت:نعم زدنا،قال:لو أنّ أحدا منهم یضع جبینه علی الأرض،ثمّ یقول:آه،فتبکی ملائکه السموات السبع لرحمتهم علیه،فیقول اللّه:یا ملائکتی مالکم تبکون؟فتقول:یا إلهنا لا نبکی و ولیّک علی الأرض یقول فی وجعه«آه»،فیقول اللّه:یا ملائکتی اشهدوا أنتم أنّی راض عن عبدی بالذی یصبر فی شده و لا یطلب الراحه،فیقول الملائکه:یا إلهنا و سیّدنا لا تضر الشده بعبدک و ولیّک،بعد أن یقول هذا القول!فیقول:یا ملائکتی إنّ ولیی عندی کمثل نبیّ من أنبیائی،و لو دعانی ولیی و شفّع بخلقی شفّعته فی أکثر من سبعین ألفا،و لعبدی و ولیی فی جنتی ما یتمنّی،یا ملائکتی و عزّتی و جلالی لأنا أرحم بولیی،و أنا خیر له من المال للتاجر،و الکسب للکاسب،و فی الآخره لا یعذّب ولیی،و لا خوف علیه.

ثم قال رسول اللّه:طوبی لهم یا أبا ذر،لو أنّ أحدا منهم یصلّی رکعتین فی أصحابه أفضل عند اللّه من رجل یعبد اللّه فی جبل لبنان حتی عمر نوح،و إن شئت حتی أزیدک یا أبا ذر؟لو أنّ أحدا منهم یسبّح تسبیحه،خیر له من أن یصیر معه جبال الدنیا ذهبا،و نظره إلی واحد منهم أحبّ من نظره إلی بیت اللّه الحرام، و لو أنّ أحدا منهم یموت فی شدّه بین أصحابه له أجر مقتول بین الرکن و المقام، و له أجر من یموت فی حرم اللّه و یدخله الجنه،و إن شئت أزیدک یا أبا ذر؟قلت:

نعم،قال:یجلس إلیهم قوم مقصّرون مثقلون من الذنوب فلا یقومون من عندهم حتی ینظر اللّه إلیهم،فیرحمهم و یغفر لهم ذنوبهم لکرامتهم علی اللّه.

قال النبى:المقصّر فيهم أفضل عند اللّه من ألف مجتهد من غيرهم.

يـا أبا ذر!إنّى إليهم لمشـتاق،ثم غمّض عينيه فبكى شوقا،قال:اللّهمّ احفظهم و انصـرهم على من خالف عليهم،و لا تخـذلهم،و أقرّ عينى بهم يوم القيامه « أَلاٰ إِنَّ أَوْلِيٰاءَ اللّهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ » (۱).

ص:۳۵۱

۱- ۱) كلمه الرسول الأعظم/للشهيد الشيرازى ص(۳۶۹).

سوره الحجرات

اشاره

ص:۳۵۳

بسم الله الرحمن الرحیم

فضل السوره:

فی کتاب ثواب الأعمال قال: «من قرأ سوره الحجرات فی کلّ لیله أو فی کلّ یوم کان من زوّار محمّد(صلّی اللّه علیه و آله)».

نور الثقلین/ج /۵ص ۷۹

ص:۳۵۵

الإطار العام

تفتتح السوره بوصايا قيمه فی أدب التعامل مع الرسول و القياده الالهيه،و تختتم ببيان حقيقه الايمان،و تتواصل بينهما الآيات تنظّم علاقه المسلمين ببعضهم على أساس الاخوه،و علاقه البشريه ببعضهم على قاعده المساواه.

تعالوا الآن نتدبر فی هذا السياق المعجز:

ألف)لأن علاقه الأخوه تتعرض لهزات قد تبلغ درجه الاقتتال بين المؤمنين، فلا بد من قوه داخليه تمسک الامه من أن تتشرذم فتتلاشى،و ما تلک القوه إلا القياده الرساليه التی لا بد أن يسمو احترام الأمه لها الی مستوی رفيع،بألّا يتقدموا بين يدی اللّه و رسوله فی الرأی أو القول أو المشی أو أيه ممارسه عمليه،و لا يرفعوا صوتهم فوق صوته،و لا يجهروا له فی الکلام کما يتحادثون بينهم.و قد بشر الذين يغضون أصواتهم عند رسول اللّه بأنهم قد طهر اللّه قلوبهم للتقوی،و أن لهم مغفره و أجرا عظيما.أما الذين لا يحترمون الرسول،و لا يراعون حرمه الحجرات التی بنيت من أجل توفير الراحه،فينادون الرسول من ورائها،فان أکثرهم لا يعقلون.فلا يعرفون

حرمه القياده الالهيه،و لا حرمه الآداب المرعيه،و كان أولى بهم أن يصبروا حتى يخرج إليهم الرسول فيحدثوه عن شؤونهم(الآيه ۵).

باء)و بعد أن يرسى السياق احترام القياده و آداب التعامل معها،و طبيعه العلاقه معها بعدئذ يأمر المؤمنين بالتثبت فى أمورهم،و عدم الاسترسال مع أنباء الفاسقين،لأنهم قد يصيبون بذلك قوما بجهاله ثم يندمون على ذلك.و بهذا يقطع الطريق على مثيرى الفتن بين المسلمين و سائر التجمعات البشريه،و يضع قانونا لمثل هذه الأمور و يأمر بمراجعه القياده و التسليم لها و عدم ممارسه الضغط عليها،أو ليس الرسول قد جاءهم من عند اللّه بنور الايمان؟أو ليس-إذا-أهدى منهم سبيلا؟أو ليس من واجب الشكر ألا يخالفوه فى قضيه هامه كاتخاذ موقف من طائفه معينه؟و ماذا لو أطاعهم الرسول فى جهلهم أو لا يسبب ذلك فى العنت عليهم؟و ربما أشارت الآيه(۷)الى أن مخالفه الرسول نوع من الكفر و الفسوق أو العصيان حسب درجات المخالفه و مواردها،و إن من فضل اللّه عليهم أن زين فى قلوبهم الايمان و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان.فلا يعودوا إليه ليفقدوا أعظم نعمه أسبغها عليهم ربهم.

جيم)و فى سياق حديثه عن علاقه المسلمين ببعضهم يفك القرآن أولا أصعب عقده فيها متمثله فى حاله نشوب قتال أهلى بينهم و يقول:لو اقتتل طائفتان من المسلمين فلا بد من الإصلاح بينهم،و بأيه وسيله ممكنه ثم إقامه العدل بينهم، و لكن إذا بغت إحداهما على الاخرى،و لم تسلم للإصلاح فلا بد من تحمل جماهير الامه لمسؤولياتها الخطيره المتمثله فى محاربه الفئه الباغيه،حتى تفىء الى أمر اللّه و تقبل الصلح و التحاكم الى الشريعه المقدسه،فان فاءت تقوم الامه بنشر العداله فى أوساطها و القسط(۹).

ص:۳۵۸

و یرسی القرآن قاعده الاخوه بین المؤمنین لتکون محورا أساسیا للعلاقه بینهم، و لطائفه من التعالیم و الانظمه و الآداب أبرزها ضروره الإصلاح بین الاخوه لعل اللّه یرحمهم بذلک(١٠).

دال)و لکی نقتلع جذور الصراع،ثم لکی نعیش فی ودّ و وئام لا بد أن نطهر قلوبنا من عقد التعالی فوق بعضنا،کلا..فنحن جمیعا بشر متساوون لا یجوز أن یسخر قوم من قوم عسی أن یکونوا خیرا منهم عند اللّه و فی عالم الواقع،فیکون استهزاؤهم بهم محض سفه،و مجرد خساره لهم للمکاسب التی یمکنهم الحصول علیها.کما لا یجوز أن تسخر نساء من نساء عسی أن یکن خیرا منهن.

و حتی إذا ألقی الشیطان فی أنفسنا هذه النظره الشاذه،فلا یجوز أن نفصح عنها،و أن نعیب بعضنا أو أن نتبادل الألقاب البذیئه.أو لسنا مسلمین قد طهر اللّه حیاتنا من کل قذاره.فلما ذا نسمی بعضنا بأسماء الفسق و قد أکرمنا الرب بأسماء إسلامیه رفیعه المستوی؟ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِیمٰانِ (١١).

و نهدم علاقاتنا ببعضنا إذا استرسلنا مع الأوهام و الشکوک و الظنون التی تثیرها الأحقاد أو الحالات النفسیه أو الاشاعات المغرضه و هکذا یأمر الإسلام باجتناب کثیر من الظن و یؤکد أن بعض الظن إثم،و لعله الذی نتحقق منه بالتجسس،أو نجعله موقفا لحیاتنا و لو ظننا سوء فلا یحبذ التحقق منه،و هکذا ینهانا الدین و یقول «و لا تجسسوا»و إذا عرفنا من أخینا عیبا مستورا فلا یجوز أن نشیعه علیه من وراء ظهره بالغیبه،لأنه بمثابه أکل لحم أخینا میتا.أو لیس ذلک نیلا من کرامته؟ و کرامته أعظم أم بدنه(١٢)؟ هاء)ثم یرسی السیاق قاعده التوحید التی ترفض أی نوع من التمییز المادی بین الإنسان و الإنسان،و یؤکد ربنا أن أصل البشریه واحد،آدم و حواء،فلا

تفاخر فی الأنساب،و ان الحکمه من جعلهم شعوبا و قبائل هو التعارف و لیس التدابر و التسامی،فاذا عرف بعضهم بعضا ضبطت المسؤولیات و الحقوق و تهیأت فرصه العداله.بلی.إن هناک تمایزا واحدا هو التقوی.فان أکرم الخلق عند اللّه أتقاهم.و من معانی التقوی سلامه الفکر و استقامه السلوک،و بذلک یکون التنافس علی ما یقدم البشریه نحو أهدافها النبیله(۱۳).

واو)و فی الدرس الأخیر یفسر السیاق التقوی ببیان أصلها المتمثل فی الایمان ربما لکی لا یدّعیها الطامعون و الانتهازیون فیقول:« قٰالَتِ الْأَعْرٰابُ آمَنّٰا ».

و کانوا طائفه التجأوا الی المدینه طمعا فی خیراتها بعد أن أجدبت أراضیهم، و نفی عنهم القرآن إیمانهم،و لکن لم ینف أنهم مسلمون کما لم ینف أجرهم عند اللّه،إن هم أطاعوه و أطاعوا الرسول.أو لیس اللّه غفورا رحیما؟ و هناک مقیاسان نستوحیهما من القرآن للایمان:عدم الشک خصوصا عند ما تخالف تعالیم الدین أهواءهم و مصالحهم،و الجهاد بالمال و النفس فی سبیل اللّه، فمن فعل ذلک فقد کان صادقا فی إیمانه.

و یزعم البعض ان ادعاءه الایمان یکفیه،و کأنه یعلم اللّه بدینه، وَ اللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ،وَ اللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ .

و تری بعضهم یمنون علی الرسول إسلامهم-کأعراب البادیه الآنف ذکرهم- و اللّه یمنّ علیهم بالایمان،لأنه نعمه کبری إن کانوا صادقین فی ادعائه(۱۴-۱۷).

و یختم القرآن السوره بأن اللّه یعلم غیب السماوات و الأرض و أنه بصیر بما یعمل الخلق،و لعله تحذیر من ادعاء الایمان لمصالح مادیه(۱۸).

[سوره الحجرات (۴۹): الآيات ۱ الى ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَرْفَعُوا أَصْوٰاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ اَلنَّبِيِّ وَ لاٰ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمٰالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ (۲) إِنَّ اَلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوٰاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اَللّٰهِ أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ اِمْتَحَنَ اَللّٰهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۳) إِنَّ اَلَّذِينَ يُنٰادُونَكَ مِنْ وَرٰاءِ اَلْحُجُرٰاتِ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ (۴) وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتّٰى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵)

اللغه

(۱) لاٰ تُقَدِّمُوا :لا تتقدّموا.

(۳) يَغُضُّونَ :يغضونها و لا يرفعونها.

لاٰ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ

بينات من الآيات:

[۱]الامه المؤمنه أمه ملتزمه تسلم لقيادتها الشرعيه بوعيها الدينی،و تستقبل أوامرها برضا و اطمئنان،و تحترم القياده لأنها من عند اللّه،و هی أشد حبا للّه من كل شیء-و لأن أفئده أبنائها قد طهرت من الكبر و العنجهيه و امتحنت للتقوی- و هی لذلک أمه منضبطه لا تسترسل مع الأحداث بل تنتظر أوامر القياده الراشده، و لا تجرفها رياح الفتن،بل يقودها المنهج العلمی الرصين القائم علی أساس التثبت و التبيّن.

هكذا أدب اللّه المؤمنين عند ما وجه إليهم بالذات خطابه قائلا:

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فقالوا لبيك يا رب.

ص:۳۶۲

لاٰ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ وَ رَسُولِهِ ما دمتم بين يدى اللّه يحيط بكم علمه و قدرته،و يرعاكم بسمعه و بصره فلا تقدموا شيئا على أمر اللّه،و لا تتقدموا قبل أن تستمعوا الى أمره و أمر اللّه يبينه رسوله الأمين،الذى أنتم بين يديه،أو ليس هو الامام و القائد.

وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ بلى.لا بد أن تستوعب التقوى كافه شؤون الحياه،فما من شأن إلاّ و للّه فيه حكم لا يجوز تجاوزه،و المتقون يبحثون أولا عن حكم اللّه قبل أن يبادروا بالعمل فى أى حقل.

و من هنا وجب التفقه فى الدين و تعلم أحكامه تمهيدا للعمل بها،و

جاء فى الحديث المروى عن الامام الصادق(عليه السّلام) فى تفسير قول اللّه سبحانه قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ قال:

«إن اللّه تعالى يقول للعبد يوم القيامه عبدى أ كنت عالما؟فان قال نعم قال له:أ فلا عملت بما علمت،و إن قال:كنت جاهلا قال له:أ فلا تعلمت حتى تعمل فيخصم بتلك الحجه البالغه» (۱).

و إذا لم يجد المؤمن فى الفقه حكم الحوادث المستجده أو المتطوره فان عليه أن يراجع الفقهاء الذين يستنبطون ذلك الحكم من القواعد العامه الموجوده فى الشريعه.

ذلك انه ما من حادثه إلاّ و للدين فيها حكم،ابتداء من بصائر الوحى فى حكمه الحياه،و مقاييس المعروف و المنكر حتى حكمه فى أرش الخدش.

قال اللّه تعالى: «ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ » (۲).

ص:۳۶۳

۱- ۱) بحار الأنوار/ج ۲/ص ۲۹

۲- ۲) الانعام/۳۷

و

قال رسول اللّه فی حجه الوداع:

«أيها الناس!اتقوا اللّه ما من شیء يقربكم من الجنه و يباعدكم من النار إلّا و قد نهيتكم عنه و أمرتكم به» (۱).

و

جاء فی الحديث الشريف عن أبی أسامه قال كنت عند أبی عبد اللّه الامام الصادق(عليه السّلام)و عنده رجل من المغيريه(أتباع المغيره بن سعيد و كان من الغلاه لعنه اللّه عليه و لعله كان يقول بالتفويض)فسأله عن شیء من السنن فقال:

«ما من شیء يحتاج إليه ولد آدم إلّا و قد خرجت فيه السنه من اللّه و من رسوله، و لولا ذلك ما احتج علينا بما احتج».

فقال أبو عبد اللّه قوله:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاٰمَ دِيناً ».فلو لم يكمل سنته و فرائضه و ما يحتاج اليه الناس ما احتج به (۲).

و

قال عليه السّلام: «ما رأيت عليا قضى قضاءه إلّا وجدت له أصلا فی السنه.قال و كان علی يقول:لو اختصم إلیّ رجلان فقضيت بينهما ثم مكثا أحوالا كثيره ثم أتيانی فی ذلك الأمر لقضيت بينهما قضاء واحدا لأن القضاء لا يحول و لا يزول» (۳).

و سواء كان الحكم الالهی واردا فی خصوص المورد أو فی الأصل العام الذی يشمله فانه بالتالی حد لا يمكننا تجاوزه و لا يجوز لنا أن نزعم أن اللّه فوض أمره إلينا، و حتى الأئمه المعصومون كان لا بد لهم الفتيا وفق الكتاب و السنه،و قد أكدوا ذلك

۱- ۱) بحار الأنوار/ج ۲/ص ۱۷۱

۲- ۲) المصدر/ص ۱۶۹

۳- ۳) المصدر/ص ۱۷۲

لنفی مزاعم بعض القائلین بالتفویض.

فقد سأل رجل أبا عبد اللّه الامام الصادق(علیه السّلام)فأجابه فیها فقال الرجل:إن کان کذا و کذا ما کان القول فیها(لعله زعم ان الافتراضات الجدیده لا حکم لها فی الشریعه)فقال له:«مهما أجبتک فیه بشیء فهو عن رسول اللّه لسنا نقول برأینا من شیء» (۱).

و

روی سماعه عن الامام أبی الحسن علیه السّلام أنه قال: قلت له کل شیء تقول به فی کتاب اللّه و سنته أو تقولون برأیکم؟قال:«بل کل شیء نقوله فی کتاب اللّه و سنته» (۲).

فلکی لا نتقدم علی الرسول،و لا یسوقنا الهوی و الجهل لا بد من التفقه فی الدین و معرفه أصول الحکم فیه و الانبعاث منها لمعرفه الحیاه و تفاصیل سلوکنا فیها.

[۲]ذلک کان أدب التعامل مع الرسول صلی الله علیه و آله و القیاده الرسالیه،و أما أدب التحادث معه فقد بینته الآیه التی تخاطب المؤمنین للتذکره بأن مثل هذه الآداب من علائم الایمان و من شروطه.و

قد جاء فی الحدیث المأثور عن الامام الباقر علیه السّلام أنه ما خوطب المسلمون بهذه الکلمه إلاّ عند إسلام الأوس و الخزرج قال الامام:

ما سلت السیوف،و لا أقیمت الصفوف فی صلاه و لا زحوف (حرب)و لا جهر بأذان،و لا أنزل اللّه «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا »حتی أسلم أبناء قبیله الأوس و الخزرج (۳).

ص:۳۶۵

۱- ۱) المصدر/ص ۱۷۳

۲- ۲) المصدر

۳- ۳) نور الثقلین/ج /۵ص ۸۰

و یبدو أن سبب ذلک تکوّن المجتمع الاسلامی عند إسلام هاتین الطائفتین.

یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَرْفَعُوا أَصْوٰاتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِیِّ و تتسع الآیات للأحکام التالیه:

أولا:إذا تحدثوا الی الرسول خفضوا أصواتهم احتراما للرسول،و للوحی الذی یحتمله..إن هذا السلوک المهذب یعکس مدی احترام الأمه للرسول و للقیاده الوریثه،ذلک الاحترام الذی یساهم فی تنفیذ القرارات بوازع نفسی و بیسر و بلا تکلف.

ثانیا:لا یجادلون الرسول فیما یأمر به،فهو من أبرز مظاهر رفع الصوت عند الرسول،و لا یجادلوه بما یؤذیه.

ثالثا:إذا قضی الرسول بشیء یسلموا له و لا یرفعوا صوتهم بالمعارضه.

و قد ذکر المفسرون فی أسباب نزول هذه الآیات موارد شتی تنطبق علی کل هذه الأحکام،و لعلهم کانوا یقصدون تأویل الآیه،و تطبیقها علی تلک الموارد.

فقد جاء فی تفسیر علی بن إبراهیم:أنها نزلت فی وفد بنی تمیم کانوا إذا قدموا علی رسول اللّه وقفوا علی باب حجرته فنادوا یا محمد أخرج إلینا،و کانوا إذا خرج رسول اللّه تقدموه فی المشی،و کانوا إذا کلموه رفعوا أصواتهم فوق صوته و یقولون:

یا محمد(یا محمد)ما تقول فی کذا کما یکلمون بعضهم فأنزل اللّه هذه الآیات [1].

و هذا تأویل یتطابق و أول الأحکام التی استوحیناها من الآیه الکریمه،و هو ظاهر الآیه.

ص:۳۶۶

۱- ۱) المصدر

و روی البخاری أن الآیه نزلت فی أبی بکر و عمر حین قدم علی النبی رکب بنی تمیم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخی بنی مجاشع و أشار الآخر برجل آخر فقال أبو بکر لعمر:ما أردت إلاّ خلافی فقال:ما أردت خلافک فارتفعت أصواتهما فی ذلک فأنزل اللّه عزّ و جلّ الآیه (۱).

و

روی أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أراد أن یستخلف علی المدینه رجلا إذ مضی الی خیبر فأشار علیه عمر برجل آخر فنزلت الآیه (۲).

و هذان الحدثان یتناسبان و الحکم الثانی و الثالث،مما یشهد علی أن للآیه تطبیقات عدیده یجمعها النبی عن معارضه الرسول بأی صوره ما کانت.

وَ لاٰ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ کَجَهْرِ بَعْضِکُمْ لِبَعْضٍ کانوا إذا حضروا رسول اللّه خاطبوه باسمه بعیدا عن جلال النبوه،و کان المنافقون بالذات یرفعون أصواتهم لیسقطوا أبهه القیاده عن أعین الناس-فجاء القرآن ینهاهم عن ذلک و یعلمهم أدب الحدیث مع الرسول-و من خلال ذلک مع کل قیاده شرعیه.

و لعل الآیه تشمل النهی عن انتقاد آراء القیاده الرسالیه علنا،مما یسبب و هنا فی عزیمه الأمه و تقلیلا من شأن مصدر القرار.

من هنا قال البعض:إن حرمه کلام النبی الیوم کحرمته فی مشهده،فاذا قرئ علی جمع کلامه وجب علیهم أن ینصتوا الیه،لأن حدیثه وحی من عند اللّه.

ألم یقل ربّنا سبحانه: «وَ مٰا یَنْطِقُ عَنِ الْهَویٰ إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْیٌ یُوحیٰ »فذات

۱- ۱) تفسیر القرطبی(باختصار)/ج ۱۶/ص ۳۰۳

۲- ۲) المصدر/ص ۳۰۱

الملاک الذی فرض به الإنصات عند تلاوه القرآن موجود فی سنه الرسول.و قد قال ربّنا سبحانه: «وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا » (۱).

أَنْ تَحْبَطَ أَعْمٰالُکُمْ لما ذا یسبب الاستخفاف بالقیاده الشرعیه حبطا فی العمل؟لعل السبب یتلخص فی أمرین:

أولا:إن أغلب الفرائض تروّض النفس و تطهّرها من الکبر.فاذا طغت النفس و تکبرت علی القیاده الشرعیه فقد تبین ان هدف الفرائض لم یتحقق، فاحبطت الصلاه التی تکرس الذاتیه،بدل الخشوع،و الزکاه التی تزید الهوه و الطبقیه فی الامه،و الحج الذی یورث صاحبه التعالی و التفاخر،و الصیام الذی لا یورث التقوی فی النفس،إنّها جمیعا عرضه للاحباط لأنها لم تحقق أهدافها.

ثانیا:إن الولایه عمد الدین،فاذا سقط العمد ماذا یبقی من الدین؟ألیس الدین نظام اجتماعی متکامل یدور حول محور القیاده الشرعیه؟فاذا ذهبت أنهار کل شیء.

وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ إن أعظم الأمراض خطرا ذلک المرض الذی لا یحس به المبتلی،لأنه لا یبادر لمعالجته و قد لا یقتنع بالمعالجه،کذلک أخطر الذنوب الذنب الذی لا یشعر به المتورط فیه لأنه یسیر به فی طریق جهنم و هو یزعم أنه من أهل الجنه،و مخالفه القیاده من هذه الذنوب قال اللّه سبحانه:

۱- ۱) الأعراف۲۰۴/

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً » (1).

و نتساءل:لماذا لا يشعر الإنسان بخطوره مخالفه القياده الشرعيه أو الاستخفاف بها؟ و يبدو ان النفس تسول لصاحبها بعض الذنوب بصوره تجعلها حسنات،فهی کمرض النوم(تسی تسی)یجعل ضحیته یخلد الی النوم حتی الموت،و کلما اقترب الی نهایته کلما أوغل فی اللاوعی.

ثم ان حبط العمل بذاته من الأمور التی یصعب التحسس بها.أ رأیت لو قیل لک أن ثواب حجتک التی أرهقت بها نفسک،و أنفقت فیها مالا کثیرا قد ذهب أدراج الریاح بمجرد رفع صوتک فی مجلس القیاده الشرعیه.لا تصدق بذلک بسهوله و لکنه هو الواقع.

و أبسط دلیل علی تزیین الشیطان لنا مخالفه القیاده الشرعیه ان المسلمین الیوم -کما فی التاریخ-یتولون عن قیادتهم دون أدنی إحساس بالذنب،بل تری الکثیر منهم یزعم أن لا علاقه للدین بشؤون الحیاه الفعلیه،فلا حاجه الی الامام و القیاده الشرعیه الیوم.

[3]هل ترید أن تعرف مدی قبول أعمالک الصالحه،قبل یوم القیامه،أی قبل فوات الأوان؟إذا تعال و قس نفسک بمیزان القرآن کیف؟أ لیست الفرائض ذات حکم و فوائد تتجلی فی حیاه البشر؟بلی.إذا دعنا نقیس أنفسنا بمدی تحقق تلک الحکم و الفوائد فی أنفسنا و واقعنا من خلال الفرائض.

هل قبلت صلاتک أم لا؟أنظر الی نفسک هل انتهت عن الفحشاء و المنکر

1- 1) الکهف104/

و اقتربت الی ذکر اللّه.فان کانت،فقد قبلت صلاتک.

و هل تقبل منک الصیام؟انظر الی مدی التقوی فی نفسک،فان زادت تقواها، فقد تقبّل صیامها.

و بکلمه:إذا وجدت فی نفسک علائم الایمان فاعرف بقبول إیمانک.و من أبرز علائمها التسلیم لقیاده الرسول من دون حرج،و رعایه آداب التعامل معه،فذلک دلیل زکاه القلب،و طهارته بالایمان.

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوٰاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّٰهِ أُولٰئِکَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ و إذا کان معنی الامتحان لغویا تطهیر الذهب من الشوائب بصهره،فان امتحان القلب بمعنی تزکیته من الشک و الشرک و الکبر و الحسد حتی یتهیأ للتقوی أی اتقاء الشهوات و الذنوب ظاهرا و باطنا.

أما إذا کان الامتحان-فی اللغه-بمعنی امتداد الجلد فمعناه هنا اتساع القلب للمعارف الإلهیه مما یجعله یستوعب کلمه التقوی.

إن التقوی بذره مبارکه لا تنمو إلاّ فی الأرض النقیه.

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ لأن طاعه الرسول(و القیاده الشرعیه)و التأدب فی حضرته و احترام مقامه،إنها جمیعا تشفع للذنوب فیغفرها اللّه،کما ان معصیه الرسول و الاستخفاف بمقامه و مجافاته تحبط الأعمال الصالحه.

ص:۳۷۰

[۴]أما الـذين لم تصـقل آداب الرساله نفوسـهم،و لم تصـلح سـلوكهم فتراهم يغلظون القول مع الرسول،و يرفعون أصواتهم فوق صوته،و لا ـ يراعون حرمه البيوت التى لا بـد أن تحجرهم عن الإيـذاء..فإنهم لا يعقلون،و أى عقل لمن لا يحترم مقام الرساله،و لا يكرم العلم و لا يعترف بدور القائد القائم بتنظيم الحياه.

إِنَّ الَّذِيـنَ يُنَادُونَـكَ مِـنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْـثَرُهُمْ لا ـ يَعْقِلُـونَ و لمـاذا أنشـأت الحجرات؟أليس لتكـون سـورا تحجر الأـذى عمن يسـكنها؟ فمن معالم المـدنيه احترام البيوت،و عدم انتهاك حرمتها،سواء بدخولها عنوه أو بإلقاء حجاره أو أذى عليها أو بتسبيب أذى لأهلهـا،مثـل رفع الصوت المزعـج أو إثـاره الغبـار المؤذى أو تلويث البيئه المضـر بأهل البيت،كل ذلك يعتبر انتهاكا لحرمه البيت،و مخـالفه لحكمه وضع البيوت،و تعـديا على مكـان أمن الناس،و لعله لـذلك سـميت هـذه السوره بالحجرات،لأن الحجره تشكل ظاهره حضاريه،خصوصا إذا كان فى الحجره شخص رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله.

جاء فى الأثر عن سبب نزول هذه الآيه عن زيد بن أرقم أتى أناس النبى صـلى اللّه عليه و آله فقال بعضهم لبعض:انطلقوا بنا الى هـذا الرجـل فـان يكن نبيـا فنحن أسـعد النـاس باتبـاعه و إن يكن ملكـا نعش فى جنابه،فأتوا النبى-صـلى اللّه عليه و آله-فجعلوا ينادونه و هو فى حجرته:يا محمد يا محمد!فأنزل اللّه تعالى هذه الآيه (۱).

[۵]إن للقائد ظروفه الخاصه،و مهامه التى تكون-غالبا-ذات صبغه عامه، و لا بد للناس من رعايتها حتى يسهل عليه أداؤها بأفضل وجه..أما إذا زاحموه خصوصا فى الشؤون الخاصه،و خلطوا عليه الأوراق ثم انصرف عن مهامه العامه

۱- ۱) تفسير القرطبى/ج /۱۶ص ۳۰۹

فان الضرر يكون عليهم جميعا.

وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتّٰى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ فما دام القائد هو الذى بيده القرار و عليه مسئوليه التنفيذ فلا بد من إعطاء صلاحيه ذلك له و منحه الفرصه المناسبه،و عدم التدخل فى جزئيات عمله.

ثم إن الرسول حين يكمل أعماله فى البيت ثم يخرج إليهم يكون أكثر استعدادا لاستقبالهم و بالتالى يكون خيرا لهم.

وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ فلو لم يراع أحد هذه الآداب مع الرسول و ارتكب بذلك خطيئه فلا ينبغى أن يقنط من رحمه اللّه.

جاء فى الأثر: إن ثابت بن قيس بن شماس كان رفيع الصوت فافتقده النبى صلى اللّه عليه و آله فقال رجل:يا رسول اللّه أنا أعلم لك علمه،فأتاه فوجده جالسا فى بيته،منكسا رأسه،فقال له:ما شأنك فقال:شر كان يرفع صوته فوق صوت النبى فقط حبط عمله و هو من أهل النار فأتى الرجل النبى صلّى اللّه عليه و آله فأخبره انه قال كذا و كذا،فقال النبى:«اذهب اليه فقل له:إنك لست من أهل النار و لكنك من أهل الجنه» (١).

ص:٣٧٢

١- ١) المصدر/ص ٣٠٤

[سوره الحجرات (۴۹): الآیات ۶ الی ۸]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جاءَکُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا أَنْ تُصِیبُوا قَوْماً بِجَهالَهٍ فَتُصْبِحُوا عَلی ما فَعَلْتُمْ نادِمِینَ (۶) وَ اِعْلَمُوا أَنَّ فِیکُمْ رَسُولَ اَللّٰهِ لَوْ یُطِیعُکُمْ فِی کَثِیرٍ مِنَ اَلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لٰکِنَّ اَللّٰهَ حَبَّبَ إِلَیْکُمُ اَلْإِیمانَ وَ زَیَّنَهُ فِی قُلُوبِکُمْ وَ کَرَّهَ إِلَیْکُمُ اَلْکُفْرَ وَ اَلْفُسُوقَ وَ اَلْعِصْیانَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلرّاشِدُونَ (۷) فَضْلاً مِنَ اَللّٰهِ وَ نِعْمَهً وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۸)

اللغه

(۷) لَعَنِتُّمْ :لوقعتم فی العنت،و العنت هو المشقّه.

ص:۳۷۳

إِنْ جٰاءَكُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا

هدى من الآيات:

لكى نحصن التجمع الاسلامى من التهافت و التآكل لا بد أن ننمى فيه احترام القياده الشرعيه،و نحصنه من إشاعات الفاسقين الذين دأبهم تخريب العلاقات، و نجعل قرار الرسول(أو من يخلفه)هو الحكم الفصل فى العلاقات،و نشكر اللّه (بذلك)على إسباغ نعمه الايمان علينا حين حببه الى نفوسنا،و كره إلينا الكفر و الفسوق.أو ليس ذلك فضل عظيم و نعمه من اللّه(اجتبى لهما الصالحين من عباده)بعلم و حكمه؟ و الملاحظ ان السياق كرس القياده الاسلاميه و احترامها قبل كل شىء،لأنها الضمانه لسائر التعاليم كما أكد على مسئوليه الامه تجاه الصلح بين طوائفها ضمانه أخرى لذات التعاليم.

ص:٣٧۴

بينات من الآيات:

[۶]فی کتاب ربنا الکریم شفاء لأمراض المجتمع المستعصیه لو استشفیناه، و نفذنا تعالیمه..و الصراع أعظم تلک الأمراض الذی یقتلع نهج القرآن جذوره البعیده.ألا تری کیف یحصن التجمع الایمانی من ریاح الفتنه بتذکیر المسلمین عن دور الأنبیاء الکاذبه التی یبثها الفسقه فیفرقون بین الناس..و نهیهم عن الاسترسال معها،لأنها تؤدی الی معارضه قوم أبریاء مما یجر إلیهم ندامه و جسره.

یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جٰاءَکُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا ذلک ان دوافع الفاسق و منطلقاته شیطانیه فقد یکذب أو یمشی بنمیم أو ینقل جانبا من الحقیقه و یسکت عن سائر الجوانب..فاذا قبلناه علی علاّته فسوف نقع فی أخطاء جسیمه،أبرزها إثاره الفتن فی المجتمع.

الفاسق الذی تجاوز الحدود الالهیه لا یمکنه أن یکون موجها للامه،و مجرد الاستماع الی نبأه دون تحقیق و تثبیت یجعله فی مقام التوجیه.

أَنْ تُصِیبُوا قَوْماً بِجَهٰالَهٍ فَتُصْبِحُوا عَلیٰ مٰا فَعَلْتُمْ نٰادِمِینَ أی لکی لا یورطکم الفاسق فی معارضه فئه مؤمنه من دون تحقیق منکم،ثم تندموا بعد فوات الأوان..

و نستوحی من الآیه عده بصائر:

أولا:إن أکثر الصراعات الاجتماعیه التی تعصف بالمؤمنین منشأها الفاسقون الذین لا تروق لهم وحده المؤمنین فیثیرون الفتنه بینهم.و حین نتفکر فی واقع المسلمین الیوم نجد ان الذین یذکون نار الصراع بینهم هم فی الأغلب أبعد الناس

عن القيم،و قد تكون سوابقهم السيئه و أحقادهم ضد الإسلام،و خشيتهم من الفضيحه هو السبب فی تطرفهم ضد هذه الطائفه أو تلک.

و إذا استطاع المؤمنون إبعاد أثر الفسقه عن تجمعاتهم قدروا علی سد أكبر ثغره تهدد كيانهم! ثانيا:و اليوم حيث يتعرض المسلمون لغزو ثقافی و هجمه إعلاميه عبر ألوف المؤسسات الدعائيه المتنوعه ترانا أحوج مما مضی الی تنفيذ هذه الوصيه الالهيه أن نتبين عما يقولون لأنهم فسقه لا يتقون اللّه فيما يقولون،هذه الوكالات الخبريه التی تمولها و تقودها الرساميل و الأنظمه هل تلتزم بالصدق؟هذه الصحف الصفراء التی تنطق باسم المترفين و الطغاه هل ترعی جانب الحق؟هذه الاذاعات التی تصب فی آذاننا و أذهاننا كل يوم شلالا من المعلومات المختلطه هل نضمن صدقها؟كلا..

إذا لا بد من التثبت،و لكن كيف؟لأن حجم الأفكار و الأخبار التی تبث عبر أجهزه الدعايه كبير،فأن قدره الأفراد علی التثبت منها محدوده،فلا بد إذا من وجود مؤسسات موثوق بها تقوم بدور المصفاه و تنتقی السمين و تقدمه للمؤمنين.

هذه المؤسسات قد تكون معاهد و مراكز للدراسات و البحوث،و قد تكون تنظيمات دينيه،و قد تكون خبراء أكفاء يرجع إليهم المؤمنون فی توثيق المعلومات، و قد تكون مؤسسات إعلاميه بديله،إذاعه صادقه،صحيفه ملتزمه أو وكاله للأنباء موثوق بها.

ثالثا:و أنی كانت هذه المؤسسات فانها أعمال اجتماعيه لا ينتظم أمرها إلا تحت إشراف القياده الشرعيه للامه،فمن دون القياده تذهب جهود الأفراد سدی،لأن مثل هذه الأعمال الكبيره لا ينهض بعبئها آحاد الناس،كما انه لو لم تكن القياده شرعيه فانها بذاتها تصبح مبعث الخطر،و لمثل هذا يذكر السياق القرآنی بنعمه

الرساله و الرسول و ضروره العوده إليه.

رابعا:إن خبر العادل حجه.قالوا بالرغم من ان الآيه لا تـدل على حجيه خبر العادل صـراحه و بصوره مباشـره،بل بما يسـمى لديهم بمفهوم الوصف الـذى لاـ حجيه فيه عنـدهم،إلاـ ان فائـده بيـان الوصف هنـا ليست إلا أن الحكم يـدور مـداره مثل أن نقول:إذا تعـاملت مـع أهـل الباطـل فاشـهد عليهم،و إذا ذهبت الى زيـاره المريض فتجنّب مواكلته،و إذا زرت بلاـد الكفر فـتزوّد بالبوصـله لصلاتك..و ما أشبه.

و أقول:كما أن النفى يتركز فى سور الكلمه أو شـرطه أو صـفته،كذلك الشرط، فاذا قلنا:لا أعطيك كل نقودى،و لا تشرب اللبن إذا أكلت السـمك،و لا تمش فى الأرض مرحا،فان معناه نفى كليه النقود فلو أعطى بعضها لم يخالف وعيده،أو النهى عن شرب اللبن مقارنا مع أكل السمك،(أو كل النهى عن الجمع بينهما) و كذلك النهى عن مشيه المرح لا كل شىء.

كـذلك الشـرط فلو قـال:إذا جئتنى صـباحا أكرمتـك أو إذا رأيتـك شامتـا قليتـك و مـا أشـبه.فان الشـرط يلحق أضـيق حلقات الكلام،أى وقت الصـباح أكرمك و عند الشـماته أقليك و كذلك الشرط هنا:إذا جاءكم فاسق بنبإ..فان الشرط مقصود و غرضه تحديد النتيجه بأضيق الحدود،و هو كون المخبر فاسقا،و لهذا قال الأولون:

إن هذا من مفهوم الشرط و ليس من مفهوم الوصف و اللّه العالم.

خامسـا:ماذا يعنى التبين؟يبـدو أنه يشـمل كل أسـلوب يؤدى الى حاله الوضوح عنـد الإنسان،و لأن اللّه قـد خاطب عامه المؤمنين بهـذه الكلمه،فـان مفهوم التبين يكون عرفيـا أيضا،بمعنى أن كلما تطمئن إليه نفس الإنسان العادى،حتى لا يبقى فيه شك معقول أو ارتياب يعتنى به العقلاء كاف حجه عند اللّه فى الموضوعات.

ص:٣٧٧

فسواء أ كانت البينه(شهاده عدلين)أو الشياع المفيد للطمأنينه،أو شهاده الخبراء من خلال مجموعه متراكمه من الشواهد و الآثار أو خبر العاقل العادل فانه من التبين عند العقلاء..على أن العقلاء لا يعتمدون على بعض هذه الأدله إذا كانت الظروف المحيطه باعثه للشك الحقيقى مثلا:الشياع الذى يعتقد أن منشأه شائعه مغرضه لا يورث طمأنينه فى النفس فهو إذا ليس بحجه.

كما ان خبر العادل فيما لا يخفى عند غيره يرتاب فيه العقلاء إذا انفرد به كما لو أنبأنا بأن الاذاعه الفلانيه نشرت هذا الخبر،علما بأنها لو نشرته لسمع أكثر الناس و تناقلوه..أو أخبر برؤيه الهلال فى ليله صافيه مما نعلم أنه لو رآه هذا العادل لرآه غيره أيضا،و إذ لم يشهد برؤيته غيره فان العقلاء يشكون فى كلامه.كذلك الحوادث الخطيره لا يعتمد العقلاء عاده على الخبر الواحد فيها مثل الحروب..

عموما:حاله التبين تختلف عند العقلاء حسب الموضوعات فلا بد من الالتفات الى ذلك،و لعل الحكمه التى سيقت فى خاتمه الآيه هى محور الحكم فعلينا أن ندور مداره،و نتفكر كيف نتجنب الوقوع فى الجهاله و الندم.

[۷]كيف تتموج الفتنه فى المجتمع المسلم؟إنها تشرع بشائعه تتلقفها الألسن ثم لا تلبث أن تتحول الى تيار يجرف معه البسطاء،و الانتهازيين،و الفوضويين آنئذ تطفق الفتنه و أصحابها بالضغط على القياده الشرعيه التى عليها أن تختار بين الاستسلام لعاصفه الفتنه،أو خسران شريحه اجتماعيه،فما هو الحلّ؟ الحل ينحصر فى تجلى المجتمع بروح الانضباط و أن يعى الجميع أبعاد نعمه القياده فيشكروها شكرا عمليا.حقا إن المجتمع الذى يعى أهميه القياده الشرعيه يتحصن ضد عواصف الفتنه الداخليه بذات الصلابه التى يقاوم بها قواصف التحديات الخارجيه.لذلك يأمر القرآن بأن نعلم دور الرسول فينا(ثم من يخلفه

و يرث مقامه بدرجه ما).

وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ فهو إذا مبعوث من عند اللّه يحمل رساله الحكمه و المعرفه و البصيره،و ما دام كذلك فلا بد من الرجوع إليه عند الفتن و الشبهات، و لا يجوز الضغط عليه بقبول آراءكم و شهوات أنفسكم،لأن ذلك ليس من مصلحتكم.

لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ و كيف لا تصيبهم المشقه و العنت و قد خالفوا العلم الى الجهل،و الحكمه الى الجهاله.

جاء فی الأثر: فی سبب نزول الآیه أو تأویلها علی عهد الرسول ما یلی:

أولا:إن النبی صلّی اللّه علیه و آله بعث الولید بن عقبه لیجمع الصدقات من بنی المصطلق فلما أبصروه أقبلوا نحوه للترحاب به،و لکن خشیهم و هابهم و یبدو أنه کان بینه و بینهم عداوه فخافهم علی نفسه أن یقتلوه أو کانت فی نفسه ضغینه تجاههم،فأراد أن یمکر بهم(أو تظاهر بذلک)فرجع الی النبی صلّی اللّه علیه و آله فأخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام.

فبعث نبی اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم خالد بن الولید و أمره أن یتثبت و لا یعجل،فانطلق خالد حتی أتاهم لیلا،فبعث عیونه فلما جاءوا أخبروا خالدا أنهم متمسکون بالإسلام،و سمعوا أذانهم و صلاتهم،فلما أصبحوا أتاهم خالد و رأی صحه ما ذکروا فعاد إلی نبی اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فأخبره فنزلت هذه الآیه و کان یقول نبی اللّه:«التأنی من اللّه و العجله من الشیطان». (1)

ص:379

1- 1) بتصرف عن القرطبی/ج 16-ص 311

و يبدو من بعض الأخبار ان طائفه من المسلمين كانوا يصرون على النبى بالخروج إليهم و قتالهم قبل التثبت من أمرهم،و لعل مؤامره حاكها الحزب الأموى و المنافقون المؤيديون لهم ضد المسلمين،و منها نفذ الوليد طرفا منها،بينما أراد الآخرون تنفيذ سائر جوانبها.

ثانيا:

جاء فى الأثر ان الآيه نزلت فى قصه الافك على بعض الروايات.فقد ذكر على بن إبراهيم فى تفسيره انها نزلت فى ماريه القبطيه أم إبراهيم (عليه السّلام)،و كان سبب ذلك أن عائشه قالت لرسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله-:إن إبراهيم ليس هو منك و إنما هو من جريح القبطى،فانه يدخل إليها فى كل يوم،فغضب رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله-و قال لأمير المؤمنين (عليه السّلام):خذ السيف و أتنى برأس جريح،فأخذ أمير المؤمنين(عليه السّلام) السيف ثم قال:بأبى أنت و أمى يا رسول اللّه إنك إذا بعثتنى فى أمرك أكون فيه كالسفود (۱)المحمى فى الوبر فكيف تأمرنى أثبت فيه أو أمضى على ذلك؟فقال له رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله-:بل تثبت،فجاء أمير المؤمنين الى مشربه أم إبراهيم فتسلق عليها فلما نظر اليه جريح هرب منه و صعد النخله،فدنا منه أمير المؤمنين(عليه السلام)و قال له:انزل فقال له يا على اتق اللّه ما هاهنا أناس انى مجبوب (۲)ثم كشف عن عورته فاذا هو مجبوب،فأتى به رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله-فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:ما شأنك يا جريح؟فقال:يا رسول اللّه ان القبط يحبون حشمهم و من يدخل الى أهليهم،و القبطيون لا يأنسون إلا بالقبطيين،فبعثنى أبوها لأدخل إليها و أخدمها و أونسها،فأنزل اللّه عزّ و جلّ يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جٰاءَكُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ الآيه. (۳)

ص:۳۸۰

۱- ۱) السفود:حديده يشوى عليها اللحم

۲- ۲) المجبوب:الخصى

۳- ۳) نور الثقلين/ج ۵-ص ۸۱

و هـذه الآـيه و نصـوص دينيـه أخرى تسـتهدف فصـل الفسـقه عن المجتمـع الاسـلامى نفسـيا،و تقليـل دورهم فى اداره القضـايا الاجتمـاعيه،فـاذا امتنع المسـلمون عن العمل باخبار الفاسـقين،فقـد أبعـدوهم عن القضاء و الاعلام،و الشـهاده فى المحاكم و عن أعمال أخرى.

من هنا نجد المفسر المعروف القرطبى ينقل هنا نصا عن ابن العربى يحسن بنا الاستماع اليه يقول:

و من العجب أن يجوز الشـافعى و نظراؤه إمـامه الفـاسق و من لاـ يؤتمن على حبه مال كيف يصـبح أن يؤتمن على قنطار دين،و هـذا إنما كان أصـله أنّ الولاه الـذين كانوا يصـلون بالناس لما فسدت أديانهم و لم يمكن ترك الصـلاه وراءهم،و لا اسـتطيعت إزالتهم صـلى معهم و وراءهم(و أضـاف)ثم كـان من النـاس من إذا صـلى معهم تقيه أعـادوا الصـلاه للّه،و منهم من كان يجعلها صلاته.و بوجوب الاعاده أقول فلا ينبغى لأحد أن يترك الصـلاه مع من لا يرضـى من الأئمه و لكن يعيد سـرا فى نفسه و لا يؤثر ذلك عند غيره. (١)

وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمٰانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيٰانَ الرسـاله نعمه و فضـل،و وعى هـذه الحقيقه يجعلنـا نسـتفيد منها بصوره أفضل،أو ليس الـذى يجهل أن له رصـيدا كبيرا فى البنك لا ينتفع به؟ و الايمان بالرساله هو الآخر توفيق من عنـد اللّه و نعمه و فضل،صـحيح ان العبد يخطو الى ربه الخطوه الأولى،و يسـلم للحق،و لكن لو لا أن اللّه يجبب الايمان فى

١- ١) القرطبى/ج ١٦-ص ٢١٣

قلوب من يصلح له ما زكى أحد من البشر أبدا.و لقد حبب اللّه الايمان مرتين،مره عند ما خلق البشر على فطره الايمان باللّه،و مره عند ما ألقى فى أفئده المسلمين لربهم الصالحين لتلقى نعمه الهدى حب الايمان.كما ان الفطره البشريه بذاتها تكره الانحراف بكلّ درجاته،كالكفر الذى يعنى مخالفه الدين رأسا،و الفسوق الذى يعنى تجاوز حدود الشريعه و العصيان الذى هو ارتكاب بعض الخطايا،و هذه الثلاث تعاكس الايمان و من دون تطهير القلب من أدرانها لا يستقبل القلب روح الايمان.

أُولٰئِکَ هُمُ الرّٰاشِدُونَ قالوا:أصل الرشد الصخره،و يسمى صاحب الرأى السديد بالراشد لاستقامته عليه،و شده تصلبه فيه،فهو على يقين من أمره.و رشد المؤمن ناشئ من يقينه، و تصلبه فى الحق إذ أنه عرف دربه الواضح فسوف لا يغيره.

و قد التفت السياق من الخطاب الى الغيبه،ربما لأن مقام الراشدين رفيع لا بد أن يشار اليه بمثل كلمه(أولئک)و هو بالتالى لا يناله إلا من هو ذو حظ عظيم، فليس كل تال للقرآن مخاطب بهذه الصفه العظيمه.و الآيه تدل على أن أساس الدين الحب،و لذلک يسعى المؤمنون لترسيخ و تنميه هذا الحب فى أفئدتهم و يقولون:

«و اجعل لسانى بذكرک لهجا،و قلبى بحبک متيما». (۱)

و جاء فى صفه حزب اللّه المفلحين: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ » (۲).

۱- ۱) من دعاء لأمير المؤمنين عليه السلام المعروف بدعاء كميل/مفاتيح الجنان/ص ۶۷

۲- ۲) المائده/۵۴

و

حین سأل زیاد الحذاء الامام الباقر(علیه السلام)عن علاقه الدین و الحب، أجابه الامام قائلا:

یا زیاد ویحک!و هل الدین إلا الحب؟ألا تری الی قول اللّه: «إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اللّٰهُ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ »أولا ترون قول اللّه لمحمد «حَبَّبَ إِلَیْکُمُ الْإِیمٰانَ وَ زَیَّنَهُ فِی قُلُوبِکُمْ »قال: «یُحِبُّونَ مَنْ هٰاجَرَ إِلَیْهِمْ ».

و قال مضیفا:«الدین هو الحب و الحب هو الدین» (1) [8]و إذا کان الایمان هدیه اللّه الی القلوب الطاهره،فانه فضل من اللّه لطائفه خاصه من البشر،و لیس کسائر نعم اللّه شامله للجمیع.

فَضْلاً مِنَ اللّٰهِ وَ نِعْمَهً وَ اللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ یعلم أین ینبغی أن یجعل فضله و نعمته بحکمته البالغه.

ص:۳۸۳

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵-ص ۸۴

[سوره الحجرات (۴۹): الآيات ۹ الی ۱۰]

اشاره

وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ اِقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى اَلْأُخْرى فَقاتِلُوا اَلَّتِی تَبْغِی حَتّی تَفِیءَ إِلی أَمْرِ اَللّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اَللّهَ يُحِبُّ اَلْمُقْسِطِينَ (۹) إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ اِتَّقُوا اَللّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۱۰)

فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ

هدى من الآيات:

إذا كـانت الحرب الخـارجيه ذات فوائـد للامه،إذ تمحص إرادتهـا و تطهر صـفوفها،و تهـديها الى مراكز ضـعفها و تحسسـها بمسؤولياتهـا،و تكرس القيم الحضـاريه فيهـا،فـان الحرب الأهليّه لا تخلف وراءهـا إلاّ الخيبه و الـدمار،و قـد تجرهـا الى نهايتها المريعه.

و لقد عالجت الآيه الاولى فى هذا الدرس قضيه القتال بين المؤمنين بصوره واضحه، مما حدى بالمفسرين أن يفصلوا الحديث حول الموضوع و يشبعه بحثا،و أنى فصلنا فان القضيه أبعد غورا و أوسع مدى من التحدث عنها ضمن التفسير فقط،و إنما هى بحاجه الى دراسات مفصله.

أما الآيه الثانيه فهى الأخرى تعالج موضوع الصلح و لكن بصوره أشمل و تؤكد على عمق العلاقه بين المؤمنين التى تصل الى الأخوه الكامله.

ص:٣٨٥

بينات من الآيات:

[۹]تعالج آيات القرآن عاده أسوء الحالات قبل الحديث عن الحالات العاديه، فمثلا حين تبين سوره النساء العلاقات الاجتماعيه تستهلها بمعالجه حاله الطلاق التى هى عقده العلاقه الاسريه،و كذلك سوره النور التى ترسم حدود الاسره الفاضله تبتدئ ببيان حد الزنا،و سوره المائده التى تبنى كيان الحضاره الاسلاميه نراها تحدثنا فى فاتحتها عن حرمه الاعتداء على أموال اليتامى الذين هم أضعف الحلقات الاجتماعيه،و هنا أيضا تعالج الآيات أعقد حالات الخلاف و هى حاله الاقتتال أولا ثم تتدرج فى الحديث عن سائر الحالات الأقل تعقيدا.لماذا كل ذلك؟ يبدو أن وراء كل ذلك حكمتين:

الأولى:لبيان الغايه التى سوف تنتهى إليها تسلسل الحالات،لكى لا يستهان بمبدئها فالخلافات الجزئيه التى نستخف عاده بها و الشائعات التى نبثها هنا و هناك ضد بعضنا بلا وازع قد تنمو حتى تصبح صراعا دمويا بين طائفتين من البشر.فلكى نرى الحقائق لا بد أن نضرب لها مثلا واضحا ثم نقيس عليه سائر الامثله.

الثانيه:إن عظمه الشريعه تتمثل فى معالجه الحالات الشاذه البالغه حدها فى التعقيد،أما الأوضاع العاديه فان التعامل معها سهل ميسور.

فمعالجه حاله الطلاق أو الخيانه الزوجيه(الزنا)هى المقياس لقدره الشريعه على وضع نظام صائب لشؤون الاسره،كما ان الحفاظ على أموال اليتيم دليل على مدى صلاحيه النظام الاقتصادى فى المحافظه على حقوق الناس.

ص:۳۸۶

كذلك معالجه مشكله الحرب الأهليه تشهد على مدى صلاحيه النظام الاجتماعى فى مواجهه التحديات.

من هنا بدأ السياق بهذه المعالجه و قال:

وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما المسؤوليه الأولى إذا هى وقف الاقتتال و إقامه السلام بأيه وسيله ممكنه،و هى مسئوليه الجماهير،لأنهم القوه الباقيه بين الطائفتين.أما لو كلفنا طائفه ثالثه فقد تدخل طرفا فى الاقتتال و قد لا تكون أقوى من إحداهما.

و الملاحظ أولا:ان التعبير جاء بصيغه التثنيه ثم الجمع ثم التثنيه،ذلك ان سبب الاقتتال يكون عاده الاختلاف بين فريقين لكل منهما خصائصه و ميزاته، و الصلح يكون بين قيادتى الفريقين،بينما ذات الاقتتال يكون بين أتباعهما،فقد يكون المقاتلون ضحيه مؤامره قيادتهم، و زجهم فى معركه لا مصلحه لهم فيها،بينما القياده عند الفريقين مسئوله عن الحرب كما هى مطالبه بالصلح.

ثانيا:القرآن لم يحدثنا عن قوانين الصلح أو عن الصلح الذى يقوم على العداله،لأن تحقيقه فى حاله الاقتتال يكاد يكون مستحيلا،إنما طلب من الجميع العمل من أجل الصلح.

ثالثا:سمى القرآن الفريقين المتقاتلين بالمؤمنين بالرغم من ان الاقتتال ضلاله بعيده،مما يدل على إمكانيه تورط أبناء الامه الواحده فى الحرب الأهليه بسبب الفتن و الأهواء،فلا يجوز اتهام الناس بالكفر بمجرد دخولهم الصراع مع بعضهم حتى بلغ حد الحرب،كما لا يجوز لأحد الطرفين اتهام الطرف الآخر بالخروج عن إطار الايمان بمجرد إعلانه الحرب عليه.

ص:٣٨٧

فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فلم تقبل بالصلح أو قبلت و غدرت.

فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ هل يمكن أن نقيم السلام بالشعارات و المواعظ و المعاهدات و مجالس الأمن؟قد يكون كل ذلك نافعا،و لكنه ليس بمستوى وقف الحرب التى لا يخوضها الناس إلا بعد أن ييأسوا من تحقيق أهدافهم بأيه وسيله أخرى،فيركبون مركبها الصعب و يتحملون مآسيها و ويلاتها.فكيف يتوقفون عنها بنصيحه أو قرار؟ لا بد إذا أن يتحمل الناس كل الناس مسئوليه الحفاظ على السلام و وقف نزيف الدم،و ذلك بخوض غمار الحرب بلا تردد،و إلا فأن بغاه الفتنه سوف يحولون الأرض جحيما.

و لست أعرف مبدأ فرض على تابعيه هذا المستوى من المسؤوليه الاجتماعيه، فالمبادئ الغربيه ترى انتخاب النظام حقا،بينما الإسلام يراه واجبا،و يفرض على المؤمن الكفر بمن يطغى و يريد فرض نفسه على المجتمع حاكما من دون رضاهم،كما يفرض القتال ضد الذين يبغون الفساد فى الأرض.

و يحدد القرآن القتال بعوده الفئه الباغيه الى أمر اللّه و قبولها بتطبيق حكم الإسلام فى قضايا الخلاف بينها و بين الفئه الاخرى،مما يدل على واجب التقيد التام بحدود العداله فى التعامل مع البغاه بالرغم من بغيهم و اعتدائهم على السلام و الأمن.

و إذا عرفنا ان هؤلاء يشبهون المعارضه المسلحه فى عرف اليوم،نعرف كيف ينبغى التعامل مع المعارضه فى النظام الاسلامى بأن نعيدهم الى الحدود الشرعيه

ص:٣٨٨

و الممارسه القانونيه لحقهم،دون مصادره حقوقهم و انتهاک حرماتهم و الاشهار بهم و إغراقهم بالتهم الرخيصه،فكيف باعتقالهم و تهجيرهم و تعذيبهم و قتلهم؟کلا.

إنّ اللّه سبحانه يحدد قتال البغاه بعودتهم الى أمر اللّه فاذا عادوا كان حالهم حال سائر أبناء الامه سواء بسواء.

فَإِنْ فٰاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمٰا بِالْعَدْلِ و لا يجوز التمييز بينهما و بين الفئه الاخرى،بمجرد أنها بغت عليها.إذ ان فرض عقوبات على هذه الفئه أو حرمانهم من حقوقهم يمهد لحرب جديده،إنما العدل و إقامه حدود اللّه على الجميع بلا تمييز يقضى على أسباب الصراعات الاجتماعيه لأن وقود هذه الصراعات هم فى الأغلب الفئات المحرومه التى يستغلها هذا أو ذاک.

وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ لعل القسط هو التطبيق الدقيق و الحازم لموجبات العداله،فهو الدرجه الأسمى للعدل.فكيف نحقق القسط فى الفئتين المحاربتين؟ قد تكون الفئه الباغيه(المعارضه المسلحه)فئه محرومه تاريخيا،كالسود فى أمريكا،فتساويهما فى الحقوق مع مواطنيهم البيض لا يكفيهم،و لا يقضى على عوامل البغى المجرد،إنما ينبغى توفير قدر أكبر من الفرص لهؤلاء لرفع حرمانهم مثل تخصيص ميزانيات أكبر لمناطق تواجدهم،و قبولهم فى الجامعات بشروط أخف و إعطائهم ديونا بلا فوائد و.و.و اللّه العالم.

و قد جاء فى سبب نزول الآيه أقوال شتى مما يدل على ان ذلک كان مجرد تطبيق الآيه على بعض الحوادث التى وقعت بين المسلمين و أكثرها كانت بين

الأنصار و بالذات بين الأوس و الخزرج الذين بقيت على عهد النبى آثار حربهما الضروس التى طالت عقودا متطاوله حتى أخمدها اللّه بالإسلام.

و أكثر تلك المشاحنات التى يذكرها المفسرون فى سبب نزول الآيه كانت بالأيدى و النعال و جريد النخل و لا أظن أنها تسمى قتالا.

و ليس غريبا أن يبين القرآن حكم موضوعه تتحقق عاده فى الأمم حتى و لو لم تحدث عند نزول الكتاب،و قد شهد المسلمون صراعا دمويا بينهم فى القرن الأول من الهجره،مما يصلح تأويلا للآيه من هنا تحدث بعض المفسرين بتفصيل عن تلك الحرب،و نحن بدورنا نجد فائده كبيره بذكر جانب مما تحدثوا عنه مبتدئين ذلك بنقل ما نقله القرطبى عن القاضى أبى بكر بن العربى حيث قال:

هذه الآيه أصل فى قتال المسلمين،و العمده فى حرب المتأولين،و عليها عوّل الصحابه و إليها لجأ الأعيان من أهل المله،و إياها عنى

النبى-صلّى اللّه عليه و آله و سلم-بقوله: «تقتل عمارا الفئه الباغيه »و

قوله عليه السلام فى شأن الخوارج:

«يخرجون على خير فرقه أو على حين فرقه »و الروايه الأولى أصح،

لقوله عليه السلام: «تقتلهم أولى الطائفتين الى الحق »و كان الذى قتلهم على بن أبى طالب و من كان معه،فتقرر عند علماء المسلمين و ثبت بدليل الدين ان عليا رضى اللّه عنه كان إماما،و إنّ كل من خرج عليه باغ،و ان قتاله واجب حتى يفىء الى الحق و ينقاد الى الصلح،لأن عثمان رضى اللّه عنه قتل و الصحابه براء من دمه، لأنه منع من قتال من ثار عليه و قال:لا أكون أول من خلف رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى أمته بالقتل،فصبر على البلاء،و استسلم للمحنه و فدى بنفسه الامه، ثم لم يمكن ترك الناس سدى،فعرضت على باقى الصحابه الذين ذكرهم(عمر) فى الشورى،و تدافعوها،و كان على كرّم اللّه وجهه أحق بها و أهلها،فقبلها حوطه

على الامه أن تسفك دماؤها بالتهارج و الباطل،أو يتخرق أمرها الى ما لا يتحصل، فربما تغير الدين و انقض عمود الإسلام.فلما بويع له طلب أهل الشام فى شرط البيعه التمكن من قتله عثمان و أخذ القود منهم.

فقال لهم على رضى اللّه عنه:

ادخلوا فى البيعه و اطلبوا الحق تصلوا اليه، فقالوا:لا تستحق بيعه و قتله عثمان معك تراهم صباحا و مساء.فكان على فى ذلك أسدّ رأيا و أصوب قيلا،لأن عليا لو تعاطى القود منهم لتعصبت لهم قبائل و صارت حربا ثالثه،فانتظر بهم أن يستوثق الأمر و تنعقد البيعه،و يقع الطلب من الأولياء فى مجلس الحكم،فيجرى القضاء بالحق.

و لا خلاف بين الامه أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك الى اثاره الفتنه أو تشتيت الكلمه،و كذلك جرى لطلحه و الزبير،فإنهما ما خلعا عليا من ولايه و لا اعترضا عليه فى ديانه،و إنما رأيا أن البداءه بقتل أصحاب عثمان أولى. (۱)

ثم يسترسل القرطبى فى تفسير حرب الجمل فيقول:و قال جله من أهل العلم ان الوقعه بالبصره بينهم(بين المسلمين)كانت على غير عزيمه منهم على الحرب بل فجأه،و على سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به. (۲)

و لم أهتد الى الفارق بين واقعتى البصره و صفين أو بينها و بين النهروان.أو لم يخرج الجميع على إمام قائم بالأمر بايعته أكثريه المسلمين فكيف نبرّر خروج أهل البصره، و ندين أهل الشام أو الخوارج؟ هب أن القتال كان فجأه،و لكن ماذا يبرر إخراج حرم رسول اللّه من المدينه الى البصره و تجنيد الجيوش و إظهار المخالفه بهذه الطريقه؟

۱- ۱) القرطبى/ج /۱۶ص ۳۱۸

۲- ۲) المصدر

و أظن أن تاريخنا قد حفل بالتبرير،و ربما التناقض لسبب نفسى مغلف بشبهه دينيه!أما السبب النفسى فهو الخلط بين قيم الدين و حوادث التراث،و محاوله اضفاء حاله من القداسه على التراث،دون عرضه على قيم الوحى أو نقده حسب موازين الشرع،فكل ما يسمى بالإسلام أو بالمسلمين أو بالتاريخ الاسلامى ذات حرمه بل قداسه عند البعض،بينما نجد فى تاريخنا ما يندى له جبين الانسانيه،مثل واقعه عاشوراء حيث ذبح سيد الشهداء سبط رسول اللّه عطشانا على جنب الفرات و أسرت بنات رسول اللّه و طوف بهن البلاد..كلاـ لا ينبغى أن نكون مثل الذين اتبعوا آباءهم و قدسوا تراثهم حتى قال لهم اللّه: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللّهُ، قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا،أَ وَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (١)و قال سبحانه: «وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ ». (٢)

المقياس الوحيد للحق هو وحى اللّه المتمثل فى كتاب اللّه،و تفسيره الصحيح الذى بينه رسول اللّه و أهل بيته المعصومون عليهم السلام،أو ما يكشفه العقل و العلم بوضوح كاف..أما سيره السلاطين،أو سلوك الأولين فانه يخضع بدوره للوحى، فما وافق كتاب اللّه و سنه رسوله أكرمناه،و ما خالفهما تركناه..و لا يجوز تعطيل العقل فى فهم الوحى لمصلحه التراث،فإنّه من الغلو فى الدين الذى نهينا عنه،كما قال اللّه سبحانه لبنى إسرائيل: «قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ، وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ،وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ ». (٣)

١- ١) لقمان٢١/

٢- ٢) المائده١٠۴/

٣- ٣) المائده٧٧/

من هنا لا يجوز أن ننسب العصمه الى أصحاب رسول اللّه جميعا،بل لا بد أن نخضع تصرفاتهم لقيم الوحى و نأخذ بما ثبث عن طريقهم من أقوال رسول اللّه و لا يلزمنا اجتهادهم فى الدين أو تفسيرهم للقرآن،و لا سلوكهم خصوصا المخالف للنص.

و لا يجوز أن يوقعنا احترام الصحبه الى مخالفه نصوص الدين،بخلاف ما قال المفسر المعروف القرطبى حيث ذكر انه:لا يجوز أن ينسب الى أحد من الصحابه خطأ مقطوع به إذا كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه و أرادوا اللّه عز و جل و هم كلهم لنا أئمه. (۱)

حقا ينبغى احترام الصحبه،و لكن ليس الى درجه الوقوع فى التناقض أو التبرير الذى لا يقبله العقل،فلا ريب ان قتال الصحابه مع بعضهم كان خطأ فادحا، لا بد أن ندينه و ندين الباغى،و كيف يجوز لنا أن نقيم حوادث اليوم حسب الدين؟ و لا يجوز أن نفعل مثل ذلك فى الماضين،أو لم يكونوا بشرا مثلنا،أو لم تكن لهم شهوه السلطه و الثروه..دعنا نكون أكثر واقعيه،و نضع كل شىء فى موضعه المناسب و لا نكون كالحسن البصرى الذى سئل عن قتال الصحابه فقال:قتال شهده أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و غبنا،و علموا و جهلنا،و اجتمعوا فأتبعنا،و اختلفوا فوقفنا.. (۲)

فهل يجوز أن نطلق مثل هذا الكلام بالنسبه الى كل حادثه تاريخيه؟!إذا نعطل العقل،بل نعطل موازين الشريعه،كلا..لا بد أن ندرس التاريخ و نعتبر بما فيه و نميز الحق و الباطل فنتبع الحق و ندع الباطل و اللّه المستعان على ذلك.

۱- ۱) القرطبى/ج ۱۶/ص ۳۲۱

۲- ۲) المصدر/ص ۳۲۲

أما الشبهه الدينيه فهی اننا لو شککنا فی أمر الصحابه ضاعت علینا معالم دیننا،أو لیسوا هم الوسیط بیننا و بین معرفه الدین؟و أضافوا أن هناک أحادیث مأثوره عن الرسول باحترام الأصحاب و أنهم کالنجوم بأیهم اقتدینا اهتدینا..

و نقول:إن معالم الدین واضحه بالقرآن،و علینا أن نعرض علیه حتی أحادیث الرسول و أهل بیته فکیف بأفعال بشر مثلنا؟ثم ان کل جیل یأخذ معالم دینه من الجیل السابق علیه فهل من المعقول إضفاء هاله العصمه علی کل الأجیال؟ و ما الفرق مثلا بین الصحابه و جیل التابعین فی أن من لحقهما أخذ منهما معالم الدین؟فکما میز علماء المسلمین بین التابعین حسب قوانین علم الرجال،فقالوا هذا ثقه أخذوا منه الدین و هذا وضاع و ذاک ضعیف و الثالث مجهول الحال فلم یأخذوا منه الحدیث کذلک ینبغی أن نفعل بالجیل السابق لهم،فنفرق مثلا-بین أبی ذر الغفاری،الذی ما أظلت الخضراء و لا أقلت الغبراء علی ذی لهجه أصدق منه، و بین سمره بن جندب الذی کان یکاسر معاویه فی ثمن الأحادیث الموضوعه.

و إذا جاءت روایات فی فضل الأصحاب فیجب تقییدها بالصادقین منهم الذین لم یحدثوا بعد الرسول،و ذلک لسببین:

أولا:لمعارضتها مع روایات أخری مأثوره عن النبی،تؤکد ان بعض الصحابه یحدثون من بعده،و إنهم یذادون یوم القیامه عن الحوض کما یذاد البعیر،و أنه ستکثر من بعده القاله فمن کذب علیه فلیتبوّأ مقعده من النار.

ثانیا:لأننا یجب أن نجعل کتاب اللّه مقیاسا لمعرفه حدود أحادیث الرسول، و اللّه سبحانه و تعالی یقول: «قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَ الَّذِینَ لاٰ یَعْلَمُونَ ». (۱)

ص:۳۹۴

۱- ۱) الزمر۹/

«أَ فَمَنْ كٰانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كٰانَ فٰاسِقاً لاٰ يَسْتَوُونَ ». (١)

«وَ مٰا يَسْتَوِی الْأَعْمیٰ وَ الْبَصِيرُ،وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ لاَ الْمُسِیءُ قَلِيلاً مٰا تَتَذَكَّرُونَ ». (٢)

«لاٰ يَسْتَوِی مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قٰاتَلَ أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قٰاتَلُوا وَ كُلاًّ وَعَدَ اللّٰهُ الْحُسْنیٰ وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ». (٣)

و عند ما بين ربنا فضائل الجيل الأول من المسلمين اشترط الايمان و الإحسان فيهم،و لم يطلق الكلام عند ما وعدهم الأجر العظيم،بل قيده بذلك و أكد عليه بحرف«من»التبعيضيه و قال:

«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّٰهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّٰاءُ عَلَى الْكُفّٰارِ رُحَمٰاءُ بَيْنَهُمْ تَرٰاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّٰهِ وَ رِضْوٰاناً،سِيمٰاهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِی التَّوْرٰاةِ وَ مَثَلُهُمْ فِی الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَویٰ عَلیٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرّٰاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفّٰارَ وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً ». (۴)

أحكام الباغين

أ/هل الآيه تشمل حاله القيام ضد الحكم الاسلامی أم تخص الاختلاف بين طائفتين من المسلمين ليس بينهما إمام؟المعروف بين المفسرين انها تشمل الحاله الأولی و لذلك فقد تحدثوا فی تفسيرها عن حكم البغاه،و عما حدث فی الصدر

١- ١) السجده/١٨

٢- ٢) غافر/۵٨

٣- ٣) الحديد/١٠

۴- ۴) الفتح/٢٩

الأول من اقتتال الأصحاب مما كان مظهرا واضحا للبغی ضد الامام الحاکم.

و یبدو أن هذا الفهم یستند الی ان الاقتتال بین المسلمین یکون عاده علی السلطه،حیث لا تری طائفه منهم السلطه شرعیه فتقوم ضدها،و سواء کانت تملک حجه فی ذلک،و کما قامت طوائف من المسلمین ضد الحکام فی العهدین الأموی و العباسی،أولا کالذی حدث فی عهد الامام علی علیه السلام،فان الآیه تشمل ذلک کله،و یشهد علی ذلک

الحدیث المفصل المروی عن الامام الصادق علیه السلام و الذی جاء فیه:«بعث اللّه محمّدا بخمسه أسیاف ثلاثه منها شاهره فلا تغمد حتی تضع الحرب أوزارها،و لن تضع الحرب أوزارها حتی تطلع الشمس من مغربها..الی أن قال:و أما السیف المکفوف فسیف علی أهل البغی و التأویل (ثم قرأ الآیه الکریمه:و إن طائفتان..)فلما نزلت هذه الآیه قال رسول اللّه:إنّ منکم من یقاتل بعدی علی التأویل کما قاتلت علی التنزیل،فسئل النبی:من هو؟فقال:خاصف النعل،یعنی أمیر المؤمنین،فقال عمار بن یاسر: قاتلت بهذه الرایه مع رسول اللّه ثلاثا و هذه الرابعه،و اللّه لو ضربونا حتی یبلغوا بنا المسعفات من هجر لعلمنا انا علی الحق و أنهم علی الباطل». (۱)

و علق الفقیه الکبیر الشیخ محمد حسن النجفی علی ذلک بقوله:خبر الأسیاف المروی فی التهذیب و الکافی و عمل به الأصحاب و تسمعه إنشاء اللّه صریح فیما ذکره بعض من أنه نزل فیهم قوله تعالی:و إن طائفتان الآیه. (۲)

ب/لا ـ ینبغی معامله أهل البغی معامله الأعداء،بل ینبغی أن نقاتلهم لکف بأسهم و درء للفتنه فاذا فاءوا الی أمر اللّه عاملناهم کاخوه..و

قد جاء فی تتمه

ص:۳۹۶

۱- ۱) وسائل الشیعه/ج ۱۱/ص ۱۸

۲- ۲) جواهر الکلام/ج ۲۱ ص ۳۲۳(الطبعه الثانیه)

الحدیث الآنف ذکره: «و کانت السیره فیهم(أهل البغی)من أمیر المؤمنین علیه السلام ما کان من رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی أهل مکه یوم فتح مکه فانه لم یسب لهم ذریه، و قال:من أغلق بابه فهو آمن،و من ألقی سلاحه(أو دخل دار أبی سفیان)فهو آمن،و کذلک قال أمیر المؤمنین علیه السلام یوم البصره نادی:لا تسبوا لهم ذریه، و لا تجهزوا علی جریح،و لا تتبعوا مدبرا،و من أغلق بابه و ألقی سلاحه فهو آمن». (۱)

و

جاء فی حدیث آخر عن الامام الصادق علیه السلام:عن عبداللّه بن سلیمان:

قال قلت لأبی عبداللّه الصادق علیه السلام:إن الناس یروون أن علیا قتل أهل البصره و ترک أموالهم(مما یثیر تساؤلا عندهم کیف یبیح دماءهم و لا یبیح أموالهم ؟) فقال:«إن دار الشرک یحل ما فیها و إن دار الإسلام لا یحل ما فیها». (۲)

بل نجد

فی حدیث آخر أعظم من ذلک فقد روی مسعده بن زیاد عن جعفر عن أبیه: «إن علیا لم یکن ینسب أحدا من أهل حربه الی الشرک و لا الی النفاق و لکنه کان یقول:هم إخواننا بغوا علینا». (۳)

روی عن الامام علی علیه السلام انه سئل عن الذین قاتلهم من أهل القبله أ کافرون هم؟قال:«کفروا بالاحکام و کفروا بالنعم لیس کفر المشرکین الذین دفعوا النبوه و لم یقروا بالإسلام و لو کانوا کذلک ما حلت لنا مناکحتهم و لا ذبائحهم و لا مواریثهم». (۴)

۱- ۱) وسائل الشیعه/ج ۱۱/ص ۱۸

۲- ۲) المصدر/ص ۵۸

۳- ۳) المصدر/ص ۶۲

۴- ۴) جواهر الکلام/ج ۲۱ ص ۳۳۸ نقلا عن کتاب الدعائم

ج/يبدو ان البغاه لا يضـمنون ما أتلفوه من مال أو أراقوه من دم،كما لا يضـمن لهم ما تلف منهم من مال أو دم،لأن الصـلح يعنى تنازل كل طرف عما يعتقـد أنه حقه فى مقابل تنازل الطرف الآخر.هذا إذا تم الصـلح،و فى حاله اسـتمرار القتال حتى تفىء الفئه البـاغيه فـان مقتضـى جعـل العوده الى أمر اللّه نهـايه للقتـال أنه ليس هنـاك حكم آخر كالقصـاص و الضـمان،و إلاّ جعلا حـدّا للقتال،و هـذا هو الظاهر من الروايات التى تبيّن أحكام البغاه إذ لم أجد فيها حديثا يتعرض لأحكام القود و الضـمان و الغرامه مع أنها فى مقام البيان.

كمـا ان هـذا هـو المعروف من سـيره أمير المـؤمنين عليه السـلام،فلو أراد الاقتصـاص منهم لقتـل بعض أسـراهم ممن كـان يقود الجيش المعادى كمروان بن الحكم و عبداللّه بن الزبير الذين لا ريب فى تعلق القصاص بهم.

جاء فى التاريـخ ان الامام أمير المؤمنين عليه السـلام لما هزم أهل البصـره ذهب الى دار عظيمه كان فيها أسـرى الحرب فاذا نساء يبكين بفناء الدار فصحن به و قلن:

هـذا قاتل الأحبه،فبعث إليهن واحده و قال:«لو كنت قاتل الأحبه لقتلت من فى هذه الحجره و من فى هذه»و أومأ الى ثلاث حجر فـذهبت إليهن و قـالت لهن فسـكتن جميعـا،و كـان فى واحـده منها عائشه و خاصـتها،و فى الثانيه مروان بن الحكم و شـباب من قريش،و فى الأخرى عبداللّه بن الزبير و أهله. (۱)

و قـال القرطـبى فى تفسـيره:و مـا اسـتهلكه البغـاه و الخوارج من دم أو مـال ثم تـابوا لم يؤخـذوا به،و قـال أبو حنيفه:يضـمنون،و للشافعى قولان،وجه قول أبى حنيفه أنه إتلاف بعـدوان فيلزم الضـمان،و المقول فى ذلك عندنا ان الصـحابه رضـى اللّه عنهم فى حروبهم لم يتبعوا مدبرا و لا ذفّفوا على جريح و لا قتلوا أسيرا و لا ضمنوا

۱- ۱) جواهر الكلام/ج ۲۱/ص ۳۳۱

نفسا و لا مالا و هم القدوه. (۱)

د/قال الفقهاء إن الباغی ذا الفئه یقتل أسیرا و یجهز علیه جریحا و یستحل ماله،لأنه یعود الی من یجمع له السلاح و یغدق علیه الأموال و یعاود القتال..

و

جاء فی الحدیث المأثور عن الامام الصادق علیه السلام انه سئل عن الطائفتین من المؤمنین إحداهما باغیه و الاخری عادله فهزمت العادله الباغیه قال:«لیس لأهل العدل أن یتبعوا مدبرا و لا یجهزوا علی جریح و لا یقتلوا أسیرا و هذا إذا لم یبق من أهل البغی أحد و لم یکن فئه یرجعون إلیها،فاذا کانت لهم فئه یرجعون إلیها فان أسیرهم یقتل،و مدبرهم یتبع و جریحهم یجهز علیه». (۲)

و قال المحقق فی الشرائع:من کان من أهل البغی لهم فئه یرجع إلیها جاز الاجهاز علی جریحهم و اتباع مدبرهم و قتل أسیرهم.فعلق علیه صاحب الجواهر بقوله بلا خلاف أجده فی شیء من ذلک. (۳)

و هذا الحکم یستفاد أیضا من الآیه الکریمه،لأن ذا الفئه من البغاه لا یزال فی حاله الحرب إذا لم ینفصل عنهم أو لیست فئته تحارب المسلمین و هو لم یتبرّأ منهم..فلم یتحقق بالنسبه إلیهم قوله سبحانه: «حَتّٰی تَفِیءَ إِلیٰ أَمْرِ اللّٰهِ ».

و

جاء فی حدیث مأثور أنه أتی علی علیه السلام بأسیر یوم صفین فبایعه فقال علی علیه السلام «لا أقتلک إنی أخاف اللّه رب العالمین،فخلی سبیله و أعطاه سلبه الذی جاء به». (۴)

۱- ۱) القرطبی/ج ۱۶/ص ۳۲۰

۲- ۲) المصدر ۳۲۹

۳- ۳) المصدر/ص ۳۲۸

۴- ۴) وسائل الشیعه/ج ۱۱/ص ۵۴

و من هنا يظهر ان الأسير يستتاب فان تبرّأ من قومه أطلق سراحه و اللّه العالم.

[۱۰]كما النهر يطهر بعضه بعضا، كذلك المؤمنون لا يفتأون يصلحون ما فسد من علاقاتهم ببعضهم حتى يصبحوا إخوانا.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ و جاءت الكلمه بصيغه الحصر لتذكّرنا بأن الايمان الذى لا يرفع المنتمين اليه الى حاله الاخوه إيمان ضعيف ناقص،فهاهنا تقاس التقوى،و تمحص النفوس للايمان، و يستبين الصادقون عن المنافقين.

عشرات الأنظمه الاجتماعيه،و مئات الوصايا الأخلاقيه توالت فى الدين ليبلغ المسلمون حاله الاخوه الايمانيه،و متى ما خالفنا بعضها انماث الايمان فى القلوب كما تنماث حبه الملح فى كف المحيط..و جاءت الروايات تترى و هى توصينا بحقوق إخوتنا فى الايمان،تعالوا نستمع الى بعضها لعلنا نخلق ذلك المجتمع الأمثل الذى يتحدى أعاصير الفتنه و الصراع.

روى عن الامام على عليه السلام أنه قال:قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

«للمسلم على أخيه ثلاثون حقا لا براءه له منها إلا بالأداء أو العفو يغفر زلته، و يرحم عبرته،و يستر عورته،و يقيل عثرته،و يقبل معذرته،و يرد غيبته،و يديم نصيحته،و يحفظ خلته،و يرعى ذمته،و يعود مرضته،و يشهد ميته،و يجيب دعوته،و يقبل هديته،و يكافئ صلته،و يشكر نعمته،و يحسن نصرته،و يحفظ حليلته،و يقضى حاجته،و يشفع مسألته،و يسمت عطسته،و يرشد ضالته، و يرد سلامه،و يطيب كلامه،و يبرّ انعامه،و يصدّق أقسامه،و يوالى وليه، و لا يعاديه،و ينصره ظالما و مظلوما:فأما نصرته ظالما فيرده عن ظلمه، و أما نصرته

مظلوما فیعینه علی أخذ حقه،و لا یسلمه و لا یخذله،و یحب له من الخیر ما یحب لنفسه و یکره له من الشر ما یکره لنفسه.ثم قال علیه السلام:سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله یقول:إن أحدکم لیدع من حقوق أخیه شیئا فیطالبه به یوم القیامه فیقضی له و علیه». (۱)

روی عن الامام الصادق علیه السلام: «المسلم أخو المسلم لا یظلمه و لا یغشه و لا یغتابه و لا یخوفه و لا یحرمه». (۲)و

عنه علیه السلام: «المؤمن أخو المؤمن عینه و دلیله لا یخونه و لا یظلمه و لا یغشه و لا یعده عده فیخلفه». (۳)

و

عنه علیه السلام: «تقربوا الی اللّه تعالی بمواساه إخوانکم». (۴)

و

روی عن الرسول صلّی اللّه علیه و آله أنه قال: «المسلم أخو المسلم لا یظلمه و لا یخذله و لا یحقره.التقوی هاهنا(و أشار الی صدره ثلاث مرات)حسب امرء من الشر أن یحقر أخاه المسلم،کل المسلم علی المسلم حرام دمه و ماله و عرضه». (۵)

و

روی عنه أیضا: «لا تحاسدوا و لا تباغضوا و لا تجسسوا و لا تحسسوا و لا تناجشوا و کونوا عباد اللّه إخوانا». (۶)

و التحسس:الاستماع الی صیت القدم،و التناجش أن تزید فی سلعه و لا رغبه لک فی شرائها.

۱- ۱) بحار الأنوار/ج ۷۴/ص ۲۳۶

۲- ۲) نور الثقلین/ج ۵/ص ۸۷

۳- ۳) المصدر/ص ۸۶

۴- ۴) بحار الأنوار/ج ۷۴/ص ۳۹۱

۵- ۵) تفسیر القرطبی/ج ۱۶/ص ۳۲۳

۶- ۶) المصدر

و

جاء عن الامام الصادق عليه السلام و هو يبيّن مدى عمق الصله بين المؤمنين:

«إنما المؤمنون إخوه بنو أب و أم،و إذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون». (۱)

إنها علاقه روحيه تتجاوز حدود الماده،و تتصل بالغيب،و

جاء فی حديث آخر عن الامام الباقر عليه السلام: سأله جابر الجعفی و قال:تقبضت بين يدی أبی جعفر فقلت جعلت فداك:ربما حزنت من غير مصيبه تصيبنی أو أمر ينزل بی حتی يعرف ذلك أهلی فی وجهی و صديقی فقال:نعم يا جابر إن اللّه عز و جل خلق المؤمنين من طينه الجنان و أجری فيهم من ريح روحه فلذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيه و أمه، فاذا أصاب روح من تلك الأرواح فی بلد من البلدان حزن حزنت هذه لأنها منه. (۲)

و يبقى سؤال:لما اختار الإسلام كلمه الاخوه لبيان مدى العلاقه بين ابنائه؟ ثم لماذا نسب هذه الحاله الى الايمان؟ أولا:حينما اختار المبدأ الغربی كلمه(المواطن)لبيان العلاقه بين أبنائه انطلق من فكره تقديس الأرض و ربط الناس بها و بالمصالح المشتركه التی تشد مجموعه من البشر ببعضهم،و حينما انتخب المبدأ الشرقی كلمه(الرفيق)فقد اعتمد على دور المسيره النضاليه فی علاقاته الاجتماعيه.أما الإسلام فقد اجتبی لنا كلمه الأخ لنعلم ان صلتنا ببعضنا ليست ماديه قائمه على أساس تقدير الأرض و المصالح، كما أنها لا تخص حاله النضال و رفاقه المسيره،و إنما هی مبدئيه ناشئه من صله كل واحد منا بدينه،حتی ليصبح الدين كالأب الذی هو أصل وجود

ص:۴۰۲

۱- ۱) المصدر/ص ۲۶۴

۲- ۲) المصدر/ص ۲۶۶

الابن،و كلما قويت و اشتدت صلتنا بالأصل كلما قويت و تنامت صلتنا ببعضنا.

و من

هنا جاء فی الحدیث المأثور عن الامام الصادق علیه السلام: «المؤمن أخو المؤمن کالجسد الواحد،إذا اشتکی شیئا منه وجد ألم ذلک فی سائر جسده، و أرواحهما من روح واحده،و إن روح المؤمن لأشد اتصالا بروح اللّه من اتصال شعاع الشمس بها». (۱)

و إنما نسب الوحی الاخوه الی الایمان(و لیس الإسلام)لأن الإسلام مجرد التسلیم للدین بینما الایمان و قر فی القلب یفیض علی کل جوانب حیاه الإنسان، و الذی یرفع الناس الی مستوی الاخوه لیس مجرد التصدیق المبدئی بالدین و إنما تطبیق تلک التعالیم القیمه التی تسقط الحواجز المادیه و المصلحیه التی تفصلهم عن بعضهم.

فَأَصْلِحُوا بَیْنَ أَخَوَیْکُمْ ما دمنا إخوه،فلا بد من ردم الفجوات التی تفصل بیننا،و هدم الحواجز و سد الثغرات.أ رأیت البنیان المرصوص،و هکذا یکون بناء التجمع الایمانی.أ رأیت لو امتلئ بالثغرات و الثقوب هل یکون البنیان مرصوصا،و هل یصلح للبقاء طویلا؟ إن التعامل الیومی بین المؤمنین یستدعی إشاعه حاله السلام و الصفاء و الموده بینهم،و إلاّ فإنّ التعامل لیس فقط یصبح صعبا،بل یکون متلفا للأعصاب و یسبب تراکم السلبیات.و لو لا عملیه الإصلاح الیومیه التی یقوم بها المؤمنون تجاه إخوتهم فیما یشجر بینهم فإنّ تراکم السلبیات یمهد السبیل للصراعات الکبیره التی قد تؤدی الی حاله الاقتتال،لأن کل واحد یستقطب طائفه من المؤمنین حوله

ص:۴۰۳

۱- ۱) بحار الأنوار/ج /۷۴ص ۲۶۸

و ينشب الصراع بين طائفتين بينما كان فی البدء بين فردين اثنين.

إن الإسلام قد سن تشريعات كثيره فی تنظيم العلاقه بين المؤمنين،و لكن إذا لم نعرف الهدف الأسمی لها و لم نطبقها بحيث نبلغ ذلك الهدف المتمثل فی تكريس حاله الاخوه بين المؤمنين فاننا لا ننتفع كثيرا بها،بل علينا فوق ذلك أن نضيف الی التشريعات الدينيه ممارسات خلقيه و حتی لوائح قانونيه لتحقيق الإصلاح..كما ان الدين مثلا سن أحكاما كثيره لرعايه الصحه الجسديه،فعلينا:

أولا:أن نطبقها بحيث نبلغ هذا الهدف،و ثانيا:أن نشرّع قوانين جديده للوصول إلی ذلك الهدف،إذا احتاجت الصحه إليها،مثل بناء المصحات أو تطهير الشوارع أو إيجاد مراكز الحجز الصحی و ما أشبه.

إن تعاليم الدين التی تخص المقاصد العامه كالصحه و الإصلاح و العداله و العزه و الكرامه و ما أشبه ينبغی أن نطبقها و نعطيها الأولويه بالقياس الی أحكام الدين التی تهتم بسبل تحقيق هذه المقاصد،و لا يجوز أن نهمل هذه الأوامر و كأنها تعاليم أخلاقيه عامه لا تفرض حكما.

و لعل خاتمه الآيه تشير الی مدی وجوب هذا الأمر الكلی حيث يقول ربنا:

وَ اتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ بلی.إن رحمه اللّه و صلواته و بركاته تتنزّل علی الذين يتواصلون و يتبارون، لأنهم يطيعون اللّه فی أداء حقوق إخوانهم.

فقد جاء فی الحديث عن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله: «من زار أخاه فی بيته قال اللّه عز و جل له:أنت ضيفی و زائری علیّ قراك و قد أوجبت لك الجنه بحبك إياه». (۱)

۱- ۱) بحار الأنوار/ج /۷۴ص ۳۴۵

و

جاء فی الحدیث المأثور عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله: «من کان فی حاجه أخیه.کان اللّه فی حاجته و من فرج عن مسلم کربه فرج اللّه بها عنه کربه من کرب یوم القیامه،و من ستر مسلما یستره اللّه یوم القیامه». (۱)

فضیله الإصلاح بین الناس:

و لقد أمرت الآیه بالإصلاح بین الاخوه المؤمنین،و قرّرت النصوص للمصلحین أجرا عظیما.

ففی وصیته عند وفاته لنجلیه الحسن و الحسین علیهما السلام قال أمیر المؤمنین علیه السلام:«أوصیکما و جمیع ولدی و أهلی و من بلغه کتابی بتقوی اللّه و نظم أمرکم،و صلاح ذات بینکم فأنی سمعت جدکما رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله یقول:صلاح ذات البین أفضل من عامه الصلاه و الصیام». (۲)

و

جاء فی حدیث مأثور عن الامام الصادق أنه قال: «صدقه یحبها اللّه إصلاح بین الناس إذا تفاسدوا و تقارب بینهم إذا تباعدوا». (۳)

و

قال علیه السلام: «لان أصلح بین اثنین أحب الی من أن أتصدق بدینارین». (۴)

و بالرغم من إن الکذب ذنب عظیم إلاّ ان الدین اعتبر الکذب فی الإصلاح صدق عند اللّه.

ص:۴۰۵

۱- ۱) نور الثقلین/ج /۵ص ۸۸

۲- ۲) بحار الأنوار/ج /۷۵ص ۲۴

۳- ۳) نور الثقلین/ج /۵ص ۸۸

۴- ۴) المصدر

و

جاء فی الحدیث المروی عن الامام الصادق علیه السلام: «المصلح لیس بکاذب». (1)

۱- ۱) المصدر ص ۸۹

[سوره الحجرات (۴۹): الآیات ۱۱ الی ۱۲]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ یَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسیٰ أَنْ یَکُونُوا خَیْراً مِنْهُمْ وَ لاٰ نِسٰاءٌ مِنْ نِسٰاءٍ عَسیٰ أَنْ یَکُنَّ خَیْراً مِنْهُنَّ وَ لاٰ تَلْمِزُوا أَنْفُسَکُمْ وَ لاٰ تَنٰابَزُوا بِالْأَلْقٰابِ بِئْسَ اَلاِسْمُ اَلْفُسُوقُ بَعْدَ اَلْإِیمٰانِ وَ مَنْ لَمْ یَتُبْ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلظّٰالِمُونَ (۱۱) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اِجْتَنِبُوا کَثِیراً مِنَ اَلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ اَلظَّنِّ إِثْمٌ وَ لاٰ تَجَسَّسُوا وَ لاٰ یَغْتَبْ بَعْضُکُمْ بَعْضاً أَ یُحِبُّ أَحَدُکُمْ أَنْ یَأْکُلَ لَحْمَ أَخِیهِ مَیْتاً فَکَرِهْتُمُوهُ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ تَوّٰابٌ رَحِیمٌ (۱۲)

اللغه

(۱۱) وَ لاٰ تَلْمِزُوا :من المؤمنین،لأنّ عیب الآخرین من المؤمنین عیب علی النفس،لأنّ المؤمنین وحده واحده.

وَ لاٰ تَنٰابَزُوا :التنابز باب المفاعله من النبز بأن یجعل کلّ واحد منهما للآخر لقبا سیّئا،و إنّما جاء بلفظ التنابز للدلاله علی أنّ النبز لا بد و أن ینتهی الی المنابزه.

اَلاِسْمُ :أی العلامه،لأنّه مشتق من الوسم.

ص:۴۰۷

وَ لاٰ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً

هدى من الآيات:

لكى يبنى الإسلام لنا صرحا اجتماعيا متينا يوصينا بأن نكن الاحترام الكافى لاخوتنا،فلا يحتقر قوم قوما آخرين،و لا نساء نساء أخريات،لأن المقياس الحق عند اللّه،و لعل أولئك الذين نسخر منهم هم خير منا عند اللّه و أفضل(و لكنا نجهل نقاط قوتهم،و نتعالى عليهم فلا نرى إلا نقاط ضعفهم).

و ينهانا القرآن عن أن نعيب بعضنا لمزا(بالقول و مواجهه)أو أن نتبادل الألقاب السيئه(مما يزيل حجاب الحياء و ينشر الحاله السلبيه)،فبئس الاسم اسم الفسوق بعد أن اجتبانا اللّه للايمان،و اختار لنا به أحسن الأسماء.(بلى.إن صبغه المجتمع الاسلامى هى صبغه اللّه التى تشع حسنا،فلما ذا نصبغ مجتمعنا بأسوء الصفات عبر التنابز بالألقاب البذيئه)؟ ثم يوصينا السياق باجتناب الظنون(إلا الظن الذى يدعمه الدليل القاطع)،

ص:۴۰۸

لأن بعض الظن إثم(و هو الذی یحوله صاحبه الی موقف عملی)،و ینهانا عن التجسس(الذی هو التحقق من الظن السیء)،و عن الغیبه التی یعتبرها کأکل لحم الأخ میتا،أو لسنا نکره ذلک،و یأمرنا فی الخاتمه بالتقوی(حتی لا تصبح الغیبه بتکرارها أمرا مألوفا و غیر مستقبح)و یؤملنا رحمته و توبته(حتی لا نیأس من تطهیر أنفسنا و مجتمعنا من هذه الرذائل).

بینات من الآیات:

[۱۱]بدایه فساد العلاقه بین الإنسان و نظیره تضاؤل قیمه الإنسان کإنسان فی عینه،و آنئذ لا یحترم الناس بعضهم،و یبحث کل عن منقصه فی صاحبه یسخره بها،و یدعی لنفسه مکرمه یفتخر بها،بینما لو أنصفنا أنفسنا لعرفنا ان سرّ احترامنا لأنفسنا هو اننا بشر نملک العقل و الاراده،و نتحسس بالألم و اللذه،و نتحلی بالحب و العواطف الخیره،أ فلا توجد کل هذه فی أبناء آدم جمیعا،فلما ذا أطالب باحترام الناس لی،و لا أجد لا حد حرمه؟ تعالوا ننظر لحظه ببصائرنا،حین أسخر من إنسان نظیر لی فی مجمل صفاته،أ فلا یعنی ذلک أنی أسخر من نفسی أیضا؟ بلی.الذین یکفرون بقیمه الاراده و العقل و الحب و العواطف فی أنفسهم هم الذین یکفرون بها فی غیرهم ثم یسخرون منهم.إنهم ینسلخون من إنسانیتهم ثم یسمحون لأنفسهم بانتهاک حرمات غیرهم.

من هنا یشرع السیاق فی اجتثاث جذور الشقاق الاجتماعی بالنهی عن السخریه بالآخرین قائلا:

یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ یَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ

و يخاطب المؤمنين لأن هذه الصفه لا تتناسب و إيمانهم باللّه،أو ليس الايمان باللّه يعنى حذف القيم الأرضيه و تطهير النفس من احترام المال و البنين و الشهره و الأرض و..و..مما يسبب عاده فى التفاخر.و حين ينهى ربنا عن السخريه فلأنها الخطوه الأولى فى طريق النهايه.كيف؟ إن من أعظم مفاخر البشر و مزاياه صفه الحياء،حيث يتحسس الإنسان بفطرته النقيه انّ للآخرين حرمه لا بد أن يؤديها إليهم،و من ملك الحياء لا يفكر فى تجاوز الآخرين.فكيف يفكر فى اغتصاب حقوقهم و الاعتداء عليهم؟ و هكذا يسعى الشيطان لازاله صفه الحياء،و حث الإنسان الى الاستهانه بالآخرين،و تصغير قدرهم،و التصوير بأنهم أقل منه فيحق له إذا تجاوز حقوقهم بل و الاعتداء عليهم.و هنا يقف القرآن له بالمرصاد فيأمر بالتمسک بالحياء و الإبقاء على صفه احترام الآخرين حتى يقضى على التفكير فى الجريمه.

أ رأيت كيف يسمح المستكبرون لأنفسهم بارتكاب المذابح الجماعيه بحق المستضعفين و منعهم من حقوقهم من أدنى درجات الحياه؟هل فكرت يوما كيف انسلخ أولئك البشر عن إنسانيتهم و اندفعوا فى مثل هذه الجرائم؟إنهم فى البدء سخروا منهم و قالوا نحن أبناء اللّه،نحن الشعب المختار،نحن ذوى البشره البيضاء اختارنا اللّه لحكم هؤلاء الذين لم يؤتوا من الذكاء و العقل نصيبا مذكورا.و هكذا كونت الثقافه العنصريه أرضيه الجريمه بحق الشعوب.

و لعل التعبير القرآنى هنا يعكس طبيعه الاستهزاء عند الرجال،حيث انهم يفتخرون عاده بتجمعهم و يسخرون من سائر الناس،فترى أهل هذا الحى يقولون من مثلنا؟أو أهل هذا النادى أو ذلك الحزب أو هذا المصر أو ذلك الإقليم إنهم يفتخرون بما لديهم و يفرحون بما أوتوا من نصيب الدنيا فيسخرون ممن لا يملك ذلك

حتی و لو ملک ما هو أفضل منه.

أما النساء فتجری مفاخرتهن فی أمور شخصیه کالجمال و الزینه أو النسب أو السبب،و أساس الاستهزاء بالآخرین عجب کل قوم بما یملکون من میزات، و فرحهم بها،ثم تعالیم علی من سواهم بذلک، و لعل میزات الآخرین أعظم و أنفع للناس و أبقی عند اللّه،لذلک ذکرنا الرب سبحانه بالالتفات الی هذه الحقیقه، و قال:

عَسیٰ أَنْ یَکُونُوا خَیْراً مِنْهُمْ وَ لاٰ نِسٰاءٌ مِنْ نِسٰاءٍ عَسیٰ أَنْ یَکُنَّ خَیْراً مِنْهُنَّ و

فی حدیث مأثور عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله نقرأ أن من علامات عقل المرء ترکه التعالی علی الناس، هکذا روی عن أبی جعفر(علیهما السلام):قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «لم یعبد اللّه عزّ و جلّ بشیء أفضل من العقل،و لا یکون المؤمن عاقلا حتی تجتمع فیه عشر خصال..و العاشره لا یری أحدا إلّا قال:

هو خیر منّی و أتقی،إنما الناس رجلان:فرجل خیر منه و أتقی،و آخر هو شرّ منه و أدنی،فاذا رأی من هو خیر منه و أتقی تواضع له لیلحق به،و إذا لقی الذی هو شر منه و أدنی قال:عسی خیر هذا باطن،و شرّه ظاهر،و عسی أن یختم له بخیر.

فاذا فعل ذلک فقد علا مجده،و ساد أهل زمانه». (۱)

و

فی روایه أخری قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «إن اللّه عز و جل کتم ثلاثه فی ثلاثه،کتم رضاه فی طاعته،و کتم سخطه فی معصیته،و کتم ولیه فی خلقه،فلا یستخفن أحدکم شیئا من الطاعات فانه لا یدری فی أیها رضا اللّه، و لا یستقلن أحدکم شیئا من المعاصی فانه لا یدری فی أیها سخط اللّه،و لا یزر أن

۱- ۱) بحار الأنوار/ج ۱/ص ۱۰۸

أحدكم بأحد من خلق اللّه فانه لا يدری أيهم ولی اللّه» (۱)و جاء فی سبب نزول الآيه الكريمه ان ثابت بن قيس بن شماس كان فی أذنه و قر،و كان إذا دخل المسجد تفسحوا له حتی يقعد عند النبی صلی الله عليه و آله فيسمع ما يقول،فدخل المسجد يوما و الناس قد فرغوا من الصلاه،و أخذوا مكانهم،فجعل يتخطی رقاب الناس،و يقول:تفسحوا،تفسحوا،حتی انتهی الی رجل فقال له:

أصبت مجلسا فاجلس،فجلس خلفه مغضبا،فلما انجلت الظلمه،قال:من هذا؟ قال الرجل:أنا فلان،فقال ثابت:ابن فلانه!-ذكر أمّا له كان يعير بها فی الجاهليه-فنكس الرجل رأسه حياء فنزلت الآيه (۲).

و عن ابن عباس فی قوله:«و لا نساء من نساء»نزل فی نساء النبی(صلّی اللّه عليه و آله)سخرن من أم سلمه.و عن أنس:

و ذلك أنها ربطت حقويها بسبيبه -و هی ثوب أبيض-و سدلت طرفها خلفها،فكانت تجرّه،فقالت عائشه لحفصه:

أنظری ماذا تجرّ خلفها كأنه كلب،و قيل أنها-عائشه-عيرتها بالقصر،و أشارت أنها قصيره، و هذا ما روی عن الحسن بن علی عليهما السلام (۳).

و

فی تفسير علی بن إبراهيم أن الآيه نزلت فی صفيه بنت حيی بن أخطب -و كانت زوجه رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم- و ذلك أن عائشه و حفصه كانتا تؤذيانها،و تشتمانها،و تقولان لها:يا بنت اليهوديه، فشكت ذلك الی رسول اللّه صلی الله عليه و آله ؟قال:قولی:أبی هارون نبی اللّه،و عمی موسی كليم اللّه،و زوجی محمد رسول اللّه صلی الله عليه و آله فما تنكران منی؟!فقالت لهما،فقالتا:هذا علمك رسول اللّه صلی الله عليه و آله فأنزل اللّه الآيه (۴).

۱- ۱) المصدر/ج ۷۵/ص ۱۴۷

۲- ۲) مجمع البيان/ج ۹/ص ۱۳۵

۳- ۳) المصدر

۴- ۴) تفسير القمی/ج ۲/ص ۳۲۲

وَ لاٰ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكَمْ اللمز هو العيب.و قال الطبری:«اللمز باليد و اللسان و الاشاره،و الهمز لا يكون إلا باللسان» (۱).

و حين يعيب الواحد منّا أخاه ينشر النفس السلبی فی المجتمع،و يسقط حرمته، مما يسبب فی لمز نفسه أيضا،و لعله لذلک قال ربنا هنا«أنفسكم»کما قال سبحانه: «وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » (۲)أی لا يقتل بعضكم بعضا أو قال «فَسَلِّمُوا عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ » (۳)أی سلموا على بعضكم.إن الإخلال بالآداب الاجتماعيه أسرع شیء تأثيرا على صاحبه،لأن الحاله الاجتماعيه ستعمه سريعا،ثم ان الذی تلمزه لا يترک العيب عليک،فتسقط هيبه الجميع،و يرفع حجاب الحياء و تتسع الکلمات البذيئه و ينتشر الجو السلبی.ثم ان اللمز-کما السخريه بالآخرين-خطوه فی طريق إفساد العلاقات الاجتماعيه،و جرثومه الصراعات الخطيره،لا بد أن نقف دونها بحزم حتى لا تتطور.

وَ لاٰ تَنٰابَزُوا بِالْأَلْقٰابِ أن يلقب بعضنا بعضا بالألقاب البغيضه.و فی الروايات:أنه يستحب أن ينادی الأخ أخاه بأحب الأسماء اليه.

و إننا قد نسیء الى إخوتنا من غير قصد کأن نلقبه باسم أمام الآخرين،باسم لا يرضاه،و قد نقوله له بحسن نيّه غير جدّ،فيأخذه الآخرين مأخذ الجدّ و يعيروه به حتى ينطبع عليه،و يسیء الى شخصه و شخصيته.و تختلف تلک الألقاب باختلاف

۱- ۱) القرطبی/ج /۱۶ص ۳۲۷

۲- ۲) النساء/۲۹

۳- ۳) النور/۶۱

المجتمعات،و عموما فإنّ كل لقب لا يرضى به صاحبه يجب أن نمتنع عن تلقيبه به.

«وَ لاٰ تَنٰابَزُوا بِالْأَلْقٰابِ ».

أى لا تتبادلوا بينكم الألقاب السيئه التى تؤثر على سمعه المجتمع الاسلامى، إنما ينبغى أن نختار أفضل الألقاب،و أحب الأسماء فنطلقها على إخوتنا.

إن طهاره اللسان و نظافه الأجواء الاجتماعيه تطبع حياتنا بأحسن الصور.

أ رأيت لو قدمت مدينه قذره لا يأبه أهلها بنظافه أبدانهم،أ فلا تتمنى لو تخرج منها سريعا؟كذلك المجتمع حين يعبق طيب الكلمات الحسنه فى أرجائه يستريح الإنسان إليه،أما إذا انتشر فيه ريحه نتنه نهرب منها.

و قد نزلت هذه الآيه-حسب المفسرين-فى أن الرجل كان يعيّر بأصله بعد إسلامه فيقال له:يا يهودى،يا نصرانى..و قال البعض:إن الرجل كان له الاسمان و الثلاثه فيدعى ببعضها فعسى يكره فنزلت الآيه. (۱)

بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمٰانِ فالأسماء التى كانت للجاهليه لا تصلح للمسلمين الذين رفع اللّه شأنهم بالايمان-و لذلك

روى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله: «من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه اليه» (۲).

وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ

۱- ۱) القرطبى/ج ۱۶/ص ۳۲۸

۲- ۲) القرطبى/ج ۱۶/ص ۲۳۰

إن الحقوق الاجتماعيه ليست بأقل حرمه من الحقوق الماليه،و من يعتـدى على عرض إخوانه كمن يعتدى على نفسه أو ماله،أولا نقرأ

الحديث الشريف المأثور عن النبى صلّى اللّه عليه و آله: «إن اللّه حرم من المسلم دمه و ماله و عرضه و ان يظن به السوء» (١).

و هـذه الآـيه تنهى أيضـا عن التعيير الـذى هو من التنـابز بالألقـاب حسب ما يـدل على ذلك سـبب نزولها،و قـد وردت نصوص عديده فى النهى عن ذلك منذره فاعل ذلك بالافتضاح.

فقد روى الامام الصادق عليه السلام عن النبى صلّى اللّه عليه و آله أنه قال:

«من أذاع فاحشه كان كمبتديها،و من عيّر مؤمنا بشىء لا يموت حتى يركبه» (٢).

و

روى عن الامام الباقر عليه السـلام: «إن أقرب ما يكون العبـد الى الكفر أن يؤاخى الرجل على الدين فيحصـى عليه عثراته و زلاته ليعنفه بها يوما ما» (٣).

و

جاء فى حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام: «إن للّه تبارك و تعالى على عبده المؤمن أربعين جنه فمن أذنب ذنبا كبيرا رفع عنه جنه،فـاذا عـاب أخـاه المؤمن بشـىء يعلمه منه انكشـفت تلك الجنن عنه،و يبقى مهتك الستر فيفتضـح فى السـماء على ألسـنه الملائكه و فى الأرض على ألسـنه الناس،و لا يرتكب ذنبا إلا ذكروه،و يقول الملائكه الموكلون به يا ربنا!قـد بقى عبدك مهتك الستر،و قد أمرتنا بحفظه،فيقول عزّ و جلّ:ملائكتى!لو أردت بهذا العبد خيرا ما فضحته،

١- ١) تفسير نمونه نقلا عن المحجه البيضاء/ج /۵ص ٢۶٨

٢- ٢) بحار الأنوار/ج /٧۵ص ٢١۵

٣- ٣) المصدر

فارفعوا أجنحتكم عنه فوعزتی لا یؤول بعدها الی خیر أبدا» (۱).

[۱۲]نهت الآیه السابقه عما یفسد العلاقه بصوره علنیه،و فی حضور الطرف الآخر،و بتعبیر آخر:کانت الآیه تطهر المحضر بینما تنهی هذه الآیه عما یفسد العلاقه من وراء الشخص و تطهر المغیب..و تبدأ بسوء الظن الذی تثیره و وساوس الشیطان،و یتنامی عاده بین المؤمنین فی غیبه بعضهم عن البعض.

یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا کَثِیراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ الظن هو التصور الذی ینقصه الدلیل،و إن کثیرا من هذا الظن باطل و بعضه یصبح إثما.کیف ذلک؟ إن قلب الإنسان یتعرض لأمواج مختلفه من الهواجس و التصورات،و إن بعضها فقط هی الحق و هی التی تبعث من مصادر المعارف الخارجیه،بینما البقیه هی قیاسات باطله و تمنیات و وساوس و إفرازات العقل الباطن و ترشحات الاحباطات و..و..و إذا راجعت نفسک یوما و حاولت إحصاء و تقییم کل تصوراتک تقییما سلیما،فیومئذ تصل الی هذه النتیجه ان أکثرها لا تعتمد علی أدله مقنعه،و لکن أنی للإنسان أن یقیم کل ما یتعرض له ذهنه کل یوم من أمواج التصورات المتلاحقه.فما ذا علینا أن نفعل؟ علینا الا نأبه بأی تصور یحیکه ذهننا،بل نعتمد علی الحواس و المصادر الموثوقه للمعرفه.

لذلک فان علینا أن نجتنب کثیرا من الظن،أما القلیل الذی نسعی وراءه فهو

ص:۴۱۶

۱- ۱) المصدر ص ۲۱۶

الـذی تفرزه الحواس،و یصـدقه العقـل،و یصـمد أمـام النقـد الـدقیق.أما الظن الآـثم فهو الـذی تفرزه حالاـت الحقـد و الغضب و الصـراع..و لکن المشـکله ان هـذه المجموعه الصـغیره متنـاثره بین سـائر الظن الکثیر،مما یجعلنا لا نطمئن الیه جمیعا،کما لو کان بعض النـاس فی بلـد حاملاـ لفیروس الایـدز و لکننـا لاـ نعرفهم بأعیـانهم فعلینـا أن نجتنب کـل أهل هـذا البلـد حتی یتمیزوا عن بعضهم.

من هنا نجد

الامام علی علیه السـلام یکرر فی وصایاه هـذه الکلمه،بعد أن یسأل عن المسافه بین الحق و الباطل یقول:«أربع أصابع»و یضع یده علی أذنه و عینه فیقول:«ما رأته عیناک فهو الحق و ما سمعته أذناک فأکثره باطل» (1).

و لأـن کثیرا من الظنون تطـال المؤمنین بسـبب أعمالهم التی قـد یکون لهم عـذر وجیه فی القیام بها،فقـد أمرنا الـدین بأن نحمل أفعال إخواننا علی أفضل محمل.

قـال أمیر المؤمنین علیه السـلام: «ضع أمر أخیـک علی أحسـنه حتی یأتیـک منه مـا یغلبـک (أی تعلم یقینـا غیر ذلک)و لا تظنن بکلمه خرجت من أخیک سوء و أنت تجد لها فی الخیر محملا» (2).

و

عن النبی صلّی اللّه علیه و آله: «أطلب لأخیک عذرا فان لم تجد له عذرا فالتمس له عذرا» (3).

و بعض المؤمنین یزعمون أن من علاـمه إیمـانهم سوء الظن بالناس و ملاحقتهم بتهمه الفسق و کأن الأیمان حکر علیهم،کلاّ..إن ذلک علامه ضیق نظرهم، و شده عجبهم المفسد لقلوبهم.أما علامه الایمان الحق فهی سعه الصدر و سماحه

1- 1) بحار الأنوار/ج /75ص 196

2- 2) المصدر

3- 3) المصدر/ص 197

القلب،و صفاء النفس تجاه الآخرين.

قال الامام الصادق علیه السلام: «حسن الظن أصله من حسن إیمان المرء و سلامه صدره،و علامته أن یری کل ما نظر الیه بین الطهاره و الفضل،من حیث ما رکب فیه و قذف من الحیاء و الأمانه و الصیانه و الصدق. » فهذه هی عناصر الایمان حقا،فالمؤمن حییّ أمین یصون سر الناس و یتعامل معهم بالصدق،و أضاف علیه السلام قائلا:

قال النبی: «أحسنوا ظنونکم بإخوانکم تغتنموا بها صفاء القلب،و نقاء الطبع »و قال أبیّ بن کعب:أذا رأیتم أحد إخوانکم فی خصله تستنکرونها منه فتأولوا لها سبعین تأویلا،فاذا اطمأنت قلوبکم علی أمرها،و إلا فلوموا أنفسکم حیث لم تعذروه فی خصله سترها علیه سبعون تأویلا و أنتم أولی بالإنکار علی أنفسکم منه (۱).

بلی.یصدق هذا فقط عند صلاح الزمان أو بین التجمع الصالح الذی تتسم علاقاتهم بالأخوه الایمانیه.أما إذا فسد الزمان أو أردنا الحکم علی تجمع فاسد أو مجتمع منحل فلا یجوز حسن الظن،لأنه نوع من الغباء و المؤمن کیس فطن.

هکذا

قال الامام الصادق علیه السلام: «إذا کان زمان العدل فیه أغلب من الجور فحرام أن تظن بأحد سوء حتی یعلم ذلک منه،و إذا کان زمان الجور فیه أغلب من العدل فلیس لأحد أن یظن بأحد خیرا حتی یبدو ذلک منه» (۲).

و کلمه أخیره:إن تجنب الظن السیء منهج علمی رصین،لأن وساوس

۱- ۱) المصدر/ص ۱۹۶

۲- ۲) المصدر/ص ۱۹۷

الشیطان و هواجس الأفکار تتداخل عاده مع بصائر العقل و مکاسب التجربه،فلا بد من فرزها بتجنب سوء الظن و عدم الاعتناء به.أما إذا استرسلنا مع کل هاجسه فی النفس فاننا نفقد المقیاس السلیم للتفکیر،کما انها قد تقودنا الی الفتن العمیاء،

فقد جاء فی الدعاء: «فان الشکوک و الظنون لواقح الفتن و مکدره لصفو المنائح و المنن» (۱).

و من هنا أوجب الإسلام ترک الاسترسال وراء الظنون،و نهی عن التحقق منها و التجسس علی الناس و تتبع عیوبهم و قال ربنا:

وَ لاٰ تَجَسَّسُوا و هو البحث عن عورات الناس بمتابعتهم و کشف أستارهم.و

روی عن أبی برده أن النبی صلّی اللّه علیه و آله صلی بنا ثم انصرف مسرعا حتی وضع یده علی باب المسجد ثم نادی بأعلی صوته:«یا معشر من آمن بلسانه و لم یخلص الایمان الی قلبه:لا تتبعوا عورات المؤمنین فإنّه من تتبع عورات المؤمنین تتبع اللّه عورته،و من تتبع اللّه عورته فضحه،و لو فی جوف بیته» (۲).

و

روی عن الامام الصادق أنه قال: «إذا رأیتم العبد متفقدا لذنوب الناس ناسیا لذنوبه،فاعلموا أنه قد مکر به» (۳).

و هکذا یرید الدین لنا حیاه آمنه لا تطالها أعین الفضول،و لا تهتک حرمتها متابعات الطفیلیین..یتحسس کل فرد فیها ببرد الأمنه و سکینه الثقه.

۱- ۱) من مناجاه السجاد علیه السلام مناجات المطیعین له-مفاتیح الجنان ص ۱۲۲
۲- ۲) بحار الأنوار/ج ۷۵/ص ۲۱۵
۳- ۳) المصدر

و كما تحرم الآيه التجسس الفردى تحرم تجسس الدوله على رعاياها،إلا إذا اقتضت مصلحه الأمه،فلا بد أن يخضع ذلك للقضاء القائم على أساس أحكام الشريعه.

و قد فهم المسلمون السابقون هذه الشموليه من الآيه الكريمه حسب ما نجده فى القصه التاريخيه التى حدثت فى عهد الخليفه الثانى الذى خرج و عبد الرحمن يعسان إذ تبينت لهما دار فاستأذنا ففتح الباب،فاذا رجل و امرأه تغنى و على يد الرجل قدح،فقال عمر:و أنت بهذا يا فلان؟!فقال:و أنت بهذا يا أمير المؤمنين؟!فقال عمر:فمن هذه منك؟قال:امرأتى،قال:فما هذا القدح؟قال:ماء زلال، فقال للمرأه و ما الذى تغنّين؟فقالت:

تطاول هذا الليل و اسود جانبه و أرّقنى الا خليل ألاعبه

فو اللّه لولا اللّه أنى أراقبه لزعزع من هذا السرير جوانبه

و لكن عقلى و الحياء يكفنى و أكرم بعلى أن تنال مراكبه

ثم قال الرجل:ما بهذا أمرنا يا أمير المؤمنين! قال اللّه تعالى:و لا تجسسوا،قال صدقت. (۱)

وَ لاٰ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً الغيبه:ذكر معايب الناس عن ظهر الغيب.و قالوا تختلف الغيبه عن الافك و البهتان،إن الافك أن تقول فى الناس ما لا تعلم أنه فيهم،بينما البهتان أن تقول فيهم ما تعلم أنهم براء منه.أما الغيبه فأن تقول فيهم ما يكرهون مما تعلم أنه

۱- ۱) القرطبى/ج ۱۶/ص ۳۳۴

فيهم..و قد تعم كلمه الغيبه لتشمل الافک و البهتان.

و

فی الحديث عن الامام الصادق عليه السلام: من قال فی مؤمن ما رأته عيناه و سمعته أذناه فهو من الذين قال اللّه عزّ و جلّ: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَهُ فِی الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ .

و

سأل مره عن الغيبه فقال عليه السلام:«الغيبه هو أن تقول لأخيک فی دينه ما لم يفعل،و تبث عليه أمرا قد ستره اللّه عليه لم يقم عليه فيه حد». (1)

و فی هذا النص نری کيف تعم کلمه الغيبه لتشمل البهتان و کيف أنها تخص العيوب المستوره،أما العيب المتجاهر به صاحبه فان ذکره لا يعد غيبه،و هکذا

جاء فی روايه مرسله عن أبی الحسن عليه السلام أنه قال:

«من ذکر رجلا من خلفه بما هو فيه مما عرفه الناس لم يغتبه،و من ذکره من خلفه بما هو فيه مما لا يعرفه الناس اغتابه،و من ذکره بما ليس فيه فقد بهته» (2)و هکذا لم يجعل الإسلام للفاسق المتجاهر بفسقه حرمه.

و

جاء فی روايه نبويه: «إذ کروا الفاجر بما فيه کی يحذره الناس». (3)

أَ يُحِبُّ أَحَدُکُمْ أَنْ يَأْکُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَکَرِهْتُمُوهُ هکذا الغيبه.أ رأيت أن شخصيه الإنسان أعظم عنده أم شخصه ؟أليس المرء يسعی جهده من أجل الکرامه و التقدير،فاذا اغتابه أحد فقد اغتال شخصيته،و نال

۱- ۱) بحار الأنوار/ج ۷۵/ص ۲۴۰

۲- ۲) المصدر ص ۲۴۵

۳- ۳) القرطبی/ج ۱۶/ص ۳۳۹

من كرامته و هى أعز من جسده،و لأنه ليس فى محضره فكأنه أكل لحمه بعد موته.

باللّه ما أروع هذا التشبيه؟و ما أنفذه من تحذير فى وجدان الإنسان الحر.

و كيف يقرب كتاب ربنا الحقائق العظيمه الى وعينا،و بهذه البلاغه النافذه..

و كيف يبصرنا بأن البشر ليس كسائر الأحياء يعيش حياه ماديه ضمن حدود بدنه فحسب،بل إنه يمتد مع سمعته و شهرته أنى توسعت فى أفق المكان و الزمان..و قد يضحى الإنسان بجسده فى سبيل كرامته،أو لا يدل ذلك على أن كرامه الإنسان أعظم عنده من شخصه؟من هنا فان الاعتداء عليها ليس بأقل من الاعتداء على بدنه..و الغيبه اعتداء سافر على كرامه الشخص فما أشدها حرمه؟ من هنا جاءت النصوص تترى فى التحذير من الغيبه باعتبارها أكلا للحم المغتاب بعد موته.

روى أن ماعزا جاء الى النبى صلّى اللّه عليه و آله فشهد على نفسه بالزنا فرجمه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فسمع نبى اللّه رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر:

أنظر إلى هذا الذى ستر اللّه عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب،فسكت عنهما ثم سار ساعه حتى مر بجيفه حمار شائل برجله فقال:أين فلان و فلان؟ فقالا:نحن ذا يا رسول اللّه.قال:انزلا فكلا من جيفه هذا الحمار،فقالا:يا نبى اللّه و من يأكل من هذا؟قال:فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه و الذى نفسى بيده انه الآن لفى أنهار الجنه ينغمس فيها (۱).

و

روى عنه صلّى اللّه عليه و آله أنه قال: «لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم و صدورهم،فقلت من هؤلاء يا جبرائيل؟قال:

هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس و يقعون فى أعراضهم». (۲)

۱- ۱) القرطبی/ج ۱۶/ص ۳۳۵

۲- ۲) المصدر/ص ۳۳۶

و

عن الامام الصادق علیه السلام أنه قیل له:بلغنا أن رسول اللّه کان یقول:

إن اللّه یبغض البیت اللحم؟قال:«إنما ذاک البیت الذی یؤکل فیه لحوم الناس...». (۱)

و

روی عن الامام الصادق علیه السلام أنه قال: «قال رجل لعلی بن الحسین (الامام زین العابدین علیه السلام)أن فلانا ینسبک الی أنک ضال مبتدع،فقال له علی بن الحسین علیهما السلام:

ما رعیت حق مجالسه الرجل حیث نقلت إلینا حدیثه،و لا أدیت حقی حیث أبلغتنی عن أخی ما لست أعلمه،إن الموت یعمّنا،و البعث محشرنا،و القیامه موعدنا،و اللّه یحکم بیننا،إیاک و الغیبه،فانها إدام کلاب النار،و اعلم ان من أکثر من ذکر عیوب الناس شهد علیه الإکثار أنه إنما یطلبها بقدر ما فیه». (۲)

المغتاب فی ولایه الشیطان

و الغیبه تخرج صاحبها من ولایه اللّه الی ولایه الشیطان،فما هی ولایه الشیطان؟أظهر ما فیها الفرقه و التشتت و التشرذم التی هی سبب مصائب المسلمین الیوم.و إذا أمعنا النظر فیها لرأینا أکثرها نفسیه،فبسبب النظره السلبیه الی بعضنا تنامت خلافاتنا،و الغیبه هی المسؤولیه عن انتشار النظره السلبیه.فلو کنا نتمسک بتعالیم الإسلام فی التعامل مع بعضنا علی أساس الثقه و کنا نستر العائبه و نشیع العارفه،و نبث الروح الایجابیه،لکنا إخوانا متعاونین،من هنا حذرت النصوص الدینیه من الغیبه و جعلتها سببا للخروج من ولایه اللّه حیث الوحده و الصفاء،

۱- ۱) بحار الأنوار/ج /۷۵ص ۲۵۶

۲- ۲) فبسبب کثره ذنوبه یذکر عیوب الناس کثیرا.المصدر/ص ۲۴۶.

و الدخول فی ولایه الشیطان.

سأل أحدهم الامام الصادق علیه السلام:قائلا:یا ابن رسول اللّه أخبرنی عمن تقبل شهادته و من لا تقبل؟فقال:

«یا علقمه،کل من کان علی فطره الإسلام جازت شهادته»قال فقلت له:

تقبل مقترف للذنوب؟فقال:

یا علقمه،لو لم تقبل شهاده المقترفین للذنوب لما قبلت إلا شهادات الأنبیاء و الأوصیاء صلوات اللّه علیهم،لأنهم هم المعصومون دون سائر الخلق،فمن لم تره بعینک یرتکب ذنبا أو لم یشهد علیه بذلک شاهدان فهو من أهل العداله و الستر،و شهادته مقبوله،و إن کان فی نفسه مذنبا،و من اغتابه بما فیه فهو خارج عن ولایه اللّه عزّ و جلّ،داخل فی ولایه الشیطان. (۱)

إن الإسلام یرید أن یقوم المجتمع علی أساس الثقه،فمن زعزع هذا الأساس و أشاع جوّ اللاثقه بین أعضائه فقد برئ من ولایه هذا المجتمع المسلم التی هی ولایه اللّه،و انتمی الی الأعداء.

و من هنا یؤکد الإسلام ان المغتاب ینفصل عمن یغتابه،لأنه تنقطع العصمه بینهما.

فقد روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله أنه قال:

«من مدح أخاه المؤمن فی وجهه،و اغتابه من ورائه فقد انقطع ما بینهما من العصمه». (۲)

و

فی حدیث مأثور عن الامام الصادق علیه السلام أنه قال: «لا یطمعن المغتاب

۱- ۱) المصدر/ص ۲۴۸

۲- ۲) المصدر ص ۲۴۹

فی السلامه». (۱)،و لعل السبب فی ذلک ان من یتبع عیوب الناس یستثیر عدوانهم،أو لأنه یخلق المجتمع المفکک الذی لا یحلم فی السلامه.

و قد جعلت بعض النصوص الدینیه الغیبه أشد من الزنا،ربما لأن اثار الغیبه الخطیره فی تفرقه الناس و النیل من کرامتهم،و إشاعه الفاحشه أشد من اثار الزنا، لأن الحکمه المأثوره فی حرمه الزنا هی اختلاط المیاه و هدم الأسره مما یسبب فی تفکک المجتمع،و هذه حکمه حرمه الغیبه أیضا،و لکن یبدو أن الغیبه أفتک بوحده الامه من أختها الزنیه.

و قد أمر الإسلام بأن یستحل المغتاب من صاحبه حتی یغفر اللّه له،لان ذلک -فیما یبدو-یعید العصمه المقطوعه بینهما و یسبب فی إعاده اللحمه الی المجتمع، بالاضافه الی أن ذلک یکون رادعا للمغتاب أن یعود الی مثل ذلک مره أخری.

قال النبی صلّی اللّه علیه و آله: «الغیبه أشد من الزنا»،فقیل یا رسول اللّه و لم ذاک؟قال«صاحب الزنا یتوب فیتوب اللّه علیه،و صاحب الغیبه یتوب فلا یتوب علیه حتی یکون صاحبه الذی یحله». (۲)

و لأن الغیبه تفتح ثغره فی الحصن الاجتماعی فان علی الناس أن یأخذوا علی ید المغتاب حتی لا یهدم حصنهم،بأن یدافعوا عن أخیهم الغائب،

فقد جاء فی الأثر عن ابن الدرداء عن أبیه أنه قال: نال رجل من عرض أخیه عند النبی،فردّ رجل من القوم علیه فقال النبی(صلّی اللّه علیه و آله)«من رد عن عرض أخیه کان له حجابا من النار». (۳)

۱- ۱) المصدر

۲- ۲) المصدر/ص ۲۵۲

۳- ۳) المصدر

و

فی حدیث آخر،عن النبی صلّی اللّه علیه و آله: «من رد عن عرض أخیه المسلم کتب له الجنه البته». (۱)

و

روی عن الامام الباقر علیه السلام أنه قال: «من اغتیب عنده أخوه المؤمن فنصره و أعانه نصره اللّه فی الدنیا و الآخره،و من اغتیب عنده أخوه المؤمن فلم ینصره و لم یدفع عنه و هو یقدر علی نصرته و عونه خفضه اللّه فی الدنیا و الآخره» (۲)و لکی نحافظ علی حصن ولایه اللّه المحیطه بنا،لا بد أن نذکر أخانا المؤمن بأحسن ما فیه حتی تزداد اللحمه الاجتماعیه تماسکا،و القلوب المؤمنه صفاء و تحابیا.

جاء فی الحدیث المروی عن الامام الصادق علیه السلام أنه قال: «اذکروا أخاکم إذا غاب عنکم بأحسن ما تحبون أن تذکروا به إذا غبتم عنه». (۳)

الغیبه:إشاعه الفاحشه

کیف تشیع الفاحشه فی الأمه مع أن المغتاب حین یذکر صاحب الذنب یذمه بذنبه و یجعله أمثوله و عبره لا مثلا صالحا و قدوه؟ السبب ان للذنوب هیبه فی نفوس المؤمنین،و الجو العام فی المجتمع المسلم یرفضها،فلذلک یضطر الذی قدم علیها الی التکتم،فاذا انتهکت عصمته أمام الملاء لم یعد یخفیها،کما ان الآخرین إذا عرفوا وجود من یرتکب الذنب لا یجدون حرجا من الاقتداء بهم،و هکذا تشیع الفاحشه فی الأمه.

۱- ۱) المصدر

۲- ۲) المصدر ص ۲۵۵

۳- ۳) المصدر/ص ۲۵۳

من هنا یعتبر المذنب الکاتم لذنبه أقل إجراما ممن یتجاهر به،کما یعتبر الذی یذیع الفاحشه کمن یبتدأ بها.

جاء فی الحدیث عن الامام الصادق علیه السلام، قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله: «من أذاع فاحشه کان کمبتدیها،و من عیّر مؤمنا بشیء لا یموت حتی یرکبه». (۱)

و

جاء فی حدیث مأثور عن الامام الکاظم علیه السلام. قال(الراوی)قلت له (الامام):جعلت فداک،من إخوانی یبلغنی الشیء الذی أکره له فأسأله عنه فینکر ذلک،و قد أخبرنی عنه قوم ثقاه؟فقال لی:یا محمد!کذب سمعک و بصرک عن أخیک،فان شهد عندک خمسون قسامه و قال لک قولا فصدقه و کذبهم،و لا تذیعن علیه شیئا تشینه،و تهدم به مروته،فتکون من الذین قال اللّه عز و جل:« إِنَّ الَّذِینَ یُحِبُّونَ أَنْ تَشِیعَ الْفاحِشَهُ فِی الَّذِینَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَهِ ». (۲)

هؤلاء لا حرمه لهم

و قد أنهی الإسلام حرمه ثلاث طوائف:

الأولی:أئمه الجور الذین لا بد من توعیه الناس بظلمهم و سوء إدارتهم حتی یتمکن المسلمون من إزاحتهم أو لا أقل من تجنب خطرهم،الثانیه:أصحاب الضلاله کالأحزاب الکافره و المنافقه و المبتدعین فی الدین،الثالثه:الفسقه المتجاهرین.

فقد روی عن الامام الباقر علیه السلام أنه قال: «ثلاثه لیست لهم حرمه:

۱- ۱) المصدر/ص ۲۵۵

۲- ۲) المصدر

صاحب هوی مبتدع،و الامام الجائر،و الفاسق المعلن الفسق». (۱)

و یبدو أن المظلوم أیضا یجوز له أن یغتاب من ظلمه لقوله سبحانه: «لاٰ یُحِبُّ اللّٰهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاّٰ مَنْ ظُلِمَ ».

و

یقول رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله: «من عامل الناس فلم یظلمهم، و حدثهم فلم یکذبهم و وعدهم فلم یخلفهم،فهو ممن کملت مروته و ظهرت عدالته،و وجبت اخوته و حرمت غیبته». (۲)

هکذا اشترط الرسول صلّی اللّه علیه و آله توافر هذه الصفات فی المؤمن حتی تحرم غیبته.

کلمه جامعه فی الغیبه

و

فی نهایه المطاف نقرء معا کلمه جامعه فی الغیبه منسوبه الی الامام الصادق علیه السلام أنه قال: «الغیبه حرام علی کل مسلم،مأثوم صاحبها فی کل حال، و صفه الغیبه أن تذکر أحدا بما لیس هو عند اللّه عیب،و تذم ما یحمده أهل العلم فیه،و أما الخوض فی ذکر غائب بما هو عند اللّه مذموم و صاحبه فیه ملوم،فلیس بغیبه و ان کره صاحبه إذا سمع به،و کنت أنت معافی عنه خالیا منه،تکون فی ذلک مبینا للحق من الباطل ببیان اللّه و رسوله صلّی اللّه علیه و آله،و لکن علی شرط أن لا یکون للقائل بذلک مرادا غیر بیان الحق و الباطل فی دین اللّه،و أما إذا أراد به نقص المذکور به بغیر ذلک المعنی،مأخوذ بفساد مراده و إن کان صوابا،فان اغتبت فأبلغ المغتاب فلم یبق إلا أن تستحل منه،و إن لم یبلغه و لم یلحقه علم

۱- ۱) المصدر/ص ۲۵۳

۲- ۲) المصدر۲۵۲/

ذلک،فاستغفر اللّه له.

و الغیبه تأکل الحسنات کما تأکل النار الحطب أوحی اللّه تعالی عزّ و جلّ الی موسی بن عمران علیه السلام المغتاب إن تاب فهو آخر من یدخل الجنه،و إن لم یتب فهو أول من یدخل النار،قال اللّه عزّ و جلّ: أَ یُحِبُّ أَحَدُکُمْ أَنْ یَأْکُلَ لَحْمَ أَخِیهِ مَیْتاً فَکَرِهْتُمُوهُ (الآیه)،و وجود الغیبه یقع بذکر عیب فی الخلق و الخلق، و العقل و المعامله و المذهب و الجیل و أشباهه،و أصل الغیبه تتنوع بعشره أنواع:

شفاء غیظ و مساعده قوم،و تهمه،و تصدیق خبر بلا کشفه،و سوء ظن،و حسد، و سخریه و تعجب،و تبرم،و تزین،فان أردت السلامه فاذکر الخالق لا المخلوق، فیصیر لک مکان الغیبه عبره و مکان الإثم ثوابا» (۱).

وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ تَوّابٌ رَحِیمٌ و لعل هذه الخاتمه التی تفیض مغفره و رحمه تدل الی أن الغیبه بلاء یعم الکثیر من الناس و لا بد ألاّ تصبح مقبوله،و یذهب قبحها،بل نتقی اللّه فیها،و من جهه أخری لا یجوز أن یستبد الیأس بنا إذا وقعنا فیها بل نتوب الی اللّه ان اللّه تواب رحیم.

۱- ۱) بحار الأنوار/۷۲/ص ۲۵۷ عن مصباح الشریعه ص ۳۲

[سوره الحجرات (۴۹): الآیات ۱۳ الی ۱۸]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلنّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اَللّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اَللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۱۳) قالَتِ اَلْأَعْرابُ آمَنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمّا يَدْخُلِ اَلْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اَللّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اَللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴) إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ اَلَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اَللّهِ أُولئِكَ هُمُ اَلصّادِقُونَ (۱۵) قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اَللّهَ بِدِينِكُمْ وَ اَللّهُ يَعْلَمُ ما فِي اَلسَّماواتِ وَ ما فِي اَلْأَرْضِ وَ اَللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۶) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اَللّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۷) إِنَّ اَللّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَللّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۸)

ص:۴۳۰

بَلِ اللّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰاكُمْ لِلْإِيمٰانِ

هدى من الآيات:

بعد أن يعطينا القرآن بصيره الوحی فی العلاقات بین أبناء آدم الرافضه لکل أشکال التمایز إلا بالتقوی،یذکرنا بأن الایمان درجه أعلی من الإسلام،و أن ادعاء الأعراب بلوغها خاطئ،بید ان طاعه اللّه و الرسول لا تذهب سدی،(حتی و إن لم یبلغ المرء درجه الایمان).

و یبین الذکر مقیاس الایمان الحق فی الطهاره من الریب و الجهاد بالمال و النفس فی سبیل اللّه.و یسفه أولئک الذین یدعون الایمان عن کذب أو لا یعلمون أن اللّه محیط علما بکل ما فی السموات و الأرض فکیف لا یعلم مدی إیمانهم؟ و تراهم یمنّون علی الرسول إسلامهم(و قد یکون الإسلام من أجل متاع الدنیا).

أما الایمان فهو منّه من اللّه علیهم و لیس العکس..و تذکرنا خاتمه السوره بعلم اللّه النافذ فی کل شیء.

ص:۴۳۱

و لعل هذه الآيات تنتظم مع الآيات السابقه فى أن هناك فريقا من الناس يحاولون أن يستأكلوا دينهم و يتعالوا على الناس باسم الإسلام و الايمان،فيجعلوا الدين وسيله لبلوغ مآرب الدنيا،و هذا بؤره تمايز لا يعترف به الإسلام.و لا بد من فضح هؤلاء بتعريضهم لامتحان الطاعه و الجهاد.

بينات من الآيات:

[١٣]التوحيد صبغه المجتمع الذى يبشر به الدين،و توحيد اللّه سبحانه يتنافى و القيم الشركيه التى يهبط إليها البشر عند ما يبتعدون عن الوحى الالهى..من تقديس الاباء و التراث و التقاليد و التمحور حول القبيله و العشيره..و تقديس الأرض و القوم و الحزب،الى تأليه الثروه و القوه و اللون و العنصر.

كلا..الإنسان فوق ذلك جميعا إذا تمسك بحبل اللّه،و اهتدى بنور الوحى و العقل.

و تلك القيم الزائله ليست فقط شركيه تقلل من قيمه الإنسان-بعيدا عن تلك الاعتبارات-و تشوه رؤيته الى حقائق الخلق،و تحجبه عن معرفه الخالق.بل هى أيضا جاهليه متخلفه،و ما تقدمت البشريه خطوه إلا بقدر ابتعادها عن تلك القيم بمثلها.

فمن عكف على عباده صنم الأولين،و قدس تراثه و تقاليده أنى له أن يساير تطورات الزمن،و يستوعب تجارب الآخرين،و ينمو مع الأفكار التقدميه؟و من عبد صنم قبيلته أو عشيرته هل يمكنه أن ينفتح على إيجابيات غيره أو يمد يد التعاون مع من يعتبرهم الأرذلين و يسخر منهم،مهما كان عندم من أفكار و طاقات؟ و هكذا..كل من حدد نفسه فى إطار ضيق لا يمكنه أن ينطلق مع قطار الحضاره

أنی مشت مواکبها،و من أبرز سیئات مثل هذه التصورات هدم الجسور الطبیعیه بین أبناء آدم،و إشاعه روح التباغض و التناحر بینهم،مما یجعلهم فی مواجهه بعضهم، و قد یدفعهم نحو الحروب الطاحنه التی لم یتخلص منها البشریه طوال تاریخها المعروف بسبب تمسکهم بهذه القیم الجاهلیه.

من أجل ذلک دعت رسالات اللّه الی رفض هذه القیم التی ما أورثت الانسانیه إلا خبالا..و الاستعاضه عنها بقیمه التقوی..و قالت الآیه الکریمه:

یا أَیُّهَا النّاسُ و الخطاب لم یخص المؤمنین بالرغم من ان سیاق السوره یقتضی ذلک،لأنه کان ینظم العلاقه بینهم.ربما لأن هذه تنفع البشریه کما تنفع المؤمنین،و إذا کان الناس جمیعا مدعوون إلیها فالمؤمنون أولی بالتمسک بها.ثم إن علاقه المؤمنین بغیرهم ینبغی أن تقوم علی أساس هذه البصیره،فلا یجوز أن یعتبر العرب منهم أنهم الأعلی بلغتهم أو عنصرهم،فتشکل هذه العقیده الجاهلیه حاجزا دون دخول سائر الشعوب فی دین اللّه.

إِنّا خَلَقْناکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثی فالأصل واحد،و إذا کنا نکرم آباءنا،فکلما تقدمنا فی الزمن فلن نتجاوز أبانا الأکبر،وجدتنا الکبری،آدم و حواء. فأولی بنا أن نجعلهما محورا و نکرم کل من ینتمی إلیهما من سائر البشر.

قالوا:و الآیه تدل علی أن خلقه الإنسان لیست بماء الذکر فقط،و إنما یشترک فیها ماء الأنثی کما قال ربنا سبحانه: «خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ یَخْرُجُ مِنْ بَیْنِ الصُّلْبِ

وَ التَّرائِبِ » (۱)أی صلب الأب و ترائب الأم.

و هـذه البصـیره القرآنیه تنفی الفکره الجـاهلیه التی کـانت تزعم ان رحم الأم مجرد وعاء لنمو نطفه الأب،و صادروا بـذلک حق المرأه فی انتساب الطفل إلیها و قال قائلهم:

بنونا بنو آباءنا و بناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

کلا..الأم أحد الشریکین فی الخلق،و احترامها یساوی أو یفوق احترام الأب فی الشریعه.

و هکذا تنفی الآیه العنصـریه الجنسیه التی ابتلی بها الجاهلون العرب قبل الإسلام،و نادی بالمساواه بین الذکر و الأنثی فیما یرتبط بأصل الخلق.

وَ جَعَلْنٰاکُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ قالوا:الشعب مجموعه القبائل کمضر و عدنان،بینما القبیله هی تفرعات الشعب،و قال بعضهم:الشعب من ینسب الی الأرض،بینما القبیله تنسب الی أصـلهم.و قال آخرون:الشـعب هم قبائل غیر العرب..و أنی کان فان هـذا التقسـیم الذی یبتـدأ بوحـده الأسـره ثم یتوسع الی العشـیره ثم الفخـذ و البطن حتی یصـل الی العمـاره و القبیله ثم الشـعب،لم یکن عبثـا،و إنما بهدف التعارف.

لِتَعٰارَفُوا فمنطق الصراع الذی اختلقه داروین مرفوض فی الحیاه البشریه،إنما الناس

۱- ۱) الطارق۶/-۷

اختلفوا ليمارس كل دوره بحريه و لتتنامى تجربه البشريه عبر تنوعها،و لكى يغنى كل فريق تجارب غيرهم بما اكتشفه من تجارب..و بالتالى ليتعارفوا.

بلى إن ذات الحكمه التى شرعت الأسره من أجلها قائمه فى بناء الوحدات الاجتماعيه الأخرى كالعشيره و القبيله و الشعب.

و هذه البصيره تهدينا:

أولا:الى مشروعيه هذه التقسيمات الطبيعيه و انها-فى الأساس-نافعه، و علينا أن نعيدها الى طهرها،بعيدا عن كل ألوان العصبيه و التعالى لنجنى ثمارها الطيبه.

و هذا ما يدعو اليه الإسلام كما جاء فى النصوص الدينيه من ضروره صله الرحم و التواصل مع العشيره

جاء فى الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أنه قال:

«لا يدخل الجنه قاطع رحم» (۱).

و

قال: «لما أسرى بى الى السماء رأيت رحما متعلقه بالعرش تشكو رحما الى ربها،فقلت لها:كم بينك و بينها من أب، فقال:نلتقى فى أربعين أبا» (۲).

و

جاء فى روايه مأثوره عن أمير المؤمنين-عليه السلام -أنه خطب فى الناس فحمد اللّه و أثنى عليه ثم قال:«لا يستغنى الرجل و إن كان ذا مال و ولد عن عشيرته،و عن مداراتهم و كرامتهم و دفاعهم عنه بأيديهم و ألسنتهم،هم أعظم الناس حياطه له من ورائه،و المهم لشعثه،و أعظمهم عليه حنوا،إن أصابته مصيبه،أو نزل به يوما بعض مكاره الأمور،و من يقبض يده عن عشيرته،فانما

۱- ۱) بحار الأنوار/ج /۷۴ص ۹۱

۲- ۲) المصدر/

يقبض عنهم يـدا واحده،و تقبض عنه منهم أيد كثيره،و من محض عشـيرته صدق الموده،و بسط عليهم يده بالمعروف إذا وجده ابتغاء وجه اللّه،أخلف اللّه له ما أنفق فی دنياه،و ضاعف له الأجر فی آخرته» (۱).

ثانيا:أن التعارف بين الناس واحد من أهم مقاصد الشـريعه الغراء،لماذا؟ لولا معرفه الناس لما اكتملت حكمه الابتلاء فی الخلق أو تـدری لمـاذا؟لأـن الابتلاـء لاـ يتم إلاـ بـالحريه و المسـؤوليه فلـو اختلـط النـاس ببعضـهم كيـف يميز الصالـح فيثـاب عن المجرم فيعاقب؟أم كيف تتراكم مكاسب المحسـنين و تحصن من أن يسرفها الكسالی و المجرمون؟كلا.لا بد أن يميز الناس عن بعضهم تمييزا كافيا ليأخـذ كل ذی حق حقه،فيشـجعه ذلك علی المزيـد من العطاء،و يأخـذ التنافس دوره فی دفع عجله الحياه قـدما الی الامام.

ثالثـا:إن حكمه الاختلاـف هو التكامل-بعـد التنافس علی الخيرات-و ليس الصـراع و التطاحن،و قـد قال ربنا سبحانه: «وَ تَعٰاوَنُوا عَلَی الْبِرِّ وَ التَّقْویٰ »و من دون التعـارف كيف يتم التعـاون،إن علی الناس أن يكتشـفوا إمكانات بعضـهم ليتبادلوا الخيرات،أما إذا تقوقعت كل طائفه فی حدودها الجغرافيه أو الاجتماعيه و لم يتعارفوا فكيف يمكن التعاون بينهم؟.

و لعـل هـذه البصـيره تهـدينا الی أهميه التعارف بين الشـعوب فی عصـرنا الراهن، لأن إمكانات التعاون بينهم لا تزال غير مسـتغله حتی بنسبه(۱۰٪)و لو ضاعفنا المؤسسات العالميه فی كافه المجالات عشرات الأضعاف لكانت فرص التعاون لا تزال أوسع.

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاكُمْ

ص:۴۳۶

۱- ۱) المصدر/ص ۱۰۱

حینما تسقط القیم الزائفه،و العصبیات الجاهلیه المتخلفه ینفتح أفق التنافس الشریف علی الخیرات التی یلخصها القرآن هنا بکلمه«التقوی»و یفصلها فی آیه مشابهه قائلا:

«وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ الْکِتٰابِ وَ مُهَیْمِناً عَلَیْهِ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ عَمّٰا جٰاءَکَ مِنَ الْحَقِّ لِکُلٍّ جَعَلْنٰا مِنْکُمْ شِرْعَهً وَ مِنْهٰاجاً وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَکُمْ أُمَّهً وٰاحِدَهً وَ لٰکِنْ لِیَبْلُوَکُمْ فِی مٰا آتٰاکُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَیْرٰاتِ إِلَی اللّٰهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ » (1).

و نستلهم من لحن القول فی هذه الآیه:إن التنافس علی العمل الصالح و التسابق فی الخیرات هو هدف اختلاف الشعوب،و إن لکل منهم شرعه و منهاجا،بل إن هذا الاختلاف و التنوع مطلوب إذا کان وسیله للتنافس البناء،و التعارف و التعاون،کما ان الاختلاف بین الناس فی مجتمع واحد هدفه التسارع الی الخیرات،و التعاون فیها کذلک التفرع بین الشعوب و المجتمعات المتنوعه أ لیس یقول ربنا سبحانه:

«أَ هُمْ یَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّکَ نَحْنُ قَسَمْنٰا بَیْنَهُمْ مَعِیشَتَهُمْ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ رَفَعْنٰا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰاتٍ لِیَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِیًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّکَ خَیْرٌ مِمّٰا یَجْمَعُونَ » (2).

و إذا کان الهدف من هذا التنوع التسارع فی الخیرات،فان أکرم الخلق عند اللّه من استبق إلیها،فالأقرب الی الصراط المستقیم،و الأسبق فی الصالحات هو الأکرم،لأنه الذی یحقق الهدف دون غیره،و الی هذه تشیر کلمه التقوی..أ لیست

1- 1) المائده48/

2- 2) الزخرف32/

التقوی هی المعرفه باللّه و العلم بشریعته،و الاجتهاد فی تنفیذها؟ و أصل الکلمه من الوقایه،أی التحصن ضد أسباب الهلاک و لا تحصل هذه الوقایه من دون معرفه الطریق و الاستقامه علیه،بعیدا عن أمواج الفتن،و ضغوط الهوی و ریاح الشهوات،لذلک کانت التقوی أرفع درجه من الایمان،کما إن الایمان أرفع درجه من الإسلام،و

قد قال الامام الرضا-علیه السلام-: «الایمان فوق الإسلام بدرجه،و التقوی فوق الایمان بدرجه،و الیقین فوق التقوی بدرجه، و ما قسم فی الناس شیء أقل من الیقین» (1).

و إنما رفع الإسلام قواعد المجتمع الفاضل علی أساس التقوی،لأنه من دونها تمزق العصبیات الجاهلیه التجمع البشری،و لا تدعه یتکامل،بل فی کثیر من الأوقات یتقابل مع بعضه،و یسیر فی طریق الهدم.

قال اللّه سبحانه: «إِذْ جَعَلَ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی قُلُوبِهِمُ الْحَمِیَّهَ حَمِیَّهَ الْجٰاهِلِیَّهِ فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَکِینَتَهُ عَلیٰ رَسُولِهِ وَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ وَ أَلْزَمَهُمْ کَلِمَهَ التَّقْویٰ وَ کٰانُوا أَحَقَّ بِهٰا وَ أَهْلَهٰا وَ کٰانَ اللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً » (2).

إن کلمه التقوی هی صبغه التجمع الایمانی و محوره،و عماد تماسکه،و مبعث قوته،بینما العصبیات الجاهلیه هی صبغه سائر المجتمعات غیر الایمانیه..و حین حارب الإسلام هذه العصبیات استطاع أن یصهر المجتمع الجاهلی المتشرذم فی بوتقه التوحید،و یبنی منه تلک الحضاره التی لم یشهد التاریخ لها مثیلا.

و قد ذکر المفسرون فی سبب نزول هذه الآیه:ان النبی صلّی اللّه علیه و آله أمر بنی

1- 1) تفسیر نمونه عن بحار الأنوار/ج 70/ص 136

2- 2) الفتح/26

بیاضه أن یزوجوا أبا هند امرأه منهم،فقالوا لرسول اللّه-صلّی اللّه علیه و آله-:

نزوج بناتنا موالینا؟فأنزل اللّه عز و جل الآیه. (۱)

و یظهر من هذا الحدیث و الذی یلیه مدی الصعوبه التی عاناها رسول اللّه فی انتزاع روح العصبیه من ذلک المجتمع الجاهلی المتخلف،و

قد روی عن ابن عباس أنه لما کان یوم فتح مکه أمر النبی-صلّی اللّه علیه و آله-بلالا حتی علا علی ظهر الکعبه فأذن فقال عتاب بن أسیر بن أبی العیص:الحمد للّه الذی قبض أبی حتی لا یری هذا الیوم،و قال الحارث بن هشام:ما وجد محمد صلی الله علیه و آله غیر هذا الغراب الأسود حتی یؤذن له،و قال سهیل بن عمر:إن یرد اللّه شیئا یغیره،و قال أبو سفیان:انی لا أقول شیئا أخاف أن یخبر به رب السماء،فأتی جبرئیل النبی -صلّی اللّه علیه و آله-و أخبره بما قالوا:فدعاهم و سألهم عما قالوا فأقروا فأنزل اللّه تعالی هذه الآیه. (۲).

و حتی آخر أیامه

کان النبی-صلّی اللّه علیه و آله-یکافح ضد الحمیه الجاهلیه، فقد ذکر الرواه أنه خطب رسول اللّه-صلی اللّه علیه و آله و سلم- بمنی فی وسط أیام التشریق(حیث تجمع الحجاج من کل البلاد)و هو علی بعیر فقال:

«یا أیها الناس ألا-إن ربکم واحد،و ان أباکم واحد،ألا لا فضل لعربی علی أعجمی و لا أعجمی علی عربی،و لا لأسود علی أحمر،و لا أحمر علی أسود إلا بالتقوی،ألا هل بلغت؟قالوا نعم قال لیبلغ الشاهد الغائب» (۳).

و هکذا تجاوز المسلمون السابقون عقبات التخلف الجاهلی حین تجاوزوا حواجز

۱- ۱) القرطبی/ج ۱۶/ص ۳۴۱

۲- ۲) المصدر

۳- ۳) المصدر/ص ۳۴۲

الدم و اللون و الإقليم و وحدوا طاقاتهم المتشتته تحت رايه التوحيد،و جعلوا التقوى محور تنافسهم البناء.

و

قد اشتهرت عن أمير المؤمنين-عليه السلام-فی ذلک مقطوعه رائعه:

الناس من جهه التمثال أكفاء*أبوهم آدم و الأم حواء نفس كنفس و أرواح مشاكله*و أعظم خلقت فيهم و أعضاء فان يكن لهم من أصلهم حسب*يفاخرون به فالطين و الماء ما الفضل إلا لأهل العلم انهم*على الهدى لم استهدى أدلاء و قدر كل امرء ما كان يحسنه*و للرجال على الأفعال سيماء و ضد كل امرء ما كان يجهله*و الجاهلون لأهل العلم أعداء (۱) إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ و تأتی هذه الخاتمه لبث السكينه فی قلوب المؤمنين ألّا يقلقوا إن رأوا تكالب الناس على الدنيا و تدابرهم عن أهل التقوى،فان اللّٰه عليم بهم و خبير و بيده أزمه الأمور و هو يكرم المتقين،و كفى به شاهدا و كفى به مثيبا عادلا.

[۱۴]لأن تجاوز الحميه الجاهليه صعب مستصعب خصوصا على الأعراب الذين عاشوا دهرا يسبّحون بأمجادهم و مفاخرهم،فان القرآن الكريم يذكرنا بأن الايمان ليس مجرد التسليم الظاهر للدين الجديد،بل هو تغيير عميق للشخصيه يتجلى فی الممارسات العمليه،و من زعم أن بامكانه الجمع بين قيم الجاهليه و الدين فانه لم يفهم معنى الدين.أو ليس الدين شفاء من أمراض الجاهليه..و بديلا صالحا للقيم الفاسده فكيف يجتمعان؟

۱- ۱) المصدر

الـدين الحق جهـاد متواصـل ضـد سـلبيات البشـر.ضد حـواجز الـدم و اللـون و الأرض.ضـد قيم الأنسـاب و التقاليـد و الأعراف البائده.ضـد الهوى و الشـهوات و الجهـل و التحزب..فمن اسـتطاع أن يخلص طـاعته للّه و للرسول(دون تقاليـده و تراث سـلفه)،و جاهد فى سبيل إصلاح مجتمعه،فهو الذى ارتقى الى مستوى الايمان.

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا و الفرق بينهما ان الإسلام هو التسليم للدين تسليما ظاهرا..بقبول الشهادتين و الخضوع للأحكام الشرعيه،بينما الايمان انقلاب حقيقى لنفس الإنسان.

وَ لَمّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ تـدل كلمه«لمّـا»على ان من أسـلم يرجى له الايمـان،و لعلها تشـير أيضا الى التأخير،مثل ثم فى الإيجـاب،ممـا يوحى بـان المسافه بين الإسـلام و الايمان ليست بسـيطه،و أن على الإنسان المسـلم أن يقطع هـذه المسافه بجهـده المتوصل.فاذا كان الإسلام بمثابه القبول فى معهد علمى راق،فان الايمان هو التخرج منه بنجاح.

جاء فى الحديث المأثور عن رسول اللّه-صلى اللّه عليه و آله-: «الايمان إقرار باللسان و معرفه بالقلب و عمل بالأركان» (1).

و

فى حديث آخر مروى عن الامام الصادق عليه السلام: «الايمان يشارك الإسلام،و الإسلام لا يشارك الايمان» (2).

وَ إِنْ تُطِيعُوا اللّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

ص:۴۴۱

۱- ۱) بحار الأنوار/ج ۶۷/ص ۶۶

۲- ۲) المصدر/ج ۷۲/ص ۲۳

و كيف ينقص اللّه الغفور الرحيم شيئا من أعمال عباده التى تحصن بالطاعه للّه و للرسول؟و نستلهم من هذه الآيه ان مقايس الايمان الحق هو الطاعه،ذلك أن الطاعه امتحان صعب،إنها خروج عن زنزانه الذات الى رحاب الحق،و تجاوز لحواجز الماده،و انطلاق فى ميادين الخيرات.

[۱۵]و جاءت الآيات التاليه تبين شروط الايمان أو ليس الايمان هو القوه التنفيذيه لكل تعاليم الوحى،و هو روح المجتمع الدافعه من دونها تصبح أنظمتها حروفا بلا معانى؟! إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا متى يرتاب المؤمن؟عند ما يكلف بمهمه صعبه توسوس له نفسه فى صدق إيمانه، أما من محض الايمان فانه كالذهب الخالص كلما تعرض لنيران الصعاب كلما ازداد جلاء و نورا.

وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ إن الجهاد بذل ما يسعه من الجهد فى سبيل اللّه،و لا يكون ذلك إلا عند ما يخلص القلب من شوائب الكفر و الشرك و النفاق.

أُولٰئِكَ هُمُ الصّٰادِقُونَ إنها حقيقه الايمان التى تتجلى فى الطاعه و الجهاد و من دون الوصول الى هذه الحقيقه لا يمكن تصديق إيمان الفرد،أما إسلامه فهو صادق بمجرد قبوله دين الإسلام و التزامه به.

[۱۶]و الذى يكابر و يدعى أنه مؤمن برغم كل ذلك فانه قد سفه نفسه،كيف

يزعم بأنه يعلم اللّه دينه أو ليس اللّه محيطا علما بكل شيء؟ أولئك قوم من أعراب بنى أسد-حسب المفسرين-قدموا على رسول اللّه فى سنه جدبه،و أظهروا الشهادتين(رغبه فى عطاء الرسول ليس إلاّ)،لم يكونوا مؤمنين فى السر و أفسدوا طرقات المدينه بالمخدرات،و أغلوا أسعارها،و كانوا يقولون لرسول اللّه-صلى اللّه عليه و آله-(و هم يمنون عليه) أتيناك بالأثقال و العيال،و لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان،فأعطنا من الصدقه و جعلوا يمنون عليه فأنزل اللّه «قالت الاعراب»الآيه. (1)

قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللّٰهَ بِدِينِكُمْ بأنكم مؤمنون حقا.

وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [17]الايمان نعمه كبرى لا تساويها نعمه،و حين يزكى الإنسان نفسه و يروضها بالتقوى،و يسعى لرؤيه الحقائق،حينئذ يتجلى اللّه لقلبه،فيرى اللّه بنور الايمان و يرى بنور اللّه كل شيء.

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاٰ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاٰمَكُمْ لأن الإسلام إذا كان لهدف مادى فهو إذا لمصلحتهم و لا يستدعى المنّه،و إن كان إخلاصا للّه،فان اللّه يمن عليهم به و بما يليه من الايمان.

ص:443

1- 1) القرطبى/ج 16/ص 348

بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰاكُمْ لِلْإِيمٰانِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ فى ادعائكم الايمان و يبدو أن السياق يتناول قصه أعراب بنى أسد الآنفه الـذكر بالرغم من انها تعم كل أولئك الـذين يـدعون الايمان و يجعلونه وسـيله للتعالى على الناس،و اكتساب الشـهره و الثروه و السلطه.

[۱۸]و لكى يوجـد القرآن وازعـا نفسـيا للإنسـان ألا يزكى نفسه و يـدعى الايمان كاذبا،أو يحاول ابتزاز الآخرين باسـمه،فان اللّه يحذرنا نفسه،و يذكرنا بأنه محيط بكل شىء علما.

إِنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللّٰهُ بَصِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ فالأعمـال يزنهـا بقـدر الإخلاص فيها..و بهـذه الآيه تختتم سوره الحجرات التى يحتاج المسـلمون اليوم أكثر من أى يوم مضـى الى أن يعوها وعيا،و بالـذات الطليعه الرساليه التى قد تتسـرب إليه أيضا الحميه الجاهليه و لو بألوان جديده كالتحزب و التفاخر،نسأل اللّه أن يقينا شـرور أنفسـنا،و يصون ديننا من كل شائبه شرك أو ظلم أو نفاق.

سوره ق

اشاره

ص:۴۴۵

بسم الله الرحمن الرحیم

فضل السوره:

عن أبی جعفر(الباقر) علیه السلام : «من أدمن فی فرائضه و نوافله قراءه سوره «ق»وسّع اللّه علیه فی رزقه،و أعطاه کتابه بیمینه،و حاسبه حسابا یسیرا. » نور الثقلین/ج /۵ص ۱۰۴

ص:۴۴۷

الإطار العام

حجب كثيره تمنعنا من ملامسه الحقائق الكبرى،و التى منها المسؤوليه و الجزاء، و حين يسقط الإنسان عن نفسه هذه الحجب يشاهد الحقائق بوضوح يدعه متسائلا كيف و لماذا أنكرتها من قبل؟! و فى سوره«ق»يعالج القرآن الحجب النفسيه التى تمنع البشر عن الايمان بالآخره، ثم يسرد شواهدها و مشاهدها و ما يجرى لأهلها من صعقات هائله،بيد أن السياق -كما يبدو- يركز على حجاب التعجب الذى هو تيار عند الكفار،عند ما يذكرون بالبعث و يقولون:هذا شيء عجيب؟!كيف يمكن أن نعود أحياء بعد أن نمسى ترابا؟إنها عوده مستبعده،و تتلاحق بصائر الذكر فى تقريب هذه الحقيقه:

أولا:يعلم اللّه ما تأكل الأرض من أجسامهم ذره ذره،خليه خليه،و عنده كتاب حفيظ،لا يدع شيئا إلاّ و يحفظه.

ثانيا:إن وراء تكذيبهم بالحق حاله نفسيه(خشيه تحمل المسؤوليه،و الخلود إلى

أرض الشهوات)و هذا يجعلهم فی أمر مختلط.

ثالثا:هذه السماء بما فيها من متانه البناء أ ليست دليلا علی قدره الرب،أو لا تكفی وسيله لتوسيع أفقنا العلمی حتی نعترف بقدره الرب علی رجعنا من جديد.

رابعا:الأرض،ألا تری كيف مدها اللّه و أركزها بالراسيات و أنبت فيها من كل زوج بهيج.

بلی.إنها أدله كافيه و لكن لمن؟لكل عبد منيب،مهيأ نفسيا لمثل هذه البصائر و الآيات،و مثل ذلک الغيث الذی ينبت به اللّه جنات من الأشجار و مروج حب من-حب الحصيد-.أ رأيت النخل باسقات لها طلع نضيد؟إن كلّ ذلک أنشأه اللّه ليكون رزقا للعباد،و بكلمه صادعه يفجر السياق ينبوع المعرفه فی القلوب الصافيه و يقول: وَ أَحْيَيْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ ..إنها تحرق حجب التعجب و الاستبعاد،أ رأيت النواه كيف تختزل حياه شجره باسقه حتی إذا أنزل اللّه عليها الماء و أمدها بوسائل النمو أصبحت شجره باسقه كيف لا يمكن أن يفعل مثل ذلک بالإنسان بعد موته؟ ثم يصب حمم الغضب علی الكاذبين لكی يزيل عامل اللامبالاه عند الكفار بالبعث،و الذی قادهم إلی التعجب و يذكرهم بمصير قوم نوح و أصحاب الرس و ثمود و عاد و فرعون و إخوان لوط و أصحاب الايكه و قوم تبع كيف نزل بهم وعيد اللّه حين كذبوا الرسل.

و يستشهد بالخلق أول مره الذی يهدينا متانه نظمه و تنوعه إلی اقتدار خالقه و أنه كان عليه يسيرا..أ فلا يدل علی أنه قادر علی الخلق الجديد.

و فی آيات متواصلات يزرع القرآن خشيه الرب فی نفس الإنسان،لكی

يتحسس بمسؤوليه تجاه ما يتحدث به،فيذكره بأنه خلقه و يعلم حتى ما توسوس به نفسه،(بالرغم من ادعاءاته الكاذبه)لأنه أقرب اليه مما به حياته ظاهرا و هو حبل الوريد.

فحين يتلقى المتلقيان-و لعلهما الملكان أو المتحدثان أنى كانا- مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ،و هو الى كل ذلك لا يملك دفاعا عن نفسه حين تهجم عليه سكره الموت بالحق فلا يدفعه بالرغم من أنه كان يحاول أبدا الحيد عنها،أما حين ينفخ فى الصور فهو يوم الجزاء الذى وعد اللّه يومئذ يؤتى بكل نفس يسوقها السائق و يرافقه الشاهد..-هذا ما كان يتعجب منه ظاهرا،و انما كان غافلا عنه-بينما اليوم يراه ماثلا أمام عينيه(فبصره حديد)أما قرينه(و هو الملك حسب بعض المفسرين)فيقول هذا(كتابه)لدى عتيد(قد حفظته منذ أيام حياته الأولى هنالك يأمر هما اللّه بالقائه فى جهنم مع كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب،و هكذا تحمل جزاء ريبه النابع من تهربه عن المسؤوليه،الذى جعل مع اللّه إلها آخر.أما قرينه-و هو هنا الشيطان الذى أغواه-فانه يتبرأ منه و يقول ربنا ليس أنا الذى جعلته يطغى،محاوله منه للهروب من مسئوليه إغوائه،إلاّ أن الرب يأمر بالقائه أيضا فى جهنم،و مسئوليه أحدهما لا تنفى مسئوليه صاحبه،و ما اللّه بظلام للعبيد،و إن جهنم تسع المزيد من المجرمين،فلا تظنن أن إلقاءك مسئوليه غفلتك على الآخرين يبرئ ساحتك أو أن جهنم لا تسع إلاّ هو أو أنت.

و فى جانب آخر نجد مشهد المتقين الذين تزدلف إليهم الجنه و يبشرون بها،أو ليسوا قد وعدوا بها لما تميزوا به من التوبه و التقوى و خشيه الرحمن بالغيب و إنابه القلب،فاليوم يقال لهم أدخلوا الجنه بسلام خالدين فيها أبدا،و لهم كل ما يشاءون من النعم فيها،و يعطيهم اللّه من فضله المزيد.

ص:۴۵۱

و يبقى الغرور حاجزا آخر أمام الايمان،و لكن ألّا يقرءون التاريخ ليروا كم أهلك اللّه من قبلهم من قرن كانوا أشد منهم بطشا و حاولوا الهرب من مصيرهم فلم يفلحوا؟و لكن القلوب المريضه و الأسماع الصم لا تستوعب هذه الحقائق.و لا يزال يقول الكافر:كيف يحيى اللّه الناس بعد موتهم؟أ فلا ينظرون كيف خلق اللّه السماوات و الأرض فى سته أيام بلا أى تعب.

و فى خاتمه السوره يأمر اللّه رسوله-و من ثم المؤمنين-بالصبر على ما يقولون، لكى لا يحرجوا به،أو يتخذوا كلامهم مأخذ الجد، و تسبيح اللّه صباح مساء،و فى الليل و عند الأسحار و انتظار ذلك اليوم الذى ينادى المنادى من مكان قريب، و ينفخ فى الصور،و ينادون للخروج.إنهم حين يسمعون الصيحه بالحق ذلك يوم الخروج..هنالك حين يحيى اللّه الموتى ليرجعوا اليه-فى ذلك اليوم-تتفتق عنهم الأرض سراعا،ذلك حشر يسير على اللّه،ودع كلامهم فاللّه أعلم بما يقولون، و لست مسئولا عنهم،تجبرهم.كلا..ما أنت بجبار عليهم،إنما أنت نذير تذكرهم بالوحى فذكر بالقرآن و سوف يستجيب من يخاف الوعيد.

ص:۴۵۲

[سوره ق (۵۰): الآیات ۱ الی ۳۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . ق وَ اَلْقُرْآنِ اَلْمَجِيدِ (۱) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جٰاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقٰالَ اَلْكٰافِرُونَ هٰذٰا شَيْءٌ عَجِيبٌ (۲) أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰاباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (۳) قَدْ عَلِمْنٰا مٰا تَنْقُصُ اَلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنٰا كِتٰابٌ حَفِيظٌ (۴) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (۵) أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى اَلسَّمٰاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنٰاهٰا وَ زَيَّنّٰاهٰا وَ مٰا لَهٰا مِنْ فُرُوجٍ (۶) وَ اَلْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَيْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۷) تَبْصِرَةً وَ ذِكْرىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (۸) وَ نَزَّلْنٰا مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً مُبٰارَكاً فَأَنْبَتْنٰا بِهِ جَنّٰاتٍ وَ حَبَّ اَلْحَصِيدِ (۹) وَ اَلنَّخْلَ بٰاسِقٰاتٍ لَهٰا طَلْعٌ نَضِيدٌ (۱۰) رِزْقاً لِلْعِبٰادِ وَ أَحْيَيْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ اَلْخُرُوجُ (۱۱) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحٰابُ اَلرَّسِّ وَ ثَمُودُ (۱۲) وَ عٰادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوٰانُ لُوطٍ (۱۳) وَ أَصْحٰابُ اَلْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ اَلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (۱۴) أَ فَعَيِينٰا بِالْخَلْقِ اَلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۵) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ وَ نَعْلَمُ مٰا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ اَلْوَرِيدِ (۱۶) إِذْ يَتَلَقَّى اَلْمُتَلَقِّيٰانِ عَنِ اَلْيَمِينِ وَ عَنِ اَلشِّمٰالِ قَعِيدٌ (۱۷) مٰا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّٰ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (۱۸) وَ جٰاءَتْ سَكْرَةُ اَلْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مٰا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (۱۹) وَ نُفِخَ فِي اَلصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ اَلْوَعِيدِ (۲۰) وَ جٰاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِيدٌ (۲۱) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ اَلْيَوْمَ حَدِيدٌ (۲۲) وَ قٰالَ قَرِينُهُ هٰذٰا مٰا لَدَيَّ عَتِيدٌ (۲۳) أَلْقِيٰا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفّٰارٍ عَنِيدٍ (۲۴) مَنّٰاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (۲۵) اَلَّذِي جَعَلَ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَأَلْقِيٰاهُ فِي اَلْعَذٰابِ اَلشَّدِيدِ (۲۶) قٰالَ قَرِينُهُ رَبَّنٰا مٰا أَطْغَيْتُهُ وَ لٰكِنْ كٰانَ فِي ضَلاٰلٍ بَعِيدٍ (۲۷) قٰالَ لاٰ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (۲۸) مٰا يُبَدَّلُ اَلْقَوْلُ لَدَيَّ وَ مٰا أَنَا بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ (۲۹) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ اِمْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (۳۰)

اللغه

(۴) مٰا تَنْقُصُ اَلْأَرْضُ مِنْهُمْ :ما تأكل من أجسادهم إذا ماتوا.

(۵) مَرِيجٍ :مضطرب،و مختلط،فتاره يقول أن الرسول صلى اللّه عليه و آله شاعر،و مره ساحر،و مرّه يعلمه بشر،و ذلك يدل على أنّهم لا يستندون إلى حجه.

(۶) فُرُوجٍ :فرجه خاليه عن النظام.

(٧) بَهِيجٍ :يبتهج به الإنسان و يفرح عند النظر إليه، لحسنه و جماله.

(٩) وَ حَبَّ الْحَصِيدِ :هو حب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالحنطه و الشعير و غيرهما.

(١٠) باسِقاتٍ :طوالا.

طَلْعٌ نَضِيدٌ :منضود بعضه فوق بعض،و الطلع وعاء الثمر.

(١٢) أَصْحابُ الرَّسِّ :الذين رسّوا نبيّهم فى الأرض و أقبروه حيا.

ص:۴۵۴

(۱۴) أَصْحَابُ الْأَيْكَهِ :و هم قوم شعيب،و قد كانت إلى جنبهم أيكه و هى الشجر المزدحم و الملتف على بعضه.

قَوْمُ تُبَّعٍ :كان تبّع ملكا مؤمنا،و قومه كافرين كانوا كثيرى الأموال و القوى.

(۱۵) أَ فَعَيِينٰا :هل عجزنا.

(۱۷) حَبْلِ الْوَرِيدِ :الوريدان هما العرقان المكتنفان بصفحتى العنق فى مقدم العنق،و إضافه الحبل إليه للبيان، أى الحبل الذى هو وريد،و لعل ذكر حبل الوريد لأنّه مربوط بالقلب و المخ فهو وسط بينهما و لا أقرب منه إلى الإنسان.

(۱۸) عَتِيدٌ :مهيّأ حاضر لا يشتبه.

(۱۹) تَحِيدُ :تهرب و تميل.

ص:۴۵۵

وَ مٰا أَنَا بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ

هدی من الآیات:

فی البـدایه یحـدثنا الـدرس الأول من السوره عن جانب من علاقه الناس بالقرآن المجید الذی یضم فی سوره آیات الوحی،بینما یذکرنا شـطره الآخر بآیات اللّه فی الآفاق التی تهدینا هی الأخری کما الوحی إلی المزید من المعرفه بالحق،و ترفعنا إلی درجات الایمان.و فی الخاتمه نجد حدیثا عن مسـتقبل الإنسان فی الدنیا حیث تنتهی حیاته بالرغم منه.و کیف انها سلسله من المسؤولیات التی یحاسب علیها،و یتکون جزاءه بحسب التزامه بها.

بینات من الآیات:

[۱] ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِیـدِ (ق)من الکلمـات الرمزیه و قال البعض إن معناها:المجـد أی الشأن العظیم، و کتاب اللّه بما یشـتمل علیه من الآیات و المناهج، کفیل بأن یعطی لمن یتبعه العزه

ص:۴۵۷

و الكرامه،و يرفعهم إلى قمم التقدم و الكرامه،لأنه منطلق ذلك كله.و لكن الكفار و المشركين أغفلوا هذه الحقيقه و تركوا ذلك المجد بسبب نفسياتهم و ثقافتهم السلبيه، و ساروا فى نفق من التساؤلات و المواقف القشريه السخيفه التى أفقدتهم ذلك المجد.

و الأمه الاسلاميه إنما قصرت عن بلوغ الحضاره،و توقفت عن التقدم الذى بدأته فى نهضتها الاولى،بل و تراجعت أمام الأمم الاخرى بالرغم من امتلاكها لهذا الكتاب العظيم بسبب تعاملها الخاطئ معه،فاذا به عند بعض المسلمين كتاب تفؤّل و تبرّك،بينما انصرف البعض الآخر عن قيمه و مناهجه الحضاريه إلى حروفه و ما تشابه منه،و هكذا هجروا كتاب اللّه،فلم يبلغوا شيئا من المجد،ليس لأن القرآن استنفذ أغراضه فلم يعد كتاب المجد،و إنما لأنه لا يعطى ذلك إلّا لمن اتبعه بحق.

[۲]إن الكفار رفضوا مجد القرآن،و أصروا على مسيرتهم المنحرفه،لأن القرآن شىء جديد،و لأن القائد الذى أمروا باتباعه بشر مثلهم و من وسطهم.و هذا يدل على انهم لا يتبعون الحق و هدى العقل فى حياتهم،و إنما يتبعون الأهواء و المصالح.

و حيث إن قيم القرآن و قياده الرسول يتعارضان مع تلك الأهواء فهى عجيبه و مرفوضه عندهم.

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أى لم تكن له نظائر سابقه ليكون مألوفا عندهم،فهو شىء عجيب،و الحال إن بلوغ المجد لا يمر عبر الشهوات،بل يتطلب مخالفتها و التنازل عنها.

[۳]لقد أثار تعجب الكفار إنذار القرآن بيوم القيامه..قالوا كيف يجمع اللّه أعضاء الإنسان بعد الموت و تحولها إلى ذرأت فى التراب؟و أغرب من ذلك كيف تصير إنسانا سويا؟ أَ إِذا مِتْنا وَ كُنّا تُراباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ إنهم لا يؤمنون بإله قادر يدبر شؤون الخلق،فعارضهم القرآن،و لا يؤمنون بالمسؤوليه فى الحياه،فجاءهم بخلاف هذه العقيده،فرفضوه لعدم ألفتهم به،و ما ذلك سوى منهج الجاهلين الذين يعادون ما لا يعلمون و لا يصدقون إلاّ بما يألفون من حقائق،بينما العلماء و أولو العقل يبحثون عن الحقائق و يقولون:نحن لا نحيط علما بكل شيء،إذا دعنا نبحث بايجابيه.فربما كان هذا واقعا و نحن لم نعرفه،أو لم تكن هذه إلاّ حقائق كنا نجهلها ثم عرفناها و لم نكن نألفها ثم ألفناها،فلما ذا ننكر رأسا كل ما يقال لنا أليس ذلك من الغباء؟ و عموما التعجب من الجهل و قله الوعى،و متابعته من الجهاله و الحمق.

[۴]و لكن القرآن يعالج هذا التعجب،و يبين قدره اللّه على جمع أجزاء الإنسان و بعثه مره اخرى بلى.قد يتحلل كيمياويا فى التراب،و تتبعثر عناصره ال(۱۳۰) هنا و هناك فى صوره ذرأت تنقلها الأيدى،أو تذروها الرياح،و لكنها تبقى معلومه عند اللّه عزّ و جلّ،و محفوظه فى كتاب لا يضل ربى و لا ينسى.

قَدْ عَلِمْنٰا مٰا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ إذ تتحلل أوصالهم فى ترابها.

وَ عِنْدَنٰا كِتٰابٌ حَفِيظٌ

ص:۴۵۹

يسجل فيه كل شيء بدقه متناهيه،أو ليس اللّه هو الذى خلق الإنسان من بعد العدم؟فكيف يعجز عن جمع أوصاله و بعثه بعد الموت؟إنه يعلم كم أكل التراب من جسم هذا الإنسان؟و ما هى الذره من التراب التى كانت سابقا جزءا من بدنه؟و كيف تحللت منه؟و حين مات كم كان يحتوى عليه جسمه من الحديد، و الأملاح،و الماء و سائر العناصر بنسبها و وزنها و مساحتها التى تشغلها،و كم فى كل عضو منها و..و..إلخ؟! إن الإنسان ليتعجب لو نظر إلى صندوق يحوى ملايين القطع التى يتكون منها محرك الطائرات العسكريه،أو جهاز معقد آخر،و ربما لا يصدق ان أحدا قادر على جمعها و تركيبها لتصير إلى ذلك مره أخرى،أما الخبير الذى اخترعها و صنعها فليس كذلك،إنه ينظر للأمر على انه ممكن،بل هو أمر يسير،فكيف باللّه الذى خلق الأشياء،و الذى كان أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون؟ [۵]إن مشكله الكفار انهم لا يتبعون الحق،بل لا يريدون اتباعه،لهذا تراهم لا يفقهون هذه الحقائق،و لا يثبتون على رأى واحد فى الحياه لاتباعهم أهواءهم،إذ الحق واحد و ثابت فى كل زمان و مكان بينما الهوى متغير.

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَرِيجٍ و الذى يؤكد هذه الفكره موقفهم من الرسول صلى الله عليه و آله ،فهم يسمونه ساحرا تاره و مجنونا أخرى،و شاعرا ثالثه،و أمينا و صادقا و..و..إلخ،و لو أنهم اتبعوا الوحى لكان يعطيهم بصيره و جوابا لكل سؤال،حتى سؤالهم هذا عن البعث،و لكنهم تركوه للهوى و المصالح فصاروا إلى الهرج و المرج،و لعل هذا يفسر بروز النظريات المختلفه و المتناقضه فى مختلف الحقول الاجتماعيه و السياسيه و الاقتصاديه.

[۷-۶]و لو أن الكفار الذين يشكون فى البعث نظروا إلى الخلق و تفكروا فيما عليه من النظم و التدبير لما تعجبوا من فكره البعث،لأن عقده هؤلاء الأساسيه هى شكهم فى قدره اللّه على ذلك.و شكهم هذا تعبير عن جهلهم،فاذا تفكروا فى خلق اللّه و ازدادوا معرفه به و بآياته المتجليه فى الكائنات،لهداهم ذلك إلى الايمان بقدره اللّه.أ ترى السماء على سعتها و متانه خلقها و ما فيها من الإبداع،و الأرض التى ذللها اللّه،و ألقى على ظهرها الجبال العظيمه تحفظ توازنها،و أوجد فيها كل ما يحتاج اليه ليصلح عيشنا فيها.كل ذلك أ فلا يهدينا إلى قدره اللّه على إحيائنا بعد الموت؟! أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمٰاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنٰاهٰا وَ زَيَّنّٰاهٰا بالكواكب التى تتناثر على بساطها البديع ليلا،و اللون الأزرق الهادىء بالنهار.

وَ مٰا لَهٰا مِنْ فُرُوجٍ فهى محكمه فى بنائها،لا ثغره و لا كسره.

وَ الْأَرْضَ لننظر إليها هى الأخرى،و نتفكر فى خلقها.

مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَيْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ و لم يقل جبالا،لأن كلمه الجبال لا تعبر عن دور الجبال فى حفظ توازن الأرض كالمرساه التى تثبت السفينه فى عرض البحر و فى أطراف الموانئ.

و مع ذلك ما كانت الأرض تصلح لعيش الإنسان عليها لو لم يتوفر فيها ما

يحتاجه البشر من ضروريات و كماليات.لهذا كان من الحكمه الالهيه أن يوجد الرب أنواع الخلق على ظهرها.

وَ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ من الحيوانات،و النباتات و الناس و كل شىء.و كلمه زوج تنطوى على معان كثيره من أبرزها التكامل،و الذى يدل-بدوره-على دقه النظم و حسن التدبير.

أ ترى كيف جعل اللّه النبات و الأحياء و البشر أزواجا،الذكر و الأنثى،ثم الشعوب و القبائل،ثم جعل الناس يتفاضلون ليحتاجوا إلى بعضهم،ثم جعل كل شىء فى الحياه بحاجه إلى غيره لتتكامل دوره الحياه بما يدع أدق العقول حائره فى هذه الدورات التكامليه التى توازنت و تعادلت و شهدت على حكمه بارئها سبحانه.

ثم جعل الزوج بهيجا يجتذب بجماله الطرف الآخر حتى يسهل التفاعل و يكون أكرم من مجرد حاجه متبادله.

[٨]و هذه كلها آيات بينات على حكمه اللّه التى تقتضى البعث للجزاء و على قدرته التى تجعل الأمر ممكنا بل محتملا.و هى لا تغيب عن بصر أحد من الناس فالكل يراها بعينيه،و لكنها تغيب عن بصائر الكفار و مرضى القلوب.تغيّبها عنهم حجب الذنوب و الجهل و الغفله،و تعيها أذن واعيه و قلوب طاهره من المؤمنين.

تَبْصِرَةً تزيدهم علما و فهما و وعيا و رؤيه.

وَ ذِكْرىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ تزيدهم إيمانا و موعظه و عبره و تقوى،و نهتدى بهذه الآيات إلى فكره أساسيه،

و هی ان الایمان باللّه مرکز العلم الحق،و منطلق الایمان بسائر الحقائق،فالمؤمن یهتدی من خلال نظره إلی الأشیاء،إلی المعارف و العلوم المختلفه،فاذا به ذو بصیره نافذه فی الحیاه،کما یزداد یقینا بالحق،لأنه ینظر إلی الحیاه بنور الایمان باللّه عزّ و جلّ،و هو رأس المعرفه و عماد الایمان،بینما ینظر الکافر إلی ذات الأشیاء،فلا یزداد إلاّ جهلا و کفرا،و تبقی الآیات الواضحه ألغازا فی قلبه لأنه لا نور له فی الحیاه «وَ مَنْ لَمْ یَجْعَلِ اللّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ » (۱).لهذا

جاء فی الحدیث المأثور عن أمیر المؤمنین(علیه السلام): «أول الدین معرفته،و کمال معرفته التصدیق به». (۲)

إن المنهج السلیم هو الذی یجعل الایمان باللّه و معرفته منطلقا لسائر المعارف، و لیس الذی یجعل المعارف و الحقائق الأخری دلیلا إلی اللّه،لأن اللّه أجلی و أظهر من کل شیء.

قال الامام الحسین علیه السلام : «إلهی ما أقربک منی و أبعدنی منک،و ما أرأفک بی،فما الذی یحجبنی عنک؟!إلهی علمت باختلاف الآثار،و تنقلات الأطوار أنّ مرادک منی أن تتعرف إلی فی کل شیء،حتی لا أجهلک فی شیء..

-إلی أن یقول-إلهی ترددی فی الآثار یوجب بعد المزار،فاجمعنی علیک بخدمه توصلنی إلیک،کیف یستدل علیک بما هو فی وجوده مفتقر إلیک؟أ یکون لغیرک من الظهور ما لیس لک حتی یکون هو المظهر لک؟!متی غبت حتی تحتاج إلی دلیل یدل علیک؟!و متی بعدت حتی تکون الآثار هی التی توصل إلیک؟! »ثم إن الامام یخاطب ربه بطریقه توحی الاعتذار منه تعالی جعله المخلوقات دلیلا علی اللّه،مبینا انه لم یکن یعمد إلی ذلک لولا أمره عزّ و جلّ بالنظر إلیها،و هو مع ذلک یطلب منه أن یرفعه إلی الدرجه الأصح و الأفضل من المعرفه،فیقول:

«إلهی أمرت بالرجوع إلی الآثار فارجعنی إلیک بکسوه الأنوار،و هدایه الاستبصار،حتی أرجع

۱- ۱) النور ۴۰/

۲- ۲) نهج/خطبه(۱)

إلیک منها مصون السر عن النظر إلیها،مرفوع الهمه عن الاعتماد علیها» (۱)و لا یرتقی إلی هذه المعرفه إلاّ من عبداللّه حق عبادته و تاب الیه کلما أخطأ.

[۱۱-۹]ثم لینظر الإنسان إلی قطر السماء حینما ینزله اللّه فیحیی به الأرض،إن ذلک مثل قریب علی البعث یوم القیامه.

وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَکاً ینطوی علی الخیر و الفضل،و البرکه فی اللغه تعنی النماء و التکامل،و هو بالفعل فور ما ینزل الغیث یفجر خیرات الأرض،فاذا بها بعد أن کانت صحراء قاحله تنفرش بحله خضراء.

فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِیدِ و الجنات هی الأشجار الکبیره التی تدوم کالرمان و العنب،بینما حب الحصید إشاره إلی الزروع التی یحصدها الإنسان کل عام لیزرع غیرها فی الأعوام اللاحقه کالحنطه و الشعیر و الذره.

وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ أی طویله مرتفعه بسوقها.

لَها طَلْعٌ نَضِیدٌ و الطلع هو عروق النخل أول طلوعها بین اللیف و السعف.أما النضید فهو المنظم و هو حال الطلع مما یجعله أفضل فی نمائه.

۱- ۱) مفاتیح الجنان/دعاء عرفه/ص ۲۷۲(طبعه دار إحیاء التراث العربی).

و نستفید من الآیتین ان مجرد نزول المطر لا یکفی لخروج الجنان و الحب و النخیل من الأرض،بل لا بد من عنایه إلهیه فی الأمر.فلو کانت الأرض التی یهطل علیها الماء غیر صالحه،أو کانت صالحه و لکن أهلها مشغولون عن زراعتها،فهل کان ذلک یحولها إلی جنات و زروع؟کلا.فهی محتاجه إلی إنبات اللّه عزّ و جلّ لها برحمته،لیجد العباد رزقهم فیها،و لتکون صالحه للسکن فیعمروها.

رِزْقاً لِلْعِبٰادِ وَ أَحْيَيْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً إنک تری الأرض هامده لا حراک فیها و قد هجرها الناس،فاذا بها بعد نزول الماء تحکی الحیاه فی کل جوانبها،و بکل أشکالها.فبعد أن یؤمن الناس رزقهم ینشطون لبناء مدینتهم و توفیر سائر مظاهر الحضاره فیها.

و لعل هذا شاهد علی أن الزراعه أصل کل حضاره،و هذه إحدی النظریات الحضاریه حیث قالوا:إنها ناشئه من تراکم المحصولات الزراعیه التی تتراکم الثروه بعد بیعها و تبدأ بها دوره الحضاره..و لا ریب ان حضارات عدیده فی التاریخ نشأت بهذه الطریقه.

أ تری إن الذی أحیا البلاد بعد موتها یعجز عن أحیائنا بعد الموت؟! كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ و فی الروایات إشارات إلی إن الإنسان یتلاشی فی التراب،و یبقی منه مقدار ذره واحده(خلیه)حیه تتعلق بها الروح فی عالم البرزخ،فاذا أراد اللّه بعثه أمطر السماء أربعین صباحا،و جعل الأرض کرحم الأم،فتنمو فیه تلک الذره،و لکن بصوره سریعه،فاذا بالأرض تنشق عن بشر سوی.و لیس من عجب أن یحدث ذلک،فهذا هو الإنسان یبدأ حیاته من نطفه صغیره جدا تنطلق من صلب الأب إلی

رحم الأم،و هكذا تبدأ حياه كل شیء علی وجه الأرض.فلتنظر إلی کل حبه تحسبها میته،و لکن حین تدفنها فی التراب تنشق عن زرع أو شجره عظیمه.و إلی هذا التشابه تشیر الآیه الکریمه : «وَ اللّٰهُ أَنْبَتَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبٰاتاً » (۱)،و نحن مع ذلک نؤمن بقدره اللّه علی الخلق و البعث بعد الموت بطرق لا تحصی عددا.

و

فی الخبر قال الصادق علیه السلام : «إذا أراد اللّه عزّ و جلّ أن یبعث الخلق أمطر السماء أربعین صباحا،فاجتمعت الأوصال و نبتت اللحوم». (۲)

و

قال علیه السلام لما سئل عن المیت یبلی جسده؟:«نعم حتی لا یبقی لحم و لا عظم إلاّ طینته التی خلق منها،فانها لا تبلی،تبقی فی القبر مستدیره حتی یخلق منها کما خلق أول مره» (۳).

[۱۲-۱۴]إن الآیات التی مضت کلها علاج لاستبعاد فکره البعث من قبل الکفار،حیث قالوا: «أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً ذٰلِکَ رَجْعٌ بَعِیدٌ »،و الآن یبین القرآن بأن هذا الضلال لم یکن جدیدا فی تاریخ البشریه،لأن الماضی ینطوی علی أمثال کثیره من تکذیب الأقوام السالفه.

کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحٰابُ الرَّسِّ و هم أصحاب البئر التی رسوا نبیهم فیها بعد أن قتلوه(عن عکرمه)،و قیل الرس بئر قتل فیها صاحب یاسین(عن الضحاک)،و قیل هم قوم کانوا بالیمامه علی آبار لهم(عن قتاده)،و قیل هم أصحاب الأخدود،و قیل

کان سحق النساء فی أصحاب الرس (عن أبی عبداللّه علیه السلام)و الذی یبدو لی انهم کانوا فی الیمامه

۱- ۱) نوح/۱۷

۲- ۲) بح/ج ۷-ص ۳۳

۳- ۳) المصدر/ص ۴۳

و الرس اسم البئر التی دفنوا فیها نبیهم بعد أن قتلوه.

وَ ثَمُودُ و هم قوم صالح علیه السلام .

وَ عَادٌ أی قوم هود علیه السلام .

وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوَانُ لُوطٍ و سمی أخاهم لأنه انتسب إلیهم بالزواج و اللّه العالم.

وَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ یعنی قوم شعیب الذین اشتهرت حضارتهم بالزراعه و البساتین،و الأیکه فی العربیه الأشجار المزدحمه التی تلتقی أغصانها،و فیها تبنی الحمام أعشاشها غالبا.

وَ قَوْمُ تُبَّعٍ و هو رجل صالح ملک الیمن،إلاّ ان قومه کانوا فاسدین.

كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ لقد بادت حضاراتهم نتیجه تکذیبهم الحق،أو لا یهدینا ذلک إلی تحقق الجزاء فی الآخره کما تحقق فی الدنیا،و حق الشیء أی ثبت و منه الاستحقاق.و هؤلاء ثبت عذابهم،و تحول من القدر إلی القضاء،و من الوعید إلی الفعل.

[۱۵]و یستنکر اللّه علی هؤلاء تکذیبهم بالبعث،و شکهم فی قدرته تعالی

ص:۴۶۷

فیقول:

أَ فَعَیِینٰا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ أی هل أعجزنا الخلق الأول من العدم عن أن نبعث الإنسان مرّه أخری؟ کلا.و فی الآیه بیان إلی حقیقه تحل شبهه هؤلاء حول البعث،و هی ان القادر علی الخلق من العـدم أولی بالقـدره علی جمع أشـلاء البشـر و نفخ الروح فیه مره ثانیه.و هـذا دلیل عقلی بصـیر علی الرجعه للحساب،و إن کان کلا الأمرین سواء عنـد اللّه الذی لا یمسه نصب و لا لغوب.و القرآن یعبر عن هذه الفکره فی موضع آخر بصیغه ثانیه، یقول تعالی: «أَ وَ لَمْ یَرَ الْإِنْسٰانُ أَنّٰا خَلَقْنٰاهُ مِنْ نُطْفَهٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ* وَ ضَرَبَ لَنٰا مَثَلاً وَ نَسِیَ خَلْقَهُ قٰالَ مَنْ یُحْیِ الْعِظٰامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ* قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ* الَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نٰاراً فَإِذٰا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ* أَ وَ لَیْسَ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِقٰادِرٍ عَلیٰ أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلیٰ وَ هُوَ الْخَلاّٰقُ الْعَلِیمُ* » (۱).

و

فی تفسیر هذه الآیه سأل جابر بن یزید أبا جعفر علیه السلام عنها قال:«یا جابر تأویل ذلک أن اللّه عزّ و جلّ إذا أفنی هذا الخلق و هذا العالم،و سکن أهل الجنه الجنه و أهل النار النار،جدد اللّه عالما غیر هذا العالم،و جدد خلقا من غیر فحوله و لا إناث یعبدونه و یوحـدونه،و خلق لهم أرضا غیر هـذه الأرض تحملهم،و سـماء غیر هـذه السـماء تظلهم،لعلک تری ان اللّه إنما خلق هذا العالم الواحـد؟أو تری أن اللّه لم یخلـق بشـرا غیرکم؟بلی،و اللّه لقـد خلق ألف ألف عـالم،و ألف ألف آدم،أنت آخر تلـک العوالم و أولئک الآدمیین». (۲)

۱- ۱) یس/۷۷-۸۱

۲- ۲) نور الثقلین/ج ۵-ص ۱۰۸

إن هذه الحقائق لا تخفى على عقل الإنسان،و لكن الجهل البشرى و ضلال الأفكار و هوى النفس كل ذلك يحجبه عنها،فاذا به يشك فى قدره اللّه على الخلق ثانيه بعد الموت.

بَلْ هُمْ فِی لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِیدٍ أی إن الأمر ملتبس عليهم فهم فى حيره و ريبه،و سبب ذلك هو جهلهم بكيفيه حدوث البعث،بيد إن ذلك لا يعنى استحالته،أ ترى لو كان يقال لشخص قبل ألف عام عن حديد يطير فى الهواء(تعنى بذلك الطائرات و الصواريخ)هل كان يصدق؟طبعا لا،و لكن لو قيل له تفصيل ذلك لعله كان يذعن أليس كذلك؟ و هذه من طبيعه الإنسان انه ينكر الأشياء التى يقصر عن الاحاطه بتفصيلاتها.أما العقل المحض و البعيد عن المؤثرات،فهو لا ينكر الأشياء لمجرد انتفاء إحاطته بالتفاصيل،بل ينكرها ما دامت لا تصدق لانتفاء الأدله عليها.و الحال إن الأدله قائمه على الرجوع للحساب.

[۱۶]و من ذلك ترى الكفار مرتكزين فى أوحال الشك و الريب من هذا الحق، فهم بين التصديق و التكذيب تتردد نفوسهم فى الوسواس المنبعث من طبيعه البشر، كما من وساوس الشيطان الذى يسعى لاضلاله.

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ فلم نتركه سدى،لأنه مسئول و محاسب فى الدنيا و الآخره،بل بقى تحت الرقابه الإلهيه التى لا تقتصر على ظاهره من الكلام و الفعل،و إنما تنفذ إلى أخفى و أبعد شىء عنده و هو حديثه مع نفسه.

وَ نَعْلَمُ مٰا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ

فخطرات القلب و هواجس النفس و أفكارها كلها مسجله عند اللّه عزّ و جلّ،فربما قام يوما للصلاه فتردد هل يؤديها الآن أم بعد قليل فهذا مسجل لک أو علیک،یسجله اللّه الذی هو أقرب للإنسان حتی من نفسه.

وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ و هی الأوداج التی تربط الرأس بالجسد.إن الإنسان قد يندفع إلى تصرف أو فكره ما بعوامل لا يدركها،و قد يقوم بشیء ثم ينساه،و لكنه تعالی يحفظ كل صغيره و كبيره و كل ظاهر و باطن «فِي كِتٰابٍ لاٰ يَضِلُّ رَبِّي وَ لاٰ يَنْسیٰ » (۱)،و المتقون يعون هذه الحقيقه بعمق

«إذا زكى أحد منهم خاف مما يقال له،فيقول أنا أعلم بنفسى من غيرى،و ربى أعلم بى منى بنفسى». (۲)

و نجد فی العلم الحديث الآن بحوثا عن آفاق العقل الباطن،و موضوعه دراسه القرارات و التصرفات التی تصدر من الإنسان لمعرفه أسبابها الخفيه.

[۱۷] إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيٰانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمٰالِ قَعِيدٌ و لهذه الآيه تفسيران:

الأول:إن المقصود«بالمتلقيان»ملک الحسنات و ملک السيئات،و

فی الخبر عن الرسول صلى الله عليه و آله انه قال: «كاتب الحسنات على يمين الرجل،و كاتب السيئات على شماله،و صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال،فاذا عمل حسنه كتبها صاحب اليمين عشرا،و إذا عمل سيئه قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر» (۳)و

فی خبر آخر «إن صاحب الشمال ليرفع

۱- ۱) طه۵۲/

۲- ۲) نهج/خ ۱۹۳

۳- ۳) نور الثقلين/ج ۵-ص ۱۱۱

القلم ست ساعات عن العبد المخطئ أو المسیء،فان ندم و استغفر منها ألقاها، و إلاّ کتب واحده» (۱)و

فی کتاب سعد السعود: «إنهما یأتیان المؤمن عند حضور صلاه الفجر،فاذا هبطا صعد الملکان الموکلان باللیل،فاذا غربت الشمس نزل الیه الموکلان بکتابه اللیل،و یصعد الملکان الکاتبان بالنهار بدیوانه إلی اللّه عزّ و جلّ،فلا یزال ذلک دأبهم إلی وقت حضور أجله،فاذا حضر أجله قالا للرجل الصالح:جزاک اللّه من صاحب عنّا خیرا،فکم من عمل صالح أریتناه،و کم من قول حسن أسمعتناه،و من مجلس خیر أحضرتناه،فنحن الیوم علی ما تحبه شفعاء إلی ربک.و إن کان عاصیا قالا له جزاک اللّه من صاحب عنّا شرا،فلقد کنت تؤذینا،فکم من عمل سیء أریتناه،و کم من قول سیء أسمعتناه،و من مجلس سوء أحضرتناه،و نحن لک الیوم علی ما تکره،و شهیدان عند ربک». (۲)

الثانی:و قد یکون المعنی بذلک النفس الأماره بالسوء و الأخری اللوامه التی یضل الأولی منهما الشیطان،و یرشد الأخری ملائکه اللّه،و لعل وسوسه النفس و حدیثها من ذلک.

قال الصادق(علیه السلام): ما من قلب إلاّ و له أذنان،علی أحداهما ملک مرشد و علی الآخر شیطان مفتّن،هذا یأمره و هذا یزجره،الشیطان یأمره بالمعاصی و الملک یزجره عنها و هو قول اللّه عزّ و جلّ «عَنِ الْیَمِینِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِیدٌ » ما یَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّ لَدَیْهِ رَقِیبٌ عَتِیدٌ (۳).

و

قال علیه السلام : ما من مؤمن إلاّ و لقلبه أذنان فی جوفه،أذن ینفث فیها الوسواس الخناس،و أذن ینفث فیها الملک،فیؤید اللّه المؤمن بالملک،فذلک قوله

ص:۴۷۱

۱- ۱) المصدر

۲- ۲) المصدر/ص ۱۰۹

۳- ۳) أصول الکافی/ج ۲-ص ۲۶۶ طبعه الآخوندی.

« وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ». (۱)

و

قال أمير المؤمنين عليه السلام : «إن اللّه تبارك و تعالى أيد المؤمن بروح منه تحضره فى كل وقت يحسن فيه و يتقى،و تغيب عنه فى كل وقت يذنب فيه و يعتدى،فهى معه تهتز سرورا عند إحسانه،و تسبح فى الثرى عند إساءته،فتعاهدوا عباد اللّه نعمه بإصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقينا و تربحوا نفيسا و ثمينا،رحم اللّه امرء هم بخير فعمله،أو هم بشر فارتدع عنه، ثم قال:نحن نؤيد الروح بالطاعه للّه و العمل له». (۲)

[۱۸]و الإنسان يبقى يتأرجح بين الاستجابه لنداء الحق(الفطره و العقل و الوحى و إمام الحق)،و بين الانصراف عن كل ذلك إلى نداء الباطل(النفس الأماره و الشيطان،و إمام الضلال)،و هو فى ذلك غير محاسب على أفكاره،و لكنه إذا حسم الصراع بين هذه القوى،و التردد فى نفسه بالإراده سجل عليه موقفه.

مٰا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ خيرا كان أو شرا.

إِلاّٰ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ يكتب كل ما يصدر منه،و يضمه إلى كتابه الذى يتقرر مصيره على ضوء ما فيه،فاما تغلب الحسنات السيئات فيتسلمه بيمينه و تسوقه ملائكه الرحمه فى زمره المتقين إلى الجنه،و ربما أخذ إلى النار قليلا ليطهر،و أما تغلب الأخرى فيأخذه بشماله،و تسوقه ملائكه العذاب إلى جهنم ليلبث فيها أحقابا أو يخلد فى العذاب

۱- ۱) المصدر/ص ۲۶۷

۲- ۲) المصدر/ص ۲۶۸

مهانا.حتی إن البشر لیذهلون من دقه الکتاب: «وَ عُرِضُوا عَلیٰ رَبِّکَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا کَما خَلَقْناکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَکُمْ مَوْعِداً* وَ وُضِعَ الْکِتابُ فَتَرَی الْمُجْرِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمّا فِیهِ وَ یَقُولُونَ یا وَیْلَتَنا ما لِهٰذَا الْکِتابِ لا یُغادِرُ صَغِیرَهً وَ لا کَبِیرَهً إِلاّ أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا یَظْلِمُ رَبُّکَ أَحَداً » (۱).

[۱۹]بلی.إن الإنسان یخشی من الموت،و یحاول جهده الفرار من ساحته، و لکن متی کان مصیره فی یده،أو کان قادرا علی ردّ قضاء اللّه؟کلا-إن سکره الموت تأتیه فتذهله عما یحیط به،کما تذهل سکره الخمره شاربها و یومئذ یعرف أن محاولاته فی الهروب من الموت و التی استغرقت أکثر مساعیه باءت جمیعا بالفشل.

وَ جٰاءَتْ سَکْرَهُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِکَ مٰا کُنْتَ مِنْهُ تَحِیدُ [۲۰]و حینما یموت الإنسان تبقی بینه و بین الجزاء الحقیقی مسافه البرزخ، فاذا کان یوم القیامه،أمر اللّه ملکا عظیما من ملائکته یقال له إسرافیل بالنفخ فی الصور فیحدث عندها صوت عظیم مهیب یقوم الناس بسببه من الأجداث بإذن اللّه عزّ و جلّ «وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلیٰ رَبِّهِمْ یَنْسِلُونَ » (۲)و تلک النفخه إیذانا منه تعالی ببدء أعظم و أرهب محکمه فی عالم الإنسان حیث تقف الانسانیه و بکل أجیالها التی تعاقبت علی هذه الأرض،تزدحم بهم آفاقها،أحسنهم حالا یومئذ من وجد لقدمیه موضعا و لنفسه متسعا،یسبحون فی بحر من العرق الذی تنفصد به أبدانهم.و هناک تتقطع بینهم الأسباب و الوشائج فیتبرأ الواحد من أقرب الخلق الیه،من ولده و زوجته و أمه و أبیه و أخیه.

۱- ۱) الکهف۴۸/-۴۹

۲- ۲) یس ۵۱/

وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ ذٰلِکَ یَوْمُ الْوَعِیدِ فمهما لقی الکفار و الظالمون من جزاء کما هو حال الأقوام السالفه التی ذکرتهم الآیات(۱۲-۱۴)إلّا أن الجزاء الحقیقی الذی یتوعدهم به اللّه یلقونه فی الآخره،التی تبدأ بنفخه إسرافیل علیه السلام فی الصور.

إسرافیل:

و

فی دعاء الامام زین العابدین علیه السلام فی الصلاه عن حمله العرش قال:

«و إسرافیل صاحب الصور الشاخص،الذی ینتظر منک الاذن،و حلول الأمر، فینبّه بالنفخه صرعی رهائن القبور». (۱)

و

قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله : «خلق اللّه الصور من لؤلؤه بیضاء فی صفاء الزجاجه، ثم قال للعرش خذ الصور،فتعلق به،ثم قال:کن،فکان إسرافیل فأمره أن یأخذ الصور،فأخذه و به ثقب بعدد کل روح مخلوقه،و نفس منفوسه،لا تخرج روحان من ثقب واحد،و فی وسط الصور کوّه کاستداره السماء و الأرض، و إسرافیل واضع فمه علی ذلک الکوّه،ثم قال له الرب تعالی:قد وکلتک بالصور،فأنت للنفخه و للصیحه،فدخل إسرافیل فی مقدم العرش،فأدخل رجله الیمنی تحت العرش،و قدم الیسری،و لم یطرف منذ خلقه اللّه ینظر متی یؤمر به» (۲).

[۲۱]فاذا جاء أمر اللّه لاسرافیل و نفخ فی الصور،انبعث الناس من قبورهم و بدأ یوم القیامه،و هناک توضع الموازین الحق،و تخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع

۱- ۱) بح/ج ۵۹-ص ۲۱۷

۲- ۲) المصدر/ص ۲۶۱

إلاّ همسا من هول الموقف،و تأتى كل نفس بمفردها منقطعه عن كل شیء سوى ما اكتسبت وسعت،كما يصف القرآن «وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَهِ فَرْداً » (۱)..نعم.

هناك اثنان يشايعانه تنتهى مهمه الأول عند إصدار الحكم المصيرى بحقه و هو الشهيد الذى يدلى بإفاداته أمام المحكمه الإلهيه بالحق ان لصالح الشخص أو عليه، سواء كان ذلك الشهيد الملك الذى كتب أعماله،أو طرف آخر من البشر و سائر الخلق،أو كان عضوا منه أو جارحه،بينما تنتهى مهمه الآخر على باب الجنه إذا كان الشخص من الصالحين أو على باب جهنم إن كان من أصحاب السعير،و هو السائق،و هذا الأخير ينتظر حكم اللّه فى من يسوقه،فاما يزفه باللطف و الترحاب إلى الجنه،و أما أن يسوقه بمقامع الحديد إلى النار.

وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ من الملائكه.

وَ شَهِيدٌ لقد بينت النصوص الدينيه أسماءهم من هم الشهداء الذين يرافقون كل نفس يوم الحساب؟و نحن نذكر طائفه منهم:

۱-القياده الرساليه شاهد على الإنسان.قال تعالى: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً » (۲).و قال: «إِنّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً » (۳)و قال يحكى عن شهاده عيسى عليه السلام :

۱- ۱) مريم/۹۵

۲- ۲) الأحزاب/۴۵

۳- ۳) المزمل/۱۵

«بَلْ رَفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَ كٰانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً* وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً » (۱)،و قال: «فَكَيْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّهٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنٰا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِيداً ». (۲)

۲-جوارح الإنسان و أعضاؤه تشهد،قال تعالى: «وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدٰاءُ اللّهِ إِلَى النّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ* حَتّٰى إِذٰا مٰا جٰاؤُهٰا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصٰارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ* وَ قٰالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنٰا قٰالُوا أَنْطَقَنَا اللّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ* وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لاٰ أَبْصٰارُكُمْ وَ لاٰ جُلُودُكُمْ وَ لٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللّهَ لاٰ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمّٰا تَعْمَلُونَ » (۳)و قال فى موضع آخر: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلىٰ أَفْوٰاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنٰا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ » (۴).

۳-و الكتاب هو الآخر شاهد علينا بما يحتويه من قيم و مفاهيم إلهيه،قد تتفق معها مواقفنا و سلوكياتنا و أفكارنا و قد تخالفها.قال تعالى: «أَ فَمَنْ كٰانَ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ (يعنى القرآن) وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَهً أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ». (۵)

۴-و الملائكه يشهدون.قال تعالى: «رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلاّٰ يَكُونَ لِلنّٰاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّهٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كٰانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً* لٰكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمٰا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلاٰئِكَهُ يَشْهَدُونَ وَ كَفىٰ بِاللّهِ شَهِيداً » (۶)كما أنهم يسجلون سعى الإنسان فى كتابه.قال تعالى:

۱- ۱) النساء۱۵۸/-۱۵۹

۲- ۲) النساء۴۱/

۳- ۳) فصلت ۲۰/-۲۲

۴- ۴) الانعام ۱۳۰/

۵- ۵) هود۱۷/

۶- ۶) النساء۱۶۵/-۱۶۶

«إِنّٰا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتىٰ وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِي إِمٰامٍ مُبِينٍ » (۱).

۵-و تشهد على الإنسان كل لحظه من عمره،إذ ينطبع فيها أثر كل سعى و تفكير يقوم به،و ربما مرّ عليه الزمان دون أن ينتفع منه،فهو يشهد عليه يوم القيامه بذلك أيضا.

قال الامام على عليه السلام : «ما من يوم يمر على ابن آدم إلاّ قال له ذلك اليوم:أنا يوم جديد و أنا عليك شهيد،فافعل فىّ خيرا و اعمل فىّ خيرا،أشهد لك به يوم القيامه،فانك لن ترانى بعد هذا أبدا» (۲).

۶-و كذلك يشهد أولياء اللّه على غيرهم،لأنهم بأعمالهم الصالحه ميزان لأعمال الناس،و حجه يرفعها اللّه على الآخرين،فالمجاهدون حجه على المتقاعسين و القاعدين،و المهاجرون حجه على الذين رضوا الذل و العيش فى ظل الظلمه، و المتواضعون حجه على المتكبرين و هكذا،يقول اللّه: «إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيّٰامُ نُدٰاوِلُهٰا بَيْنَ النّٰاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدٰاءَ وَ اللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ الظّٰالِمِينَ » (۳)و قال فى سوره الحج: «وَ جٰاهِدُوا فِي اللّٰهِ حَقَّ جِهٰادِهِ هُوَ اجْتَبٰاكُمْ وَ مٰا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرٰاهِيمَ هُوَ سَمّٰاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هٰذٰا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ ». (۴)

۷-و تبقى الشهاده العظمى لربّنا الجبار الذى لا تخفى عليه خافيه:

۱- ۱) يس/۱۲

۲- ۲) نور الثقلين/ج ۵-ص ۱۱۲ نقلا عن من لا يحضره الفقيه.

۳- ۳) آل عمران/۱۴۰

۴- ۴) الحج/۷۸

«يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ* أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَهٍ إِلاّ هُوَ رابِعُهُمْ وَ لا خَمْسَهٍ إِلاّ هُوَ سادِسُهُمْ وَ لا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلاّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (١)، «قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَهً قُلِ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ » (٢)
و قال عزّ من قائل: «إِنَّ اللّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ إِنَّ اللّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » (٣)و قال مؤكدا هذه الشهاده يخاطب رسوله صلى الله عليه و آله : «وَ ما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّ كُنّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّهٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلاّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ ». (۴)

[٢٢]و هؤلاء الشهود و ذلك السائق كلهم حاضرون اليوم كحضور أى حقيقه أخرى فى الواقع،إلاّ أن حجب الجهل و الغفله و الشهوات،و من ثم غياب بصيره الايمان،تمنع الإنسان من الرؤيه،فاذا ما تكشفت له الحقائق و بلغ عين اليقين فى معرفتها،هنالك يأتيه الخطاب من اللّه:

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَهٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ إن الحقائق التى طالما أنكرها المشركون تبدو لهم يومئذ أوضح من الشمس فى رابعه النهار.و

لقد صدق الامام على عليه السلام إذ قال : «الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا »أما المؤمنون الصادقون فقد تعرفوا على هذه الحقائق بفصل اتباع وحى اللّه و أوليائه،و إنهم كما

يصفهم الامام زين العابدين(عليه السلام)إذ يناجى ربه قائلا:«إلهى فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك فى حدائق

١- ١) المجادله۶/-٧

٢- ٢) الانعام١٩/

٣- ٣) الحج١٧/

۴- ۴) يونس ۶١/

صدورهم...فهم إلی أوكار الأفكار يأوون و فی رياض القرب و المكاشفه يرتعون...قد كشف الغطاء عن أبصارهم،و انجلت ظلمه الريب عن عقائدهم، و انتفت مخالجه الشک عن قلوبهم و سرائرهم،و انشرحت بتحقيق المعرفه صدورهم...و اطمأنت بالرجوع إلی ربّ الأرباب أنفسهم،و تيقنت بالفوز و الفلاح أرواحهم» (۱)و هذا اليقين ممكن لكل إنسان لو استشار عقله و اتبع هدی الرّب،إلّا أن الغفله-و من ثم الاسترسال فی الجهل و الشهوات-كل ذلک يحجبه عن الايمان و المعرفه.

[۲۳]و يوم القيامه يرفع اللّه كل الحجب فاذا بالحقائق واضحه كعين الشمس لا يعتريها شک و لا ريب،و لكن هل تنفعه المعرفه شيئا؟...كلا.فالكلمه حينها للشاهد الذی رافقه لحظه بلحظه،و مصيره مرهون بما أعده و سجله عليه و له،حيث يعرضه علی اللّه.

وَ قٰالَ قَرِينُهُ هٰذٰا مٰا لَدَيَّ عَتِيدٌ أی معدّ بدقه و حق فهو يعتدّ به فی الحساب.

[۲۴-۲۵]و عند ما توضع أعمال الإنسان فی الميزان يصدر اللّه حكمه الحاسم فی حقه،فان ثقلت موازينه أدخل الجنه صالح البال راضی النفس، و إن خفّت أمر اللّه السائق و الشهيد أن يأخذانه إلی النار.

أَلْقِيٰا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفّٰارٍ أنكر فضل اللّه،و لم يؤد شكر نعمائه بعبادته و التسليم له.

۱- ۱) الصحيفه السجاديه/طبعه دار الأضواء/ص ۴۲۰

عَنِيدٍ خالف آياته و أوامره و عاكسها فى حياته.

و هكـذا يدخل النار كل مانع للخير،و الخير كلمه واسـعه تضم إليها الكثير من المفردات،فقد يكون الخير المال الذى ينعم به اللّه على الإنسان فلا يخرج منه الحقوق الواجبه،و لا ينفق منه على المحتاجين،و قد يكون الخير هو العلم الذى زكاته نشره بين الناس و لكن صاحبه لا يتحمل رسالته فى الحياه،و هكـذا يمتد ظل هذه إلى كثير من المفردات الأخرى.و لكن أهم معانى الخير القياده الصـالحه،و أى خير أعظم من قيـاده يهتـدى بهـا الإنسـان السبيل الحق فى مرافق الحياه المختلفه؟و كم يكون الإنسان آثما حينما يحـارب أولياء اللّه و يصـدّ الناس عنهم؟ و فى الخبر عن على بن إبراهيم قال:«و الخير ولايه على عليه السـلام و حقوق آل محمد صلى الله عليـه و آلـه » (1)و لاـ شـك ان محـاربه العلمـاء و الفقهـاء و القـاده الرساليين جزء لا يتجزأ من محاربه الرسول و الأئمه عليهم السلام،بل هى محاربه اللّه،أو لم يقل عزّ و جلّ:

«من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربه »؟و هكذا يحاربه الذى ينال من سمعه أوليائه فيصنع حاجبا بين الناس و بينهم.

مَنّٰاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ و المعتـدى هو الـذى يتجاوز الحـدود و الحقوق،أما المريب فهو الـذى لا قناعه عنده بالقيم و ربما ادعى الايمان لأغراض خبيثه.

[۲۶]و كل هذه الصـفات التى تستوجب جهنم(الكفران و العناد،و منع الخير و الاعتداء و الارتياب)كلها مظاهر للشرك الخفى أو الظاهر.

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵-ص ۱۱۴

اَلَّذِی جَعَلَ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ المشرک لیس الـذی یعتقـد بإله مع اللّه،بل الـذی یخضع لقیاده لم یأمر بها اللّه فالذی یرضـی عملیا بالحاکم الظالم،أو یطیع أمره فی معصیه اللّه مشرک،و إن لم یعتقد بأنه ربّ و إله،کما ان من یطیع هواه فهو عابد له،و هو بذلک یستحق العذاب،و ربنا یأمر الملکین بالقائه فی جهنم.

فَأَلْقِیٰاهُ فِی الْعَذٰابِ الشَّدِیدِ و الإلقاء لا یکون إلاّ من الأعلی إلی الأسـفل،و إنما یفعل بأهل النار کذلک، لأن اللّه خلق الإنسان فی مرتبه عالیه فضـله بها علی الکثیر من خلقه،فاذا أشرک به و انحرف عن الصراط بدأ سیرته التسافلیه و الإلقاء فی جهنم من الأعلی إلی الأسـفل هو تجل لهذه الحقیقه التی تبینها سوره التین فی قوله تعالی: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِیمٍ* ثُمَّ رَدَدْنٰاهُ أَسْفَلَ سٰافِلِینَ (1)أما حینما یسـتمر علی خط الفطره و یتمسک بحبل اللّه المتمثل فی رسالته و أولیائه،و یستزید من عمل الصالحات فانه ینطلـق فی مسـیره تصاعـدیه نحـو الأعلی،یتقرب إلی اللّه درجه بعـد أخری «کَلاّٰ إِنَّ کِتٰابَ الْأَبْرٰارِ لَفِی عِلِّیِّینَ* وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا عِلِّیُّونَ* کِتٰابٌ مَرْقُومٌ* یَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (2).

[۲۷]و حیث یلقی المشـرک فی جهنم یظـل یهـوی إلی الأسـفل مـده من الزمن حسب انحرافه و سـیئاته إلی أن یحـل فی مکـانه المعـد له بین یـدی عـذاب إلهی شدیـد، و هناک کما عند الحساب یلقی قرناءه عملا فیدور بینهم خصام شدید یلقی کل طرف فیه اللوم علی الطرف الآخر محاولا بذلک التهرب من المسؤولیه،فاذا بالذی

۱- ۱) التین ۴/-۵

۲- ۲) المطففین ۱۸/-۲۱

جعل مع اللّه آلهه أخرى-و قد أمر به إلى النار-يريد التخلص من عذابها بإلقاء مسئوليه انحرافه و ضلاله على قرينه.

قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ إنه كاذب فى ادعائه باننى السبب فى طغيانه،ثم يستدل قائلا:

وَ لكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ربما يكون للآخرين دور فى انحراف مسيره الإنسان و لكنه لا يعدو كونه مساعدا،أما الدور الأكبر و السبب الحقيقى مرهون باختياره و إرادته للباطل دون الحق،فلأنه أساسا اختار الضلال تجد مساعى الآخرين و الظروف المتجانسه مع اختياره موقعا مؤثرا فى حياته.

[۲۸]ثم إن التخاصم عند اللّه لا ينفعهم شيئا و ذلك لما يلى:

أولا:إن المصير الذى صاروا اليه لم يكن مفاجئا و لا غامضا بالنسبه لهم.

و كيف يكون كذلك و قد أقام اللّه الحجه البالغه عليهم،و أنذرهم من هذه العاقبه، عبر كتبه و رسله؟ قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ و أنذرتكم من أن الشرك و الضلال يستوجب العذاب الشديد،و ضربت لكم المثل تلو المثل من حياه الأقوام السابقه(الآيات ۱۲ إلى ۱۴)و لكنكم كذبتم النذر،و استهزأتم بالوعيد،و القرآن يفصل هذه الحقيقه فى موضع آخر،يقول تعالى:

«تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ* قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ*

وَ قٰالُوا لَوْ كُنّٰا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مٰا كُنّٰا فِی أَصْحٰابِ السَّعِيرِ* فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحٰابِ السَّعِيرِ ». (۱)

[۲۹]ثانيا:إن للّه سننا و قيما فى هذه الحياه،جعلها حاكمه و جعلها الميزان فى كل قضيه،و على أساسها يكون حساب الناس و مصيرهم،و هى ثابته لا تتغير.

و منها ان جزاء الكافر و المشرك النار و جزاء المؤمن الجنه،و لا يمكن أن يكون العكس و إلاّ فما هى حكمه الحياه الدنيا،و ما هو دور النذر إذا لم يجعل اللّه للثواب و العقاب نظاما محددا؟! مٰا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ و من القول الثابت الذى تعنيه هذه الآيه ما جاء فى سوره صلى الله عليه و آله عند ما أقسم الشيطان أن يغوى العباد فردّ اللّه عليه: «قٰالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ* لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » (۲).

ثالثا:إن العداله الإلهيه تأبى ذلك،إذ كيف يستوى المحسن و المسىء؟!أم كيف يصير الظالم إلى جانب المظلوم فى الجنه دون أن يقتص من الأول،و ربما فات الأخير الثأر فى الدنيا؟!أ ترى من العداله أن يدخل الجنه المانع للخير و الممنوع عنه؟! أو المعتدى و المعتدى عليه؟!أ ترى يدخل ابن ملجم الجنه مع الامام على و قد فجع المسلمين بقتله؟!أم يدخل يزيد الجنه مع الحسين و قد ذبحه كما تذبح الشاه و هو ابن خاتم الأنبياء،و سيد الأوصياء،و سيده نساء العالمين؟!..كلا.و حاشا للّه عزّ و جلّ و هو العادل أن يفعل ذلك،و هذا كتابه ينطق عنه قائلا:

وَ مٰا أَنَا بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ

۱- ۱) الملک/۸-۱۱

۲- ۲) ص/۸۴-۸۵

و إلی هذا المعنی

یشیر دعاء الامام علی علیه السلام حیث یناجی ربه قائلا:«فبالیقین أقطع صادقا لولا ما حکمت به من تعذیب جاحدیک،و قضیت به من إخلاد معاندیک،لجعلت النار کلها بردا و سلاما،و ما کان لأحد فیها مقرا و لا مقاما، لکنک تقدست أسماؤک أقسمت أن تملأها من الکافرین من الجنّه و الناس أجمعین،و أن تخلد فیها المعاندین،و أنت جلّ ثناؤک قلت مبتدئا و تطولت بالانعام متکرما، أَ فَمَنْ کٰانَ مُؤْمِناً کَمَنْ کٰانَ فٰاسِقاً لاٰ یَسْتَوُونَ » (1).

[۳۰]رابعا:و أخیرا یثیر القرآن فی أذهاننا و بصوره غیر مباشره تساؤلا هاما و هو لماذا خلق اللّه النار؟هل خلقها عبثا و کیف یصدر منه ذلک و هو الحکیم الخبیر.و قد قال فی کتابه: «وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا لاٰعِبِینَ* لَوْ أَرَدْنٰا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْنٰاهُ مِنْ لَدُنّٰا إِنْ کُنّٰا فٰاعِلِینَ* بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَی الْبٰاطِلِ فَیَدْمَغُهُ فَإِذٰا هُوَ زٰاهِقٌ وَ لَکُمُ الْوَیْلُ مِمّٰا تَصِفُونَ » (2)؟! إذن ما هو هدف خلق النار؟و الجواب واضح نجده فی کثیر من آیات القرآن ألاّ و هو مجازاه العاصین للّه، کما إن الجنه خلقت لاکرام المطیعین.

یَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِیدٍ و هذه الآیه و آیات أخری فی القرآن تفند ما ذهب الیه البعض من انه لا یوجد عذاب عند اللّه و عللوا ذلک بأنه عزّ و جلّ رؤف خلق عباده لیرحمهم لا لیعذبهم، و من هذا المنطلق راحوا یؤولون الآیات التی جاءت بصدد التحذیر و الوعید بأنها لمجرد التخویف حتی یطیع الناس ربهم،و إلاّ فهی لا واقع لها.

ص:۴۸۴

۱- ۱) مفاتیح الجنان/دعاء کمیل/طبعه دار إحیاء التراث العربی المخطوطه/ص ۶۶.

۲- ۲) الأنبیاء/۱۶-۱۸

[سوره ق (۵۰): الآیات ۳۱ الی ۴۵]

اشاره

وَ أُزْلِفَتِ اَلْجَنَّهُ لِلْمُتَّقِینَ غَیْرَ بَعِیدٍ (۳۱) هٰذٰا مٰا تُوعَدُونَ لِکُلِّ أَوّٰابٍ حَفِیظٍ (۳۲) مَنْ خَشِیَ اَلرَّحْمٰنَ بِالْغَیْبِ وَ جٰاءَ بِقَلْبٍ مُنِیبٍ (۳۳) اُدْخُلُوهٰا بِسَلاٰمٍ ذٰلِکَ یَوْمُ اَلْخُلُودِ (۳۴) لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ فِیهٰا وَ لَدَیْنٰا مَزِیدٌ (۳۵) وَ کَمْ أَهْلَکْنٰا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِی اَلْبِلاٰدِ هَلْ مِنْ مَحِیصٍ (۳۶) إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَذِکْریٰ لِمَنْ کٰانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَی اَلسَّمْعَ وَ هُوَ شَهِیدٌ (۳۷) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ وَ مٰا مَسَّنٰا مِنْ لُغُوبٍ (۳۸) فَاصْبِرْ عَلیٰ مٰا یَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ قَبْلَ طُلُوعِ اَلشَّمْسِ وَ قَبْلَ اَلْغُرُوبِ (۳۹) وَ مِنَ اَللَّیْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبٰارَ اَلسُّجُودِ (۴۰) وَ اِسْتَمِعْ یَوْمَ یُنٰادِ اَلْمُنٰادِ مِنْ مَکٰانٍ قَرِیبٍ (۴۱) یَوْمَ یَسْمَعُونَ اَلصَّیْحَهَ بِالْحَقِّ ذٰلِکَ یَوْمُ اَلْخُرُوجِ (۴۲) إِنّٰا نَحْنُ نُحْیِی وَ نُمِیتُ وَ إِلَیْنَا اَلْمَصِیرُ (۴۳) یَوْمَ تَشَقَّقُ اَلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرٰاعاً ذٰلِکَ حَشْرٌ عَلَیْنٰا یَسِیرٌ (۴۴) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا یَقُولُونَ وَ مٰا أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِجَبّٰارٍ فَذَکِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ یَخٰافُ وَعِیدِ (۴۵)

اللغه

(۳۲) أَوّٰابٍ :من آب بمعنی رجع،أی کثیر الرجوع إلی اللّه بالتوبه و التذکّر.

(۳۶) فَنَقَّبُوا :کأنّ دخولهم فی البلاد تنقیب،لأنهم کانوا یفحصون عن مواضع الثروه و النزهه،کالمنقب الذی یخرق و یثقب الأرض طلبا للمال و الکنز.

(۳۸) لُغُوبٍ :تعب و إعياء.

(۴۴) سِر□اعاً :أى مسرعين لما يصيبهم من الهول و الوحشه.

ص:۴۸۶

فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخٰافُ وَعِيدِ

هدى من الآيات:

لاـ تزال الآيـات القرآنيه تعالـج العجب الـذى اعترى الكفـار من حـديث البعث، و هى فى هـذا الـدرس تصوّر لنـا بعض مشـاهد القيامه،لنكشف لنا جانبا من أسـرار النشأه الأخرى التى لا وسـيله للتعرف عليها إلاّ من خلال القرآن لكن الهدف الأهم من ذلك لهـذا اللون من الحـديث هو التربيه،ذلك أنه لو ترك الإنسان الحجب الشـهوانيه،و الاجتماعيه،و التربويه،و الوراثيه،لرأى الحقيقه بوضوح تام،لأن هذه الحجب و الأغلال هى التى تمنع عقله من الانطلاق فى آفاق الايمان و المعرفه.

و لكن كيف يقتحم البشـر هـذه العقبـات،و ينفـذ بعقله إلى مـا ورائها عن الحقائق؟ إن ذلك لا يمكن إلاّ بهزه عنيفه تتعرض لها نفسه،فتسقط عنها أستارها و من شأن الآيات القرآنيه بحديثها عن مشاهد القيامه السلبيه و الايجابيه،و بالاسلوب البلاغى و النفسى الرائع أن تحدث هذه الهزّه.

ص:۴۸۷

إن مجرد سماع الإنسان حديث القيامه يكفى أن يبعثه نحو التفكير،و إذا فكر تفكيرا سليما اهتدى إلى الحقيقه،و نضرب على هذه الفكره مثلا فنقول:لو كان شخص يسير باتجاه حفره فى طريقه،فانّ مخاطبته بكلمه انتبه وحدها،حرى بأن يرفع عنه الغفله و يوقظ عقله و حواسه،فيكتشفها دون أن يحتاج الأمر إلى بيان مفصل.و هكذا لو كنت فى سياره تسير بسرعه و قد غفل سائقها فى حين اعترضته سياره أخرى،فانّ رفع الغفله عنه قد لا يحتاج إلّا إلى كلمه واحده ليضغط على الفرامل.و هكذا القرآن يهز ضمير الإنسان لينتبه من غفلته،و يستثير عقله فى مسيره الحياه ليفكر فيهتدى للحق،لأن مشكلته الأساسيه أنه لا ينتفع بعقله.

ثم إن القرآن جاء ليحقق هدفين هما:تزكيه نفس الإنسان بهدايته إلى الحق و دفعه للالتزام به فى كل جوانب الحياه، كما جاء ليزيده علما بالحقائق من حوله و فى نفسه «هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الْأُمِّیِّینَ رَسُولاً مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِهِ وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَهَ وَ إِنْ کانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلالٍ مُبِینٍ » (۱)لذلک فالآیات کلها تنتهی إلی أحد هذین الهدفین أو إلیهما جمیعا فی موضع واحد،و من هنا ینبغی لنا أن نقرأها مرّه للتعلم و مرّه للاتعاظ.

بينات من الآيات:

[۳۱]إن اللّه لم يخلق و لا شبرا واحدا من النار عبثا،إنما ليتعذب فيه واحد من المجرمين،و لم يخلق الجنه إلّا ليكرم بها فريقا من عباده هم المتقون،و ليس يفصل بين الجنه أو النار و بين أى واحد منا إلّا عمله،فان شاء نقلته سكره الموت إلى غضب اللّه و عذابه،و إن صلح نقلته إلى رضوان اللّه و ثوابه.و الإنسان حرّ فى عمله فاما يختار الضلال(الكفر و الفساد و منع الخير و الاعتداء على الآخرين و الارتياب فى

۱- ۱) الجمعه ۲/

الحق)فيكون مصيره النار،و اما يختار التقوى(الأوبه إلى اللّه،و حفظ حدوده و أحكامه،و خشيته بالغيب،و تصفيه القلب من الأدران بالانابه و التوبه)فيكون مصيره الجنه.

وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّهُ لِلْمُتَّقِينَ و نتساءل كيف تزلف الجنه للمتقين؟و الجواب إن لهذه الآيه تفسيرين:

الأول:إن الجنّه بما فيها من نعيم و رضوان من اللّه منزله رفيعه،و مهما سعى الإنسان و بالغ فى عمل الصالحات فانّه لا يرتقى إليها بعمله وحده،و إنما يقرّ به منها أو يقر بها منه فضل اللّه و رحمته،

قال النبى صلى الله عليه و آله : «و الذى نفسى بيده ما من الناس أحد يدخل الجنّه بعمله،قالوا:و لا أنت يا رسول اللّه؟!قال:و لا أنا إلاّ أن يتغمدنى اللّه برحمه منه و فضل»(و وضع يده على فوق رأسه و طوّل بها صوته) (1).

و حين يدخل المؤمنون الجنّه تتبين لهم هذه الحقيقه كما أدركوها ببصيره الوحى فى الدنيا،فهم يعتبرون نجاتهم من العذاب بفضل اللّه و منّه لا بعملهم «قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ* فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَ وَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ* إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ » (2).

الثانى:إن الجنّه قمه سامقه لا يصلها الإنسان حتى يتصف بما يجعله لائقا لها، فهى بعيده كل البعد على الكافرين و العاصين،و لكنها أقرب ما تكون إلى المؤمنين و المطيعين،و أن الذى يقربها أو يبعدها إنما هو مقدار عمل الإنسان و مجمل صفاته

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۷ ص ۱۱

۲- ۲) الطور۲۶/-۲۸

الايمانيه التى نقرأها فى الآيات التاليه.

و هذا التفسير لا يتعارض مع التفسير السابق بل يلتقى معه و ينتهى اليه،فرحمه اللّه التى هى العامل الأساسى و المباشر فى الدخول إلى الجنه،و لكنها لا تشمل أحدا بلا سبب،بل لا بد أن يكون هو فى مستوى استيعاب الرحمه.

و لان من عقد البشر النفسيه استعجال النتائج فتراه يكفر بالآخره و لا يسعى للجنّه سعيها لأنها فى نظره جزاء بعيد،فقد أكّد القرآن على الجنّه:

غَيْرَ بَعِيدٍ [٣٢]و لكن ما هى الأعمال و الصفات التى تقرّبنا إلى الجنّه؟ إن جميع الاعتبارات الشيئيه تسقط يوم القيامه،و تبقى القيم و الأعمال الصالحه هى الميزان.فلا يقرب أحد من ربه لسانه العربى،و لا لونه الأبيض و لا نسبه الشريف،و إنما تنفعه الحقائق التاليه:

آ-الإياب إلى اللّه و الإياب يعنى لغه الرجعه،قال تعالى: «إِنَّ جَهَنَّمَ كٰانَتْ مِرْصٰاداً* لِلطّٰاغِينَ مَآباً » (١)و قال حاكيا عن سليمان عليه السلام : «وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوّٰابٌ » (٢)و تسمى التوبه أوبه لأنها عوده إلى الفطره السليمه بعد الانحراف عنها قال تعالى: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمٰا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صٰالِحِينَ فَإِنَّهُ كٰانَ لِلْأَوّٰابِينَ غَفُوراً » (٣).

إن الناس كلهم خطاؤون ينحرفون عن الحق إلى الباطل فى حياتهم عنادا،أو

١- ١) النبأ ٢١/-٢٢

٢- ٢) ص ١٩/

٣- ٣) الإسراء ٢٥/

بسبب الضغوط أو حتى من دون شعور و لكن المؤمن يتميز عن الآخرين بأنّه أولا لا يمارس الانحراف عن جحود و عناد،و ثانيا بأنه لا يستمر على الخطأ بل يسعى لتصحيحه و علاجه فى أقرب فرصه ممكنه،فاذا به يستغفر بعد الذنب،و ينتبه بعد الغفله،و يستقيم بعد الانحراف،و يتذكر بعد الجهل،فكلما أبعدته ذنوبه عن اللّه تقرّب اليه بالتوبه،و كلما استغفلته طبيعته المركوزه فى الجهل تعينها ضغوط الحياه تذكر بآيات اللّه و استعان بإراده الايمان على الإقلاع من الانحراف،فهو يبالغ فى التوبه إلى ربّه و يكررّها حتى بالنسبه إلى الذنب الواحد،الذى يتوب عنه ثم يعود إليه ثانيه و ثالثه،دون أن يدع اليأس يسيطر عليه،لإيمانه برحمه اللّه الواسعه و غفرانه و لماذا يقنط،اليأس من صفات الكافرين؟و لماذا ييأس و هو يسمع نداء ربّه فى كتابه: «يٰا عِبٰادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ لاٰ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَهِ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (۱)أو قوله عزّ و جلّ: «وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَهِ رَبِّهِ إِلاَّ الضّٰالُّونَ » (۲)فالمؤمن يرى مجرد غفلته عن ربه ابتعادا عنه فيئوب اليه مآبا،فهو دائم الأوب و دائم التسامى و دائم العروج إلى اللّه بتأنيب الذات.

ب-المحافظه على حدود اللّه،(مناهجه و شرائعه)فى الحياه الفرديه و الاجتماعيه بجميع أبعادها،فاذا بك ترى الحق يتجلى فى كل حركاته و سكناته.

فهو كما

وصفه الامام على عليه السلام إذ قال:«قد نصب نفسه للّه سبحانه فى أرفع الأمور من إصدار كل وارد عليه،و تصيير كل فرع إلى أصله...قد أخلص للّه فاستخلصه،فهو من معادن دينه،و أوتاد أرضه،قد ألزم نفسه العدل،فكان أول عدله نفى الهوى عن نفسه،يصف الحق و يعمل به،لا يدع للخير غايه إلاّ أمها، و لا مظنّه إلاّ قصدها،قد أمكن الكتاب من زمامه،فهو قائده و إمامه،يحل

۱- ۱) الزمر/۵۳

۲- ۲) الحجر/۵۶

حیث حلّ ثقله،و ینزل حیث کان منزله» (۱)فلا یضیع لدیه حکم سنّه اللّه،و لا حق لأحد،فعهد اللّه له بالاستقامه علی الحق محفوظ،یصدق مع الناس و لا یغش، و یرعی الامانه و..... «وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ » (۲).

إن المتقین یعتبرون أنفسهم شهداء فی تطبیق النظام الاسلامی،و حدود الشریعه المقدسه.لذلک فهم لا یعطون لأنفسهم الحق فی تغییر الحدود الدینیه بتبریر أنهم ثوار و مجاهدون،بل إنک تراهم یلتزمون قبل غیرهم بتفاصیل المناهج التی بیّنها لهم ربهم سبحانه،و لذلک فان اللّه یعدهم برحمه منه واسعه،و یبدو ان القرآن یشیر إلی هذین الأساسین للتقوی بقوله سبحانه:

هٰذٰا مٰا تُوعَدُونَ لِکُلِّ أَوّٰابٍ حَفِیظٍ [۳۳]و تسأل متی یئوب الإنسان الی اللّه و یحفظ حدوده؟و الجواب حینما یخشاه بالحق،و ذلک ان الإنسان قد یظهر أمارات الخوف لأهداف و مصالح دنیویه یرومها،إلاّ أنها لا واقع لها،و الخائف الصادق من اللّه هو الذی یخشاه حینما یکون بعیدا عن الأنظار،فاذا به وقد تهیأت له أسباب المعصیه یقاوم شهوته و یترکها إیمانا منه برقابه اللّه التی هی فی نظره أهم من أیه رقابه أخری.

مَنْ خَشِیَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَیْبِ و الإسلام یسعی قبل کل شیء لزرع الوازع الدینی-الخوف من اللّه-فی نفوس أتباعه کضمانه للالتزام بأنظمته و أحکامه،ذلک ان أثر هذا الدافع أبلغ من سائر الروادع.

ص:۴۹۲

۱- ۱) نهج/خ ۸۷ ص ۱۱۸

۲- ۲) التوبه/۱۱۲

وَ جٰاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ و تشير كلمه جاء الى شرط الجنّه الاستقامه على الحق حتى لقاء اللّه(المجىء له بقلب طاهر سليم).

[۳۴]و إذا أحرز الإنسان هذه الصفات صار فى زمره المتقين الذين يدخلون الجنه بسلام.

اُدْخُلُوهٰا بِسَلاٰمٍ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ الإنسان فى الدنيا لا يصل إلى ما يريد إلّا بالجهد و التضحيه،ثم إن أجله محدود فيها مما يجعل لذته بنعمها قصيره على خلاف الجنه، فان ما يحصل منها لا تعب فيه و لا لغوب و لا صراع و لا منافسه و لا يورث مرضا أو غصه،بينما الدنيا بعكس ذلك تماما(لا سلام فيها)بل هى قائمه على أساس الفساد فلا ينال المرء فيها نعمه إلّا يترك أخرى،و لا يتمتع بلذه إلّا و تسبب له منغصه،و لا يستقبل يوما من عمره إلّا بوداع يوم من أجله حتى قال الشاعر:

زياده المرء فى دنياه نقصان و ربحه غير محض الخير خسران

[۳۵]و من الفوارق بين الدنيا و الجنه،ان الإنسان مهما بلغ من التمكن و القدره فى الدنيا لا يصل إلى كل أهدافه و أمانيه،بل يقصر عن تحقيق الكثير منها، على عكس ما فى الجنه التى يتحقق له فيها ما يريد بمجرد أن ينوى ذلك،بل و يزيده اللّه من فضله ساعه بعد ساعه.

لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا وَ لَدَيْنٰا مَزِيدٌ

ص:۴۹۳

قال الامام الصادق علیه السلام : إن للّه کرامه فی عباده المؤمنین فی کل یوم جمعه، فاذا کان یوم الجمعه بعث اللّه إلی المؤمن ملکا معه حلتان فینتهی إلی باب الجنه فیقول:استأذنوا إلیّ علی فلان،فیقال له:هذا رسول ربّک علی الباب فیقول لأزواجه:أی شیء ترین علیّ أحسن؟ (۱)فیقلن:یا سیدنا و الذی أباحک الجنه ما رأینا علیک أحسن من هذا، قد بعث إلیک ربک فیتزر بواحد و یتعطف بالأخری،فلا یمر بشیء إلاّ أضاء له حتی ینتهی إلی الموعد،فاذا اجتمعوا تجلی لهم الرب تبارک و تعالی،فاذا نظروا إلیه أی إلی رحمته خروا سجدا،فیقول:عبادی! ارفعوا رؤوسکم لیس هذا یوم سجود و لا عباده،قد رفعت عنکم المؤونه، فیقولون:یا رب و أی شیء أفضل مما أعطیتنا؟أعطیتنا الجنّه،فیقول:لکم مثل ما فی أیدیکم سبعین ضعفا،فیرجع المؤمن فی کل جمعه بسبعین ضعفا مثل ما فی یدیه،و هو قوله:«و لدینا مزید» (۲).

[۳۶]ثم إن القرآن و ضمن علاجه للکفر بقدره اللّه علی البعث-یدعو الکفار إلی التفکر فی آثار قدرته و هیمنته علی الحیاه من خلال قراءه التاریخ البشری الملیء بالشواهد علی ذلک،لیعلموا أن الحیاه لیست عبثا،بل تسیر وفق حکمه مقدره، فالأقوام السابقه إنما أهلکوا لتکذیبهم بالحق.

وَ کَمْ أَهْلَکْنٰا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً و هذه سنّه جاریه فی الحیاه لا یعطلها شیء،و لا یمنعها البشر مهما أتوا من قدره،و لفظه أهلکنا مضافه إلی کلمه«کم»التی تفید الاستفهام عن العدد، تنطویان علی تأکید بأنّ ما حدث فی التاریخ لیس مفرده جرت من باب الصدفه، و إنما هی ظاهره مستمره تدل علی سنّه حاکمه تلتقی فیها تلک الشواهد،و یتضح

۱- ۱) یستشیرهن فی أفضل ثیابه لیتزین بها عند لقاء رسول ربه.

۲- ۲) نور الثقلین/ج ۵ ص ۱۱۵

فیها الفعل الالهی المقصود.ثم إن بعض الأقوام و صلوا من القوه أكثر مما صار الیه المجتمع العربی یوم نزول القرآن،و لكن اللّه أهلكهم فهل یتصورون علی أنهم قادرون علی دفع الهلاك إذا حلّ بساحتهم.و امتزاج الضمائر و الإشارات فی هذه الآیه بین أولئك و هؤلاء یحمل طیاته إنذارا للمشركین باهلاكهم بطریقه أو بأخری إذا ما حذوا حذو السابقین،و لن یجدوا حینئذ مخرجا و لا سبیلا إلی النجاه.

فَنَقَّبُوا فِی الْبِلاٰدِ هَلْ مِنْ مَحِیصٍ و المحیص من حاص یحیص،و هو المكان الذی تحفره البطه لتضع فیه بیضها، و قد سعت تلك الأقوام لیجدوا لأنفسهم مخرجا و لو بمقدار المحیص فلم یقدروا،و وقع بهم العذاب.

[۳۷]و ما فی التاریخ من دروس و عبر آیات تستثیر عقل الإنسان و تهدیه إلی الحق،و لكن بشرط أن یتجاوز الأغلال و الأثقال التی تمنع النفس من التحلیق فی سماء الهدایه و المعرفه،و تعیق العقل من العبور عبر الشواهد و الآیات إلی الحقائق.

إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَذِكْریٰ تستنقذ البشر من الغفله و الضلال،و تعود به إلی الحق الذی فطر علیه أن آیات اللّه سواء التی تتضمنها رسالته،أو تلك التی تتجلی فی نفس الإنسان و فی الآفاق، أو التی تجلت و لا زالت تتجلی فی تاریخ البشریه،إنها كلها تشع بأمواج الهدایه و التذكره،و لكن من الذی تنفعه هذه الآیات فتكون له ذكری فی الحیاه؟انما صاحب القلب.

لِمَنْ كٰانَ لَهُ قَلْبٌ

ص:۴۹۵

یعنی العقل(الذی هو جوهر النفس)و إنما سمیت النفس قلبا تقلبها من حال إلی حال أو بسبب تقلیب المعلومات سعیا وراء المعارف الجدیده.

و صاحب القلب هو الذی یقلب الأمور بتفکیره علی وجوهها المتعدده لیتبع أحسنها بعد نظره عمیقه شامله.یقول تعالی: «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللّهُ وَ أُولٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » (۱)و لعل المقصود لأولی القلوب هم العلماء الذین یفقهون معانی الآیات باستشاره عقولهم مما نجد له إشاره فی قوله تعالی: «وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلاّ أُولُوا الْأَلْبَابِ » (۲)

قال الامام الکاظم علیه السلام :

یا هشام إن اللّه یقول فی کتابه:« إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ یعنی عقل» (۳)و لا ریب ان أهل بیت العصمه و أئمه الهدی علیهم السلام أئمه العقلاء و الراسخین فی العلم فهم أجلی مصادیق هذه الآیه الکریمه و لا غرابه أن

یقول أمیر المؤمنین علیه السلام : ألاّ و انی مخصوص فی القرآن بأسماء احذروا أن تغلبوا علیها فتضلوا فی دینکم،أنا ذو القلب،یقول اللّه عزّ و جلّ: «إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ » (۴).

و إذا لم یکن الإنسان عالما یستطیع التذکر و الاهتداء الی الحق بنفسه،فانّه یجد سبیلا إلی ذلک بالاستماع إلی آیات اللّه و اتباع أئمه الحق و الهدی و العلماء الصالحین.

أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ

۱- ۱) الزمر/۱۸

۲- ۲) آل عمران/۷

۳- ۳) نور الثقلین/ج ۵ ص ۱۱۶

۴- ۴) المصدر

إن المشكله الحقيقيه للإنسان الذی لا یهتدی لیست عدم وجود القلب أو السمع،و إنما هی توظیفه لهما،کما جوارحه و إمکاناته الأخری فی الأمور السافله أو التافهه.یقول تعالی: «وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ کَثِیراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا یَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْیُنٌ لا یُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا یَسْمَعُونَ بِها أُولئِکَ کَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِکَ هُمُ الْغافِلُونَ » (۱).

و لوجود هذه المشکله یشرط القرآن علی الإنسان شرطین حتی ینتفع بسمعه من کلام الآخرین و تجاربهم من آیات الذکر،فأولا أن یوظف سمعه«یلقی السمع» ثانیا أن لا یکون السمع بذاته هدفا فیقف الواحد عند الحروف أو عند حدود العلم، بل یعتبر السمع وسیله إلی هدف هو العمل بالحق،و الحروف و العلم طریقا إلی الموعظه.و بکلمه لا بد أن یکون مسئولا(شاهدا)علی ما یصله من العلم،قال تعالی: «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ* وَ لا تَکُونُوا کَالَّذِینَ قالُوا سَمِعْنا وَ هُمْ لا یَسْمَعُونَ* إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُکْمُ الَّذِینَ لا یَعْقِلُونَ » (۲).

و قال مبینا هدف السمع و بعض الجوارح «وَ اللّهُ أَخْرَجَکُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِکُمْ لا تَعْلَمُونَ شَیْئاً وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَهَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ » (۳).

و یضرب القرآن مثلا للمستمع الشهید من واقع المؤمنین الذین یذکرون اللّه علی کل حال و فی کل حین فیقول حاکیا عنهم: «رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِیاً یُنادِی لِلْإِیمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّکُمْ فَآمَنّا » (۴)إن السمع الذی لا یملک صاحبه الاستعداد لتحمل

۱- ۱) الأعراف/۱۷۹

۲- ۲) الأنفال/۲۰-۲۲

۳- ۳) النمل/۷۸

۴- ۴) آل عمران/۱۹۳

مسئولیته لا ینفع شیئا،و ما ذا یستفید من سماع الحق ذلک الإنسان الذی یتهرب من مسئولیته بالتکبر أو التبریر أو الاستهزاء: «وَیْلٌ لِکُلِّ أَفّاکٍ أَثِیمٍ* یَسْمَعُ آیاتِ اللّهِ تُتْلی عَلَیْهِ ثُمَّ یُصِرُّ مُسْتَکْبِراً کَأَنْ لَمْ یَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِیمٍ* وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آیاتِنا شَیْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولٰئِکَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِینٌ » (1)و تجارب التاریخ البشری تحمّلنا مسئولیه الایمان باللّه فاذا لم یتجاوز سماع هذه التجارب الی الایمان فما قیمه سماعنا لها؟ [38]و کما تتجلی آیات قدره اللّه فی التاریخ البشری بصوره إهلاک الأقوام المکذبه،فانها تتجلی فی الطبیعه بصوره أخری تتجسد فی الخلق و الإبداع و التفکر فی تلک الآیات هذه تفکیرا عمیقا(بالقلب السلیم و السمع الشهید)کفیل بأن یجعل فکره البعث فکره واقعیه،و یدفع الإنسان للتصدیق بالرجوع بعد الموت فلا تصبح الفکره عندها أمرا شاذا(عجیبا)،و لا البعث مستحیلا(بعیدا)کما یعتقد الکافرون.

دعنا ننظر نظره عمیقه إلی الطبیعه من حولنا،و لنرکز الفکر فی خلق الأرض التی تقلّنا،و السماء الواسعه التی تظلنا،و لنتساءل أیها أعظم،هل خلقهما أم خلق الإنسان هذا الذی لا یکاد یبین بالقیاس إلیها؟لا ریب أنهما أعظم خلقا و أعقد «لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَکْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّاسِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ » (2)و مع ذلک فان خلقهما و ما بینهما تم فی سته أیام و لم یکن مضنیا.

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما فِی سِتَّهِ أَیّامٍ و لعلنا نتساءل لماذا لم یتم اللّه ذلک الخلق فی مده أقل؟و ربما یذهب بعضنا إلی

1- 1) الجاثیه7/-9

2- 2) المؤمن57/

القول بأنه كان يتعب فيستريح كلا.

وَ مٰا مَسَّنٰا مِنْ لُغُوبٍ إن اللّه قادر على خلق كل شيء فى مده يتلاشى فيها الحساب الزمنى،و إنما جعل الخلق فى سته أيام لحكمه يعلمها،أنه أراد بيان حقيقه مهمه لنا،و هى ان كل شيء فى الحياه لم يخلق كاملا منذ أول لحظه،و إنما هو يسير نحو التكامل،و حتى أنت أيها الإنسان فى مسيره البناء الذاتى أو الحضارى ينبغى لك التحرك نحو الأسمى.

و ما دام اللّه خلق السماوات و الأرض و ما بينهما فى هذه المده و من دون أن يمسه شيء من التعب أو التكلف،فهل يصعب عليه بعثنا يوم القيامه؟و ما نحن بالنسبه لذلك الخلق حتى يصعب على مبتدعه خلقنا مرّه أخرى؟! «أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمٰاءُ بَنٰاهٰا* رَفَعَ سَمْكَهٰا فَسَوّٰاهٰا* وَ أَغْطَشَ لَيْلَهٰا وَ أَخْرَجَ ضُحٰاهٰا* وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحٰاهٰا* أَخْرَجَ مِنْهٰا مٰاءَهٰا وَ مَرْعٰاهٰا* وَ الْجِبٰالَ أَرْسٰاهٰا* مَتٰاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعٰامِكُمْ -ثم مباشره يحدثنا عن يوم القيامه فيقول:- فَإِذٰا جٰاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرىٰ » (1)و الصله المختصه بين الحديث عن آيات الطبيعه و عظمتها،و الحديث عن يوم القيامه لاثبات فكره البعث من خلال تلك الآيات و العظمه صله صميمه تتجلى فى كل آيات القرآن.

[۳۹-۴۰]و يكاد قلب المؤمن يتفطر من تكذيب الكفار بحقيقه البعث و الجزاء التى يتلمسهما المؤمن وراء كل ظاهره و فى كل أفق و فى كل لحظه من حياته، الأمر الذى قد يستدعى منحه زخه من الصبر.

۱- ۱) النازعات/۲۷-۳۴

فَاصْبِرْ عَلیٰ مٰا یَقُولُونَ و نجد فی موضع من القرآن توجیها مشابها من قبل اللّه للرسول صلی الله علیه و آله و للمؤمنین، یقول تعالی: «وَ اصْبِرْ عَلیٰ مٰا یَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِیلاً » (۱).

و لا بد للإنسان حتی یقاوم مختلف الضغوط المضاده للحق من الاتصال باللّه بالصلاه و العباده،لیتعرف علی ربه أکثر فینزهه عن الأباطیل،و لیستمد منه العون و التوکل لذلک یقول تعالی هنا:

وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ و هکذا یقول فی سوره الإسراء وصلا بالشاهد المتقدم: «أَقِمِ الصَّلاٰهَ لِدُلُوکِ الشَّمْسِ إِلیٰ غَسَقِ اللَّیْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ کٰانَ مَشْهُوداً* وَ مِنَ اللَّیْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نٰافِلَهً لَکَ عَسیٰ أَنْ یَبْعَثَکَ رَبُّکَ مَقٰاماً مَحْمُوداً* وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِی مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِی مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِی مِنْ لَدُنْکَ سُلْطٰاناً نَصِیراً » (۲).

إن هذا التأکید علی الاتصال باللّه بالصلاه و بالقرآن و بالدعاء فی حال تعرض الإنسان المؤمن للضغوط المضاده هو تعبیر بصوره أخری عما تنطوی علیه هذه الآیه من سوره«ق».

و لأن القرآن یفسر بعضه بعضا فاننا نجد تفسیرا للعلاقه بین الصبر و الصلاه و دورهما فی مقاومه الضغوط فی قوله تعالی: «وَ اسْتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاٰهِ وَ إِنَّهٰا لَکَبِیرَهٌ إِلاّٰ عَلَی الْخٰاشِعِینَ » (۳).

ص:۵۰۰

۱- ۱) المزمل/۱۰

۲- ۲) الإسراء/۷۸-۸۰

۳- ۳) البقره/۴۵

و فی هذه السوره یدعو اللّه نبیه و من خلال ذلک المؤمنین عبر الزمن و الأجیال إلی الاتصال به بالصلاه و فی مرات عدیده کل یوم.

قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ یعنی بین الطلوعین،طلوع الفجر و طلوع الشمس،و تسبیح اللّه یکون بالذکر و بالصلاه و بالقرآن،و هنا تأکیدات عدیده فی النصوص الاسلامیه علی ضروره استثمار هذه الفتره بالاتصال باللّه،قال تعالی: «أَقِمِ الصَّلاٰهَ لِدُلُوکِ الشَّمْسِ إِلیٰ غَسَقِ اللَّیْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ کٰانَ مَشْهُوداً »و

قال النبی الأعظم صلی الله علیه و آله :

«ما عجّت الأرض إلی ربّها کعجها من ثلاثه(إلی أن قال)و النوم علیها(یعنی الصلاه)قبل طلوع الشمس» (۱)و

قال أمیر المؤمنین علیه السلام : «و اطلبوا الرزق فیما بین طلوع الفجر إلی طلوع الشمس،فانه أسرع فی طلب الرزق من الضرب فی الأرض،و هی الساعه التی یقسم اللّه فیها الرزق بین عباده» (۲)و

سئل الصادق علیه السلام عن الآیه فقال:«تقول حین تصبح و حین تمسی عشر مرات،لا إله إلاّ اللّه وحده لا شریک له،له الملک و له الحمد،و هو علی کل شیء قدیر» (۳).

و هکذا ینبغی أن یفتتح الإنسان المؤمن یومه الجدید بالذکر و الصلاه و القرآن، یستمد من کل ذلک زخما روحیا یزیده نشاطا فی عمله،و إراده یتحدی بها شبهات الکفار و أضالیلهم،و کل الضغوط التی یواجهها فی حیاته الیومیه،و لأن الإنسان قد یتعرض لتحدی الضغوط،و ربما ضعف أمامها أکثر من مره فی الیوم الواحد،لذلک تأتی الدعوه الیه فی طرفی النهار و طرفی اللیل.

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۱۱۸

۲- ۲) المصدر

۳- ۳) المصدر

وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ الظهر و العصر.

وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ يعنى أوله حيث صلاه المغرب و العشاء.

وَ أَدْبٰارَ السُّجُودِ يعنى النافله التى تعقب صلاه المغرب(الأربع أو الغفيله)

قال الامام الرضا عليه السلام : «أربع ركعات بعد المغرب» (۱)و

قال الامام الصادق عليه السلام :

«ركعتين اللتين بعد المغرب هما أدبار السجود» (۲).

[۴۱-۴۲]و بالاضافه إلى الصبر و التسبيح ينبغى للمؤمن لكى يقاوم تحديات الأعداء أن يفكر فى الآخره و فى المصير الذى ينتهون اليه فى الدنيا حينما يظهر المؤمنون بدوله الحق.

وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنٰادِ الْمُنٰادِ مِنْ مَكٰانٍ قَرِيبٍ* يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَهَ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ قال على ابن إبراهيم(رض):«ينادى المنادى باسم القائم و اسم أبيه»و عن الصيحه قال:«صيحه القائم من السماء» (۳)ان العاقبه السوء التى تنتظر أعداء الرساله تكون فى الآخره متجسده فى ألوان العذاب الالهى،و لكنها تتجلى دنيويا فى

ص:۵۰۲

۱- ۱) المصدر

۲- ۲) المصدر

۳- ۳) المصدر

دوله الحق التی یظهر بها قائم أهل البیت علیهم السلام.

و کما ان دوله القائم(عج)هی تجل أصغر لعذاب الآخره علی الظلمه،فان دول الحق الاخری التی تظهر علی أیدی المؤمنین هی تجل محدود لهذه الدوله،و الی هذه الفکره نجد إشاره فی قوله تعالی: «فَذَرْهُمْ حَتّٰی یُلاٰقُوا یَوْمَهُمُ الَّذِی فِیهِ یُصْعَقُونَ* یَوْمَ لاٰ یُغْنِی عَنْهُمْ کَیْدُهُمْ شَیْئاً وَ لاٰ هُمْ یُنْصَرُونَ* وَ إِنَّ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا عَذٰاباً دُونَ ذٰلِکَ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ » (۱)و لعل کلمه الخروج فی الآیه التی نحن بصدد تفسیرها تعنی-بالاضافه إلی الخروج إلی البعث-خروج دوله الحق.

[۴۳]ثم یعود السیاق الی تأکید الحقیقه التی یکذب بها الکافرون فکانت سببا لانحرافات بعیده اخری فی حیاتهم،و هی البعث بعد الموت،و قد تقدمت الاشاره إلیها فی قوله تعالی،حاکیا عن الکفّار: «أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً ذٰلِکَ رَجْعٌ بَعِیدٌ » (۲).

إِنّٰا نَحْنُ نُحْیِی وَ نُمِیتُ وَ إِلَیْنَا الْمَصِیرُ بلی.قد تکون هناک أسبابا طبیعیه ظاهریه للحیاه و الموت،و لکن الواقع الذی یغیب عن أذهاننا إنهما و البعث بید اللّه،و هذه الحقائق الثلاث(الحیاه+الموت+ البعث)تثبت بعضها بعضا.و لو أن الکافرین تفکروا فی وجودهم و حیاتهم لاهتدوا إلی أن اللّه هو الذی أوجدهم و أنه الذی یمیتهم و أنهم یبعثون،و لیس کما زعموا:

«وَ قٰالُوا مٰا هِیَ إِلاّٰ حَیٰاتُنَا الدُّنْیٰا نَمُوتُ وَ نَحْیٰا وَ مٰا یُهْلِکُنٰا إِلاَّ الدَّهْرُ وَ مٰا لَهُمْ بِذٰلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ یَظُنُّونَ » (۳).

۱- ۱) الطور/۴۵-۴۷

۲- ۲) ق/۳

۳- ۳) الجاثیه/۲۴

[۴۴]إن مشكله الإنسان العميقه التى تجعله يكفر بالبعث أو يشك فى الآخره، هى شكه فى قدره اللّه،بسبب نظرته المحدوده إلى الحياه،فاذا به يستبعد كما فى هـذه السوره أن يرجع الإنسان سويا بعد تحوله إلى تراب أو رميم من العظام لذلك يؤكد اللّه يسر الأمر عليه فيقول:

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ كما تشـقق عن الفطر و النبات،و لكن العمليه تتم فى فتره زمنيه و وجيزه جدا، فاذا بالناس جميعا وقوف ينظرون،و هذه من أصعب الساعات على البشر،

قال الامام على عليه السلام : «أشد ساعات ابن آدم ثلاث(منها)الساعه التى يقوم فيها من القبر» (۱)و

قال: «لا تنشق الأرض عن أحد يوم القيامه إلاّ و ملكان آخذان بضبعه(عضده)يقولان:أجب رب العزه» (۲).

[۴۵]و يختم اللّه السوره بالتأكيد للنبىّ-و لكل داعيه إلى الحق-بأنه ليس مسئولا عن الناس و ليس عليه أن يجبر الناس على قبول الحق،و إنما مسئوليته تتلخص فى تبليغ رسالته إليهم،أما الحساب الفصل فهو عند اللّه،الذى هو أحرص على رسالته،و أعلم بمواقف الناس تجاهها.

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ و ما هى قيمه الايمان الذى لا يأتى عن قناعه راسخه بضرورته؟إنه لا ينفع صاحبه،و لا يخدم الرساله،و فى هذه الآيه بيان لجانب من الحريه فى دين اللّه.

ص:۵۰۴

۱- ۱) نور الثقلين/ج /۵ص ۱۱۹

۲- ۲) المصدر/ص ۱۲۰

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحیم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمیة للدراسات الکمبیوتریة فی أصفهان بإشراف آیة الله الحاج السید حسن فقیه الإمامی عام ۱۴۲۶ الهجری فی المجالات الدینیة والثقافیة والعلمیة معتمداً علی النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائیین والمثقفین فی الجامعات والحوزات العلمیة.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفیر المصادر فی العلوم الإسلامیة وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول علی مصادرها أحیاناً، تهدف مؤسسة القائمیة للدراسات الکمبیوتریة فی أصفهان إلی التوفیر الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلی الباحثین فی العلوم الإسلامیة وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الکترونیة من الکتب والمقالات العلمیة والدراسات المفیدة وهی منظمة فی برامج إلکترونیة وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثین والمثقفین والراغبین فیها.

وتحاول المؤسسة تقدیم الخدمة معتمدة علی النظرة العلمیة البحتة البعیدة من التعصبات الشخصیة والاجتماعیة والسیاسیة والقومیة وعلی أساس خطة تنوی تنظیم الأعمال والمنشورات الصادرة من جمیع مراکز الشیعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامیة وتعالیم القرآن وآل بیت النبیّ علیهم السلام

تحفیز الناس خصوصا الشباب علی دراسة أدقّ فی المسائل الدینیة

تنزیل البرامج المفیدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثین والمحققین فی الحوازت العلمیة والجامعات

توسیع عام لفکرة المطالعة

تهمید الأرضیة لتحریض المنشورات والکتّاب علی تقدیم آثارهم لتنظیمها فی ملفات الکترونیة

السیاسات:

مراعاة القوانین والعمل حسب المعاییر القانونیة

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراکز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتینیة وتکرار المحاولات السابقة

العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن یتحمل المؤلف مسؤولیهٔ العمل.

نشاطات المؤسسهٔ:

طبع الکتب والملزمات والدوریات

إقامهٔ المسابقات فی مطالعهٔ الکتب

إقامهٔ المعارض الالکترونیهٔ: المعارض الثلاثیهٔ الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمکنهٔ الدینیهٔ والسیاحیهٔ

إنتاج الأفلام الکرتونیهٔ والألعاب الکمبیوتریهٔ

افتتاح موقع القائمیهٔ الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافیهٔ وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلهٔ والاستفسارات الدینیهٔ والأخلاقیهٔ والاعتقادیهٔ والردّ علیها

تصمیم الأجهزهٔ الخاصهٔ بالمحاسبهٔ، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ویب کیوسک kiosk، الرسالهٔ القصیرهٔ ((sms

إقامهٔ الدورات التعلیمیهٔ الالکترونیهٔ لعموم الناس

إقامهٔ الدورات الالکترونیهٔ لتدریب المعلمین

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسهٔ وتطبیقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ویمکن تحمیلها علی ۸ أنظمهٔ؛

JAVA.۱

ANDROID.۲

EPUB.۳

CHM.۴

PDF.۵

HTML.۶

CHM.۷

GHB.۸

إعداد ۴ الأسواق الإلکترونیهٔ للکتاب علی موقع القائمیهٔ ویمکن تحمیلها علی الأنظمهٔ التالیهٔ

ANDROID.۱

IOS.۲

WINDOWS PHONE.۳

WINDOWS.۴

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربیهٔ والانجلیزیهٔ والفارسیهٔ

الکلمهٔ الأخیرهٔ

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فی تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.
عنوان المكتب المركزی

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فی طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.